المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

أرنولد توينبي

مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الأول

ترجمة: فؤاد محمد شبل

مراجعة: محمد شفيق غربال

تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة

1714

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1714
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الأول)
- أرنولد توينبى
- فؤاد محمد شبل
- محمد شفيق غربال
- عبادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. I)

By: Arnold J. Toynbee

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الأول)

تأليف : أرنولد توينبى

ترجمة : فؤاد محمد شبل

مراجعة : محمد شفيق غربال

تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيلة



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥
مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الأول) / تأليف: أرنولد توينبى، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٥٠٨ص، ٢٤سم
١- التاريخ
(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)
(ب) غربال، محمد شفيق، ١٨٩٤-١٩٦١ (مراجع)
(جـ) العنوان
٩٠٧,٢

رقم الإيداع ٤٨٩١ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 978-977-704-482-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقـديم هذه الطبعة

تعرفت إلى الأستاذ فؤاد محمد شبل وأنا – بعد – فى مقتبل عمرى وعنفوان شبابى، أخطو خطواتى الأولى فى مشوار حياتى، فلفت نظرى إليه قربه الشديد فى هيئته وفى ملامحه من الممثل الألمانى الكبير كورت يورجنس Kurt Jurgens، وكان قد أخذ بلبى بأدائه المتمكن فى فيلم "الملاك الأزرق" المقتبس من رائعة الكاتب الألمانى الأشهر توماس مان Thomas Mann.

إننى بعد أن اقتربت منه على نحو أوفر، وعلى مدى سنوات تالية، وجدته أشبه بموسوعة فى علوم إنسانية شتى وفنون. وكان – رحمه الله تعالى – ذا دراية واسعة بالموسيقى – شرقيها وغربيها – ولديه دراية واسعة كذلك بموسيقار الشعب "سيد درويش"، حياته وفنه، ومن طريف ما حكاه لى ذات يوم، أنه أدرك إبان كان شابا محبوبة هذا الموسيقار وتدعى "جليلة"، وكانت تسكن فى منزل أسرته بالإسكندرية.

المهم أن فؤاد شبل واحد فى كتيبة من الدبلوماسيين المصريين الذين كان تأثيرهم فى ثقافة وطنهم يضاهى تأثيرهم فى سياسة وطنهم، أذكر من بينهم يحيى حقى وحسين ذو الفقار صبرى وحسين شريف.

ألف فؤاد شبل وترجم، وفى مقدمة ما ألف "حكمة الصين"، وهو دراسة تحليلية لمعالم الفكر الصينى منذ أقدم العصور، وفى مقدمة ما ترجم هذا الكتاب الذى نقدم له اليوم وهو "مختصر دراسة للتاريخ".

هذا الكتاب الذى يقع فى ترجمته العربية فى أربعة مجلدات هو المختصر الذى قام عليه سومرفيل Somervell للأجزاء العشرة الأولى من كتاب "دراسة للتاريخ" A Study of History للمؤرخ والمفكر البريطانى الكبير أرنولد توينبى Arnold Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥).

حين يطالع القارئ العربى هذا المختصر، ربما يساوره هاجس بكونه مؤلفاً وليس مترجمًا، وتلك شيمة المترجمين الكبار، مثل مترجمنا هذا الكبير ومترجم آخر كبير هو على أدهم (ت. ١٩٨٠)، أثرى مكتبة العربية بمؤلفاته - وهى كثر - ومترجماته - وهى كثر كذلك - ومضى دون أن ينال حقه من تقدير هو أهل له.

وكان من حظ المترجم الفاضل ومن حظنا على السواء، أن يقوم على مراجعة الترجمة أستاذان جليلان؛ هما محمد شفيق غربال (ت ١٩٦١) وأحمد عزت عبد الكريم (ت١٩٨١) وهما - معا - يقفان فى طليعة المدرسة التاريخية المصرية، ويذكر أن أولهما - وهو محمد شفيق غربال - كان تلميذا مباشرا ونجيبا لأرنولد توينبى، وعلى يديه أعد أطروحته الشهيرة لدرجة الماجستير وعنوانها "بدايات المسألة المصرية وظهور محمد على" The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Muhammed Ali ، وهى أطروحة ظلت منذ طباعتها فى عام ١٩٢٩ حتى أيامنا أصلاً لا مندوحة من معاودته لدى الكتابة عن تلك المرحلة من تاريخ مصر. كما أن كتاب غربال الصغير فى حجمه الكبير فى قيمته عن "تكوين مصر" يعد امتدادا - على نحو أو آخر - لكتاب أستاذه "دراسة للتاريخ" وفيه يقرر أن مصر ليست "هبة النيل" إنما هى "هبة المصريين".

ولد أرنولد توينبى فى عام ١٨٨٩ فى عائلة عريقة مثقفة، وتلقى تعليمه فى مدارس الصفوة البريطانية وجامعاتها، واهتم على نحو خاص بالهلينيات أى

الدراسات اليونانية التى صارت تخصصه الأصلى، ويُذكر أنه كان يجيد اليونانية (واللاتينية) إجادته للإنجليزية، وقد كان لثقافته اليونانية هذه أثرها فى تعميق إنسانيته، وجعله أكثر انفتاحا على ثقافات أخرى غير ثقافته.

بعد تخرجه عمل توينبى فى عدة هيئات علمية، أهمها "المعهد الملكى للشئون الدولية" The Royal Institute of International Affairs (R.I.I.A) وولى عمادته سنوات طويلة (١٩٢٩-١٩٥٦) كما أفادت الخارجية البريطانية بخبراته فى سنوات الحربين العالميتين الأولى والثانية، فاكتسب خبرات أخرى كان لها صداها فى كتاباته المتنوعة وفى الصدارة منها "دراسة للتاريخ".

وأرنولد توينبى ليس غريبا على القارئ العربى، ففضلاً عن تفرده فى مجال الفكر التاريخى وفلسفته، فقد تفرد عن الكثرة الغالبة من أهل عصره ومجايليه فى كونه يقف فى طليعة المفكرين الغربيين القلائل الذين صاروا يصدفون عن فكرة "المركزية الأوربية" Eurocentrism، والفكرة الأخرى التى تقول بتفوق العرق الأبيض، فكان كما يتضح من كتاباته يقف على مسافة واحدة من الحضارات التى مرت بعالمنا كافة، وإن كان فى تطلعه إلى المستقبل، يتطلع إلى الحضارة الغربية – بعد أن تصير إنسانيةً – حضارةً للبشر كافة.

الأهم أن مفكرنا ووفقا لقناعاته الفكرية كان صديقاً لنا – نحن العرب – فكان يجل الإسلام وحضارته، واختص مصر بعنايته، فهى التى أهدت العالم الرهبنة واللاهوت المسيحى، وهى التى ابتكرت الزراعة والتقويم الشمسى والكتابة، كما عرف بمناهضته للصهيونية ومناصرته للقضية الفلسطينية، وكان له موقف نبيل تجاه العدوان الثلاثى علينا، مما أهمّ أستاذاً صهيونياً يدعى فرانتس بوركيناو Franz Borkenau إلى أن أتهمه بمعاداة السامية.

باعتبارى أنتمى إلى جيل عاصر الحقبة الأخيرة فى حياة توينبى، فإننى ما أزال أتذكر محاضراته الشهيرة التى ألقاها فى القاهرة عندما زارها فى العام ١٩٦٤، وقام على ترجمتها إلى العربية الراحل الكبير فؤاد زكريا، كما أننى ما أزال أتذكر سجاله الشهير فى العام التالى مع ياكوف هرتسوج وكان سفيرًا لإسرائيل فى كندا، وهو سجال يليق برجل عالم وشجاع، يقول ما يرى انه حق غير آبه بما قد يترتب عليه من تبعات.

على مدى نحو من ستين عامًا خرج علينا أرنولد توينبى بنحو من خمسين كتابًا... هاك بعضاً منها :

تركيا : ماضيها وحاضرها ١٩١٧ .

الفكر التاريخى عند الأغريق من هوميروس إلى هرقل ١٩٢٤.

رحلة إلى الصين ١٩٣١.

مستقبل الحضارة الغربية ١٩٤٩

الحرب والحضارة ١٩٥٠.

العالم والغرب ١٩٥٣

الديمقراطية فى عصر الذرّة ١٩٥٦

تاريخ الحضارة الهلينية ١٩٥٩.

أمريكا والثورة العالمية ١٩٦٢

بين النيجر والنيل ١٩٦٥

ميراث هانيبال؛ حروب هانيبال وأثرها فى الحياة الرومانية ١٩٦٥.

بعض مشكلات التاريخ اليونانى ١٩٦٩

قسطنطين بورفير وجنيتوس وعالمه ١٩٧٣

الإغريق وتراثهم ١٩٨١ (صدر بعد وفاته)

بدأ توينبى فى كتابة دراسته الشهيرة للتاريخ فى العام ١٩٢١، وطلع علينا بالأجزاء الثلاثة الأولى فى العام ١٩٣٤، ثم الأجزاء الثلاثة التالية فى العام ١٩٣٩، والأجزاء الأربعة الأخيرة فى العام ١٩٥٤. وتقع هذه الأجزاء جميعها فيما يربو على الستة آلاف صفحة، ثم أضاف صاحبها جزءًا يضم أطلس ومعجمًا جغرافيًا فى العام ١٩٥٩، وأضاف جزءًا آخر بعنوان "مراجعات" Reconsiderations وذلك فى العام ١٩٦١.

ولما كان من الصعب على غير المتخصصين – بله البعض من المتخصصين – فى موضوع الكتاب مطالعة هذا العمل الضخم، وفهم ما حفل به من مصطلحات وأفكار، فقد نهض الأستاذ سومرفيل باختصار الأجزاء الستة الأولى وذلك فى العام ١٩٤٦، كما نهض باختصار الأجزاء الأربعة الباقية فى العام ١٩٥٧، ثم نشر المختصر كاملاً مع مقدمة من توينبى فى العام ١٩٦٠. وأخيرًا وبعد إثنى عشر عامًا قام توينبى نفسه بالاشتراك مع تلميذته جين كابلان Jane Caplan باختصار العمل كله فى مجلد واحد صدر فى العام ١٩٧٢ أى قبل وفاته بثلاث سنوات.

جدير بالذكر أن سومرفيل فى مختصره الذى نقدم له اليوم، حرص على أن يلتزم بألفاظ المؤلف الأصلى، مع استبعاد بعض الأمثلة والاستطرادات، دون أن يخل بالأفكار الأساس، ومن هنا فقد اكتسب عمله – أى عمل سومرفيل – اسمه فهو "مختصر" Abridgement وليس خلاصةً أو مخلصًا Summary .

هذا وقد زاد المترجم الفاضل – فؤاد شبل – بأن عرّف بتوينبى ونوّه بإيجاز إلى أفكاره، ودعم الكتاب بشروح لألفاظ وأفكار ربما تستغلق على القارئ العربى.

ينتمى كتاب توينبى الذى نحن بصدده إلى "فلسفة التاريخ" وهى موضوع مهم من موضوعات الفلسفة، اختصه هيجل F. Hegel بأحد كتبه، كما تخلَّل عمل ماركس K.Marx الأشهر "رأس المال" Das Kapital وصار أهم إنجاز لأوزفالد شبنجلر Oswald Spengler فى كتابه "أفول الغرب" Der Untegang des Abendlandes . وقد تفاوتت أفكار هؤلاء الفلاسفة الكبار، بين مثالية هيجل ومادية ماركس وتشاؤمية شبنجلر.

يذهب توينبى إلى أن دراسة التاريخ تعنى – فى حقيقتها– دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة، اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات؛ هى المسيحية الغربية، المسيحية الأرثوذكسية، الإسلامية، الهندية، الشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية.

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور؛ انبعاث الحضارات، ارتقاء الحضارات، انهيار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما، فإن توينبى يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرده بصنع الحضارة، فالأعراق – فى معظمها – ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما إنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

فى هذا الصدد يرى توينبى أنه بين إحدى وعشرين حضارة، هناك خمس عشرة منها تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها، فالحضارة الإسلامية – كمثال- هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل؛ هما الإيرانية والعربية، وهما – معًا- ترجعان إلى حضارة مندرسة؛ هى الحضارة السورية، التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.

لدينا – إذن – ست حضارات فقط انبعثت مباشرةً من الحياة البدائية، أى أنه لم يكن لها أسلاف، تلك الحضارات هى؛ المصرية – السومرية – المينوية – الصينية – المايانية – الانديانية (والحضارتان الأخيرتان تنتميان الى القارة الأمريكية).

ولكن كيف تنشأ الحضارة؟

يرى توينبى أن الحضارة لا تنشأ فى ظروف سهلة، إنما هى – على النقيض – تنشأ فى ظروف صعبة، تخلق للإنسان تحديًا Challenge ، هذا التحدى يسفر عن استجابة Response تتفاوت حسب الأحوال.

المثال الأوضح على ذلك الحضارة المصرية القديمة، فقد كانت السهوب الممتدة لدى الشمال الإفريقى والجزيرة العربية أراضى عامرةً بالمياه، وعندما أتى أوان الجفاف، تفاوتت استجابات السكان، فتمسك بعضهم بأرضهم وغيروا نمط حياتهم فصاروا بدوًا، واختار بعضهم الآخر الارتحال جنوباً، حيث المناطق الاستوائية، فزاولوا حياةً بدائية صاحبتهم حتى أيامنا، وولج بعضهم الأخير المستنقعات والغابات فى وادى النيل ودلتاه، فأقاموا الحضارة المصرية.

علىٰ غرار المصريين نهض السومريون لدى الجهات الدنيا من نهرى دجلة والفرات، وليس لدى الجهات العليا من هذين النهرين، فأقاموا حضارةً تعاصرت مع الحضارة المصرية، وفى قاصية المشرق بزغت الحضارة الصينية لدى النهر الأصفر، وهو نهر يصعب قياده، وليس لدى نهر اليانجستى وهو نهر يسهل قياده.

يرتبط التحدى الطبيعى بتحد آخر بشرى، فالشعوب التى تعيش فى مناطق يتهددها بالعدوان شعوب غيرها، تصير أكثر صلابةً من شعوب تعيش فى مناطق محمية.

على أن لهذا التحدى (الطبيعى خاصةً) حدوداً لا ينبغى عليه تجاوزها، من أجل أن تكون الاستجابة مناسبةً، لأنه فى أحوال بعينها تكون الاستجابة سلبية، ولدينا جماعات أخفقت فى استجابتها لتحديات واجهتها، وهذا من شأنه وجود قانون للتفاعل بين التحدى والاستجابة، يطلق عليه المؤلف تعبير "الوسط الذهبى".

هذا عن البدايات الأولى للحضارة، أما عن ارتقائها، فإن هذا الارتقاء يحتاج بدوره إلى المزيد من التحديات، والمزيد الآخر من الاستجابات، وهو ما هيأ للحضارة الهلينية ما تحقق لها من إنجازات.

يقرر توينبى أن الارتقاء لا يتم بغزو للخارج، ولا بتقدم تكنولوجى مادى فى الداخل، إنما هو يتم وفق عملية يدعوها بالتسامى، وهى عملية روحانية أكثر منها مادية، تستهدف إطلاق طاقات المجتمع من عقالها، الأمر الذى لا يتأتى إلا على يد ما يدعوه "بالقلة (أو الصفوة) المبدعة"، ويعد أفرادها عباقرةً بالمعنى الحرفى للكلمة وليس بالمعنى المجازى فحسب، وهى التى أسست المدارس الفلسفية القديمة، وتقتفى الأكثرية العاطلة من الإبداع أثرها عن طريق ما يدعوه توينبى بالمحاكاة.

يذهب توينبى إلى أن الحضارة تدخل فى دور الانحلال إذا أخفقت الطاقة الإبداعية عند الأقلية المبدعة، ويكف المجتمع – فى الوقت ذاته – عن محاكاتها، وتتحول هى بدورها إلى أن أقلية مسيطرة تستند إلى القوة للإبقاء على سيطرتها، تجاورها بروليتاريا داخلية، تمثل غالب المجتمع، وبروليتاريا خارجية، تقع على هامش المجتمع وتتربص به. ولكل منهم وظيفته، فالأقلية المسيطرة تنزع إلى إنشاء دولة عالمية (إمبرطورية) والبروليتاريا الداخلية تنزع إلى إنشاء عقيدة دينية عالمية (كالمسيحية) والبروليتاريا الخارجية تنزع إلى الانقضاض على المجتمع لتنشئ بديلا عنه مجتمعاً جديداً.

تلك هى النظرية العامة لأرنولد توينبى، والمهم لنا الآن أن نتعرف على ما عليه الحال فى زماننا.

يقرر توينبى أن الحضارات الباقية فى زماننا وعددها خمس حضارات، تبدو على أربع منها مظاهر الانحلال، فى حين تتفرد الحضارة الغربية بكون بروليتارياتها الداخلية، قد عقمت عن إنجاب أديان عليا بسبب حيوية الكنيسة المسيحية، كما أن بروليتارياتها الخارجية لم تتحقق لها أهدافها، بسبب الكفاية المادية الساحقة للمجتمع الغربى.

على أن المجتمع الغربى يمر بأزمة، هى فى جوهرها روحية أكثر منها مادية، فبه فراغ روحى أتاح الفرصة لظهور دعوات قومية متطرفة كالفاشية والنازية، وصراعات طبقية فى الداخل، وحروب مدمرة فى الخارج.

وعلى النقيض من تشاؤمية شنبجلر يرى توينبى أن خلاص الحضارة الغربية يكمن فى المزيد من الحريات الشخصية ومن العدالة الاجتماعية فى آن. ثم يتطلع إلى قيام تنظيم دولى أو دولة عالمية تستند إلى الإيمان، وينتفى فيها التعصب

القومى والنزوع إلى الحرب، وتقود هذه الدولة حكومة عالمية توجه شئون العالم لمصلحة الجميع دون ما تمييز، وأن من واجب الإنسان الغربى أن يتيح لغيره من إخوانه في الإنسانية مشاركته رخاءه المادى، وبذا تصبح الحضارة الغربية هى مدينة العالم.

هذا هو الحل، وإلا حاق الفناء بالجميع.

عُبادة كُحيلة

(أبو أدهم)

تقديم

أتيح لى الاطلاع على كتاب « دراسة للتاريخ » للعلامة أرنولد توينبى منذ أمد طويل . ثم أسعدتنى الظروف عام ١٩٥٦ وقتما كنت مستشاراً للسفارة (المصرية) فى طوكيو باليابان ، أن أحضر مؤتمراً صحفيا عقده الأستاذ توينبى ، شن فيه حملة صادقة على العدوان الثلاثى ، ووجه اللوم الشديد إلى حكومة بلاده لاشتراكها فى ذلك العدوان الأثيم .

ولم أستغرب صدور هذه الآراء عن الأستاذ توينبى ؛ لأن الفكرة السائدة لمؤلفه القيم عن التاريخ ؛ تقوم على اعتبار الحرب السبب الرئيسى لانهيار الحضارات والمجتمعات ، وأن مصير المعتدى الفناء . وأبرز مثال يطالعنا ، زوال دولة آشور بفعل مغالاتها فى العدوان ، واندثار ما خلفته أسبرطة من آراء ، لقيامها على الحرب والاستعداد لها .

وسعدت مرة أخرى فى نوفمبر ١٩٥٦ بلقاء الأستاذ توينبى بمدينة كيوتو ، تلبية لدعوة القصر الإمبراطورى اليابانى لمشاهدة الكنوز الإمبراطورية فى تلك المدينة القديمة عاصمة اليابان الأولى . فكان أن برزت لدىّ فكرة ترجمة كتاب « دراسة للتاريخ » . . ومن ثم لبيت شاكراً دعوة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية لترجمة المختصر الذى وضعه للدراسة ، المستر سومرفيل ؛ وفيه بسط جميع آراء الأستاذ المؤلف مستخدماً عباراته الأصلية فى معظم الأحيان ، واقتصر فى مختصره على حذف الأمثلة والآراء التى وجد أن حذفها لا يخلّ بفكرة الكتاب الأصلية .

وتمتاز آراء الأستاذ توينبى بالعمق الشديد ، ويتسم كتابه بتحميل العبارات أكثر مما تطيق من المعانى والأفكار ، مع افتراضه أن قراءه من

جهابذة العلماء ؛ الأمر الذى أضفى على الكتاب غموضاً وتعقيداً فائقين . ولعل محاولتى تبسيط آراء الأستاذ توينبى وتقريبها إلى الأذهان بشرح ما أمكننى شرحه فى هوامش الكتاب ؛ مما يساعد القارئ الكريم على استيعاب آراء المؤلف التى تسمو إلى الذروة فى إصالتها وطرافتها .

ويعتقد الأستاذ المؤلف أن الدراسة التاريخية الحقة ، ليست هى دراسة أمّة بعينها أو عصراً بذاته . بل إن البحث التاريخى يجب أن ينصبّ على « المجتمعات » : إذ لاتوجد أمة فى العالم تتأتى دراسة تاريخها بمعزل عن تواريخ بقية الأمم : وقد قسّم المؤلف المجتمعات للوفاء بأغراض دراسته ، إلى واحد وعشرين مجتمعاً ، اندرس معظمها ، ولم يتبق منها سوى خمسة مجتمعات هى المسيحية الغربية — المسيحية الأرثوذكسية — الإسلامى — الهندى — الشرق الأقصى . تضاف إليها مخلّفات المجتمعات المتحجرة غير المعينة الشخصية مثل اليهود .

ويصدُف المؤلف عن فكرة أن صفات خاصة فى الجنس هى التى تقود إلى تفوق أمة بعينها : ونجده يسخر من القائلين بتفوق الجنس الأبيض من الناحية الحضارية ، وبالأحرى العنصر الثورى بالذات الذى تنتمى إليه أمم أوروبا الشمالية ؛ على سائر الأجناس . فعنده أن الأجناس جميعها — عدا القليل منها — قد ساهمت فى انبعاث الحضارات إلى الوجود ، واشتركت فى تقدم البشرية فى مختلف مناحى العرفان .

كذلك لا يؤمن المؤلف بأن توافر عوامل معينة فى البيئة الجغرافية ، هى العامل الأساسى فى انبعاث الحضارة . ونجده يســوق أمثلة كثيرة تأييداً لرأيه .

ويخلص المؤلف من آرائه بشأن ظهور الحضارات إلى أنها نتيجة استجابة لتحد صادر ؛ إما عن البيئة المادية ، وإما عن الوسط البشرى ، أو عن كليهما ؛ وذلك فى ظل ظروف معينة أوردها فى مؤلفه .

ويطيب لى أن أزجى خالص الشكر إلى الأستاذ المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال لتفضّله بمراجعة هذه الترجمة ؛ فقد كانت لإرشاداته القيمة وآرائه الناضجة وتوجيهاته السديدة ؛ أكبر الأثر فى ظهور هذه الترجمة لكتاب يعتبر فى طليعة المؤلفات الثقافية العالمية .

والله تعالى أسأله التوفيق والسداد .

٤ سبتمبر سنة ١٩٦٠

فؤاد محمد شبل



الباب الاول

مقـــدمة



الفصل الأول

وحدة دراسة التاريخ

المؤرخون على وجه التعميم ، أميل إلى توضيح آراء الجماعات التى يعيشون ويكدحون فى محيطها ، منهم إلى تصحيح تلك الآراء .

والتطور الذى حدث فى خلال بضعة قرون الأخيرة ؛ وبصفة خاصة فى خلال الأجيال القليلة الفارطة ، نحو وجود الدول القوية المكتملة السيادة العاملة على الاستكفاء بذواتها ، قد حمل المؤرخين على أن يتخذوا من الأمم ميدانهم المألوف للدراسة التاريخية .

غير أننا لن نقع على أمة بمفردها ، أو على دولة قومية فى أوربا ، تطلعنا على تاريخ يمكن أن يقوم مفسّراً لنفسه بنفسه .

وإذا وجدت دولة فى ميسورها أن تزودنا بمثل ذلك ، لكانت بريطانيا العظمى . وفى الحق إذا لم يُر أن بريطانيا العظمى — أو بالحرى إنجلترا فى القرون السابقة — تهيئ لنا ميداناً للدراسة التاريخية قابلا للفهم بذاته ، فلا مندوحة لنا من أن نستنتج بثقة ، أنه لا توجد دولة قومية أخرى من الدول الأوربية الحديثة ، يمكن أن تجتاز هذه التجربة .

فهل التاريخ الإنجليزى قابل للفهم فى حد ذاته ؟

وهل يتأتى عزل تاريخ إنجلترا الداخلى عن علاقاتها الخارجية ؟

وإن استطعنا ، هل سيكون لما يتبقى من علاقاتها الخارجية أهمية ثانوية ؟

وإذا تولينا تحليل هذه العلاقات ، هل سنجد مرة أخرى التأثيرات الأجنبية على إنجلترا ، طفيفة بالمقارنة بتأثيرات إنجلترا على بعض أجزاء العالم الأخرى ؟

إذا كان الرد على هذه الأسئلة بالإيجاب ؛ يحق لنا أن نستنتج ، أنه على حين لا يتأتى فهم التواريخ الأخرى من غير الإشارة إلى إنجلترا ، فإنه يتيسر – إلى حد ما – فهم التاريخ الإنجليزى دون الإشارة إلى أجزاء العالم الأخرى .

وخير طريقة لبحث هذه الأسئلة ، هى الرجوع بفكرنا القهقرى عبر سير التاريخ الإنجليزى ، مستعيدين فصوله الأساسية . فإذا عكسنا ترتيبها الزمنى ، ألفيناها :

(ا) إقامة نظام الاقتصاد الصناعى (منذ الربع الأخير للقرن الثامن عشر).

(ب) تشييد صرح الحكومة البرلمانية المسئولة (منذ الربع الأخير للقرن السابع عشر) .

(ج) التوسع عبر البحار (مبتدئاً من الربع الثالث للقرن السادس عشر ، بالقرصنة ؛ ومتطوراً تدريجياً إلى تجارة خارجية عالمية النطاق . والاستحواز على الممتلكات الاستوائية . واقامة جماعات جديدة تتكلم لإنجليزية فى بلاد معتدلة المناخ فيا وراء البحار) :

(د) الإصلاح الدينى (منذ الربع الثانى للقرن السادس عشر) .

(هـ) النهضة ؛ وتشتمل على الجوانب السياسية والاقتصادية بالإضافة إلى نواحيها الفنية والفكرية (منذ الربع الأخير للقرن الخامس عشر) ؛

(و) إقامة النظام الإقطاعى (منذ القرن الحادى عشر) .

(ز) تحوّل من المعتقدات الدينية السائدة فيا يسمى « بعصر البطولة » إلى المسيحية الغربية ؛ (منذ السنوات الأخيرة للقرن السادس) .

توضّح هذه اللمحة العكسية التى ألقيناها على مجرى التاريخ الإنجليزى ابتداء من يومنا هذا ، أنه كلما رجعنا القهقرى ، ضعفت شواهد الاستكفاء الذاتى أو العزلة .

فإن التحوّل الديني ـ الذي كان حقيقة مبدأ كل شيء في التاريخ الإنجليزي ـ ينقض ذلك الاستكفاء نقضاً ظاهراً . فقد أدى التحوّل إلى إدماج بضع جماعات همجية منعزلة في حظيرة مجتمع غربي ناشئ .

أما بالنسبة للنظام الإقطاعي ، فقد أثبت المؤرخ فينوجرادوف في براعة ، أن بذوره قد نبتت في التربة البريطانية فعلا قبل الفتح النورمندي : على أنه حتى إذا كان الحال كذلك ، ساعد عامل خارجي ـ هو الغزوات الدنماركية ـ على تطور النظام الإقطاعي . وهذه الغزوات هي أيضاً جزء من هجرات الشعوب السكندنافية ، وقد عززت في الوقت نفسه تطور نظام الإقطاع في فرنسا . كما لا ينكر أن الغزو النورمندي قد عجّل باكتمال نمو النظام الإقطاعي .

وأما بالنسبة للنهضة ، فإن من المسلّم به عند الجميع ، أنها من جانبيها الثقافي والسياسي ، نسمة حياة هبّت من شمال إيطاليا . فلو لم تبذر بذور المذهب الإنساني والسلطان المطلق وإقامة العلاقات الدولية على توازن القوى ، على صورة مصغرة في شمال إيطاليا ـ مثلما تزرع الفسائل في مشتل محمي من تقلبات الجو ـ طوال قرنين يقعان تقريباً بين عامي ١٢٧٥ و ١٤٧٥ ؛ لما قدّر لهذه المذاهب بحال ، أن تغرس شمال جبل الألب ، ابتداء من عام ١٤٧٥ وما تلاه .

كذلك أمر حركة « الإصلاح الديني » ، لم تكن ظاهرة تقتصر على انجلترا وحدها . لكنها حركة عامة قامت في شمال أوروبا الغربية وهدفت إلى التحرر من السلطان الديني للجنوب ، حيث كانت أبصار سكان غرب البحر الأبيض المتوسط لا تتحول عن عوالم ماتت واندرست . ولم تكن إنجلترا رائد حركة الإصلاح ، كما أنها لم تكن الرائد إبان المنافسة بين الأمم الأوربية المطلة على الساحل الأطلسي ، وكان الاستحواذ على العوالم الجديدة عبر البحار جائزة السابق : بل إن انجلترا قد فازت بالجائزة مع أنها دخلت السباق متأخرة ، نتيجة لسلسلة من الاشتباكات مع دول سبقتها إلى الميدان .

بقى أن نبحث فى الفصلين الأخيرين : مبدأى النظامين البرلمانى والصناعى اللذين يشيع الاعتقاد بأنهما قد تطورا محلياً على التربة الإنجليزية ثم انتشرا بعدئذ إلى غيرها من بقاع العالم .

وهنا ، لا يأخذ الثقات بهذا الرأى على علاته .

فبالنسبة للنظام البرلمانى ، قال اللورد أكتون « إن مجرى التاريخ العام يتشكل بفعل قوى ليست قومية ولكنها تنشأ عن مسببات أوسع مدى . فكان قيام الملكية الحديثة فى فرنسا ، جزءاً من حركة مماثلة فى انجلترا ، وخضع البوربون وآل ستيوارت لنفس العوامل وإن اختلفت النتائج » . وبعبارة أخرى كان النظام البرلمانى – وهو نتيجة محلية خاصة بانجلترا فقط – حصيلة قوة لم يقتصر أثرها على انجلترا وحدها ، ولكن شمل انجلترا وفرنسا فى آن واحد .

أما عن مبدأ الثورة الصناعية فى انجلترا ، فإننا لن نستطيع أن ننقل عن ثقات أعلى كعباً من مستر هاموند وقرينته ، وقد أخذا فى مقدمة كتابهما « قيام الصناعة الحديثة » بالرأى القائل بأن العامل الأساسى الجدير بالاعتبار فى نشوء الثورة الصناعية فى انجلترا – دون غيرها من البلاد – هو مركز انجلترا بصفة عامة فى دنيا القرن الثامن عشر : مركزها الجغرافى بالنسبة للأطلسى ، ومركزها السياسى بالنسبة لتوازن القوى فى القارة الأوربية .

وهكذا يتضح أن التاريخ القومى البريطانى ، لم يكن فى أى وقت من الأوقات – ولن يكون بكل تأكيد فى المستقبل – ميداناً منعزلا للدراسة التاريخية قائماً وقابلا للفهم فى حد ذاته . وإذا صح ذلك عن بريطانيا العظمى ، فهو يصدق من باب أولى بالنسبة لأية دولة قومية أخرى .

وإنه وإن أسفر فحصنا الموجز للتاريخ الإنجليزى عن نتيجة سلبية ، إلا أنه قد زودنا بدليل نهتدى به . فإن الفصول التى استوقفت نظرنا فى لمحتنا العكسية عن مجرى التاريخ الإنجليزى ؛ فصول واقعية فى قصة أمة من الأمم ،

ولكنها أيضاً قصة تاريخ مجتمع ، ليست بريطانيا إلا جزءاً منه فقط . وما التجارب التي مرّت بها انجلترا ، سوى تجارب شاركت فيها الأمم الأخرى

ويتضح لنا بالفعل ؛ أن ميدان الدراسة القابل للفهم بذاته ، هو بقية مجتمع يضم عدداً من الجماعات من النوع الذى تمثله بريطانيا ، لا بريطانيا وحدها . ولكنه يضم فرنسا وأسبانيا وهولندا والبلاد السكندنافية - وغيرها أيضاً . والفقرة المستشهد بها من آكتون ، تبين العلاقة بين هذه الأجزاء وذلك الكل :

ولم تكن العوامل الفعّالة ، قومية الطابع ، ولكنها صدرت عن أسباب أوسع مدى تؤثر على كل جزء من الأجزاء : وهى فى تأثيرها الجزئى ، لا تفهم إلا بالنظر الشامل إلى تأثيرها فى المجتمع بأسره . حقيقة أن السبب العام الواحد يؤثر فى الأجزاء المختلفة تأثيراً يختلف من جزء إلى آخر ، وذلك لأن كل جزء فيها تشكّله — على وجه خاص — القوى التى تنبعث عن السبب العام ، كما أنه يؤثر على وجه خاص فى القوى ذاتها :

ويمكننا أن نقرر أن المجتمع يجابه أثناء حياته مشكلات متتابعة ، تفرض على كل عضو فيه أن يحلها لنفسه على خير ما يستطيع. وتعتبر كل مشكلة منها تحدياً لعضو المجتمع ، تفرض عليه محنة يجتازها . وتؤدى تلك السلسلة من المحن إلى تمايز أعضاء المجتمع بالتدريج بعضهم عن بعض : ويستحيل فى جميع الحالات إدراك معنى سلوك عضو معين من الأعضاء أثناء محنة خاصة ، إلا بعد أن يؤخذ فى الاعتبار تشابه سلوكه ... أو عدم تشابهه — مع سلوك زملائه : وإلا بعد أن ينظر إلى المحن المتلاحقة ، على أنها سلسلة من الأحداث فى حياة المجتمع بأسره .

وقد يمكن زيادة توضيح هذه الطريقة فى تفسير الوقائع التاريخية إذا مثّلنا لها بمثل فعلى ملموس يصح أن نختاره من المدن اليونانية المستقلة القديمة ، خلال القرون الأربعة الواقعة بين عامى ٧٢٥ و ٣٢٥ قبل الميلاد :

فلقد جابه المجتمع الذى كانت هذه المدن الكثيرة أعضاءً فيه ، عقب بداية تلك الفترة ؛ مشكلة ضغط السكان على وسائل المعيشة التى كانت الشعوب الهلينية تحصل عليها فى ذلك العصر – فيما يبدو – عن طريق واحد فقط هو زراعة أراضيها محصولات متنوعة يخصص إنتاجها للاستهلاك المحلى . فلما حلّت الأزمة جابهتها المدن بوسائل اختلفت باختلافها :

فعمد بعضها مثل كورنث وخالسيس إلى التخلص من فائض سكانه بالاستحواذ على الأراضى الزراعية عبر البحار فى صقلية وجنوب إيطاليا وتراقيا وغيرها واستعمارها . ومن ثم غدت المستعمرات اليونانية التى أقيمت بهذه الطريقة خارج اليونان ، مجرد امتداد لمنطقة المجتمع الهلينى الجغرافية ؛ دون إحداث تغيير فى طابع هذا المجتمع . والتمست بعض المدن الأخرى ، حلولا قادت إلى تغيير طريقة حياتها .

فأشبعت إسبارطة مثلا اشتهاء مواطنيها الأرض ، بمهاجمة جيرانها الأقربين من اليونانيين ، واحتلال بلادهم . وأدى ذلك إلى اشتعال نيران الحروب بينها وبينهم . وهكذا اضطرت إسبارطة للحصول على أراضيها الإضافية ، إلى شن حروب شعواء متصلة على شعوب مجاورة لها وفى نفس مستواها . واضطر ساستها – لمواجهة الموقف – إلى توجيه حياتها من الرأس إلى القدم ، توجيهاً عسكرياً محضاً . ووفّقت فى ذلك بفضل بعث طائفة من النظم الاجتماعية البدائية التى كانت شائعة وقتاً ما فى بعض الجماعات اليونانية ، وتكييفها وفقاً لظروفها الخاصة ؛ فى وقت كانت هذه النظم على وشك الزوال سواء فى إسبارطة نفسها أو فى غيرها .

وعالجت أثينا مشكلة السكان بوسيلة مختلفة هى الأخرى . إذ خصصت إنتاجها الزراعى للتصدير ، كما أنها اتجهت إلى إنتاج المصنوعات لتصديرها كذلك . ثم وسّعت نطاق أجهزتها السياسية لتهيئ نصيباً عادلا من السلطة السياسية للطبقات الجديدة التى أبرزتها الابتكارات الاقتصادية إلى الوجود :

وبعبارة أخرى ، تجنّب الساسة الأثينيون الثورة الاجتماعية ، بفضل نجاحهم في القيام بثورة اقتصادية وسياسية معاً . ومن ثم فتحوا بالتبعية ، بتوفيقهم إلى هذا الحل للمشكلة المشتركة في حدود مساسها بهم ؛ سبيلا جديداً للتقدم أمام المجتمع الهليني بأسره . وهذا مصداق لما عناه بركليس عندما قرر أثناء اجتياز بلاده أزمة ألمّت بأوضاعها المادية ، أن أثينا هي معلمة هيلاس[1] .

ومن هذه الناحية — أي إذا لم نأخذ أثينا أو إسبارطة أو كورنث أو خالسيس موضوعاً للبحث بل نظرنا إلى المجتمع الهليني كله — نستطيع إدراك معنى تواريخ الجماعات المتعددة خلال الفترة من ٧٢٥ إلى ٣٢٥ قبل الميلاد . وكذلك إدراك معنى الانتقال من هذه الفترة الى الفترة التي تلتها . ولوجدنا الرد على أسئلة ما كنا نستطيع أن نجد لها جواباً قابلا للفهم ؛ طالما كنا نبحث في تاريخ خالسيس أوكورنث أو إسبارطة أو أثينا كل على حدة ، عن ميدان للدرس يكون قابلا للفهم في حد ذاته . إذ كل ما كان يتيسر إدراكه بهذه الطريقة ؛ أن تاريخ كل من خالسيس وكورنث كان طبيعياً نوعاً ما ، بينما خرج تاريخ كل من إسبارطة وأثينا على القاعدة من نواحي متعددة . ولم يكن ليتيسر بهذه الطريقة تعليل السبيل الذي اتخذه هذا الخروج على القاعدة ، ولاضطر المؤرخون إلى القول بأن أهل إسبارطة وأثينا كانوا مختلفين عن غيرهم من اليونانيين ، وذلك بفضل ما أحرزوه في فجر التاريخ الهليني من صفات موروثة خاصة . وهذا يعادل تفسير تطور إسبارطة وأثينا بالقول إنه لم يحدث أي تطور وأن هذين الشعبين اليونانيين كانا ذوي صفات خاصة ، سواء في مستهل التاريخ أو في نهايته .

على أن هذا افتراض يناقض الوقائع الثابتة .

فبالنسبة لإسبرطه مثلا ؛ كشفت الحفائر التي أشرفت عليها المدرسة

(١) هيلاس : اليونان قاطبة . (المترجم)

البريطانية للآثار عن شواهد مذهلة . مدارها أنه حتى حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، لم تختلف الحياة فى إسبارطه اختلافا ملحوظا عما كانت عليه فى الجماعات اليونانية الأخرى .

والمثل يقال عن السمات الخاصة بأثينا . تلك السمات التى أضفتها على العالم الهلينى بأسره خلال ما يدعى بالعصر الهلينيستى (بخلاف إسبرطه التى ثبت أن منحاها الخاص طريق مسدود) . أى أنه ثبت أيضاً أنها سمات مكتسبة ، وإن مبدأها لا يستطاع إدراكه إلا بالنظر إلى المجتمع الهلينى بأجمعه .

وكذلك الحال فيما يتعلق بالاختلاف بين البندقية وميلان وجنوا وغيرها من مدن إيطاليا الشمالية ، خلال ما يدعى بالقرون الوسطى . وبالاختلاف بين فرنسا وأسبانيا وهولندا وبريطانيا العظمى وغيرها من دول الغرب القومية خلال القرون الأحدث .

لذلك لكى نفهم « الأجزاء » ، يجب أن نركّز اهتمامنا أولا على الكل . لأن هذا الكل هو ميدان الدراسة القابل للفهم .

ولكن ، ما هى هذه « الكليات » التى تؤلّف ميادين الدراسة القابلة للفهم ؛ وكيف نكتشف حدودها المكانية والزمانية ؟

علينا أن نعود مرة أخرى إلى تلك الخلاصة عن الفصول الرئيسية للتاريخ الإنجليزى بحثا وراء ذلك الكل الكبير الذى يؤلف الميدان القابل للفهم ، والذى يعتبر التاريخ الإنجليزى جزءاً منه .

إذا بدأنا بالفصل الأخير – إقامة النظام الصناعى – ألفينا الامتداد الجغرافى لميدان الدراسة القابل للفهم بذاته ، الذى افترضناه ؛ يشمل العالم فى مجموعه . أى أن تفسير الثورة الصناعية فى إنجلترا يتطلب أن نضع فى اعتبارنا الأحوال الاقتصادية ، لا فى أوروبا الغربية وحدها ، بل أيضاً فى إفريقيا الاستوائية وأمريكا وروسيا والهند والشرق الأقصى . على أننا إن عدنا إلى النظام البرلمانى ، وتحولنا من المستوى الاقتصادى إلى المستوى

السياسي ؛ لتقلّص أفقنا . فإن العوامل المشار إليها فى عبارة اللورد أكتون — والتى خضعت لها عائلتا البوربون وستيوارت فى فرنسا وانجلترا ، لم تعمل عملها فيما يتعلق بآل رومانوف فى روسيا وآل عثمان فى تركيا أو التيموريين فى الهندوستان أو المانشو فى الصين أو عائلة توكوجاوا فى اليابان[١] .

وبالأحرى لا يمكن تفسير التواريخ السياسية لهذه البلاد الأخرى ، باستخدام نفس الطريقة . فإن ثمة حدا لهذه العوامل التى « خضعت لها أسرتا بوربون وستيوارت . لأنه إذا كان أثرها قد امتد إلى بلاد غرب أوروبا الأخرى والجماعات التى أقامها مستعمروها الأوربيون وراء البحار ، إلا أن نفاذها لم يجاوز الحدود الغربية ، لروسيا وتركيا . إذ تأثرت فى ذلك الوقت البلاد الواقعة شرق هذا الخط ، بعوامل سياسية أخرى أدت إلى نتائج أخرى .

وإذا انتقلنا عائدين إلى الفصول الأقدم من التاريخ الإنجليزى المدونة فى قائمتنا ، ألفينا أن التوسع عبر البحار ، لم يكن قاصراً على بلاد أوربا الغربية فحسب ، ولكنه حصر كلية تقريبا فى البلاد الساحلية على المحيط الأطلسى . ونستطيع فى دراستنا تاريخ حركتى الإصلاح والنهضة ، أن نغض الطرف عن التطور الدينى والثقافى فى روسيا وتركيا ، دون أن نخسر شيئاً . كما لا توجد صلة سببية بين النظام الإقطاعى فى أوروبا الغربية والظواهر الإقطاعية التى كانت قائمة فى الجماعات البيزنطية والإسلامية المعاصرة .

وأخيراً ، فإن تحوّل الإنجليز إلى المسيحية الغربية ، قد جعلهم أعضاء فى مجتمع ، مقابل إقصائهم عن عضوية مجتمعات أخرى . وذلك لأنه حتى

---

(١) عائلة من الشوجن (ويعنى اللفظ الحكام العسكريين اليابانيين) ، ظلت تحكم اليابان حوالى القرنين رغما عن أباطرتها ، إلى أن استطاع هؤلاء استرداد سلطانهم بفضل ثورة قام بها نبلاء البلاد بعد اتصال اليابان بالغرب . (المترجم)

المجمع المقدس الذي عقد في هويتبي عام ٦٦٤ ميلادية ، كان من الجائز أن يعتنق الإنجليز مسيحية الغرب الأقصى التي كانت قائمة على الحدود الكلتية . وبالتالي لو قدّر لبعثة أوغسطين الفشل كلية ؛ لانضم الإنجليز إلى الإيرلنديين وأهالي ويلز في إقامة كنيسة مسيحية جديدة منشقة عن روما ، مثلها مثل النسطوريين في أقصى الحدود الشرقية للمسيحية . ولكان من المحتمل أن يفقد مسيحيو الغرب الأقصى في الجزائر البريطانية ، الاتصال بمسيحي القارة الأوربية ، عند ظهور المسلمين العرب بعد ذلك على ساحل المحيط الأطلسي ، مثلما فقد مسيحيو الحبشة وآسيا الوسطى اتصالهم تماماً بإخوانهم في الدين في القارة الأوربية . وقد يمكن تصوّر تحولهم إلى الإسلام ، كما حدث فعلا للمسيحيين القائلين بالطبيعة الواحدة[1] والنسطوريين ، بعدما انتقل الشرق الأوسط إلى حكم العرب . ولقد توصم هذه الافتراضات بأنها خيالية إلى أبعد حد ، إلا أن إمعان النظر فيها ، يذكّرنا أنه بينما وحّد التحوّل الديني عام ٥٩٧ بين الإنجليز والمسيحية الغربية ، إلا أنه لم يوحّدهم مع الجنس البشري كافة ؛ بل أقام في نفس الآن حداً فاصلا يفصل بين الإنجليز باعتبارهم مسيحيين غربيين ، وأتباع الجماعات الدينية الأخرى .

أتاح لنا هذا الاستعراض الثاني لفصول التاريخ الإنجليزي ، وسيلة الحصول على قطاعات مستعرضة مكانية ؛ في أوقات مختلفة لذلك المجتمع ، الذي يشمل بريطانيا ، والذي يعتبر بالنسبة لها « ميدان الدراسة القابل للفهم » . وتجب التفرقة أثناء تناولنا هذه القطاعات المستعرضة ، بين طائفة من مستويات الحياة الاجتماعية تختلف بعضها عن البعض الآخر وهي :

الاقتصادي — السياسي — الثقافي .

ذلك لأنه قد اتضح تماماً الآن أن الامتدادات المكانية لهذا المجتمع ،

---

(١) أي القائلون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، أي الطبيعة الإلهية . وهم أقباط مصر والحبشة وغيرهم . (المترجم)

(٢) المراد [illegible] الحملة التي قام بها القديس أوغسطين في القرن السادس الميلادي [illegible] والكنيسة [illegible] [illegible] وهذا الدفاع يتجلى في كتاب [illegible]

تختلف اختلافاً محسوساً يترتب على نوع المستوى الذى نركّز فيه اهتمامنا .

ففى الوقت الحاضر وعلى المستوى الاقتصادى ؛ لا شك أن المجتمع الذى تنتمى إليه بريطانيا العظمى ، يمتد بامتداد سطح الأرض المسكون والصالح للملاحة . كما أن الصفة العالمية للمجتمع نفسه ، تكاد أن تتجلى بنفس الدرجة تقريباً فى الوقت الحاضر فى المستوى السياسى أيضاً . على أننا إذا انتقلنا إلى المستوى الثقافى ، نجد أن الانتشار الجغرافى الحاضر للمجتمع الذى تنتمى إليه بريطانيا ، أقل بكثير من انتشاره فى مستوى السياسة والاقتصاد . لأنه ينحصر أساساً فى البلاد التى تقطنها الشعوب الكاثوليكية والبروتستانتية فى أوروبا الغربية وأمريكا والبحار الجنوبية . وعلى الرغم من العناصر الثقافية الغربية التى تأثرت بها هذه الجماعة مثل : الأدب الروسى والرسم الصينى والدين الهندى . وعلى الرغم من عظم قوة تأثيرات المجتمع الغربى على المجتمعات الأخرى كالمجتمعات : الأرثوذكسية والمسيحية الشرقية والإسلامية والهندوكية والشرق الأقصى ؛ إلا أنه من الأمور الثابتة أن جميع هذه المجتمعات تقع خارج نطاق العالم الثقافى الذى ينتمى إليه الإنجليز ؛

وإذا بحثنا مزيداً من القطاعات المستعرضة فى أزمان سابقة ، نجد أنه على جميع المستويات الثلاثة ؛ تتقلص باطراد الحدود الجغرافية للمجتمع الذى ندرسه . ففى قطاع مستعرض لعام ١٦٧٥ ، يحتمل أن لا يكون التقلّص كبيراً جداً على المستوى الاقتصادى (إن حصرنا دراستنا على الأقل فى انتشار التجارة وتجاهلنا حجمها ونوعها) . أما الحدود على المستوى السياسى فى ذلك التاريخ ، فإنها تتقلص حتى تتطابق تقريبا مع حدود المستوى الثقافى فى الوقت الحاضر .

وتختفى فى قطاع مستعرض لعام ١٤٧٥ ؛ أجزاء ما وراء البحار فى جميع المستويات الثلاثة على حد سواء . بل تتقلص الحدود على المستوى الاقتصادى حتى تتطابق تقريباً هى الأخرى مع حدود المستوى الثقافى الذى ينحصر فى

ذلك الوقت فى أوروبا الغربية والوسطى ، باستثناء سلسلة تتفكك سريعاً من القواعد الأمامية متناثرة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط .

وإن أخذ قطاع مستعرض بدائى حوالى ٧٧٥ ميلادية ؛ تتقلص الحدود إلى أضيق من ذلك على المستويات الثلاثة . إذ كانت مساحة المجتمع الذى ندرسه فى هذا التاريخ محصورة تقريباً فيما كان وقتئذ أملاك شارلمان ، بالإضافة إلى الممالك الإنجليزية التى خلفت الإمبراطورية الرومانية فى بريطانيا .

أما خارج هذه التخوم ، فقد كانت شبه جزيرة إيبريا كلها تقريباً تحت سيطرة الخلافة العربية الإسلامية . وكان شمال وشمال شرق أوروبا فى قبضـــة البرابرة الوثنيين . ويقطن المناطق النائية الشمالية الغربية من الجزائر البريطانية ، مسيحيو الغرب الأقصى ؛ وكان جنوب إيطاليا تحت حكم البيزنطيين .

فلندع هـــذه الجماعة — التى كنا ندرس تخومها المكانية — المسيحية الغربية . وحالما تتبلور صورتها فى أذهاننا بالاهتداء إلى اسم لها ، تتبلور فى الوقت نفسه ، صور وأسماء الجماعات المقابلة لها فى العالم المعاصر ؛ سيما إن ركّزنا اهتمامنا إلى المستوى الثقافى . فبالنسبة لهذا المستوى نستطيع أن نميّز بلا شك وجود أربعة مجتمعات أخرى من نفس نوع مجتمعنا وهى لا تزال قائمة فى عالم اليوم :

الأول : مجتمع مسيحى أرثوذكسى فى جنوب شرق أوروبا وآسيا .

الثانى : مجتمع إسلامى يرتكز على المنطقة القاحلة الممتدة بانحراف عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط ؛ من الأطلسى ، حتى الواجهة الخارجية من حائط الصين العظيم .

الثالث : مجتمع هندوكى فى القسم الاستوائى من الهند .

الرابع : مجتمع الشرق الأقصى فى المنطقتين شبه الاستوائية والمعتدلة ، بين المنطقة القاحلة والمحيط الهادى .

ويتيح لنا إمعان النظر ، أن نميز كذلك مجموعتين تبدوان كبقايا متحجرة من مجتمعات مشابهة اندرست ، فى الوقت الحاضر ، وهما :

المجموعة الأولى : تشمل المسيحيين المينوفيستيين[١] فى أرمينيا وما بين النهرين ومصر والحبشة والنساطرة المسيحيين فى كردستان والنساطرة السابقين فى ملابار . ويضاف إلى ذلك اليهود والمجوس .

المجموعة الثانية : تتضمن البوذيين المعتنقين مذهب ماهايانا[٢] فى التبت ومنغوليا والبوذيين أتباع مذهب هينايانا[٣] فى سيلان وبورما وسيام وكمبوديا . وكذلك الجين[٤] فى الهند .

وإذا أعدنا النظر فى القطاع المستعرض فى عام ٧٧٥ بعد الميلاد ؛ ألفينا عدد المجتمعات وشخصيتها على خارطة العالم ، مماثلين لما هما عليه فى الوقت الحاضر . ولقد ظل مصوّر المجتمعات من هذا النوع فى العالم ، على حاله بصفة جوهرية منذ ظهور المجتمع الغربى لأوّل مرة . وأدى كفاح الغرب فى سبيل البقاء ، إلى زحزحته المجتمعات المعاصرة له وإيقاعها فى أحابيل شباك نفوذه الاقتصادى والسياسى ؛ لكنه لم يجرّدها بعد من ثقافاتها المميزة . فهى وإن عانت من وقع ضغطه الشديد ، إلا أنها ما برحت تحافظ على كيانها الوجدانى .

وجمّاع المناقشة — إلى المدى الذى أوصلناها إليه حتى الآن — ضرورة إقامة فاصل قاطع بين نوعين من العلاقات :

---

(١) القائلون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، أى الطبيعة الإلهية وحدها . (المترجم)

(٢) الماهايانا : ضرب من البوذية ينتشر فى الصين واليابان وغيرها من مناطق آسيا الشمالية . (المترجم)

(٣) الهينايانا : هى بوذية آسيا الجنوبية . (المترجم)

(٤) طائفة هندية غنية تنتشر خاصة فى شمال غرب الهند . وتؤمن باستقلال الروح عن الجسد سواء للحيوان أو للإنسان . ويتأتى الخلاص بتعذيب الجسد وقمع الشهوات . ويحذرون من إيذاء كل حى تطبيقا لمبدأهم فى الأرواح . (المترجم)

الأول : العلاقات بين الجماعات داخل المجتمع الواحد .

الثاني : العلاقات بين المجتمعات المختلفة .

والآن وقد استقصينا الامتداد المكانى للمجتمع الغربى ، علينا أن ننظر فى امتداده الزمانى . هنا تطالعنا فوراً حقيقة لبابها عجزنا عن معرفة مستقبله . وهذا قصور يحدّ كثيراً من كمية الضوء الذى قد تلقيه دراسة هذا المجتمع المعينّ (أو أى مجتمع آخر موجود) ، على طبيعة النوع الذى تنتمى إليه هذه المجتمعات . ومن ثم علينا أن نروّض أنفسنا على الاكتفاء بارتياد مبادئ المجتمع الغربى .

لما قسّمت أملاك شارلمان بين حفدته الثلاثة بمقتضى معاهدة فردون عام ٨٤٣ ميلادية . طالب لوثير الحفيد الأكبر مثلا بعاصمتى جدّه « آخن وروما » . ولكى يربط بينهما حزام متصل من الأرض ، خصصت له حصة تفرقت عبر سطح أوروبا الغربية من مصبى نهرى التيبر والبو إلى مصب نهر الراين . ويعتبر نصيب لوثير أحد أعاجيب الجغرافيا التاريخية . على أية حال كان الإخوة الملوك الثلاثة أولاد شارلمان على حق فى اعتقادهم بما لهذه المنطقة من أهمية خاصة فى العالم الغربى . والواقع مهما يكن من أمر مستقبلها فقد كان لها ماض حافل .

ولقد حكم لوثير وجدّه كلاهما من آخن إلى روما . حاملين لقب « الإمبراطور الرومانى » . وكان الخط الممتد من روما عبر الألب إلى آخن (ونحو الأمام من آخن عبر المانش إلى الحائط الرومانى) فى طليعة خطوط دفاع الإمبراطورية الرومانية التى كانت قد اندرست وقتذاك . وأمكن الرومان بإقامة خط مواصلات نحو الشمال الغربى من روما عبر الألب ، وتشييد حاجز حربى على الضفة اليسرى للراين وتغطية الجناح الأيسر لهذا الحاجز يضم جنوب بريطانيا ، أن يفصلوا الطرف الغربى من القارة الأوروبية وراء الألب . ثم ألحقوه بإمبراطورية كانت ــ بصفة أصلية ــ

مقصورة على حوض البحر الأبيض المتوسط ، فيما عدا هذا الجزء منها .

وعلى هذا النحو ، كان خط مملكة لوثير جزءا من الكيان الجغرافى للإمبراطورية الرومانية قبل عصر لوثير ؛ كما أصبح جزءاً من الكيان الجغرافى للمجتمع الغربى بعد ذلك . على أن وظيفة هذا الخط فى بناء الإمبراطورية الرومانية ، لم تماثل وظيفته فى بناء المجتمع الغربى الذى تلاها. إذا كان فى عهد الإمبراطورية حداً ، لكنه غدا فى المجتمع الغربى قاعدة التوسع الجانبى فى كلتا الناحيتين ، وفى جميع الاتجاهات . ففى غضون ما يسمى اصطلاحاً « بالرقاد العميق » (حوالى ٣٧٥ — ٦٧٥ ميلادية) والتى تتوسط فترة تفكك الإمبراطورية الرومانية ، والانبعاث التدريجى للمجتمع الغربى من الفوضى ، أُخذ ضلع من جنب المجتمع القديم وصنع منه العمود الفقرى لكائن جديد من نفس النوع .

يتضح الآن : أن تتبع حياة المجتمع الغربى إلى الوراء فى الفترة السابقة لعام ٧٨٥ ميلادية ، يكشف لنا تلك الحياة ممثلة فى صورة غير صورته ، هى الإمبراطورية الرومانية والمجتمع الذى تنتمى إليه هذه الإمبراطورية . كما يمكن أيضاً إثبات أن أية عوامل فى التاريخ الغربى ، يمكن وجودها فى تاريخ هذا المجتمع القديم ، قد تكون لها وظائف مختلفة تماماً فى كل من هاتين الجماعتين .

ولقد غدا نصيب لوثير أساس المجتمع الغربى . إذ انبعث مجتمع جديد فى نهاية الأمر تحت تأثير اندفاع الكنيسة تجاه الحدود الرومانية وعلاقاتها بالبرابرة الذين كانوا يضغطون عليها من ناحية الشمال من المنطقة غير المملوكة لأحد . وعلى ذلك سيركز مؤرخ المجتمع الغربى فى تتبعه أصوله الماضية من هذه النقطة ، اهتمامه على تاريخ الكنيسة والبرابرة . وسيكون يسيرا عليه ، تتبع كلا التاريخين إلى الوراء لغاية الثورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى حدثت خلال القرنين الأخيرين قبل الميلاد ،

وقتما صرعت صدمة حرب هانيبال الجسيمة ، والمجتمع اليونانى الرومانى .

لماذا بسطت روما ساعدا طويلا تجاه الشمال الغربى ، وضمت إلى إمبراطوريتها الركن الغربى من أوروبا ، ما وراء الألب ؟

لأن صراع الحياة والموت مع قرطاجنة قد جذبها إلى ذلك الاتجاه .

ولماذا توقفت عند الراين بعد ما اجتازت الألب ؟

لأن حيوية روما استنفدها قرنان من الحروب والثورات فى عصر أوغسطين :

لماذا شق البرابرة فى النهاية طريقهم إلى داخل الحدود الرومانية ؟

لأنه عندما يتوقف عن الامتداد خط حدود بين مجتمعين أحدهما رفيع المدنية والآخر أقل مدنية ؛ لا يبقى الخط على حال ثابتة ، بل يتحول بمرور الوقت إلى صالح المجتمع المتأخر .

ولما اخترق البرابرة الحدود ، لماذا تقابلوا مع الكنيسة فى الجانب الآخر ؟

التفسير المادى لذلك : أن الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التى تلت حرب هانيبال ، قد جلبت معها من العالم الشرقى حشودا من الأرقاء لتعمل فى أراضى الغرب المخربة . وتلا هجرة هؤلاء العمال الشرقيين الإجبارية هذه ، تغلغل الأديان الشرقية سلميا فى المجتمع اليونانى الرومانى .

والتفسير الروحى أن هذه الأديان ، بما بشرت بعالم آخر فيه الخلاص الذاتى ، قد وجدت فراغا فى نفوس قلة مسيطرة فشلت فى عالم الدنيا فى إنقاذ مقادير المجتمع اليونانى الرومانى ، فمدت فى تلك النفوس جذورها .

ويجد دارس التاريخ اليونانى الرومانى من الناحية الأخرى ، أن المسيحيين والبرابرة كليهما ، يبدوان كمخلوقات من العالم السفلى وقد ندعوهم بروليتاريا

داخلية وبروليتاريا خارجية[1] للمجتمع اليونانى الرومانى (والأفضل أن نسميه الهلينى) فى طوره الأخير . وقد يظهر أن أساطين الثقافة الهلينية حتى ماركوس أوريليوس (وهو من ضمنهم) ، غالبا ما يتجاهلون وجودهم . وقد يشخّص ذلك الدارس ، الكنيسة المسيحية وعصابات البرابرة الحربية على أنها أمراض خبيثة لم تنتب جسم المجتمع الهلينى إلا بعدما ضعضعت حرب هانيبال قواه أمدا طويلا .

وقد يساعدنا هذا الاستقصاء على استخلاص نتيجة إيجابية فيما يتصل بامتداد المجتمع الغربى إلى الوراء فى الزمن . فإنه وإن كانت فترة حياة هذا المجتمع أطول نوعا ما من حياة أية أمة تنتمى إليه ، إلا أنها لم تبلغ من طول الحياة ، المدى الذى بلغته الأنواع التى يعتبر هذا المجتمع ممثلا لها . فإن تقصّينا تاريخه السابق حتى نصل إلى جذوره ؛ نلتقى بطور أخير لمجتمع آخر تمتد أصوله فى الماضى – بكل جلاء – إلى مدى أبعد كثيراً . وليس اتصال التاريخ – إذا استعملنا تعبيرا مصطلحا عليه – هو ذلك الاتصال الذى يتمثل فى حياة فرد ما . وما هو فى الحقيقة ، إلا اتصال حياة أجيال متعاقبة .

فالمجتمع الغربى – والحالة هذه – ليتصل قرابة بالمجتمع الهلينى ، تمكن مقارنتها – باستخدام تشبيه مناسب – وإن كان معيبا – بالصلة بين الابن والأب .

إن سلّم بالتعليل الوارد فى هذا الفصل ، سيتفق الرأى على أن وحدة الدراسة التاريخية القابلة للفهم ؛ ليست هى دولة قومية ، ولا هى – من الجانب الآخر للسُلّم – الجنس البشرى فى مجموعه . ولكن هذه الوحدة ، هى مجموعة خاصة من البشرية دعوناها نحن « مجتمع » .

ولقد كشفنا خمسا من هذه المجتمعات ما تزال قائمة فى الوقت الحاضر ،

---

(١) يعنى المؤلف بلفظ البروليتاريا ، عنصرا اجتماعيا أو جماعة تعيش فى نطاق مجتمع فى أية فترة من تاريخه دون أن تكون منه . (المترجم)

فضلا عن أدلة تثبت وجود عدة مجتمعات متحجرة ذهبت وانقضت . وعثرنا فى خلال بحثنا عن ظروف ميلاد أحد هذه المجتمعات الحية ، وهو المجتمع الغربى ، على مجتمع معروف آخر فى طور الاحتضار ، يتصل به المجتمع الغربى كما لو كان من عقبه . مجتمع تربطنا به — فى كلمة واحدة — صلة البنوة .

وسنحاول فى الفصل التالى أن نضع قائمة للمجتمعات التى من هذا النوع ، التى يعرف أنها وجدت على هذا الكوكب . وأن نبين علاقات بعضها ببعض :

الفصل الثانى

الدراسة المقارنة للحضارات

أدركنا مما سبق ، أن المجتمع الغربى (أو حضارته) ، قد تولّد عن مجتمع سابق . ومن ثم تتمثل الطريقة الواضحة لمواصلة بحثنا عن مجتمعات أخرى من نفس الفصيلة ؛ فى فحص الأمثلة القائمة الأخرى :

المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، الإسلامى ، الهندى ، مجتمع الشرق الأقصى .

علّنا نكشف عن آباء لها ، هى الأخرى .

ولكن قبل أن نمضى قُدماً فى هذا البحث ، علينا تحديد ما نبحث عنه . وبعبارة أخرى ، تُرى ما هى أدلة التبنى والتولّد التى يجب علينا أن نقبلها برهاناً صحيحاً ؟ وما هى بالضبط الشواهد التى عثرنا عليها فعلا فى موضوع تولّد مجتمعنا نحن عن المجتمع الهلينى ؟

كانت أولى هذه الظاهرات وجود « دولة عالمية » (الإمبراطورية الرومانية) ، تضم المجتمع الهلينى بأسره فى جماعة سياسية مفردة ؛ وذلك فى غضون الطور الأخير من التاريخ الهلينى . وهذه ظاهرة تسترعى الانتباه . لأنها تناقض تماماً تعدد الدول المحلية التى انقسم إليها المجتمع الهلينى قبل قيام الإمبراطورية الرومانية . كما أنها تناقض تماماً ، تعدد الدول التى انقسم إليها المجتمع الغربى حتى الآن .

ونجد فضلا عن ذلك ، أن الإمبراطورية الرومانية قد « تقدمها فى الزمن مباشرة » عصر اضطرابات يعود فى امتداده إلى الوراء إلى حرب هانيبال على الأقل . وهو عصر توقف المجتمع الهلينى خلاله عن الابتداع ، وبدأ تدهوره الفعلى أمراً واضحاً : وكان انحدارا ، وإن أمكن وقفه حقبة

من الزمن بفضل تشييد الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنه تبين فى نهاية الأمر أنه عرّض داء عضال دمّر المجتمع الهلينى والإمبراطورية معه . هذا وقد تلا سقوط الإمبراطورية الرومانية نوع من « فترة الفراغ »[1] بين اختفاء المجتمع الهلينى ، وانبعاث المجتمع الغربى .

ويشغل هذا الفراغ نشاط هيئتين :

الأولى : الكنيسة المسيحية التى أقيمت داخل الإمبراطورية الرومانية ، وعاشت بعد انهيارها .

الثانية : مجموعة من الدول قصيرة العمر ، تخلّفت عن الإمبراطورية الرومانية . وقد نشأت على الأراضى التى كانت للإمبراطورية نتيجة لما يسمى « هجرات الشعوب »[2] ، من المنطقة غير المملوكة لأحد وراء حدود الإمبراطورية .

ولقد سبق لنا وصف هذين العاملين بالبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للمجتمع الهلينى . وإنه وإن اختلفا فى كل شىء ، إلا أنهما يتفقان فى نفورهما من الأقلية المسيطرة فى المجتمع الهلينى . وهى الأقلية التى كانت تتكون من الطبقات القائدة فى المجتمع القديم ، ولكنها ضلّت طريقها وأصبحت لا تقود .

والواقع أن الإمبراطورية سقطت ، وبقيت من بعدها الكنيسة . لأن الكنيسة تولت الزعامة ، وكسبت ولاء الناس لها . بينما فشلت الإمبراطورية حقبة طويلة فى الفوز بهذا أو ذاك . وبالأحرى غدت الكنيسة — وهى التى تخلّفت عن مجتمع محتضر — الرحم الذى خرج منه المجتمع الجديد .

وما هو الدور الذى أدّاه فى مولد المجتمع الغربى المظهر الآخر للفراغ ، أى هجرات الشعوب ، وهو الذى انحدرت أثناءها انحدار السيل من وراء

---

(١) أى فترة غير مستقرة بين عهدين .   (المترجم)

(٢) Vulkerwanderung

حدود المجتمع القديم ؛ البروليتاريا الخارجية أى الألمان والسلاف من غابات شمال أوربا ، والسرماتيون(١) والهون من سهب أوراسيا ، والعرب من شبه جزيرة العرب ، والبربر من جبال أطلس والصحراء الكبرى ؛ الذين قامت دولهم بعد الإمبراطورية الرومانية ودالت سريعاً ، وشاركت الكنيسة مسرح التاريخ خلال الحقبة التى أطلقنا عليها اسم الفراغ أو « عصر البطولة » ؟

مدار الإجابة على ذلك السؤال :

إنه إذا ما قورن ما أدته تلك الدول للمجتمع الغربى بما قامت به الكنيسة له ؛ نجد أن دور تلك الدول سلبى ولا يعتد به . إذ هلكت جميعها تقريباً بفعل العنف قبل نهاية فترة الفراغ . فالوندال والقوط الشرقيون ، قضت عليهم الهجمات المضادة التى شنتها عليهم الإمبراطورية الرومانية نفسها . إذ كان فى بقية وميض اللهب الرومانى ، ما يكفى إحراق هذه الفراشات الضعيفة وقهر غيرهم فى حروب نشبت فيما بينهم . فالقوط الغربيون مثلا ؛ تلقوا الضربة الأولى من الفرنجة ، ثم أجهز العرب عليهم بعد ذلك . أما البقية الباقية التى تخلفت عن هذا الصراع بلا هوادة فى سبيل البقاء ، فقد أصيبت بانحلال مزر وتخبطت فى حياة خاملة إلى أن استأصلتها بعد ذلك قوى سياسية جديدة تحمل بين طياتها جرثومة قوة الابتداع . ومن قبيل هذا النبت الخامل عائلتا ميرفنجيان ولومبارد(٢) اللتان أزالهما بناة إمبراطورية شارلمان . ولم يتبق سوى دولتين من الدول التى خلفت الإمبراطورية الرومانية ، كان لها خلف بين أمم أوروبا الحديثة ؛ مملكة أوستراشيا الفرنجية التى ترجع إلى شارلمان ، ومملكة وسكس التى ترجع إلى ألفرد .

ومن ثم ، كانت هجرات الشعوب ومخلفاتها الفانية ، شواهد إثبات — مثل الكنيسة والإمبراطورية — على انتساب المجتمع الغربى إلى المجتمع

(١) سكان بولندا وغرب روسيا الأقدمون . (المترجم)

(٢) عائلة أسسها كلوفيس عام ٤٨٦ وحكمت الجول والألمان . (المترجم)

الهلينى . لكنها كالإمبراطورية - لا الكنيسة - مجرد شواهد فحسب . وإذا انصرفنا عن دراسة الأعراض إلى دراسة الأسباب ؛ نجد أنه بينما تنتمى الكنيسة إلى المستقبل والماضى على السواء ، انتمت الدول التى أقامها البرابرة بكلياتها إلى الماضى فقط ؛ مثلها مثل الإمبراطورية : فإن قيام تلك الدول ، كان مجرد انعكاس لسقوط الإمبراطورية ، وكان هذا السقوط نذيراً أكيداً بسقوط تلك الدول .

ولقد يصدم هذا التقدير البخس لدور البرابرة فى تكوين المجتمع الغربى ، المؤرخين الغربيين فى الجيل الماضى (مثل فريمان) ؛ الذين اعتبروا نظام الحكومة القائمة على المسئولية البرلمانية ، تطوراً لبعض نظم الحكم الذاتى التى يزعمون أن القبائل التيتونية قد جلبتها معها من المنطقة الغير المملوكة لأحد . لكن هذه النظم التيوتونية - إن فرض وجودها - كانت نظماً أولية يتسم بها الإنسان البدائى فى جميع الأمكنة والعهود ؛ وهى - على ما كانت عليه - لم يقيّض لها البقاء بعد فترة « الهجرات » . ذلك لأن زعماء عصابات البرابرة الحربية ، كانوا مغامرين عسكريين . وكان دستور الدول المستخلفة - مثل دستور الإمبراطورية الرومانيـة فى ذلك الوقت - يتسم بغلبة الروح الاستبدادية عليه ، وإن لطّفت الثورات من هذا الاستبداد . ولقد دالت آخر آثار هذه النظم الاستبدادية البربرية ، عدة قرون قبل البداية الحقيقية للتطور الجديد الذى أنتج بالتدريج ، ما ندعوه بالنظم البرلمانية .

ويمكن كذلك إرجاع جانب من المغالاة الشائعة فى تقدير مساهمة البرابرة فى حياة المجتمع الغربى ، إلى العقيدة الخاطئة التى تعزو التقدم الاجتماعى إلى توافر طائفة من الصفات الفطرية فى الجنس . فإن ما عمد إليه المؤرخون الغربيون فى الجيل الماضى من القياس خطأً على الحقائق التى كشفت عنها فى ذلك الوقت العلوم الطبيعية ؛ أدى بهم إلى تشبيه الأجناس بالعناصر الكيميائية ، وإلى اعتبار مزج السلالات البشرية تفاعلا كيميائياً أطلق

الطاقات الكامنة وأحدث الفوران والتحوّل ، مكان الجمود والركود الموجودين من قبل . وبالحرى خدع المؤرخون أنفسهم بافتراضهم أن « نقل الدم الجديد » — على ما يصفون به التأثير العنصرى للتسلل البربرى — قد يفسر ما تلا ذلك لمدة طويلة من مظاهر الحياة والنمو التى يتكون منها تاريخ المجتمع الغربى . ولقد قيل إن هؤلاء البرابرة « أجناس نقية » من الغزاة الذين ما تزال دماؤهم تبعث فى أجسام خلفهم المزعومين قوة وشرفاً .

وحقيقة الأمر ، أن البرابرة لم يكونوا هم صانعى وجودنا الروحى ؛ وإذا كانوا قد لفتوا الأنظار إلى حركاتهم ، فلأنهم حضروا موت المجتمع الهيلى ؛ لكنهم لن يستطيعوا أن يدّعوا لأنفسهم شرف توجيه الضربة القاضية إلى هذا المجتمع . وذلك لأن المجتمع اليونانى كان يموت فعلا من الجراح التى أحدثها فى نفسه إبان الاضطرابات وقبل وصولهم إلى مسرح الحوادث بعدة قرون . وما كانوا إلا نسوراً تتغذى على الجيفة أو ديداناً تدبّ عليها . فما عصر بطولتهم إلا خاتمة التاريخ الهلينى ، لا فاتحة التاريخ الغربى .

وصفوة القول يمتاز الانتقال من المجتمع القديم إلى الجديد بثلاثة عوامل :

الأول : دولة عالمية فى المرحلة النهائية للمجتمع القديم .

الثانى : دين نما فى المجتمع القديم ، وهو بدوره ينمى المجتمع الجديد .

الثالث : اقتحام البرابرة المجتمع القديم ، فى عصر يشيع فيه الفوضى (يصطلح على تسميته بعصر البطولة البربرية) .

ويعتبر العامل الثانى ، أهم العوامل الثلاثة ، والثالث أقلها أهمية .

وهناك دليل آخر على عمليتى التبنى والتولّد[1] بين المجتمعين الهلينى والغربى ؛ نذكره قبل أن نتابع محاولتنا لاستكشاف غير ذلك من المجتمعات

(١) تتضمن عملية التبنى أن يكون مجتمع أبا روحيا لمجتمع آخر وعملية التولد تفرع مجتمع عن آخر . (المؤلف)

ذات القربى . ويتأتى ذلك عن طريق ابتعاد مهد المجتمع الجديد أو موطنه الأصلى ، من الموطن الأصلى للمجتمع السابق . ولقد وضح من المثال المتقدم ، أن حد المجتمع القديم أصبح مركز المجتمع الجديد ، ولذلك يجب أن نعدّ أنفسنا لملاحظة أمثال هذا الانتقال فى حالات أخرى .

١ — المجتمع المسيحى الأرثوذكسى

لن يترتب على دراستنا أصول هذا المجتمع إضافة جديدة إلى قائمتنا عن نماذج الأنواع . لأنه واضح أن هذا المجتمع والمجتمع الغربى ولدان توأمان للمجتمع الهليني ، مع هذا الفارق وهو أن الأول رحل نحو الشمال الشرقى بدلا من الشمال الغربى . وإذا كان مسقط رأسه أو موطنه الأصلى منطقة الأناضول البيزنطية ، وإذا كان توسع المجتمع الإسلامى المنافس له قد حدّ من حركته كثيراً خلال قرون عديدة ؛ إلا أنه قد استطاع مع ذلك أن يحقق توسعاً كبيراً تجاه الشمال والشرق عبر روسيا وسيبريا ملتفاً حول العالم الإسلامى وضاغطاً على الشرق الأقصى .

أما افتراق المسيحيتين الغربية والأرثوذكسية إلى مجتمعين منفصلين ، فيمكن أن نعزوه إلى انشقاق الشرنقة المشتركة التى خرجا منها — وهى الكنيسة الكاثوليكية — إلى هيئتين : الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والكنيسة الأرثوذكسية . وقد استغرق هذا الانشقاق ثلاثة قرون ليستكمل مقوماته : بادئاً من الجدل حول تحطيم الإيقونات فى القرن الثامن الميلادى ، ومنتهياً بقطع العلائق نهائياً عام ١٠٥٤ ميلادية إثر اختلاف حول مسألة لاهوتية . وفى نفس الوقت اصطبغت كل من كنيستى المجتمعين إبان التباين السريع بينهما ، بصفات سياسية متعارضة تعارضاً حاداً . فأصبحت الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب تتركز حول سلطة مستقلة هى بابوية القرون الوسطى ، بينما غدت الكنيسة الأرثوذكسية إدارة طيّعة تابعة للدولة البيزنطية .

٣ — المجتمعان الإيرانى والعربى والمجتمع السورى

الإسلام هو المجتمع الحى التالى الذى تتعين علينا دراسته . وإذا أمعنا النظر فى أساس المجتمع الإسلامى ميزنا فيه :

دولة عالمية ، نظام دينى عالمى ، هجرة شعوب .

وإنه وإن كانت لا تتطابق مطابقة تامة مع مثيلاتها فى المسيحيتين الغربية والأرثوذكسية ، إلا أنه بينها وبين مثيلاتها هذه تشابه كبير .

فأولا : الدولة الإسلامية العالمية ، هى الخلافة العباسية فى بغداد[1].

ثانياً : النظام الدينى العالمى هو بالطبع الإسلام نفسه .

ثالثاً : وحدثت فترة الهجرات عندما خربت أملاك الخلافة بفعل بدو أتراك ومغول سهب أوراسيا ، وبدو البربر فى شمال أفريقيا ، وبدو شبه الجزيرة العربية .

وتشمل فترة الفراغ التى استغرقتها هذه الهجرات ؛ القرون الثلاثة تقريباً بين عامى ٩٧٥ و ١٢٧٥ ميلادية . وتعتبر السنة الأخيرة ، بدء المجتمع الإسلامى كما نجده فى عالم اليوم ؛

ويبدو كل شىء واضحاً حتى الآن . إلا أن مزيداً من البحث يجعلنا نجابه تعقيدات . أولها أن سلف المجتمع الإسلامى (وهو ما لم تحقق ذاتيته بعد) قد ثبت أن ليس له عقب واحد فحسب ، ولكن توأمان ؛ وهو يشابه فى هذا المجال المجتمع الهلينى . غير أن سلوك هذين التوأمين يختلف كل الاختلاف عن سلوك توأمى المجتمع الهلينى . إذ بينما عاش المجتمعان

---

(١) كان إنشاء الخلافة العباسية فى القاهرة بمثابة استحضار طيف خلافة بغداد . أى أنه كان ظاهرة من نفس نوع الإمبراطورية الرومانية الشرقية الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفى جميع الحالات الثلاث ، أنتج مجتمع متولد عن آخر أو احتفظ بطيف الدولة العالمية للمجتمع الأصلى الذى تولد هو عنه . (المؤلف)

الغربي والأرثوذكسي جنباً إلى جنب قرابة الألف عام بعد انتهاء المجتمع الهليني : فإن أحد التوأمين المتولدين عن سلف المجتمع الإسلامي الذي نحاول تحقيقه ، قد ابتلع التوأم الآخر ، وضمه إليه .

وسندعو هذين المجتمعين الإسلاميين التوأمين : الإيراني والعربي .

لم يكن التباين الذي قام بين خلف ذلك المجتمع الذي لم تتحقق منه بعد ؛ مبعثه الانشقاق الديني ، كما كان الحال بالنسبة لعقب المجتمع الهليني . فإنه وإن تشعّب الإسلام إلى طائفتي أهل السنة والشيعة — كما تفرّعت المسيحية إلى الكاثوليكية والأرثوذكسية — إلا أن هذا الانشقاق الديني في الإسلام لم يتطابق أبداً في أية مرحلة ؛ مع الانقسام بين المجتمع الإيراني الإسلامي والمجتمع العربي الإسلامي . وذلك رغماً عن أن الانشقاق قد مزّق مع الزمن المجتمع الإيراني الإسلامي ، عندما ساد المذهب الشيعي في فارس خلال الربع الأول للقرن السادس عشر الميلادي . واستطاع المذهب الشيعي بذلك أن يستقرّ في مركز المحور الأساسي للمجتمع الإيراني الإسلامي (الذي يمتد شرقاً وغرباً من أفغانستان إلى الأناضول) تاركاً المذهب السني يسود كلا جانبي هـــذا المحور ، أي في طرفي العالم الإيراني وفي البلاد العربية إلى الجنوب والغرب .

وإذا عقدنا مقارنة بين توأمي مجتمع الإسلام وتوأمي مجتمع المسيحية ؛ وجدنا أن المجتمع الإسلامي الذي ولد فيما يمكننا تسميته المنطقة الفارسية التركية أو الإيرانية ، يشابه بعض الشيء المجتمع الغربي . بينما المجتمع الآخر الذي ظهر فيما يمكننا تسميته المنطقة الغربية ، يشابه بعض الشيء المجتمع المسيحي الأرثوذكسي . فمثلا يذكرنا طيف الخلافة العباسية الذي استحضره المماليك في القاهرة في القرن الثالث عشر الميلادي ، بطيف الإمبراطورية الرومانية الذي استحضره الإمبراطور لاوون السوري في القسطنطينية في القرن الثامن .

ولقد كان نظام المماليك السياسى كنظام لاوون متواضعا نسبياً ، إلا أنه كان أعظم تأثيراً وأطول عمراً من إمبراطورية تيمور التى أقامها فى المنطقة الإيرانية المجاورة ؛ وكانت هذه واسعة مبهمة قصيرة العمر . وتشبه فى ظهورها واختفائها إمبراطورية شارلمان فى الغرب .

وثمة وجه شبه آخر : كانت اللغة العربية نفسها هى لغة الثقافة فى المنطقة العربية وفى الخلافة العباسية ببغداد . فى حين وجدت المنطقة الإيرانية فى اللغة الفارسية أداة للتعبير والثقافة ، وهى لغة هذبها تطعيمها بالعربية على غرار تهذيب اللغة اللاتينية بتطعيمها باليونانية .

وأخيراً كان قيام المنطقة الإيرانية من المجتمع الإسلامى بغزو المنطقة العربية منه وامتصاصها إياه — الذى حدث فى القرن السادس عشر — له ما يماثله فى اعتداء المسيحية الغربية على المسيحية الأرثوذكسية خلال الحروب الصليبية . وعندما بلغ هذا الاعتداء ذروته عام ١٢٠٤ ميلادية — وقتما تحولت الحرب الصليبية إلى حرب ضد القسطنطينية — بدا حينذاك كما لو أن المسيحية الأرثوذكسية ستغزوها شقيقتها الأخرى وتمتصها نهائياً . وكان هو المصير الذى أصاب المجتمع العربى بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، عندما أطاح الباديشاه العثمانى سليم الأول بالمماليك وأزال الخلافة العباسية فى القاهرة عام ١٥١٧ ميلادية .

أحرى بنا الآن أن نشرع فى دراسة المسألة المتعلقة بماهية المجتمع غير المعين الشخصية ، الذى كانت فيه الخلافة العباسية فى بغداد مرحلته الأخيرة على غرار ما كانت الإمبراطورية الرومانيـــة فى المجتمع الهلينى . هل نجد إذا رجعنا التاريخ القهقرى جاعلين الخلافة العباسية نقطة البداية ، ظواهر تشابه عصر الاضطرابات ، الذى وجدناه فى المرحلة قبل الأخيرة للمجتمع الهلينى ؟

ونقول فى الإجابة عن هذا أننا لا نجد شيئاً من هذا القبيل .

وتفسير ذلك أننا نجد الخلافة الأموية فى دمشق قبل الخلافة العباسية

ببغداد . ويوجد قبلها ألف سنة من التدخل الهليني بدأ منذ فتوحات الإسكندر المقدونى فى النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد . ثم تلا تلك الفتوح ، أسرة سلوقوس الملكية اليونانية فى سوريا ، ثم حملات بومبى والفتح الرومانى . ولم يوقف هذا التدخل ، إلا انتصار الشرق على أيدى الغزاة المسلمين الأول فى القرن السابع الميلادى .

ويبدو أن الغزوات الجائحة للعرب المسلمين الأولين ، قد تجاوبت فى الإيقاع التاريخى ، تجاوباً مضاداً مع غزوات الإسكندر الأكبر الجائحة . فكلاهما قد غير وجه العالم فى حوالى ست سنوات . إلا أن الغزوات العربية بدلا من أن تغير وجه العالم على طريقة المقدونيين فتجعل منه شيئاً آخر لا تمكن التعرف عليه ، غيرته بإعادته إلى شىء يشبه صورته فى ماضيه شبهاً ملحوظاً . وكما مهّد الفتح المقدونى الأرض لاستنبات الهلينية بوساطة تحطيم الإمبراطورية الأخيمانية (أى إمبراطورية قورش وخلفائه) مهّد الغزو العربى كذلك الطريق للأمويين وللعباسيين من بعدهم ، لإعادة تشييد دولة عالمية معادلة للإمبراطورية الأخيمانية . ولو وضعنا خريطة كلا الإمبراطوريتين إحداهما فوق الأخرى ، لراعنا التطابق الكبير الذى تظهره حدودهما . وسنجد أن التطابق ليس جغرافياً فحسب ، بل يمتد إلى طرائق الإدارة وحتى إلى المظاهر المألوفة فى الحياة الاجتماعية والروحية :

ونستطيع أن نعبّر عن الوظيفة التاريخية للخلافة العباسية بوصفها بأنها كانت تكامل الإمبراطوية الأخيمانية واستعادة سيرتها . أى تكامل سياسى فككته صدمة قوة خارجية ، واستعادة طور من أطوار الحياة الاجتماعية ، قطعها تدخل أجنبى . فالخلافة العباسية إذن ، يمكن اعتبارها استمرارا للدولة العالمية التى كانت المرحلة الأخيرة فى حياة مجتمعنا الذى لم نعينه بعد ، والذى انتقل من ثم البحث عنه إلى ألف سنة إلى الوراء .

أحرى بنا الآن أن نفحص الأسلاف المباشرين للإمبراطورية الأخيمانية بحثا عن الظاهرة التى لم نعثر عليها فى أسلاف الخلافة العباسية . ألا وهى

عصر اضطرابات يماثل ذلك العصر فى التاريخ الهلينى ، الذى سبق قيام الإمبراطورية الرومانية مباشرة .

إن المشابهة العامة بين تكوينى الإمبراطورية الأخمينية والإمبراطورية الرومانية ، مما لا يمكن أن تخطأ . وأهم اختلاف ثانوى هو أن الدولة العالمية الهلينية قد نمت من صميم الدولة التى كانت العامل الأساسى فيما حل من تدمير إبان عصر الاضطرابات السابق عليها . على حين أن دورى التدمير والإنشاء اللذين قامت بهما روما على التعاقب فى الدولة العالمية الهلينية ، قد قامت به – فى تكوين الإمبراطوية الأخمينية – دول مختلفة .

فقامت آشور بالدور التدميرى . وما كادت أن تستكمل مهمتها ، وتتولى إنشاء دولة عالمية ، فى المجتمع الذى كانت هى آفته ، حتى جلبت الدمار على نفسها بالمغالاة فى الروح العسكرية . وهكذا ، قبل الوصول إلى الخاتمة الكبرى ، لقى بطل الرواية مصرعه فى صورة درامية (عام ٦١٠ ق . م) : ومثل دوره على خلاف ما كان يتوقع ، ممثل كان – حتى هذا الوقت – يقوم بدور ثانوى . فحصدت الأخمينية ما زرعته آشور . بيد أن إحلال ممثل بآخر لم يغير شيئاً من سياق القصة .

وإذا كنا قد ميزنا بذلك عصر الاضطرابات ، فلربما يصبح فى مقدورنا أخيراً ، الاهتداء إلى المجتمع الذى نبحث عنه . فمن الناحية السلبية ، فى استطاعتنا أن نقرر أنه لم يكن المجتمع الذى انتمى إليه الآشوريون . لأنهم – كالمقدونيين خلال مرحلة تالية من مراحل هذا التاريخ الطويل المعقد – قد أدوا دورهم كدخلاء ، وفدوا ثم رحلوا : وإنا لنستطيع أن نتتبع فى مجتمعنا غير المعين أثناء وحدته فى ظل الإمبراطوية الأخمينية – أثر الطريقة السلمية التى طردت بها العناصر الثقافية التى أدخلتها آشور عندما أحلت اللغة الآرامية وأبجديتها تدريجيا ، مكان اللغة الآكادية والخط المسمارى :

فالآشوريون أنفسهم استخدموا في أيامهم الأخيرة ، الأبجدية الأرامية فى الكتابة على الرقّ ، بالإضافة إلى كتابتهم المسمارية التقليدية التى كانوا يطبعونها على ألواح من الصلصال أو ينقشونها على الحجر . وفى استخدامهم الحروف الهجائية الأرامية ، قرينة على استعمالهم اللغة الأرامية نفسها . وعلى أية حال ، ظلت اللغة الأرامية وحروفها بعد تدمير الدولة الآشورية وانقضاء الإمبراطورية البابلية القصيرة الأجل (أى إمبراطورية نبوخذ نصر) التى تلت تلك الدولة ، تزداد باستمرار انتشارا ، حتى اختفت تماما اللغة الأكادية والكتابة المسمارية من جميع موطنها فى بلاد ما بين النهرين ، إبّان القرن الأخير الذى سبق الميلاد .

ويمكن العثور على تغيير مماثل فى تاريخ اللغة الإيرانية التى ظهرت فجأة بعد خمول ذكر ، لتصبح لغة الميديين والفرس ، الشعبين الحاكمين فى الإمبراطورية الأخيمانية . فإن الفرس لما واجهتهم مشكلة تدوين سجلاتهم بلغة ليست لها كتابة خاصة بها ، اتخذوا الخط المسمارى للنقش على الحجر ، والأرامى للكتابة على الرق . ولكن الخط الأرامى هو الذى بقى وسيلة التعبير باللغة الفارسية .

وفى الواقع ، استقر معاً عنصران ثقافيان ، أحدهما من سوريا والآخر من إيران . وشارك كل منهما الآخر مشاركة وثيقة ، فى الوقت نفسه . فمن نهاية عصر الاضطرابات الذى سبق قيام الإمبراطورية الأخيمانية — عندما بدأ الأراميون المهزومون فى التسلط ثقافياً على غزاتهم الآشوريين — كانت عملية المشاركة مطردة . فإذا رغبنا فى تعيين وجودهما قبل ذلك ، علينا أن نتطلع إلى مرآة الديانة ، لنرى كيف أن نفس عصر الاضطرابات أوحى نفس الإلهام إلى زرادشت نبي إيران ، وإلى أنبياء إسرائيل ويهوذا المعاصرين له :

وعلى العموم ، فإن العنصر الأرامى أو السورى — أكثر من الإيرانى — هو الذى يمكن اعتباره أعمق تأثيراً . وإذا ما رجعنا إلى ما وراء عصر

الاضطرابات ، لاختفى العنصر الإيرانى ، ولرأينا مجتمعا فى سوريا فى عصر الملك سليمان ومعاصره الملك حيرام ، يكتشف المحيطين الأطلسى والهندى ، بعد أن كشف الأبجدية قبلئذ .

فها نحن إذن ، قد حققنا أخيراً ذاتية المجتمع الذى انحدر منه مجتمعا الإسلام التوأمان اللذان اتحدا فيما بعـد فى مجتمع واحد . وسندعوه المجتمع السورى .

لننظر إلى الإسلام مرة أخرى ، على ضوء تحقيق الذاتية هذا :

كان الإسلام ، الدين العالمى الذى اتصل عن طريقه مجتمعنا السورى فى نهاية المطاف بالمجتمعين الإيرانى والعربى ، اتصال الأبوة .

وفى مكنتنا الآن أن نعاين فارقاً طريفاً بين تطور كل من الإسلام والمسيحية . ولقد لاحظنا أن جرثومة القوة المبدعة فى المسيحية لم تكن هلينية ولكنها من أصل أجنبي (فى الواقع سورية الأصل ، كما نستطيع الآن أن نتحقق) . وعلى العكس نلاحظ أن الجرثومة المبدعة فى الإســلام لم تكن غريبــة عن المجتمع السورى ، بل إنها منه . وإن ما أتى به الإسلام عن اليهودية وهى ديانة سورية محضة وعن المسيحية النسطورية وهى أحد أشكال المسيحية ساد فيه العنصر السورى على العنصر الهلينى ؛ إنما هو مصداق لما ورد فى القرآن « مصدّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل » .

إن نظاماً ضخماً كديانة عالمية ، لا يمكن طبعاً أن يكون متفرعاً عن أصــل واحد ، منحدراً من مجتمع فرد . وتأييدا لذلك ، عثرنا فى المسيحية على عناصر هلينية ، استقيت من العبادات الهلينية ذوات الطقوس السرية والفلسفة الهلينية . وبالمثل — ولكن إلى مدى أقل كثيراً — نستطيع استقصاء التأثيرات الهلينية فى الإسلام[1] .

---

(١) لعل المؤلف يقصد تلك التأثيرات التى طرأت على آراء الكتاب المسلمين بفضل ترجمة مؤلفات فلاسفة اليونان . أما قواعد الإسلام ، فإن المؤلف يقرر أنها أصيلة كل الأصالة . (المترجم)

وعلى وجه العموم ، فإن الكنيسة المسيحية ، نظام عالمى تولّد من جرثومة غريبة عن المجتمع الذى قامت بدورها فيه ، فى حين أن الإسلام تولّد فى مجتمع لم يكن غريباً عنه .

وفى الختام ، نستطيع أن نقيس درجتى تحوّل الموطنين الأصليين للمجتمعين المتولدين : الإيرانى والعربى ، عن الموطن الأصلى لأبيهما ، المجتمع السورى .

يبدى خط الأساس للمجتمع الإيرانى /الإسلامى من الأناضول إلى السند ، تحوّلا كبيراً ، فى حين يشمل موطن المجتمع العربى الإسلامى فى سوريا ومصر جميع منطقة المجتمع السورى ، وتحوّله صغير نسبياً .

٣ — المجتمع السندى :

المجتمع الحى التالى الذى يتعين علينا فحصه هو المجتمع الهندى . وهنا نلمح فى أعماقه أيضاً الشواهد القياسية على وجود مجتمع سابق فيما وراء أفقه .

إن الدولة العالمية فى هذه الحالة هى إمبراطورية الجوبتاس[١] (حوالى ٣٧٥ — ٤٧٥ ميلادية) . والدين العالمى هو الهندوسية التى سادت الهند إبان عصر جوبتا ؛ فطردت البوذية وحلّت محلّها . بعد أن كانت البوذية ، لمدة سبعة قرون ، الدين الأول فى شبه الجزيرة الهندية ، وهى موطن كلا الديانتين .

أما فترة الهجرات التى غشيت إمبراطورية جوبتا عند سقوطها ، فإنها نتيجة اندفاع قبائل الهون المنحدرة من السهب الأوراسى ؛ والتى كانت تغير على الإمبراطورية الرومانية فى نفس الوقت . وتقع فترة الفراغ التى شغلوها بتحركاتهم ، والتى شغلتها الدول التى خلفت إمبراطورية جوبتا ،

---

(١) تشاندرا جوبتا هو محرر الهند من سلطان المقدونيين ومؤسس أسرة موريان التى حكمت الهند وأفغانستان مدى مائة وسبعة وثلاثين عاما . (المترجم)

بين عامى ٤٧٥ و ٧٧٥ ميلادية تقريباً ؛ وبدأ بعد ذلك ظهور المجتمع الهندى الذى ما يزال حياً . ولقد عاش شانكارا[١] ، أبو الفلسفة الهندية حوالى سنة ٨٠٠ ميلادية .

وإذا رجعنا إلى الوراء أكثر من ذلك ، خلال بحثنا عن المجتمع العتيق الذى ينتسب إليه الهندى ؛ نجد نفس الظاهرة التى عقّدت بحثنا عن المجتمع السورى – وإن كان ذلك على نطاق أضيق – ألا وهى التدخل الهلينى . فلم يبدأ هذا التدخل الهلينى مبكراً مع حملة الإسكندر ، التى لم تكن لها أية نتيجة دائمة من حيث التأثير فى الثقافة الهندية . وفى الواقع يبدأ التدخل الهلينى فى الهند فعلا بغزو ديمتروس – ملك باكتريا اليونانى – حوالى ١٨٣ / ١٨٢ ق . م ، وينتهى عند تدمير آخر الدخلاء المتحضرين بالحضارة الهلينية بعض الشيء عام ٣٩٠ ميلادية ؛ ويمكن اعتبار هذا التاريخ ، التاريخ التقريبى لقيام إمبراطورية جوبتا .

وإذ نتتبع الخطوط التى اهتدينا بها إلى أثر المجتمع السورى ، علينا أن نبحث فى الهند – كما بحثنا فى جنوب غربى آسيا – عن دولة عالمية سابقة للهلينية ، دولة تعتبر إمبراطورية جوبتا استمراراً لها بعد الهلينية : وهذا ما يتوافر فى إمبراطورية موريباس التى أقامها تشاندرا جوبتا عام ٣٢٣ ق . م والتى اشتهر بها الإمبراطور أسوكا خلال القرن التالى وانتهت بفعل الغاصب بوشيا مترا عام ١٨٦ ق . م .

ونجد فيما وراء هذه الإمبراطورية ، عصر اضطرابات حافل بالحروب المدمّرة بين الدول المحلية . ويضم بين ثناياه ، الفترة التى عاشها شدهارتا جوتاما بوذا . وإن فى حياة جوتاما ونظرته إلى الحياة ، أحسن دليل على أن

---

(١) استطاع شانكارا فى حياته القصيرة البالغة اثنتين وثلاثين عاما أن يجمع بين شخصيتى الحكيم والقديس . فجمع بين الحكمة والرحمة ، وهو ما يتصف به حكماء الهند فى كل زمان ومكان .
(المترجم)

المجتمع الذى ينتمى إليه ، كان فى حالة سيئة إبان عصره . ويعزز هذا الدليل ، حياة ماهافيرا[١] مؤسس الجانتية ، ونظرته إلى الحياة . وكذلك حيوات غيره من نفس الجيل فى الهند الذين نبذوا الحياة الدنيا ، وحاولوا الاهتداء إلى عالم آخر عن طريق الزهد .

ونتبين فى أبعد فترة قبل ذلك ، فيما وراء عصر الاضطرابات هذا ، عصر بطولة سجلته أسفار الفيدا[٢] ، وهكذا قد استطعنا التحقق من المجتمع الذى ينتسب إليه المجتمع الهندى ؛ لندعوه السندى . ويقع الموطن الأصلى للمجتمع السندى فى وادى السند والوادى الأعلى لنهر الجانج ، ومنهما انتشر هذا المجتمع إلى جميع أرجاء شبه الجزيرة . ومن ثم فإن مركزه الأصلى ، يماثل مركز المجتمع الذى خلفه :

٤ ــ المجتمع الصينى :

بقى أن نرتاد ما وراء المجتمع الحالى الوحيـــد الباقى ، وموطنه الشرق الأقصى .

هنا نجد أن الدولة العالمية ، هى إمبراطورية أسرتى تسين وهان المتعاقبتين ، المشيدة فى عام ٢٢١ ق . م . أما الديانة العالمية فهى المهايانا ، ذلك الضرب من البوذية الذى سلك طريقه إلى إمبراطورية هان والذى غدا

---

(١) وصف أتباع ماهافيرا (وتعنى البطل العظيم) المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبى الذى يقع فى الزمان . فكانوا يعلّمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة . وأما الحقيقة المطلقة فلا تنكشف إلا لطائفة الجنا ، أى المخلصين للبشر . والطريقة المؤدية للخلاص من لعنة تناسخ الأرواح هى توبة تقشفية والامتناع عن إيذاء أى كائن حى ، وأن ينبذ المرء الاستمتاع بالأشياء الخارجية . (المترجم)

(٢) أسفار الفيدا معناها الحرفى كتب المعرفة . وكانت أناشيد أخذت تنمو على تتابع الأجيال التى تناقلتها بالرواية جيلا بعد جيل . ومعظم الترانيم دعوات لأغراض عملية مثل الإكثار من المحصول والقطعان وطول العمر . وقليل جدا منها يرتفع إلى مستوى الأدب الرفيع . (المترجم)

بذلك الشرنقة التي خرج منها مجتمع الشرق الأقصى الحالي . أما الهجرات التي حدثت عقب سقوط الدولة العالمية ، فقد انبثقت عن بدو السهب الأوراسي الذين أغاروا على إمبراطورية هان حوالي عام ٣٠٠ ميلادية . وإن كانت إمبراطورية هان نفسها ، قد أخلت الطريق لفترة فراغ ، قبل ذلك بأكثر من المائة عام .

وعندما نولي وجهنا شطر ما قبل إمبراطورية هان ، نجد عصر اضطرابات واضح المعالم ، يعرف في التاريخ الصيني بـ « تشان كودو » (أي فترة الدول المتحاربة) ، وقد شملت فترة قرنين ونصف قرن ؛ تلت وفاة كونفوشيوس عام ٤٧٩ ق . م .

وتعيد إلى أذهاننا سمتا هذا العصر – طريقة الحكم الانتحارية والحيوية الفكرية الموجهة ناحية فلسفة الحياة العملية ؛ تعيد فترة من التاريخ الهليني بين عصر زينو مؤسس الفلسفة الرواقية ، وموقعة آكتيوم التي أنهت عصر الاضطرابات . وفضلا عن ذلك تعتبر القرون الأخيرة من عصر الاضطرابات في الحالتين ، ذروة الانحلال الذي بدأ قبل ذلك ببعض الوقت . وكانت جـذوة الروح الحربية – التي أحرقت نفسها إبان فترة عصر كونفوشيوس – متقدة فعلا قبل أن يستخدم كونفوشيوس مقياسه للشئون البشرية . وإن حكمة هذا الفيلسوف الدنيوية ، وتصوف معاصره الفيلسوف الدنيوي لاوتسي ، لبرهان على أن كليهما قد أدركا أن في تاريخ مجتمعهما ، عصراً لنمو سبق أن ولّى .

فأي اسم نطلقه على المجتمع الذي كان كونفوشيوس يوقر ماضيه على حين كان لاوتسي يدير له ظهره ، مثله مثل كريستيان الذي يهجر مدينة الهلاك[1] ؟

---

(١) في قصة بنيان المشهورة . (المترجم)

ربما نستطيع أن نطلق على هذا المجتمع اسما مناسباً ، فلنسمه : المجتمع الصينى .

وتشابه الماهايانا – الديانة التى أصبح المجتمع الصينى ينتسب عن طريقها إلى مجتمع الشرق الأقصى الحاضر – الدين المسيحى . وتختلف عن الإسلام والهندوسية ، فى أن جرثومة الحياة التى خرجت منها هذه الديانة ، لم تكن محلية بالنسبة للمجتمع الذى قامت فيه بدورها ، ولكنها وفدت إليه من مكان آخر . ويبدو أن الماهايانا قد ولدت فى الأراضى الهندية الخاضعة لملوك باكتريا اليونانيين ولخلفائهم الكوشان أشباه الهلينيين ، وأنها ترعرعت بلاريب فى أقاليم الكوشان فى حوض نهر تاريم ، حيث خلف الكوشانيون أسرة هان الأولى ، قبل أن تعيد أسرة هان التالية غزو هذه الأقاليم وضمها إليها . ومن هذا الباب دخلت الماهايانا العالم الصينى ، ثم واءمت البروليتاريا الصينية بينها وبين احتياجاتها الخاصة .

وكان حوض النهر الأصفر ، الموطن الأصلى للمجتمع الصينى ، ومنه انتشرت إلى حوض اليانجسى . ويدخل كلا الحوضين فى الموطن الأصلى لمجتمع الشرق الأقصى . ذلك الموطن الذى امتد فى اتجاه الجنوب الغربى على طول الساحل الصينى ، وكذلك تجاه الشمال الشرقى إلى كوريا واليابان .

٥ – الجماعات المتحجرة :

ستعاونا المعلومات التى جمعناها حتى الآن بفضل فحص أبوّات المجتمعات الحالية ، على فرز « المتحجرات » ، ونسبتها إلى المجتمعات البائدة التى كانت تنتمى إليها أصلا .

فاليهود والبارسى ، جماعتان متحجرتان من المجتمع السورى ، بالحالة التى كان عليها قبل تدخل الهلينية فى العالم السورى . والمسيحيون النساطرة

والمنوفيستيون ؛ هم بقايا رد فعل المجتمع السورى ضد التدخل الهلينى ؛ رد فعل تمثل فى معارضات متتالية ومتناوبة ، ضد تأثر دين ــ كان فى الأصل سوريا ــ بالهلينية .

ومن الجماعات المتحجرة للمجتمع السندى : الجانتيون فى الهند ، وأتباع بوذية هينايانا فى سيلان وبورما وسيام وكمبوديا . وهى مجتمعات تحجّرت إبان فترة إمبراطورية ميريان ، قبل التدخل الهلينى فى العالم السندى . ويقابل أتباع بوذية ماهايانا اللامية[1] فى التبت ومنغوليا ، النساطرة . أى يمثلون رد فعل فاشل ضد تحوّل بوذية ماهايانا عن عن صورتها السندية الأصلية إلى صورتها التالية التى شكّلتها التأثيرات الهلينية والسورية ، وهى صورتها عندما اعتنقها المجتمع الصينى فى نهاية الأمر .

ولا يتيح لنا أى من هذه الجماعات المتحجرة : دليلا يمكّننا من إجراء أية إضافات أخرى إلى قائمتنا عن المجتمعات . بيد أن مواردنا لم تنضب بعد . إذ نستطيع أن نتوغل فى الماضى أكثر من ذلك ، فنجد آباء لبعض المجتمعات التى حققنا ذاتيتها باعتبارها آباء لنماذج ما تزال حيّة .

٦ ــ المجتمع المينووى :

ثمة إمارات تظهر بجلاء خلف المجتمع الهلينى لقيام مجتمع سبقه فى الزمن ، تتألف دولته العالمية من الإمبراطورية البحرية التى أمكنه المحافظة عليها بفضل سيطرته على بحر إيجه من قاعدة فى جزيرة كريت ، خلّفت فى التقاليد اليونانية اسم « تلاسوكراتية مينووا[2] » . كما تركت أثراً على سطح الأرض فى الأجزاء العليا من القصور التى كشف عنها حديثاً فى كنوسوس وفايستوس .

---

(١) يؤمنون بالبوذا الحى فى شخص اللاما وكان مركزه مدينة لاهاسا عاصمة التبت قبل استيلاء الشيوعيين عليها . (المترجم)

(٢) التلاسوكراتية Thallassocraty حكم أهل البحر . (المترجم)

وتتيسر رؤية فترة الهجرات التى حدثت بعد هـذه الدولة العالمية ، فى الشعر الذى سجلته أعظم ملاحم الأدب اليونانى « الإلياذة والأوديسية » (وإن كان سحر الشعر التقليدى قد غيّر كثيراً من ملامحه) . كما يمكن أن نرى فى السجلات الرسمية المعاصرة الخاصة بالأسر المصرية الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين ؛ التى ترينا شيئاً أقرب إلى الأحداث التاريخية .

ويبدو أن الهجرات قد بدأت بغزو من البرابرة الآخيين ومن فى حكمهم ؛ الذين أتوا من أواسط أوروبا إلى ساحل بحر إيجه ، ونزلوا إلى البحر وتغلّبوا على قوة كريت البحرية فى البحر نفسه . والشهادة الأثرية التى تدل على مدى ما جنته أيديهم ، هى تخريب القصور الكريتية فى نهاية العصر الذى اصطلح علماء الحفائر على تسميته بـ « الطور الثانى من الحضارة المينووية المتأخرة » . وبلغت الحركة أقصاها ؛ على شكل نوع من الطوفان البشرى قوامه شعوب بحر إيجه (غالبة ومغلوبة على السواء) ، اكتسح إمبراطورية حاتى (الحيثيين) فى الأناضول وأغار على الإمبراطورية الحديثة فى مصر ، لكنه فشل فى تحطيمها . وحدد المؤرخون عام ١٤٠٠ ق . م ، تاريخا لتدمير كنوسوس . وتساعدنا السجلات المصرية على وضع تاريخ هذا الطوفان البشرى بين عامى ١٢٣٠ و ١١٩٠ ق . م .

وعلى هذا نستطيع اعتبار أن المدة من ١٤٢٥ إلى ١١٢٥ ق . م . ، هى الفترة التى يقع الفراغ خلالها .

ويعرقل جهودنا فى تتبع آثار هذا المجتمع الأقدم ، عجزنا عن قراءة الكتابة الكريتية . ولكن الحفائر تنبئنا بحضارة مادية تفتحت فى كريت وانتشرت فجأة إلى آرجوليد خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد ، عبر بحر إيجه ثم انتشرت تدريجيا من هذه النقطة إلى الأجزاء الأخرى من اليونان القارية فى غضون القرنين التاليين . وثمة ما يدل أيضاً على وجود حضارة كريتية تمتد جذورها حتى العصر الحجرى الحديث .

ونستطيع أن نطلق على هذا المجتمع : المجتمع المينووى .

لكن هل لدينا ما يبرر اعتبار المجتمعين المينووى والهلينى ينتسب أحدهما للآخر ، على غرار المجتمعين الهلينى والغربى ، أو المجتمعات المنتسبة بعضها من بعض ، أو التى تولّد بعضها عن البعض الآخر ، أو التى حققنا ذاتيتها ؟

تمثلت الرابطة الاجتماعية – فى تلك الحالات الأخرى – بين مجتمعين فى دين عالمى خلقته طبقة البروليتاريا الداخلية فى المجتمع القديم ، ثم أصبح بعد ذلك بمثابة شرنقة تكونت داخلها هيئة المجتمع الجديد . بيد أنه لا يوجد شىء مينووى فى أهم تعبير عن القومية الهلينية ، ألا وهو البانثيون الأوليمبى . إذ اتخذ هذا البانثيون شكله التقليدى فى ملاحم هومير ، حيث ترى الآلهة فى صورة البرابرة الذين انقضّوا على العالم المينووى خلال الهجرات التى دمرته . وما زيوس إلا زعيم حربى آخى ، حكم الأوليمب مغتصبا مكانة كرونوس الذى كان قبله ، ثم قسّم غنائم الكون فمنح المياه والأرض لأخيه بوسيدون Poseidon وهيدس Hades ، واحتفظ بالسماء لشخصه . وهذا البانثيون آخى ، ولاحق للعصر المينووى . بل ولا نرى مجرد انعكاس للدين المينووى فى الأرباب التى جرّدت من سلطانها . إذ كان كرونوس والتيتان ، كائنات من نفس مرتبة زيوس وعصبته الحربية .

ويذكّرنا هذا بالدين الذى نبذته أكثرية البرابرة التيوتون قبل بدء إغاراتهم على الإمبراطورية الرومانية . وهو دين احتفظ به وهذّبه ذوو قرباهم فى اسكندنافيا ، ثم نبذوه بدورهم فى غضون مرحلة هجراتهم (غزوات أهل الشمال) بعد ذلك بخمسة أو ستة قرون . فإذا كان قد وجد شىء له طبيعة الدين العالمى فى المجتمع المينووى وقتما دهمه السيل البربرى ، لكان ذلك الشىء مختلفا عن العبادات الأوليمبية اختلاف النصرانية عن عبادة اودين Odin[1] وثور Thor[2] .

---

(١) أودين : أحد أرباب القبائل التيوتونية . وكان ينظر إليه على أنه مصدر الحكمة والجرأة . وكان حامى الثقافة والبطولة . وقد دخل اسمه فى يوم الأربعاء بالإنجليزية .
(المترجم)

(٢) ثور : هو إله الرعد عند التيوتون . (المترجم)

هل وجد مثل هذا الشيء ؟

إن ثمة أمارات ضعيفة على وجوده ، حسب رأى أكبر مرجع فى هذا الموضوع :

« اعتمادا على ما أمكن قراءته من الأدلة على طقوس العبادة الكريتية القديمة ، يبدو أننا لا نميّز جوهرا روحيا أعلى فحسب ، بل نرى فى أتباعه شيئاً يشبه الإيمان الذى كان يدفع خلال الألفى سنة الماضية أتباع الديانات الشرقية المتعاقبة : الإيرانية والمسيحية والإسلامية . ويتضمن هذا الجوهر روحا فى العابد تجعله يقطع فى الأمور بطريقة حاسمة لا تقبل الشك . وهذه الروح هى أبعد ما تكون عن وجهة النظر الهلينية . . . وإن قورنت الخطوط الرئيسية لهذه الروح بديانة اليونانيين القدماء ، أمكن القول بأنها أعظم روحانية فى جوهرها . كما أن لها من الناحية الأخرى شخصية أكبر فى سلوكها . إذ يظهر على « خاتم نسطور[١] » — حيث ترى رموز البعث فوق رأس الآلهة على شكل يرقة وفراشة — أن لها (أى للآلهة) قوة منح عبّادها الحياة بعد الموت ، وأنها قريبة جداً من أتباعها . . . وحفظت أولادها حتى بعد الموت . . . وقد كانت للديانة اليونانية أسرارها . إلا أن الآلهة اليونانيين من الجنسين كانت على قدم المساواة تقريبا ، ولم تكن علاقات بعضهم بالبعض الآخر تقوم بأية حال من الأحوال على مثل هذه العلاقة الوثيقة التى تدل عليها الشعائر المينووية . بل كان الانشقاق بينهم — الذى اتخذ شكل ضغائن عائلية وقبلية — واضحا تماما ، مثله فى ذلك مثل تعدد أشكالهم وصفاتهم . وعلى العكس من ذلك ، يظهر على الدوام فى جميع أنحاء العالم المينووى ، ما يبدو أنه آلهة عليا واحدة . . . والخلاصة العامة لذلك

---

(١) كان نسطور فى الأسطورة اليونانية ابن نيلوس ملك بيلوس . وقد ساهم فى حصار طرواده . وأصبح عند اليونانيين لما تقدمت به السن ، علما على الحكمة . (المترجم)

أننا تجاه ديانة تمتاز بالتوحيد إلى حد كبير ، ويشغل فيها الشكل الأنثوى للألوهية المكان الأعلى[١] .

وثمة أدلة أخرى على ذلك فى التقاليد الهلينية :

فإن اليونانيين قد احتفظوا بأسطورة « زيوس » الكريتى الذى لا يمكن أن يكون فى الواقع نفس الإله المعروف بـ « زيوس أوليمب » . إذ أن هذا الزيوس الكريتى ليس قائداً لجماعة حربية يظهر على المسرح تام النمو ، كامل التسلّح ، كى يستولى على مملكته بالقوة ؛ بل يظهر كطفل حديث الولادة . وقد يكون هو نفس الطفل الذى يمثله الفن المينووى ، تحمله الأم الإلهية ليعبده العابدون . وهذا الطفل ليس مولوداً فحسب ، بل إنه يموت أيضاً .

فهل تمثّلت ولادته وموته فى ولادة ديونيسوس[٢] وموته ، وهو الإله التّراقى الذى رؤى فيه إله طقوس ألوسيس[٣] السرية ؟

وهل كانت الطقوس السرية فى اليونان القديمة — مثل السحر فى أوربا الحديثة — بقية دين مجتمع غمره مجتمع آخر ؟

لو كانت المسيحية قد استسلمت للفايكنج ووقعت تحت سيطرتهم ،

---

(١) Evans, Sir Arthur : The Earlier Religion of Greece in the Light of Cretan Discoveries صفحات ٣٤-٤١

(٢) كان ديونيسوس فى أول الأمر من آلهة تراقيا فى شمال اليونان ، وكان إله الشراب المصنوع من الشعير . فلما جاء اليونان أصبح إله الخمر وحارس الكروم . وكان فى بادئ الأمر إلها للخصب ثم أصبح إله السُكر . وانتهى أمره بأن صار ابن الإله الذى مات ليخلّص البشر . وكان الحزن على موت ديونيسوس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونانيين . وإذا تأملنا هذه الصورة ، طالعتنا أسطورة إيزيس وأوزيريس وحورس المصرية . (المترجم)

(٣) التخفى هو أقوى العناصر فى العقيدة اليونانية . وتتضمن احتفالا يكشف فيه عن رموز مقدسة وتقام فيه طقوس تمثل عذاب إله من الآلهة وبعثه ، أو تحيى ذكرى هذا العذاب والبعث بطريقة مسرحية . وفى طليعة الأماكن التى كانت تقام فيها هذه الطقوس ، مدينة ألوسيس . وظاهر تأثر القوم بعقيدة أوزيريس المصرية . (المترجم)

وأخفقت فى تحويلهم إلى عقيدتها ، لأمكننا أن نتخيل أن القدّاس يقام سراً طوال أجيال طويلة فى سراديب مجتمع جديد ديانته الغالبة عبادة الأيسير Assir [١] . ونستطيع أن نتخيل أن هذا المجتمع الجديد عندما يستكمل نموه ولا يجد ما يشبعه فى ديانته ، سيبحث عن خبز حياته الروحية فى الأرض التى استقر فيها . وإزاء هذا الجوع الروحى ، سيكشف آثاراً باقية من دين أقدم ويعتبرها كنزاً مستوراً ، عوضاً عن تحريمها كما حرّم المجتمع الغربى السحر عندما نبهت الكنيسة . وقد يوفّق عبقرى دينى فى مواجهة احتياجات عصره الروحية ، عن طريق عملية مزج خاصة للطقوس المسيحية السرية بشعائر الاستباحة الشائعة عند جيل من البرابرة والمستمدة من الفنلنديين أو المجريين .

وقياساً على ذلك ، قد يتأتى لنا إعادة بناء التاريخ الدينى الحقيقى للعالم الهلينى كما يلى :

أولا : انبعاث الطقوس السرية القديمة والتقليدية لألوسيس .

ثانياً : ابتداع عقيدة أورفوس المبتكرة . وهى دين نظرى ابتدعته عبقرية دينية (كما يقول نيلسون) بفضل التوفيق بين شعائر الاستباحة المقرونة بديونيسوس التراقى والطقوس الدينية المينووية المتصلة بولادة زيوس الكريتى وموته .

ولا شبه فى أن الشعائر الألوسية السرية وعقيدة أورفوس[٢] ، قد زوّدت المجتمع الهلينى فى العصر الكلاسيكى بغذاء روحى كان يحتاجه ، لكنه لم يستطع أن يحصل عليه فى عبادة الآلهة الأوليمبيين . وتتميز الشعائر الألوسية والأورفية بأن روحهما روح أخروية من النوع الذى يجب أن نتوقع وجوده

---

(١) اسم جنس من الآلهة فى الأساطير الإسكندنافية ، وكان أهمها أودين وثور وبالدر . (المترجم)

(٢) نسبة إلى أورفوس : وهو موسيقى ظهر فى تراقيا ويعزى إليه إنشاء طقوس دينية خاصة . (المترجم)

فى البروليتاريا الداخلية إبان انحدارها ، روح نعتبرها من خصائص النظم الدينية العالمية .

وتأسيساً على هذا القياس ، ليس من الخيال إطلاقاً ، أن نلمح فى الشعائر الألوسية وفى عقيدة أورفوس ، طيف ديانة عالمية مينووية . بيد أنه حتى إذا أصابت هذه النظرة الحقيقة (وسيكون هذا موضع مناقشة فى فقرة تالية فى هذا الكتاب حين نفحص أسس عقيدة أورفوس) ، فإن ذلك لن يقنعنا بفكرة أن المجتمع الهلينى متولّد فعلا عن المجتمع الذى سبقه .

وإلا ، لماذا تتطلب هذه الديانة أن تبعث ، إلا إذا كانت قد قتلت فعلا ؟

ومن يكون قاتلها إلا هؤلاء البرابرة الذين أغاروا على المجتمع المينووى ؟

وإذا اتخذ المجتمع الهلينى لنفسه بانتيون[١] من هؤلاء الأخيين القتلة « مخربو المدن » ، يكون قد أعلن أنهم آباؤه بالتبنى . وما كان ليستطيع أن يلحق نسبه بالمجتمع المينووى ، من غير أن يتحمل على رأسه وزر الدماء التى أراقها الآخيون ، والاعتراف — من ثم — بقتله أباه[٢] .

وإذا عدنا الآن إلى ما وراء المجتمع السورى ، نجد ما سبق أن وجدناه وراء المجتمع الهلينى :

ديانة عالمية ، وهجرات ؛ يتضح أنهما نفس الديانة العالمية ونفس الهجرات اللذان ظهرا فى الفصول الأخيرة من التاريخ المينووى . ولقد تجلّت آخر حركة هجرات فى العصر الذى تلا المجتمع المينووى — فى سبيل بشرى من الشاردين الهائمين على وجوههم بحثاً عن أوطان جديدة . ولقد ساقتهم أمامها الموجة الأخيرة من البرابرة المندفعين من الشمال ، وهم الذين يدعون بالدورين ، فاختلط حابلهم بنابلهم . ولما ردتهم مصر ، استوطن بعض هؤلاء اللاجئين فى الساحل الشمالى الشرقى من الإمبراطورية المصرية ،

---

(١) مجمع الآلهة اليونانية . (المترجم)

(٢) وهو المجتمع المينووى فرضاً . (المترجم)

وعرفوا لدينا باسم الفلسطينيين الذين ذكرتهم قصص التوراة . وهنا التجأ اللاجئون الفلسطينيون النازحون من العالم المينووى ، بالبدو العبرانيين — الذين كانوا يفدون إلى البلاد التابعة لمصر فى سوريا — من شبه جزيرة العرب ، ولم يكن لها صاحب معروف . وأبعد من ذلك شمالا ؛ أقامت سلسلة جبال لبنان حداً للتسرب المعاصر للبدو الأراميين ، وآوت الفينيقيين الذين على الساحل ، فاستطاعوا صد هجوم الفلسطينيين . وعند انتهاء هذه الحركة ، برز من هذه العناصر مجتمع جديد : المجتمع السورى .

وإذا كان المجتمع السورى ينتسب لأى نوع من المجتمعات الأكثر قدماً ، فهو ينتسب إلى المجتمع المينووى بنفس الدرجة التى ينتسب بها المجتمع الهلينى إلى المجتمع المينووى ؛ لا أكثر ولا أقل . ولعل الأبجدية (ولكن ذلك غير مؤكد) هى أحد الأشياء التى ورثها المجتمع السورى عن المجتمع المينووى . وقد يطالعنا تراث آخر ، يتمثل فى الشغف بالأسفار البحرية البعيدة .

ويبدو لأول نظرة ؛ أن فى القول بانتساب المجتمع السورى إلى المينووى ، بعض الغرابة . إذ كان المرء يتوقع أن تكون الدولة العالمية القائمة وراء المجتمع السورى ، هى الدولة الحديثة فى مصر . وأن وحدانية اليهود هى بعث لوحدانية أخناتون ؛ إلا أن الأدلة تناهض هذا الرأى . وليس ثمة دليل يقوم على انتساب المجتمع السورى إلى أى من المجتمعين اللذين تماثلهما على التوالى : إمبراطورية خاتى (الحيثيون فى الأناضول) ، والعائلة السومرية فى « أور Aur » وخليفتها عائلة « عاموري » فى بابل .

وسنقوم الآن بدراسة هذين المجتمعين .

٧ — المجتمع السومرى :

أول ما يستوقف نظرنا — إن اتجهنا إلى ما وراء المجتمع السندى — أن ديانة فيداس — مثل عبادة الآلهة الأوليمبية — تتضمن أدلة على قيامها

بين البرابرة إبان فترة هجرات . ولا تحمل أية علامة من العلامات المميزة للدين أقامته خلال عصر اضطرابات ، البروليتاريا الداخلية لمجتمع آيل إلى الفناء :

وفى هذه الحالة ، البرابرة هم الآريون الذين ظهروا فى فجر التاريخ السندى ، مثلما ظهر الآخيون فى بحر إيجه فى فجر التاريخ الهلينى . وقياساً على العلاقة التى وجدناها بين المجتمع الهلينى والمجتمع المينووى ، يجب أن نتوقع استكشاف دولة عالمية خلف المجتمع السندى . وتوجد وراء حدودها منطقة غير مملوكة لأحد ، تعيش فيها أصول الآريين كبروليتاريا خارجية ، حتى استطاعوا دخولها بعد سقوط الدولة العالمية ؟

فهل يتأتى معرفة كُنه هذه الدولة العالمية ، وتحديد موقع المنطقة غير المملوكة لأحد ؟

قد نُوفّق فى الاهتداء إلى الإجابة على هذين السؤالين ، بإلقاء سؤالين آخرين .

الأول — من أى مكان سار الآريون فى طريقهم إلى الهند ؟

الثانى — هل وصل بعضهم — ممن بدأوا السير من نفس المكان — إلى نقطة وصول أخرى ؟

كان الآريون يتكلمون لغة هندية أوربية . ويظهر من التوزيع التاريخى لهذه المجموعة من اللغات وهو : مجموعة أوربية وأخرى هندية إيرانية ، أن الآريين لابد وأنهم قد دخلوا الهند من السهب الأوراسى[1] ، على طول الطريق التى سلكها الكثيرون من بعدهم إلى وقت الغزاة الأتراك : محمود الغزنوى (فى القرن الحادى عشر الميلادى) ، وبابر مؤسس الإمبراطورية المغولية (فى القرن السادس عشر الميلادى) . وإنا إذا درسنا انتشار الأتراك ، لوجدنا أن بعضهم اتجه جنوباً بشرق إلى الهند ،

---

(١) الأوربى الأسيوى . (المترجم)

والبعض الآخر جنوباً بغرب إلى الأناضول وسوريا . فمثلا عاصر السلطان محمود الغزنوى غزوات الأتراك السلجوقيين التى أثارت الهجوم الصليبى المضاد من جانب المجتمع الغربى . وتدل سجلات مصر القديمة على أنه فى غضون الفترة ٢٠٠٠ ــ ١٥٠٠ قبل الميلاد ، أن الآريين قد خرجوا من السهب الأوراسى إلى المنطقة التى دخلها الأتراك بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة . فكأن الآريين قد سبقوا الأتراك فى انتشارهم التالى . وبينما دخل بعض الآريين الهند ــ كما تذكر المصادر الهندية ــ فإن آخرين منهم دهموا إيران والعراق وسوريا وأخيراً مصر ، حيث أقامو فى القرن السابع عشر قبل الميلاد حكماً لزعماء العصابات البربرية الحربية الذين عرفوا فى التاريخ المصرى بالهكسوس .

من الذى قاد إلى هجرات الآريين ؟

نستطيع الإجابة بالتساؤل عمن قاد إلى هجرات الأتراك .

يزوّدنا التاريخ بالإجابة على هذا السؤال الأخير :

كان الباعث على ذلك ، انهيار الخلافة العباسية . فانتشر الأتراك فى كلا الاتجاهين السالفى الذكر . لأن الإمبراطورية العباسية ، أصبحت وهى فى حالة الاحتضار ، فريسة سهلة ، سواء فى أقاليمها المركزية أو فى البلاد التابعة لها فى وادى السند .

هل يقدّم لنا هذا التفسير مفتاحاً لمسألة تشتت الآريين المماثل ؟

نعم . لأننا إذا ما نظرنا إلى الخريطة السياسية لجنوب غرب آسيا حوالى ٢٠٠٠ ــ ١٩٠٠ ق . م ؛ نجد فى هذه المنطقة دولة عالمية ــ على غرار خلافة بغداد ــ محكومة من عاصمة فى العراق ، وتمتد فى أراضيها فى نفس الاتجاهات ومن نفس المركز .

كانت هذه الدولة العالمية ، هى إمبراطوارية سومر وأكّاد التى أنشأها عام ٢٢٩٨ ق . م ، الملك السومرى أورانجور من أور ، وأحياها حوالى

١٩٤٧ ق . م ، الملك حمورابى من عيلام . ولقد آذن تقسيم الإمبراطورية عقب موت حمورابى ببزوغ عصر الهجرات الآرية . ولا يوجد أى دليل مباشر على امتداد إمبراطورية سومر وأكّاد إلى الهند ، لكن هناك احتمالا توحيه ما كشفت عنه الحفريات الحديثة فى وادى السند عن وجود ثقافة ترجع (على أساس المكانين الأولين اللذين تم كشفهما) من المدة حوالى ٣٢٥٠ إلى حوالى ٢٧٥٠ ق . م ، وذات صلة وثيقة بثقافة السومريين فى العراق .

هل فى استطاعتنا معرفة المجتمع الذى كانت إمبراطورية سومر وأكّاد الدولة العالمية فى تاريخه ؟

إن فحص مقدمات الإمبراطورية يقدّم لنا دليلا على وجود عصر اضطرابات ، وكان فيه الملك الأكّادى الولوع بالقتال « سارجون الأجادى »[1] شخصية ظاهرة . وأبعد من ذلك إلى الوراء ، نجد عصر ابتداع ونمو ، كشفت عنه الحفائر الحديثة فى أور .

فإلى أى زمن يرجع هذا العصر خلال الألف سنة الرابعة السابقة للميلاد أو قبلها ؟

لا نعرف .

إن هذا المجتمع الذى تحققنا منه ، يمكن تسميته بالمجتمع « السومرى » .

٨ — المجتمعان الحيثى والبابلى :

بعد أن تحققت ذاتية المجتمع السومرى ، نواصل عملنا لتحقيق ذاتية مجتمعين آخرين ، بواسطة السير هذه المرة ، لا من الأحدث إلى الأقدم ، ولكن بترتيب عكسى .

امتدت الحضارة السومرية إلى الجانب الشرقى من شبة جزيرة الأناضول الذى دعى فيما بعد كبدوكية (Cappadocia) . وتشهد بهذه الحقيقة ، الوثائق

(١) كانت أجاد Agade عاصمة مملكة أكاد . (المترجم)

التجارية المسجلة بالخط المسمارى على ألواح الطين والتى كشفها علماء الآثار كبدوكية . وعندما انهارت الإمبراطورية العالمية السومرية بعد وفاة حمورابى ؛ احتل البرابرة القادمون من الشمال الغربى ، مقاطعات كبدوكية . وأغار الملك مورسيل الأول ملك حاتى (وهو حاكم الدول التى خلفت الدولة السومرية فى هذه المنطقة) على مدينة بابل نفسها فى سنة ١٧٥٠ ق . م . ونهبها ، وانسحب الغزاة بغنائمهم . وأنشأ برابرة آخرون هم الكاشيون من إيران ، دولة فى العراق استمرت ستة قرون . وأصبحت الإمبراطورية الحاتية نواة المجتمع الحيثى الذى نستمد معظم معلوماتنا المفككة عنه من سجلات مصر ، التى كان الحيثيون فى حرب مستمرة معها ، بعد أن مدّ تحتمس الثالث (١٤٨٠ – ١٤٥٠ ق . م .) السلطان المصرى إلى سوريا .

أما عن تدمير الإمبراطورية الحيثية بفعل هجرات الشعوب التى قضت على الإمبراطورية الكريتية ، فقد سبق ذكره . وإنه وإن بدا أن الحيثيين قد اقتبسوا نظام الكهانة السومرى ، لكن كانت لهم ديانتهم الخاصة . كما كانت لهم كتابة تصويرية ، سجّلوا بها على الأقل خمس لغات حيثية مختلفة .

وهناك مجتمع آخر ينتسب كذلك إلى المجتمع السومرى ، وقد عُرف بفضل السجلات المصرية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وظهر فى مواطن المجتمع السورى وهى بابل وأشور وعيلام التى استمرت فيها أسرة الكاشيين حتى القرن الثانى عشر قبل الميلاد . وتشابه نظم هذا المجتمع الأحدث القائم فى الأرض السومرية ؛ نظم المجتمع السومرى السابق نفسه ، تشابها كليا من معظم الوجوه ، إلى حد أنه يقوم شك فى إمكان اعتباره مجتمعاً منفصلا أو خاتمة للمجتمع السومرى . على أننا سنؤول هذا الشك فى صالحه ، فندعوه – من ثم – المجتمع البابلى .

ولقد عانى ذلك المجتمع الشيء الكثير خلال طوره الأخير (إبان القرن السابع قبل الميلاد) بسبب حرب مائة عام طاحنة دارت فى صميم قلبه ،

بين بابل والقوة الحربية للآشوريين . وقد ظل المجتمع البابلى حياً فترة سبعين سنة بعد القضاء على آشور . وابتلعته أخيراً الدولة العالمية لإمبراطورية قورش الآخيمينية . وتشمل السبعون سنة هذه ، حكم نبوخذ نصر كما يشمل الأسر البابلى لليهود ، الذى ظهر قورش لهم كمخلص أرسلته السماء إليهم .

٩ — المجتمع المصرى :

انبعث هذا المجتمع الفذ للغاية فى الجزء الأسفل من وادى النيل فى غضون الألف سنة الرابعة قبل الميلاد . وانقضى فى القرن الخامس الميلادى ، بعد أن ظل باقياً — من بدئه إلى نهايته — ثلاثة أمثال حياة المجتمع الغربى منذ قيامه حتى الآن . ولم يكن له « آباء » ولم يخلف ذرية . ولا يجوز لأى مجتمع حالى أن يدّعى الانتساب إليه . وهذا مما يزيد من شأن انتصار فكرة الخلود التى رنا إليها المجتمع المصرى وحققها فى الحجر . إن الأهرامات التى ما تنفك تحمل — قرابة الخمسة آلاف سنة الدليل الصامت على وجود منشئيها ، ليتوقع بوضوح بقاؤها مئات آلاف أخرى من السنوات القادمة بعد نهاية أصحابها .

ولا يستبعد أنها ستظل ، حتى بعد فناء الإنسان نفسه . وحيث لن يبقى فى العالم عقل بشرى يطالع رسالتها ، ستستمر تشهد على أنه « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن »[1] .

ولكن هذه القبور الأهرامية الضخمة ، إنما تنهض نموذجاً لتاريخ المجتمع المصرى بطرق متعددة . ولقد تحدثنا عن هذا المجتمع على اعتبار أنه ظل قائماً فترة تقرب من الأربعة آلاف سنة . إلا أنه لم يكن كائناً حياً أثناء نصف تلك الفترة ، بل كان ميتاً ولم يدفن . فإن أكثر من نصف التاريخ المصرى عبارة عن خاتمة ضخمة .

---

(١) هذه العبارة وردت فى إنجيل يوحنا (٨ — ٥٨) على لسان السيد المسيح . (المترجم)

ويستخلص من تتبعنا ذلك التاريخ ، أن أكثر قليلا من ربع عمره ، مرحلة نماء . وأن القوة الدافعة تجلت أولا فى السيطرة على بيئة طبيعية على جانب عظيم من الصعوبة ، فأمكن تطهير مستنقعات الغاب وصرف مائها ثم زراعتها ، وهى التى كانت تشغل أصلا الوادى الأدنى ودلتا النيل ، وكانت تصد الإنسان عن سكناها . ثم ظهرت طاقتها المطردة فى التوحيد السياسى المبكر للعالم المصرى فى نهاية عصر يعرف بما قبل الأسرات . بلغت أوجها ، فيما أنجزته الأسرة الرابعة من الأعمال المذهلة .

وتحدد هذه الأسرة ، ذروة ما حققه المجتمع المصرى من مآثر لا يشاركها فيها غيره ؛ مثل تنسيق العمل البشرى فى المشرعات الهندسية الكبيرة التى تتسلسل من استصلاح المستنقعات إلى تشييد الأهرامات . كما كانت هذه الأسرة أيضاً ، الذروة فى الإدارة السياسية وفى الفن بل وفى محيط الدين نفسه حيث تتولد الحكمة من الألم . فإن ما يدعى بنصوص الأهرام يشهد بأن هذا العصر رأى أيضاً منشأ حركتين دينيتين : عبادة الشمس . وعبادة أوزيريس ، واصطدامهما ، والمرحلة الأولى فى التفاعل بينهما . وهما العبادتان اللتان بلغتا نضوجهما بعدما أخذ المجتمع المصرى فى الانهيار .

انقضت الذروة ، وبدأت مرحلة الانحلال ، فى فترة الانتقال بين الأسرتين الخامسة والسادسة (٢٤٢٤ ق . م) . وهنا يبدأ تعرفنا على الأعراض المألوفة للانحلال ، بالترتيب الذى ظهرت فيه لنا عند دراسة تاريخ المجتمعات الأخرى . فإن تفتت المملكة المصرية الموحدة إلى عدد من دويلات صغيرة فى حرب متصلة فيما بينها ؛ يحمل الطابع الذى لا يُخطئ الخاص بعصور الاضطرابات . ولقد تلت عصر الاضطرابات المصرى فى حوالى ٢٠٧٠ق . م ، دولة عالمية أنشأتها العائلة المالكة المحلية فى طيبة ، وعززتها الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق . م ، ودالت الدولة العالمية بعد الأسرة الثانية عشرة ، وتلا الفراغ الذى تلا ذلك هجرة شعوب تمثلت فى غزوة الهكسوس .

هنا قد يتبادر إلى الذهن ، أن هنا تقع نهاية هذا المجتمع . ولو كنا قد اتبعنا طريقتنا المعتادة فى البحث ، وسرنا إلى الأقدم ابتداء من القرن الخامس الميلادى ، لربما توقفنا عند هذه النقطة وقلنا : لقد تتبعنا الآن المجتمع المصرى عكسا ، من آخر آثاره الذاوية فى القرن الخامس الميلادى لمدة واحد وعشرين قرناً ، ولقد عثرنا على « هجرة شعوب » لاحقة لدولة عالمية . فها نحن أولاء قد تتبعنا المجتمع المصرى حتى مبدئه ، وبدأنا نلمح وراء ذلك ، العهد الأخير لمجتمع أقدم سندعوه بالنيلى .

ومع أننا نرفض أن نسلك هذا السبيل ؛ لأننا لو استأنفنا بحثنا الآن فى الاتجاه العادى أى من الأقدم إلى الأحدث لما عثرنا على مجتمع جديد ، ولكن على شىء جد مختلف . فإن الدولة المتخلفة عن الدولة العالمية ، قد زالت والهكسوس قد طردوا ، واستعيدت الدولة العالمية وعاصمتها طيبة ، عن حس وقصد .

تعتبر هذه الاستعادة – من وجهة نظرنا – الحدث الوحيد ذا المغزى فى التاريخ المصرى (باستثناء ثورة أخناتون الفاشلة) بين القرنين السادس عشر ق . م ، والخامس الميلادى . وتشغل فترة حياة هذه الدولة العالمية – التى تكرر خلعها واستعادتها مراراً – جميع هذه الألفى سنة . فليس هناك – والحالة هذه – مجتمع جديد .

وإذا ما درسنا التاريخ الدينى للمجتمع المصرى ، نجد هنا أيضاً دينا يسود بعد الفراغ ؛ وهو دين مأخوذ من الأقلية الحاكمة فى عصر الانحلال السالف . بيد أن الدين لم يتسُد من غير صراع . بل بدا بتأمين مركزه عن طريق الاتفاق مع الديانة العالمية التى استخلصتها البروليتاريا المصرية الداخلية من عقيدة أوزيريس إبان عصر الانحلال .

وفدت ديانة أوزيريس من الدلتا ، لا من مصر العليا التى حدثت فيها أحداث التاريخ السياسى للمجتمع المصرى : ويتمثل الخط الرئيسى

فى التاريخ الدينى المصرى فى المنافسة بين هذا الإله ذى الطبيعة الأرضية وما تحت الثرى — أى روح الإنبات التى يظهر فوق الأرض وتختفى تحتها على التعاقب — وبين الشمس إله السماء .

ولقد ارتبط فعلا هذا الصراع اللاهوتى ، بالنزاع السياسى والاجتماعى بين قسمين من المجتمع الذى انبعثت فيه العبادتان . بل ولم يكن هذا النزاع فى الواقع إلا تعبيرا لاهوتيا عنه . وكان كهنة هليوبوليس مسيطرين على عبادة الإلة الشمس « رع » الذى كانوا يصورونه بصورة الفرعون ، على حين كانت عبادة أوزيريس ديانة شعبية . فكان النزاع الدينى — من ثم — نزاعا بين دين رسمى للدولة ، وديانة شعبية تجتذب الإنسان المؤمن .

وأهم فارق بين الديانتين فى شكليهما الأصليين ؛ هو الفارق بين المصيرين بعد الموت اللذين وعدا عبادهما بعد الموت . فمن ناحية ، كان أوزيريس يحكم جماهير الموتى فى عالم الأشباح تحت الأرض . أما رع ، فكان على استعداد لأن يفتدى أتباعه من الموت ويرفعهم أحياء إلى السماء . لكن هذا البعث كان قاصراً على القادرين على دفع الثمن . وكان الثمن فى ارتفاع متصل ؛ حتى أصبح الخلود الشمسى فى الواقع احتكارا للفرعون وأولئك من أعضاء بلاطه الذين يسهم هو باختياره فى معدات خلودهم . وما الأهرامات الكبرى إلا نُصب هذا المسعى لكفالة الخلود الشخصى عن طريق الإفراط فى البناء .

وكانت ديانة أوزيريس فى هذه الأثناء تزدهر . فإنه رغما عن ضآلة الخلود الذى تعد به عبّادها ، إن قورن بالإقامة فى سماء رع العليا ؛ إلا أنه كان العزاء الوحيد الذى فى [illegible] الجماهير التطلع إليه ، وهم يرزحون تحت الظلم الشديد ليكفلوا لسادتهم الهناءة الأبدية .

فكان المجتمع المصرى — والحالة هذه — ينقسم إلى أقلية متسلطة ، وبروليتاريا داخلية : ولقد أدرك كهنة هليوبوليس هذا الخطر ، فحاولوا

جبّ تأثير أوزيريس عن طريق أشراكه مع رع . بيد أن أوزيريس استطاع فى هذه الصفقة أن يأخذ أكثر مما أعطى . فإنه عندما دخل فى عقيدة فرعون الشمسية ، استحوذ لجماهير البشر على الطقوس الشمسية للخلود الإلهى . وأهم أثر لهذا التوفيق الدينى بين العقيدتين ، يتمثّل كتاب « الموتى » ؛ وهو مرشد كل فرد إلى الخلود الذى ساد حياة المجتمع المصرى الدينية طوال مدة نهايته التى دامت ألفى سنة . ولقد سيطرت عليه فكرة أن رع ينشد العدالة أكثر من رغبته فى الأهرامات ، وبدا أوزيريس كقاض فى العالم السفلى يرسل الموتى إلى المصائر التى تستحقها حياتهم على الأرض .

ونلمح هنا وراء الدولة العالمية المصرية ، معالم ديانة عالمية أنشأتها بروليتاريا داخلية . فماذا يقدر لهذه الدولة الأوزيريسية لو لم تُستعد الدولة العالمية المصرية ؟ هل كان يقدّر لها أن تصبح شرنقة مجتمع جديد ؟

كان يجب أولا أن نرى هذه الديانة تستحوذ على عقول الهكسوس ، مثلما استحوذت الديانة المسيحية على عقول البرابرة . إلا أن هذا لم يحدث لأن كراهية هذه الديانة للهكسوس دفعتها إلى الاندماج مع العقيدة الخامدة للأقلية المسيطرة[1] فى وحدة غير طبيعية ، اندماجاً أدى إلى فساد ديانة أوزيريس وتدهورها . إذ أصبح الخلود يُعرض للبيع مرة أخرى ، وإن لم يعُد الثمن هرماً بل اقتصر على بضعة نصوص مكتوبة على قرطاس من البردى . وقد ندرك فى هذه الصفقة ــ كما فى مثيلاتها ــ أن الإنتاج الضخم لسلعة رخيصة تُباع بأقل ربح ممكن ، تعود على الصانع بكسب وفير . فإن « الاستعادة » التى تمّت إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، كانت إذن أكثر من مجرد رد الاعتبار إلى الدولة العالمية : إذ كانت عبارة عن إدماج الأنسجة الحية للعقيدة الأوزيريسية ، والأنسجة الميتة للمجتمع المصرى

(١) أى ديانة الشمس . (المترجم)

المحتضر ، فى كتلة واحدة هى بمثابة نوع من (الخراسانة) الاجتماعية تطلب انهيارها انقضاء ألفى سنة .

وليس أدل على انتقاء الحياة من المجتمع المصرى المُستعاد ، من الإخفاق التام الذى لقيته المحاولة الوحيدة لإقامته من بين الأموات . إذ سعى هذه المرة رجل بمفرده هو الفرعون أخناتون أن يكرر دفعة واحدة ، الابتداع الدينى الذى قامت به دون جدوى الديانة الأوزيريسية ؛ وهى ديانة البرولبتاريا الداخلية ، طوالَ قرون عصر الاضطرابات الطويل السابق . فلقد ابتكر أخناتون بفضل عبقريته وحدها ، معنى جديداً للإله والإنسان والحياة والطبيعة ، وعبّر عنه فى فن وشعر جديدين . إلا أنّ الجماعات الميتة لا تُبعث إلى الحياة بهذه الكيفية . ولا شُبهة فى أن إخفاق أخناتون ، لهو الدليل على صدق رأينا فى اعتبار الظواهر الاجتماعية للمجتمع المصرى من القرن السادس عشر ق . م . إلى ما بعده ؛ خاتمة مجتمع أكثر منها تاريخ مجتمع جديد ، من المهد إلى القبر .

١٠ — المجتمع الأندى ومجتمعات يوكاتا والمكسيك والمايان :

أنتجت أمريكا قبل وصول الفاتحين الأسبان ، هذه المجتمعات الأربعة .

فكان المجتمع الأندى فى البيرو قد وصل إلى مرحلة الدولة العالمية — إمبراطورية الأنكا — عندما دمرها بيزارو عام ١٥٣٠ .

وكان المجتمع المكسيكى يقترب من نفس المرحلة . وكُتب لإمبراطورية الأزتيك أن تصبح الدولة العالمية . وكانت دولة تلاكسالا هى الدولة الوحيدة المستقلة ذات الأهمية وقت حملة كورتيز ، وبالتبعية أيّد أهلوها كورتيز .

أما مجتمع يوكاتا فى شبه جزيرة يوكاتان ، فقد ابتلعه المجتمع المكسيكى قبل ذلك بحوالى الأربعمائة سنة .

وينتسب المجتمعان المكسيكى واليوكاتى كلاهما ، إلى مجتمع سابق هو المجتمع

المايانى الذى حقق درجة من الحضارة أرقى وأكثر إنسانية مما حققه المجتمعان اللاحقان . ولقد انتهى أجله نهاية سريعة غامضة إبان القرن السابع الميلادى ، وخلف آثاراً دالة على وجوده ، هى خرائب مدنه الكبيرة فى غابات يوكاتان كثيرة الأمطار . ولقد برّز هذا المجتمع فى علم الفلك ، الذى حوّله إلى الناحية العملية فى طريقة حساب التواريخ كانت دقيقة فى حساباتها . ويبدو أن الطقوس الدينية المخيفة التى كشفها كورتيز فى المكسيك ، كانت صورة بربرية فظة لدين المايانس القديم .

* * *

أثمرت لنا أبحاثنا تسعة عشر مجتمعاً ، كانت معظمها منتسبة كأبناء أو فروع لمجتمع أو أكثر من المجتمعات الأخرى وهى :

الغربى — الأرثوذكسى — الإيرانى — العربى (الأخيران متحدان الآن فى المجتمع الإسلامى) — الهندوكى — الشرق الأقصى — الهلينى — السورى — السندى — الصينى — المينووى — السومرى — الحيثى — البابلى — المصرى — الأندى — المكسيكى — اليوكاتى — المايانى .

ولقد أعربنا عن شكّنا فى وجود مجتمع بابلى منفصل عن المجتمع السومرى . كما أن بعض أزواج من المجتمعات الأخرى ، قد يمكن اعتبارها مجتمعات فردية ذات خاتمة تشبه خاتمة المجتمع المصرى . غير أننا سنحترم فرديتها ، حتى نجد مبرراً قوياً لاتخاذ موقف مخالف . والواقع أنه قد يكون من اللائق تقسيم المجتمع المسيحى الأرثوذكسى إلى مجتمع بيزنطى أرثوذكسى ومجتمع روسى أرثوذكسى ؛ وتقسيم مجتمع الشرق الأقصى إلى مجتمع صينى وآخر كورى يابانى .

وهذا من شأنه رفع عدد المجتمعات إلى واحد وعشرين . وأحرى بنا استبقاء ما عدا ذلك من تعليلنا ودفاعنا عن هذه الطريقة ، إلى الفصل التالى .

الفصل الثالث

مدى إمكان مقارنة المجتمعات بعضها بالبعض الآخر

(١) الحضارات والمجتمعات البدائية

علينا مواجهة طائفة من الاعتراضات الأولية المحتمل إثارتها ، قبل أن نمضى قُدماً فى المقارنة المنتظمة لمجتمعاتنا الواحد والعشرين ، وهى غاية هذا الكتاب . ولعل أول حجة وأبسطها نقترح اتباعها ، يمكن إيجازها فى العبارة الآتية وهى أن « هذه المجتمعات لا يجمعها طابع مشترك سوى أنها كلها ميادين مفهومة الصلاحية للدرس . على أن هذا الطابع من الشمول والغموض بحيث لا يمكن أن يعنى هذا القول شيئاً من الناحية العملية .

ونجيب على ذلك بأن المجتمعات التى هى « ميادين مفهومة الصلاحية للدرس » ؛ تنتمى إلى جنس تُعتبر مجتمعاتنا الواحد والعشرين أحد نوعيه ؛ وأن مجتمعات هذا النوع ، تُدعى عادة حضارات تميزا لها عن المجتمعات البدائية التى تعتبر هى أيضاً ميادين مفهومة الصلاحية للدرس ، لكنها تكوّن نوعا آخر هو فى الواقع النوع الآخر من هذا الجنس : وبالتالى فإن لمجتمعاتنا الواحد والعشرين ، طابعا مميزا يجمع بينها ، وهو أنها المجتمعات الوحيدة التى تمر فى أطوار التحضّر .

وثمة اختلاف آخر بين الحضارات والمجتمعات البدائية ، مداره قلة عدد الحضارات المعروفة فى حين يجاوز عدد المجتمعات البدائية المعلومة ذلك كثيراً . ولقد شرع ثلاثة من علماء الأجناس عام ١٩١٥ فى دراسة مقارنة للمجتمعات البدائية ، واقتصروا على تلك المجتمعات التى تيسر جمع معلومات كافية عنها ، فأمكنهم تسجيل ٦٥٠ مجتمعا ما يزال معظمها قائما حتى الآن . على أنه من المستحيل تكوين أى رأى عن عدد المجتمعات

البدائية التى لا بد أن تكون قد ظهرت فى الوجود فعلا ثم عفى الزمن عليها منذ أن استقام الإنسان بشرا سويا ، ربما منذ ثلاثمائة ألف سنة خلت . إلا أنه من الجلى ، أن عدد المجتمعات البدائية أكثر بكثير من عدد الحضارات .

بيد أن الحضارات تفوق المجتمعات البدائية بنفس المقدار تقريبا من حيث اتساع كل منها . فإن المجتمعات البدائية — فى حشودها — قصيرة الأجل إلى حد ما . وتنحصر فى مناطق جغرافية ضيقة النطاق نوعا ما ، وتضم عدداً من البشر صغيراً نسبيا . ولو استطعنا إجراء تعداد لأفراد الحضارات الخمس التى لا تزال حية إلى وقتنا هذا ، خلال العدد القليل من القرون التى عاشتها حتى الآن ؛ لكان من المحتمل أن نجد كل مجتمع من مجتمعاتنا الهائلة ، يضم وحده عدداً من البشر أعظم مما ضمته المجتمعات البدائية كلها معاً ، منذ انبعاث الجنس البشرى .

وأيا ما تكون الحال ، فإننا ندرس الآن المجتمعات لا الأفراد . والحقيقة التى تهم ما نحن بصدده ، هى أن المجتمعات التى تمضى قُدُما فى طريق الحضارة والمعلومة الوجود ، ضئيلة جداً .

(٢) خطأ فكرة « وحدة الحضارة »

تنهض ضد إمكان مقارنة حضاراتنا الواحدة والعشرين ، حجة ثانية هى عكس الحجة الأولى ، ومبناها أنه لا يوجد واحد وعشرون أنموذجاً حضارياً مميزاً ؛ ولكن حضارة واحدة فحسب هى الحضارة الغربية .

وما نظرية وحدة الحضارة هذه إلا رأى خاطئ ، تردّى فيه المؤرخون الغربيون المحدثون تحت تأثير محيطهم الاجتماعى ؛ وأوحى به مظهر الحضارة الغربية الخدّاع . إذ استطاعت فى العصور الحديثة أن تلقى شبكة نظامها الاقتصادى على جميع أنحاء العالم ؛ وتلا توحيد العالم اقتصادياً على أساس غربى ،

توحيده سياسيا إلى نفس المدى تقريبا وعلى نفس الأساس الغربى . وذلك لأن فتوحات الجيوش والحكومات الغربية لم تكن من الشمول أو الحسم كفتوحات رجال الصناعة والفنيين الغربيين . على أن ثمة حقيقة مبناها أن جميع دول العالم المعاصر تكوّن جزءاً من نظام سياسى واحد ينبعث من أصل غربى .

وإنه وإن كانت هذه حقائق ملفتة للنظر ، إلا أن اتخاذها دليلا على وحدة الحضارة ، رأى سطحى . لأنه وإن اصطبغت المصورات الاقتصادية والسياسية بالصبغة الغربية ، إلا أن المصور الثقافى ما يزال فى جوهره على حاله ؛ منذ أن اتخذ المجتمع الغربى سبيله إلى الغزو الاقتصادى والسياسى . وفى وسع كل ذى عينين يبصر بهما ، أن يشاهد تقاطيع الحضارات الأربع القائمة — ما خلا الغربية — ما تزال واضحة المعالم فى المستوى الثقافى . بيد أن كثيرين ما تزال عيونهم مختوماً عليها . وتظهر طريقة تفكيرهم هذه من استخدام الكلمة الإنجليزية « وطنيين » أو ما يعادلها من الألفاظ فى اللغات الغربية الأخرى .

وإذ ندعو — نحن الغربيين — الناس « وطنيين » ، فإننا نُغضى الطرف بذلك عن طابع ثقافتهم ، وكأننا نحسبهم حيوانات برية ابتُلى بها البلد الذى نلتقى بهم فيه ، ونعتبرهم جزءاً من الحيوانات أو النباتات المحلية ، لا كأناس لهم شعور وإحساس مثل ما لنا . وطالما نرى فيهم « وطنيين » ، فإننا قد نُبيدهم أو بالأحرى — كما يحدث غالباً فى الوقت الحاضر — نجعل منهم خدماً ؛ معتقدين — وربما كان اعتقادنا غير مخطئ تماماً — أننا بذلك إنما نحسّن السلالة . وحقيقة الأمر أننا ما نزال بعيدين عن فهمهم .

على أننا مع التجاوز عن الأوهام التى ترتبت على نجاح الحضارة الغربية ماديا على نطاق عالمى ، نجاح قاد إلى الفكرة الخاطئة القائلة « بوحدة الحضارة » بما تتضمنه من افتراض نهر واحد للحضارة ليس إلا ، وهو الغرب ، وأن

جميع ما عداه إما روافد له ، أو ضائع فى رمال الصحراء ؛ فإن لهذه الفكرة ثلاثة جذور :

الأول : وهم حب الذات .

الثانى : وهم الشرق الراكد .

الثالث : وهم التقدم كحركة تلتزم خطاً مستقيما .

بالنسبة لوهم حب الذات : فهو أمر طبيعى إلى حد ما . وجمّاع ما يجب قوله هنا ، أن الغربيين ليسوا ضحاياه الوحيدين . إذ عانى اليهود كثيرا من وهم أنهم ليسوا شعبا مختارا فحسب ، لكنهم الشعب المختار الأوحد بين الشعوب . ومصداقاً لذلك فإن الذين ندعوهم بالوطنيين ، يُطلق اليهود عليهم لفظ « الأميين »[1] . وكان اليونان أيضا يطلقون على من عداهم من الشعوب لفظ « البرابرة » .

ولعل خير مثال لوهم حب الذات، ما ورد فى رسالة قدّمها إمبراطور الصين الفيلسوف تشين لونج عام ١٧٩٣ ميلادية إلى المبعوث البريطانى ليسلمها إلى سيده الملك جورج الثالث :

« إنك أيها الملك تعيش وراء حدود بحار كثيرة ، إلا أنك مدفوعا برغبتك المتواضعة فى الاستفادة بثمرات مدنيتنا ، قد أوفدت بعثة تحمل مذكرتك بكل احترام . . . لقد تصفحت مذكرتك التى تُسفر العبارات التى صيغت فيها عن تواضع ملئ بالاحترام من جانبكم خليق بالإطراء الكثير : : :

« أما بالنسبة لالتماسك إيفاد أحد رعاياك ليُعتمد فى بلاطى السماوى ، وليشرف على تجارة بلادك مع الصين . . فإن هذا الطلب يخالف العرف المتبع فى أسرتى المالكة ولا يتيسر النظر فيه . : فإذا ثبت أن توقيرك لعائلتنا

---

(١) نسبة للأمم Gentiles . (المترجم)

المالكة السماوية يُفعمك برغبة اكتساب حضارتنا ، فإن مراسمنا وقوانيننا تختلف اختلافاً تاماً عن مراسمك وقوانينك إلى حد أنه حتى إن استطاع مبعوثك اكتساب المبادئ الأولية من مدنيتنا ، فليس من الممكن أن يتمكن من غرس عاداتنا وأساليبنا فى أرضكم الأجنبية . وعلى ذلك فمهما فعل مبعوثك فى سبيل اتباعنا ، لا يمكن تحقيق أى كسب من وراء ذلك .

« ولما كانت أسوس العالم الواسع ، فإنى لا أرنو إلا إلى هدف واحد هو كفالة الحكم الكامل والوفاء بواجبات الدولة . ولا تعنينى التحف والأشياء الغريبة الغالية . وإذ كنت قد أمرت بقبول الهدايا التى بعثت بها أيها الملك دليلا على ولائك ، فلن يكون ذلك إلا تقديراً للروح التى حفزتكم إلى إرسالها من مكان قصى . إن فضائل أسرتنا المالكة قد نفذت إلى كل بلد تحت السماء . وإن ملوك جميع الأمم يعطون الجزية القيمة براً وبحراً . . . وكما يستطيع سفيرك أن يشاهد بنفســه ، فإننا نملك كل شىء . . . ولا قيمة عندى للأشياء الغريبة أو المبتكرة ، ولا يوجد لدى مكان لاستعمال مصنوعات بلدك »[١].

وحدث فى غضون القرن الذى تلا تحرير هذه الرسالة ، أن أصيب كبرياء مواطنى تشين لوانج بسلسلة من الكوارث . وذلك هو مصير الكبرياء المحتوم . . . .

أما عن الوهم الخاص بالشرق الراكد : فإنه يتسم بانتشاره بشكل واضح وبعدم قيامه على أساس من الدراسة الجدّية ، بحيث أن بحث أسبابه ليس بذى منفعة أو أهمية ذات بال ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أن « الشرق » الذى يعنى هنا أى بلد واقع بين مصر والصين ، كان وقتا ما متقدما عن الغرب كثيراً ، ويبدو الآن متخلّفاً عنه بمراحل . ومن ثمت فبينما كنا نتحرك ، كان الشرق راكدا . وعلينا أن نذكر بصفة خاصة أن أقاصيص

---

(١) صفحة ٤١ Whyte, A. F. China and Foreign Powers

التوراه ما برحت ــ بالنسبة للغربى العادى ــ هى وحدها الفصل المألوف عن تاريخ الشرق القديم . وعندما يلاحظ المسافرون الغربيون المحدثون بمزيج من الدهشة والابتهاج ، أن الحياة القائمة حالياً فى منطقة الأردن المتاخمة للصحراء العربية ، تتواءم من كل مواضعها مع وصف حياة أنبياء بنى إسرائيل فى سفر التكوين ، يبدوا لهم أن جمود الشرق أمر لا مشاحة فيه . على أن ما يواجه هؤلاء المسافرين ليس هو الشرق الراكد ، بل السهب[1] العربى الثابت . إذ تفرض البيئة الطبيعية لهذا السُّهب قوتها العارمة على بنى البشر بحيث تنحصر طاقتهم على تكييف أنفسهم معها ، فى حدود ضيقة للغاية : لأنها تعيّن للمخلوقات البشرية فى جميع الأزمنة ــ الذين شاء سوء حظهم أن يسكنوها ــ طريقاً للحياة صارما لا يريم .

وبالأحرى ، فإن إيراد مثل هذا القول للدلالة على «الشرق الغير المتغير» تافه . لأنه توجد فى العالم الغربى ــ مثلا ــ وديان فى جبال الألب لم يمسسها الغزو السياحى . وما يزال أهلوها يعيشون بلا ريب كما كان يعيش أسلافهم فى أيام إبراهيم : فإن اتبعنا القياس السالف الذكر ، لاستخلصنا نتيجة لا تقل فى غرابة منطقها هى « الغرب غير المتغير » .

أما عن وهم التقدم كشىء يتحرك فى خط مستقيم : فإنما هو أنموذج لذلك الميل إلى المغالاة فى التبسيط الذى يُظهره العقل البشرى فى كافة أوجه نشاطه : فإن مؤرخينا فى تقسيمهم أطوار التاريخ إلى دورات ، ينضّدون دوراته فى سلسلة واحدة بحيث تتفق نهاية كل دورة مع بداية الدورة التى تليها : مثلها مثل عُقل الغاب الهندى تعترض بين المفصل والمفصل ، أو مثل أجزاء العصا المتصلة بعضها ببعض والتى يركّب فيها العامل الحديث المكنسة المستعملة فى تنظيف المداخن . إذ كان مقبض المكنسة الذى ورثه المؤرخون العصريون يحتوى أصلا على مفصلين فحسب « قديم وحديث »

---

(١) السهب : السهل الفسيح . (المترجم)

تطابقان بالتقريب ، لا تماماً ، العهد القديم والعهد الجديد . كما تطابق فترتا حساب التاريخ المتصلتين : « قبل الميلاد وبعد الميلاد » . وما ثنائية التاريخ الزمنى ، إلا من مخلّفات نظرة البروليتارية الداخلية للمجتمع الهلينى ، التى كانت تعبّر عن شعورها بالانفصال عن الأغلبية المسيطرة الهلينية بوساطة معارضة الناموس الهلينى القديم بناموس الكنيسة المسيحية . وبذلك وقعت هذه البروليتارية فى وهم حب الذات ، باعتبارها الانتقال من مجتمع إلى آخر من مجتمعاتنا الواحد والعشرين ، نقطة تحوّل فى التاريخ البشرى بأسره وهم فى ذلك لهم عذرهم أكثر منا لأن معلوماتهم محدودة[1] .

ووجد المؤرخون مع مرور الأيام ، أنه من المناسب زيادة طول مقبض مكانسهم المتصلة الأجزاء، وذلك بإضافة وصلة ثالثة أطلقوا عليها « العصور الوسطى » ، لأنهم أدرجوها بين الاثنتين الأخريين . بيد أنه فى حين أن التقسيم بين « القديم » و« الحديث » ، يمثل الانقسام بين التاريخ الهلينى والتاريخ الغربى ، فإن التقسيم بين العصور « الوسطى» و« الحديثة » لا يمثل إلا الانتقال من فصل من فصول التاريخ الغربى إلى فصل آخر منه . وبالأحرى فإن القانون « قديم + وسيط + حديث » قانون خاطئ ، ويجب أن يكون « هلينى + غربى (وسيط + حديث) . وحتى بهذا الشكل ، فهو خاطئ أيضاً . لأننا إذا كرّمنا فصلا معيناً من التاريخ الغربى واعتبرناه « فترة » منفصلة ، فلمَ نرفض إضفاء نفس التكريم على الفصول الأخرى ؟

ليس هناك ما يبرر تعليق أهمية على التقسيم بين ما قبل عام ١٤٧٥ وما بعده ، أعظم مما نعلقه على تقسيم مداره حوالى ١٥٧٥ . بل وثمة سبب

---

(١) وبنفس الطريقة تخيل مؤسسو الجمهورية الثورية الفرنسية أنهم يبدأون مرحلة جديدة من التاريخ وأن كل ما سبقهم يخص المرحلة السابقة . فبدأوا سنة جديدة رقم ١ فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ . ولقد قام نابليون بما كان يمتاز به من منطق وعقلية محافظة بإلغاء المشروع بعد اثنتى عشرة سنة من وجوده . ولم يبق من هذه السنوات سوى ما يضايق الباحث من أسماء شهورها مثل Thermindors و Fructidors . (المؤلف)

وجيه يحملنا على افتراض أن التاريخ الغربي انتقل حديثاً إلى فصل جديد قد تقع بدايته حوالى ١٨٧٥ .

وعلى ذلك يصبح لدينا :

غربى أول (العصور المظلمة) ٦٧٥ ـ ١٠٧٥ ميلادية ؛

غربى ثان (العصور الوسطى) ١٠٧٥ـ١٤٧٥ ميلادية ؛

غربى ثالث (العصور الحديثة) ١٤٧٥ـ١٨٧٥ ميلادية ؛

غربى رابع (العصور ما بعد الحديثة) ١٨٧٥ـ ؟ ميلادية .

وبهذا التقسيم نكون قد حدنا عن الفكرة التي تلتزم معادلة : هليني + غربى ، في نطاق التاريخ العام (قديم وحديث إن أردت) نظراً لتزمتها وابتذالها . فإن مثل هذا التقسيم ، مثل جغرافى يُخرج كتاباً تحت عنوان « جغرافية العالم » ، ثم يتبين بفحصه أنه جميعه عن حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا .

وثمة فكرة أخرى عن وحدة التاريخ مختلفة تمام الاختلاف ، وتتفق مع الأوهام الشائعة والتقليدية التي ناقشناها فيما سلف وبينّا أنها تناقض نظرية هذا الكتاب . فإننا هنا لا نواجه آراء الجماهير الشعبية ، ولكن حصيلة نظرية جديدة مستنبطة من التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية . تلك هي نظرية استطارة الحضارة التي بسطها اليوت سميث في مؤلفه « قدماء المصريين وأصول الحضارة[1] » ، وكذلك ، هـ ـ برى في كتابه « أبناء الشمس ـ دراسة المراحل الأولى لتاريخ الحضارة[2] » . إذ يؤمن هذان الكاتبان بوحدة الحضارة ، على أساس معنى خاص ، لا باعتبارها حقيقة الأمس أو الغد التي حدثت عن طريق الاستطارة العالمية الواسعة النطاق لحضارة مفردة هي

---

(١) The Ancient Egyptians and the Orgens of Civilization.

(٢) W.H. Perry's : The Children of the Sun : A study of the Early History of Civilization.

الحضارة الغربية وحدها ، ولكن باعتبارها حقيقة تمّت منذ آلاف السنين بوساطة استطارة الحضارة المصرية التي سبق أن رأينا أنها من الحضارات الميتة التي لم تُنجب أية حضارة أخرى على الإطلاق .

ويعتقد الكاتبان أن المجتمع المصرى هو المجتمع الفرد والأنموذج الوحيد للذى انبعث منه هذا الشي المسمى حضارة من غير معاونة من الخارج ، وأن جميع مظاهر الحضارة الأخرى مستمدةٌ من مصر بما فى ذلك حضارات الأمريكتين التى لابد أن التأثيرات المصرية قد بلغتها عن طريق هاواى وجزيرة الايستر .

وإننا نسلّم الآن بأن استطارة الحضارة هى بلا ريب وسيلة انتقلت بفضلها كثير من الأساليب والمؤهلات والنظم والآراء من مجتمع إلى آخر : من الحروف الهجائية إلى ماكينات سنجر للحياكة . وإلى استطارة الحضارة يُعزى شيوع شرب شاى الشرق الأقصى فى كل مكان ، كذلك القهوة العربية وكاكاو أمريكا الوسطى ، واستخدام المطاط الأمازونى وعادة تدخين تبغ أمريكا الوسطى ، وطريقة الحساب الاثناعشرية السومرية الأصل المتمثلة فى الشلن الانجليزى ، وما يسمى الأرقام العربية التى ربما وفدت أصلا من الهندستان . . . وهكذا .

بيد أن القول بأن البندقية قد شاعت فى كل مكان عن طريق استطارتها من مركز واحد اختُرعت يوما فيه هو وحده : لا ينهض دليلا على شيوع القوس والسهم فى كل مكان بنفس الطريقة . كما لايجوز أن نستخلص انتشار استخدام المغزل الآلى فى جميع أنحاء العالم من مانشستر . وبالمثل فإن الأسلوب الفنى فى صناعة التعدين يجب أن يردّ هو أيضاً إلى أصل واحد ، إذ أن الأدلة فى هذه الحالة تُثبت عكس ذلك .

بيد أنه مهما يكن من الأمر ، فإن الحضارات ــ رغما عن الآراء الفاسدة للمادية الحديثة ــ لم تُشيّد بمثل هذه الأحجار ولا تدخل فى بنائها

ماكينات الحياكة والتبغ والبنادق ، بل ولا حتى الحروف الهجائية والأعداد .
فإن أيسر شيء فى عالم التبادل التجارى ، تصدير أسلوب فنى غربى جديد ؛
وأنه لأصعب صعوبة لانهائية ، على الشاعر أو القديس الغربى ، أن يشعل فى
نفس غير غربية ، الشعلة الروحية المتّقدة فى نفسه هو . فمع أعطاء الاستطارة
حقها ، من الضرورى إبراز الدور الذى قام به الإبداع الأصلى فى التاريخ
البشرى ، ويجدر أن نذكّر أنفسنا بأن شرارة - أو نطفة - الابتداع
الأصلى ، قد تنفجر إلى لهب أو تتفتح إلى زهرة فى أى مظهر من مظاهر
الحياة وفقاً لمبدأ « ثبات الطبيعة على نمط واحد » . وقد يمكننا أن نذهب على
الأقل إلى حد وضع عبء الإثبات على كاهل أصحاب نظرية استطارة
الحضارة فى الأحوال التى لم يُهتد فيها بعد إلى جواب على هذا السؤال وهو
هل يجوز أن يُنسب للاستطارة فخر أنها كانت السبب فى مأثرة من مآثر
الجنس البشرى .

كتب فريمان عام ١٨٧٣ :

« ليس هناك أدنى شك فى أن كثيراً من أهم المخترعات الأساسية
للحياة المتمدينة ، قد اخترع مرة وأخرى فى عصر وفى بلاد بعيدة عن
بعضها . وذلك لأن أمما مختلفة كانت قد وصلت إلى مراحل خاصة من
التقدم الاجتماعى التى تدعو الحاجة فيها لأول مرة إلى هذه المخترعات .
ومصداقا لذلك اخترعت الطباعة على حدة فى كل مكان فى الصين وأوروبا
القرون الوسطى . كما أنه من المعروف جيداً أن عملية مشابهة فى جوهرها
للطباعة كانت تستخدم لأغراض مختلفة فى روما القديمة ، وإن لم يخط أحد
الخطوة الكبيرة التى تؤدى إلى تطبيق هذه العملية على طباعة الكتب ،
مع أنها جارية الاستعمال فى أغراض أقل أهمية . وما حدث بالنسبة للطباعة ،
فى مكنتنا اعتقاد حدوثه فى الكتابة . وأمامنا مثال آخر من فن يختلف كلية
عن هذا النوع . فلا يوجد أدنى شك - بمقارنة آثار الأبنية الأولى فى

مصر واليونان وإيطاليا والجزائر البريطانية والمدن المخربة فى أمريكا الوسطى، أن الابتكارين العظيمين وهما العقود والقبة ، قد ظهرا فى تاريخ الفن البشرى أكثر من مرة . . . كما لا نشك فى أن كثيراً من الفنون الشديدة البساطة والعظيمة النفع للحياة المتمدينة ـ كاستخدام حجر الرحى واستعمال القوس واستئناس الحصان وتجويف الزورق ـ قد استكشف فى أماكن وأوقات بعيدة المرة بعد الأخرى .. . والمثل يقال كذلك عن النظم السياسية . إذ تتجلى على الدوام نفس النظم ـ وإن بعُد بعضها عن البعض الآخر بعدا شاسعا ـ بسبب بسيط هو أن الظروف التى استدعت وجودها ، قد نشأت فى أوقات وأماكن متباعدة بعدا تاما[١] » .

وعبر عالم حديث من علماء الأجناس البشرية عن نفس الفكرة إذ قال[٢] :

« إن المشابهات فى أفكار الإنسان وعاداته ، تردّ بصفة خاصة إلى التشابه فى تكوين المخ البشرى فى كل مكان ، وإلى ما يترتب على ذلك من طبيعة عقله . ولما كان تركيب هذا العضو الطبيعى واحدا فى جميع مراحل تاريخ الإنسان المعروفة ، فى مزاجه وفى عملياته العصبية ، فإن للعقل كذلك طائفة عامة من الخواص والقوى وأساليب العمل . . . ويشاهد تشابه عمل المخ فى عقل اثنين من علماء القرن التاسع عشر وهما داروين وراسل والاس . إذ قد اهتديا فى وقت واحد أثناء عملهما فى ميدان واحد ، إلى نظرية التطور[٣] . كما أنه يعلل تعدد المطالبات فى نفس العصر بالأسبقية فى التوصل إلى نفس اختراع أو استكشاف . وتفسر عمليات مشابهة للعقل العادى للجنس ـ وهى أكثر تفتتا وتشتتا فى وقائعها وأعظم بداثية فى قواها ،

---

(١) Freeman, E.A. Comparative Politics P.P. 31—32

(٢) Murphy, I: Orimitive man, His Essential quest P.P. 8—9

(٣) أشار ابن خلدون إلى تلك النظرية فى مقدمته . (المترجم)

وأشد غموضا فى نتائجها – ظهور معتقدات ونظم مثل الطوطمية ، زواج الأباعد ، وكثير من شعائر الطهارة بين شعوب وفى أماكن على الأرض ، يبعد بعضها عن الآخر بعدا شاسعا » .

(٣) إمكان مقارنة الحضارة

عالجنا حتى الآن اعتراضين متناقضين لطريقتنا عن الدراسة المقارنة وهما :

الأول : انتفاء السمة المشتركة بين مجتمعاتنا الواحد والعشرين ، عدا كونها ميادين دراسة تاريخية قابلة للفهم .

الثانى : هبوط وحدة الحضارة بالتعدد الظاهر فى الحضارات ، إلى حضارة واحدة .

على أنه حتى لو قبل نقادنا إجاباتنا على هذين الاعتراضين ، يحتمل مع ذلك أن يقفوا عند هذه النقطة وينكروا قابلية حضاراتنا الواحد والعشرين للمقارنة ، بحجة أنها غير معاصرة لبعضها . إذ أن سبعا منها فقط ما تزال قائمة فى الوقت الحاضر ، بينما اندرس منها أربع عشرة من بينها ثلاث على الأقل – المصرية والسورية والمينووية – ترجع إلى « فجر التاريخ » . وهذه الحضارات الثلاث – وربما غيرها – تنفصل زمنياً عن الحضارات القائمة الآن ، بمقدار مدة الزمن التاريخى كلها .

وإجابتنا : أن الزمن شىء نسبى ، وأن برهة تقل عن ستة الآف سنة تصل الفترة بين ظهور أقدم حضارة معروفة وبين عصرنا الحاضر ، أحرى بأن تُقاس – لأغراض دراستنا – بالمقياس الزمنى المناسب ، أى بالنسبة للفترات الزمنية التى عاشتها الحضارات نفسها . وعليه يتبين من استعراض العلاقات بين الحضارات خلال الزمن ، أن العدد الأقصى للأجيال المتعاقبة التى مرّت بنا ، هو ثلاثة فى كل حالة ، وأن فترة الحضارات الثلاث فى كل

حالة ، تمتد أكثر من الستة الآف سنة ، ما دام الحد الأخير فى كل مجموعة ، هو حضارة لا تزال قائمة .

وإذا كنا لم نجد خلال استعراضنا للحضارات عددا من الأجيال المتعاقبة ينيف على ثلاث فقط فى أية حالة ، فإن معنى ذلك أن هذا النوع حديث العهد ، إن قيس بمقياس الزمن . كما أن عمره المطلق حتى الآن قصير الأمد جدا ، إن قورن بالنوع الشقيق ، نوع المجتمعات البدائية الذى يعادل عمره عمر الإنسان نفسه ، والذى تقــدّر حياته بثلاثمئة ألف سنة حسب التقدير المتوسط .

ومن نافلة القول أن بعض الحضارات ترجع الى « فجر التاريخ » . ذلك لأن ما ندعوه تاريخا ، إن هو إلا تاريخ الإنسان فى « مجتمع متمدين » . فإذا كنا نعنى بالتاريخ ، الحقبة الكاملة لحياة الإنسان على الأرض ، كان لا بد أن نجد أن الفترة التى أنتجت الحضارات – وهى أبعد من أن تعادل حقبة التاريخ البشرى – لا تغطى سوى اثنين فى المائة من تلك الحقبة ، أو جزء واحد من خمسين جزءا تكوّن حياة الجنس البشرى . ومن ثم – لأغراض دراستنا – نستطيع اعتبار حضاراتنا معاصرة بعضها بعضا .

بيد أن نقّادنا – بافتراض تنازلهم عن حجتهم القائمة على المقياس الزمنى – قد يُنكرون قابلية الحضارات للمقارنة بحجة اختلافاتها فى قيمتها . أليس معظم ما وصف بأنه حضارات لا قيمة له تقريباً ، ولا يمتّ فى الواقع إلى الحضارة بأيه صلة ، بحيث أن مقارنة تجاربها بتجارب الحضارات الحقيقية – مثل الحضارة الغربية بالطبع – مجرد مضيعة للطاقة الذهنية ؟

وهنا يجدر بالقارئ – كما ننوى أن نطلب إليه – تأجيل حكمه فى هذه النقطة ، إلى أن يرى نتيجة تلك الجهود الذهنية . وإلى أن يتم ذلك ، عليه أن يتذكر ، أن القيمة كالزمن ، مسألة نسبية . وأن مجتمعاتنا الواحد والعشرين جميعها – لو قيست بالمجتمعات البدائية ، لوجد أنها قد حققت كثيرا من

التقدم ، وأنها جميعها ، إن قيست بأى مقياس مثالى ، لوجد أنها جميعا لم تُصب الهدف حتى الآن ، مما يجعل كل منها فى مركز لا يمكّنه من « إلقاء الأحجار على الآخرين » .

وفى الواقع ، أننا نصرّ على أنه يجب – افتراضياً – اعتبار مجتمعاتنا الواحد والعشرين متساوية جميعها من الناحية النظرية ، وأنها من الناحية النظرية كذلك معاصرة بعضها لبعض .

وأخيراً ، فإن النقّاد – حتى مع افتراضنا تمشيهم معنا إلى هذا الحد ، يجوز أن يقولوا مع ذلك ، بأن تواريخ الحضارات إن هى الا تسلسل الوقائع التاريخية ، وأن كل واقعة تاريخية فريدة فى جوهرها ، وأن التاريخ لا يعيد نفسه ؟

ومناط أجابتنا ، أنه بينما الواقعة كالفرد فى ذاتها ، وهى بالتالى لاتقبل المقارنة من بعض النواحى ، الا أنها فى بعض النواحى الأخرى قد تكون عضوا فى صنف ؛ ويمكن بالتالى المقارنة بينها وبين الآخرين فى ذلك الصنف بالقدر الذى يشملها التصنيف. والواقع أنه لا يوجد اثنان من الكائنات الحية – حيوانات أو نباتات – متماثلين تماماً ، لكن هذا لايسلب من قيمة علوم : وظائف الأعضاء ، الأحياء ، النبات ، الحيوان ، وأصول الأجناس[١] . وكذلك فإن العقول البشرية أعظم من ذلك اختلافاً بعضها عن البعض الأخر . الا أننا نسلّم بحق علم النفس فى الوجود وفى ممارسة عمله ، مهما يكن من أمر اختلافنا فى قيمة النتائج التى وصل إليها حتى الآن . كما نسلم كذلك بالدراسة المقارنة للمجتمعات البدائية تحت عنوان « علم الأنثروبولوجى[٢] .

Physiology, biology, botany, Zoology, Ethhnology (١)

Anthrohology (٢)

وهذا يدعونا إلى المطالبة بتطبيق الوسائل المتبعة فى تحقيق النوع البدائى من الأجناس البشرية ، لتحقيق النوع المتمدين .

بيد أن موقفنا سيزداد وضوحاً فى القسم الأخير من هذا الفصل .

(٤) التاريخ والعلم والمصنفات الخيالية

ثمة ثلاث وسائل مختلفة لمعاينة موضوعات تفكيرنا — ومنها ظواهر الحياة البشرية — وعرضها :

الأولى — تحقيق الوقائع وتسجيلها :

الثانية — استخلاص قوانين عامة عن طريق دراسة مقارنة للوقائع المحققة.

الثالثة — إعادة تصوير الوقائع بطريقة فنية ، فى مصنف خيالى .

ومن المسلّم به — بصفة عامة — أن تحقيق الوقائع وتسجيلها ، هو الأسلوب الفنى للتاريخ ؛ وأن الظواهر فى مجال هذا الأسلوب ، هى الظواهر الاجتماعية للحضارات ، وأن استخلاص قوانين عامة وصياغتها هو الأسلوب الفنى للعلم ؛ وأن فى ميدان دراسة الحياة البشرية ، العلم هو علم الأنثروبولوجى ، وأن الظواهر فى مجال الأسلوب العلمى هى الظواهر الاجتماعية للمجتمعات البدائية . وأخيراً أن المصنف الخيالى هو الأسلوب الفنى للدراما والقصة ، وأن العلاقات الشخصية بين أفراد من البشر ، هى الظواهر فى مجال هذا الأسلوب الفنى .

نجد هذا كله — فى جوهرياته — فى مؤلفات أرسطو .

بيد أن توزيع الأساليب الفنية الثلاثة على ميادين الدراسة الثالثة ليس — مع ذلك — محكماً واضح الحدود ، كما قد يفترض : فإن التاريخ لا يشغل نفسه مثلا بتسجيل جميع حقائق الحياة البشرية . إذ يدع جانباً حقائق الحياة الاجتماعية فى المجتمعات البدائية ؛ وهى الحقائق التى يُستخلص منها علم

الأنثروبولوجى قوانينه . ويعهد إلى علم السيرة[1] بتسجيل وقائع حياة الأفراد . وإن كانت قد انقضت الحيوات الفردية التى بلغت من الطرافة والأهمية حداً يجعلها تبدو جديرة بالتسجيل . انقضت ، لا فى المجتمعات البدائية ، ولكن فى مجتمع أو آخر من تلك المجتمعات التى تسير فى طريق الحضارة ، والتى انعقد الإجماع على اعتبارها داخل دائرة اختصاص التاريخ .

فالتاريخ يُعنى إذن ببعض حقائق الحياة البشرية ، لا بجميعها : ومن ناحية أخرى ، يستنجد التاريخ بالمصنفات الخيالية ويستخدم القوانين ؛ إلى جانب تسجيله الحقائق .

والتاريخ — مثله مثل الدراما والقصة — نشأ عن الأسطورة . وهى شكل بدائى للفهم والإدراك ، لا يرسم فيها الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال ، كما هو حادث فى الأقاصيص الخرافية التى يستمع إليها الأطفال أو فى الأحلام التى يتصورها الواعون من البالغين . فلقد قيل عن الإلياذة مثلا ، إن أى إنسان يشرع فى قراءتها كتاريخ يجدها حافلة بالخيال ، فإذا شرع فى قراءتها كقصة خيالية يجدها بنفس المقدار حافلة بالتاريخ . وتشبه جميع التواريخ الإلياذة من هذا القبيل ، بمعنى أنها لا تستطيع الاستغناء عن عنصر الخيال استغناء تاماً . وما اختيار الحقائق وترتيبها وعرضها ، إلا عملية فنية تدخل فى دائرة الخيال .

والرأى الشائع على حق إذ يصرّ على أن المؤرخ لا يكون عظيما إذا لم يكن أيضاً فناناً كبيراً . ومصداقاً لذلك فإن المؤرخين من أمثال جيبونز وماكولى مؤرخين أعظم من المؤرخين المتزمتين Dryastdusts (هو اسم اخترعه السير والتر سكوت ، وهو نفسه مؤرخ أعظم فى بعض رواياته منه فى بعض تواريخه) الذين تجنبوا ما وقع فيه زملاؤهم الأكثر إلهاماً من أخطاء

---

(1) Biography

متصلة بالوقائع . وعلى أية حال ، قد تتعذر كتابة سطرين متتاليين فى سرد تاريخى ، من غير إضفاء شخصية وهمية على أشياء مثل « انجلترا » ، « فرنسا » و « الحزب المحافظ » و « الكنيسة » و « الرأى العام » . ولقد أضفى توكيديس[1] عنصر الدراما على الشخصيات التاريخية بتأليف خطب ومحاورات مختلفة على لسانهم . على أنه وإن كانت خطته المباشرة أكثر حيوية ، إلا أنها لا تقل خيالا عن الأحاديث غير المباشرة التى يعرض فيها المحدثون صورهم المركّبة من الرأى العام .

كذلك جعل التاريخ فى خدمته عدداً من العلوم الفرعية التى تتولى استخلاص القوانين العامة بالنسبة للحضارات ، لا بالنسبة للمجتمعات البدائية . ومن قبيل المثال : الاقتصاد ، العلوم السياسية ، الاجتماع .

وإذا كانت مناقشاتنا لم تتطلب ذلك ، إلا أننا نستطيع أن نُثبت أنه إذا لم يكن التاريخ بريئاً من استخدام الأساليب الفنية المتصلة بالعلم والمصنفات الخيالية ، فإن العلم والمصنف الخيالى لا يلتزمان كذلك بأية حال من الأحوال حدود ما يفترض فيه أنه طرائقهما الفنية . وتمر جميع العلوم بمرحلة يكون فيها التثبت من الحقائق وتسجيلها هو الباب الوحيد المتاح لها لممارسة نشاطها : ولم يخرج علم الأنثروبولوجى عن هذه المرحلة إلا حديثاً جداً . وأخيراً فإن الدراما والقصة لا تعرضان الأساطير — أى الأساطير الكاملة ولا شىء سواها — فيما يتعلق بالصلات الشخصية . فإن فعلتا ، لكانت الحصيلة أوهاماً لا تطاق ولا معنى لها ، عوضاً عن استحقاقها ثناء أرسطو على كونها « أصدق من التاريخ وأكثر منه فلسفة » .

ولا نعنى إذ نصف قطعة من الأدب بأنها من أعمال الخيال ، أكثر

---

(١) يعتبر توكيد يدرس بصفة عامة ، طليعة كبار المؤرخين الغارقين فى الخيال ومن أعظمهم على أن F.M. Corford يبدى فى كتابه Thuydides Mythistorieus أن جمع عرضه لموضوعه محكوم بالعرف الذى جرت عليه التراجيديا اليونانية المعاصرة له . (المؤلف)

من أنه لا يتأتى التعرّف على شخصياتها فى أى شخص عاش فعلا ؛ ولا مطابقة حوادثها لأية وقائع معينة حدثت فعلا . فإننا نعنى فى الواقع ، أن للعمل مظهراً خيالياً فردياً . وإذا كنا لا نذكر أن قوام الأساس هو وقائع اجتماعية أصيلة ، فلئن ذلك يبدو تحصيل حاصل بحيث نأخذه قضية مسلّم بها فعلا : فإننا نسلّم بأن أعلى درجات الثناء التى يمكن أن نزجيها إلى عمل تصورى حسن ، هى أن نصفه بأنه صورة من الحياة ، وبأن المؤلف أبدى إدراكاً عميقاً للطبيعة البشرية . وبعبارة أدق ؛ إذا كانت الرواية تعالج موضوع عائلة تصورية من أصحاب مصانع الصوف فى بوركشير ، فإننا نُثنى على المؤلف بقولنا إنه يعرف أحوال المدن الصناعية فى وست ريدنج جملة وتفصيلا .

وبالرغم من ذلك ، تظل تفرقة أرسطو بين الأساليب الفنية للتاريخ والعلم والتصور ؛ صحيحة بوجه الإجمال . وربما ندرك سبب ذلك إذا ما فحصنا هذه الأساليب الفنية مرة أخرى . إذ سنجد بعضها يختلف عن البعض الآخر من ناحية مناسبتها لمعالجة « المعلومات المختلفة الكم » . فإن تحقيق وقائع معينة وتسجيلها ، هو كل ما نستطيعه فى ميدان دراسى يتسم بقلة معلوماته . وحينما تكون المعلومات من الكثرة بحيث لا يستطاع تبويبها فى جداول دون أن تبلغ الحد الذى تستعصى معه مراقبتها ؛ يصبح استخلاص القوانين وصياغتها ، أمراً ضروريا ومتاحاً .

فإذا فاقت المعلومات الحصر ، يصبح أسلوب الابتداع والتعبير الفنيين — المسمى بالتصوّر — هو الطريقة الفنية الوحيدة التى يتأتى استخدامها أو يجدر استعمالها . ولدينا هنا اختلاف جوهرى من حيث الكم ، مثلما هو حاصل بين الأساليب الفنية الثلاثة : هذا وتختلف الأساليب الفنية فى جدواها لبحث مقادير مختلفة من المعلومات .

فهل نستطيع أن نميز اختلافا مماثلا فى كميات المعلومات التى تعرض نفسها فعلا فى الميادين الخاصة بدراساتنا الثلاث ؟

إن بدأنا بدراسة العلاقات الشخصية — التى هى مجال عمل التصوّر — استطعنا أن نلمح على الفور أفراداً قليلين تكون علاقاتهم الشخصية من الطرافة والأهمية بحيث تجعلهم موضوعات صالحة لهذا التسجيل الذى يتناول الحقائق الشخصية ؛ والذى نطلق عليه « السيرة » . ومع هذه الاستثناءات النادرة ، تجابه دراسة الحياة البشرية — فى ناحية العلاقات الشخصية — أمثلة لا حصر لها لتجارب شائعة وعادية فى العالم . وإن مجرد فكرة بذل الجهد لتسجيلها ، سخافة . كما تبدو أية صياغة لقوانينها ، تافهة تفاهة لا تحتمل أو فجة لا تطاق . ولا يمكن التعبير عن المعلومات فى مثل هذه الظروف تعبيراً ذا دلالة اللهم ؛ إلا إن استخدمنا طريقة إفصاح تتيح لنا إدراك غير محدود فى عبارات محدودة .

مثل هذه الطريقة هى التصوّر .

والآن وقد وجدنا فى عبارات كمّية ، تعليلا جزئياً — على الأقل — لاستخدام أسلوب التصوّر بشكل عام فى دراسة العلاقات الشخصية ، فهل نستطيع الاهتداء إلى تفسيرات مشابهة عن استخدام أسلوب استخلاص القوانين فى دراسة المجتمعات البدائية ، واستخدام أسلوب تحقيق الوقائع فى دراسة الحضارات .

أول ما يلاحظ ؛ أن هاتين الدراستين الأخريين كلتيهما ، متصلتان بالعلاقات البشرية ، لكنه اتصال ليس من ذلك النوع الشخصى الشائع الذى يمارسه كل رجل وامرأة وطفل ، ممارسة مباشرة . فإن علاقات البشر الاجتماعية ، تمتد — إلى أبعد حد مستطاع — وراء الاتصالات الشخصية . ويحتفظ بهذه العلاقات غير الشخصية عن طريق أجهزة اجتماعية تدعى نُظماً ، ولا يقدّر للمجتمعات البقاء من غير نظم . والواقع ، ما المجتمعات نفسها إلا نظم من أسمى نوع ، وما دراسة المجتمعات ، ودراسة العلاقات المتصلة بالنظم إلا شيء واحد .

ونستطيع أن نرى للوهلة الأولى ، أن مقدار المعلومات التى تجابه دارسى العلاقات المتصلة بالنظم والقائمة بين الناس ، أقل كثيراً جداً من الكمية التى تجابه دارسى علاقات الناس الشخصية . وفى مكنتنا أن نشاهد أكثر من ذلك ، أن مقدار ما تم تسجيله من العلاقات المتصلة بالنظم والتى تتعلق بدراسة المجتمعات البدائيـــة ، أعظم كثيراً من مقدار ما يتصل منها بالمجتمعات « المتمدينة » . ذلك لأن عدد المجتمعات البدائية المعروفة يفوق الستمائة والخمسين ، فى حين أن استعراضنا للمجتمعات التى تسير فى طريق الحضارة ، أتاحت لنا تحقيق ذاتية عدد من المجتمعات لا يجاوز على أكثر تقدير ، الواحد والعشرين : فهاهنا ستمائة وخمسون مثالا ، وإن كانت أقل من أن تتطلب استخدام الخيال ، إلا أنها تكاد تكفى تماماً لتكون بداية تسمح للدارس باستخلاص القوانين . ومن ناحية أخرى ، فإن دارسى ظاهرة لا يُعرف منها سوى « حفنة أمثلة » أو « حفنتين » ؛ لا يملكون إزاءها أكثر من محاولة تبويب حقائقها . وهذه — كما رأينا — هى المرحلة التى ما يزال التاريخ باقياً فيها حتى الآن :

وقد يبدو للوهلة الأولى ، أن ثمة تناقضاً فى التأكيد بأن كمية المعلومات التى تحت تصرّف دارسى الحضارات ، من القلة بحيث لا تكفى أساساً للدراسة العلمية . فى حين يشكو مؤرخونا المحدثون من فيض المواد الذى يغمرهم : فالواقع ، أنه لا يزال صحيحاً أن الحقائق ذات المرتبة العليا « وهى ميادين الدراسة القابلة للفهم أو وحدات التاريخ القابلة للمقارنة » . من الضآلة المزعجة بحيث لا تتيح تطبيق الأساليب العلمية واستخلاص القوانين وصياغتها.

ومهما يكن من أمر ، فإننا نعتزم المجازفة بالمحاولة على مسئوليتنا ؛ وستتضمن بقية هذا الكتاب نتائج محاولتنا .



الباب الثانى

مبادئ الحضارات



الفصل الرابع

المشكلة وكيف لا يجب حلها

(١) عرض المشكلة

ندرك بمجرد تعرّضنا لمشكلة لم وكيف وفدت إلى الوجود المجتمعات التى تسير فى طريق الحضارة ؛ إن قائمة المجتمعات الواحد والعشرين التى من هذا النوع ، تنقسم فيما يتعلق بهذه المشكلة إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : تشمل خمسة عشر مجتمعا تنتسب إلى مجتمعات سالفة من نفس النوع ؛ ويتصل عدد قليل منها بسابقتها اتصالا وثيقا ، بحيث تصبح المناقشة فى مسألة توافر شخصية منفصلة لها ، موضع نظر .

وتتضمن المجموعة فى الطرف الآخر منها ؛ بعض مجتمعات ، اتصالها بسابقاتها ضعيف إلى حد أن القول بانتسابها إليها ، يحمل بين طياته الكثير من المغالاة .

المجموعة الثانية : وتشمل ستة مجتمعات .

وإن الخمسة عشر مجتمعا المنتسبة إلى سابقاتها انتسابا قل أو كثر ، هى من مجموعة تختلف عن المجتمعات الستة التى — إلى المدى الذى نستطيع تمييزه — قد انبعثت من الحياة البدائية مباشرة .

وننوى الآن توجيه التفاتنا إلى بحث مبدأ هذه المجتمعات الستة وهى : المصرية — السومرية — المينووية — الصينية — المايانية — الأنديانية .

ويقودنا هذا إلى بحث الفارق الأساسى بين المجتمعات البدائية والمجتمعات العليا المتقدمة عليها .

ليس مدار الفارق وجود النظم أو عدم وجودها ؛ فما النظم إلا ناقلات

العلاقات غير الشخصية بين الأفراد وهى التى تعيش فيها جميع المجتمعات ؛ ذلك لأن المجتمعات البدائية — حتى أصغرها — تقوم على أساس أوسع من الحلقة الضيقة التى تضم الصلات المباشرة لفرد ما . والنظم هى صفات جنس المجتمعات كافة . والأخرى فإنها خواص مشتركة لنوعى هذا الجنس (أى المجتمعات البدائية والحضارات) كليهما .

وللمجتمعات البدائية نظمها :

عقيدة الدورة الزراعية السنوية — الطوطمية[١] — زواج الأباعد[٢] — المحظورات الدينية أو العرفية (الطابو) — شعائر الالتحاق بالجماعات وطبقات السن — فصل الذكور عن الإناث فى بعض أدوار العمر فى منازل منفصلة ؛

ويقيناً أن بعض هذه النظم من دقة إحكام الصنعة والحذق ، حتى لتبلغ مبلغ النظم التى تختص بها الحضارات .

ولا تتميز الحضارات عن المجتمعات البدائية كذلك بتقسيم العمل . فإن فى مكنتنا أن نعاين — على الأقل — مبادئ تقسيم العمل فى حياة المجتمعات البدائية أيضاً . فإن الملوك والسحرة والحدادين والمغنين ، كلهم أهل اختصاص . وإن كان يلاحظ أن هفايستوس Hephaestus حداد الأسطورة الهلينية أعرج ، وهوميروس الشاعر الأسطورى الهلينى أعمى ؛ مما يوحى بأن التخصص فى المجتمعات البدائية أمر غير طبيعى ، وينزع إلى الاقتصار على أولئك الذين يفتقرون إلى القُدْرة ليصبحوا رجالا كاملين ، فى قدرتهم احتراف كل المهن .

وثمة اختلاف جوهرى بين الحضارات والمجتمعات البدائية كما نعرفها (وسنرى أن لهذا التحفظ أهمية) ؛ مداره الاتجاه الذى يتخذه التقليد أو

---

(١) الطوطم ، جمعها طواطم وهى عند البدائيين أى شىء من أشياء الطبيعة يظن أن له علاقة دم بعائلة من العائلات وبخاصة حيوان أو نبات . (المترجم)

(٢) زواج الأباعد Exogamy عادة تنتشر بين بعض القبائل تحرم على الرجل الزواج من نساء قبيلته . (المترجم)

المحاكاة . والتقليد ، هو تلك الظاهرة النوعية للحياة الاجتماعية جميعها . وتمكن ملاحظة أثر المحاكاة والتقليد فى المجتمعات البدائية والحضارات على السواء ؛ فى كل نشاط اجتماعى ، ابتداء من محاكاة نجوم السينما بمعرفة أخواتهن الممثلات الثانويات ، فصاعداً .

وعلى أية حال ، يعمل التقليد فى أتجاهات مختلفة فى نوعى المجتمعات[1] : ويوجّه التقليد فى المجتمعات البدائية — كما نعرفها — نحو الجيل الأقدم وإلى الأسلاف الموتى الذين ينتصبون غير مشاهدين ، ولكن مع بقاء تأثيرهم خلف الكبار الأحياء يعززون نفوذهم . ففى مجتمع يوجّه التقليد فيه إلى الوراء ، نحو الماضى ؛ تسود بهذه الطريقة العادات والعرف ، ويظل المجتمع ثابتاً لا يتطور . فى حين يوجّه التقليد فى المجتمعات التى تسير فى طريق الحضارة ، تجاه ذوى الشخصيات المبدعة الذين يلزمون الناس باتباعهم ؛ لأنهم من الطلائع . ومن ثم تنقطع « قرصة العرف » كما يدعوها والتر باجوت فى كتابه Physics & Politics : ويصبح المجتمع فى حركة دافعة فى طريق التغير والسمو .

لكن إن ساءلنا أنفسنا عما إذا كان هذا الاختلاف بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الأكثر تقدماً ، دائماً وأساسياً ؛ يجب أن تكون إجابتنا بالنفى . وذلك لأننا إذا كنا لانعرف المجتمعات البدائية إلا وهى فى حالة ثابتة ، فهذا يرجع إلى معرفتنا لها فقط عن طريق ملاحظة المراحل الأخيرة من تواريخها ، ملاحظة مباشرة . فإذا كانت الملاحظة المباشرة تخدعنا ، إلا أن هناك رتلا من الاستدلالات ينبئنا بأنه لابد أن تكون ثمة مراحل أسبق فى تواريخ المجتمعات البدائية ، كانت هذه المجتمعات تتحرك خلالها حركة دافعة تفوق كل حركة قام بها أى مجتمع « متمدين » حتى الآن .

---

(١) أى الحضارات والمجتمعات البدائية . (المترجم)

قلنا إن المجتمعات البدائية قديمة قدم الجنس البشرى ، وكان أحرى أن نقول إنها أقدم منه . إذ أن نوعا من الحياة الاجتماعية والنظامية بين بعض الثدييات العليا — غير الإنسان . ومن الواضح أن الإنسان ما كان ليصبح بشراً سويا ، إلا فى بيئة اجتماعية . وكان تطور شبيه الإنسان إلى الإنسان — الذى تم فى ظروف ليس لدينا عنها أى تسجيل ، فى عهد المجتمعات البدائية ، تطوراً عميق المدى ، يعتبر خطوة أعظم فى طريق النمو من أية خطوة خطاها الإنسان فى كنف الحضارة حتى الآن .

ويمكن تشبيه المجتمعات البدائية — كما نعرفها من الملاحظة المباشرة — بأناس راقدين خاملين على سلسلة صخور عند طنف على جانب جبل ، تحتهم هوة وفوقهم أخرى . وتشبيه الحضارات برفقاء لهؤلاء الهاجعين استيقظوا فى التو ، ثم نهضوا واقفين وشرعوا فى تسلق الجبل فوقهم . بينما نشبه أنفسنا بمشاهدين يقتصر مجال رؤياهم على سلسلة الصخور والانحدارات السفلى من الهوة العليا ، ووفدوا إلى المشهد فى الوقت الذى تصادف فيه وجود أعضاء الجماعتين (النائمة والمتحركة) كل على وضعه وموقفه . ولقد نميل عند النظرة الأولى إلى وضع حد فاصل مطلق بين الجماعتين ، فنهلل للمتسلقين باعتبارهم أبطالا ، ونلفظ الهاجعين لأنهم مشلولون . بيد أنه عند إعادة التفكير ، سوف نجد أن أرجاء إصدار حكمنا أكثر حكمة وسداداً فى الرأى .

وعلى كل ، لا يمكن أن تكون الشخصيات الهاجعة مشلولة فعلا . ولا يعقل أن تكون قد ولدت على سلسلة الصخور . كما لا يعقل أن تكون عضلات أخرى غير عضلاتهم هى التى رفعتهم إلى مكان وقوفهم هذا على فوهة الهاوية تحتهم . ومن ناحية أخرى ، فإن رفاقهم الصاعدين فى هذه اللحظة ، لم يغادروا تلك الصخور نفسها إلا فى التو ؛ شارعين فى تسلق الصخور العليا . ولما كانت رؤية سلسلة الصخور التالية متعذرة ، لا نعلم مدى

ارتفاع المنحدر التالى ووعورته . وكل ما نعلمه ؛ استحالة التوقف والاستراحة ، قبل بلوغ الصخور التالية ؛ أينما كانت . . وعلى ذلك ؛ فإنه حتى إن استطعنا حالياً تقدير قوة كل متسلق ومهارته واحتماله ، نعجز على الحكم عن مدى استطاعة أى منهم الوصول إلى الصخور العليا ؛ وهى هدف جهودهم الحالية . على أن فى مكنتنا التأكد من أن بعضهم لن يبلغوها أبداً . وفى وسعنا أن نلاحظ أن مقابل كل فرد يحاول أن يتسلق الآن فى عزم ، ثمة ضعف هذا العدد (أى حضارتنا البائدة) قد سقط مرتداً منهزماً إلى الصخور الأولى .

لقد فشلنا فى العثور على هدف بحثنا المباشر ، وهو الاهتداء إلى نقطة اختلاف جوهرية دائمة : بين المجتمعات البدائية ، والحضارات . على أننا ألقينا ــ عرضاً ــ قبساً من الضوء على الهدف النهائى لاستقصائنا الحالى ، ألا وهو : طبيعة بدء الحضارات . فإذا بدأنا بتحوّل المجتمعات البدائية إلى الحضارات ، وجدنا أنه تحول من الركود إلى الحركة الدافعة . وسنجد أن هذا القانون نفسه ؛ يسرى بالنسبة لانبعاث الحضارات بوساطة : انفصال البروليتاريا الداخلية ، عن الأقليات المسيطرة التى تنتمى إلى الحضارات السابقة الوجود ، والتى فقدت قدرتها الابتداعية . وتعتبر مثل هذه الأقليات المسيطرة جامدة ، حسب تعريفها نفسه . لأن القول بتحلل الأقلية المبدعة لحضارة آخذة فى النماء ــ أو ضمورها إلى أقلية مسيطرة لحضارة فى حالة تفكك ــ إن هو إلا طريقة أخرى للقول بانتقال المجتمع محل البحث ، من الحركة الدافعة إلى حالة الركود . وعلى الضد من حالة الركود هذه ؛ يعتبر إنفصال البروليتاريا ، رد فعل يتسم بالحركة وبالقوة الدافعة .

وعلى هدى هذا الضوء ــ أى انفصال البروليتاريا عن الأقلية المسيطرة ــ تنبعث حضارة جديدة بفعل إنتقال مجتمع من حالة الركود إلى الحركة الدافعة ، مثله مثل التحول الذى ينتج حضارة من مجتمع بدائى . ولعل تكوين جميع

الحضارات ــ ما كان منها أصيلا أو ما كان منتسباً لغيره سواء بسواء ــ يمكن وصـــفه فى عبارة الجنرال سمطس « عاد الجنس البشرى للحركة مرة أخرى » .

وهذا الترديد المتعاقب من الركود والحركة الدافعة ، والتوقف والمسير ؛ قد اعتبره كثير من المراقبين ــ فى كثير من العصور المختلفة ــ شيئاً جوهرياً فى طبيعة الكون .

ولقد أطلق حكماء المجتمع الصينى بخيالهم الخصيب على هذا التناوب اصطلاحى « الين واليانج » . الين هو الركود ، واليانج هو الحركة الدافعة ويبدو أن نواة الحرف الصينى الذى يعبّر عن الين ، تمثل سحباً قاتمة ملتفة تحجب الشمس . فى حين أن نواة الحرف الذى يعبّر عن اليانج ، تمثل قرص الشمس خالياً من السحب وناشراً أشعته . وفى العبارة الصينية ؛ يُذكر الين قبل اليانج على الدوام .

وكذلك نستطيع فى نطاق مجال رؤيانا ، أن نرى السلالة البشرية قد بلغت صخور الطبيعة البشرية البدائية منذ ثلاثمائة ألف سنة ، ثم استراحت هنا مدة تعادل ٩٨ ٪ من هذه الفترة ، قبل دخول مرحلة نشاط اليانج الحضارية .

وعلينا الآن أن نبحث عن العامل الإيجابى ــ أيا ما يكون ــ الذى قاد الحياة البشرية إلى الحركة مرة أخرى ، بفضل قوته الدافعة . وسنرتاد أول الأمر طريقين سيتضح فيما بعد أنهما مسدودان لا ينتهيان إلى شىء .

(٢) الجنس

يبدو واضحاً ، أن العامل الذى أخرج [illegible] ـانباً من البشرية ــ خلال السنوات الستة آلاف الماضية ــ من حالة الين الخاصة بالمجتمعات البدائية « على طنف الصخور الأولى » ، إلى حالة اليانج للحضارة « على المنحدر » ، هذا العامل يجب البحث عنه : إما فى صفة خاصة فى الجنس

البشرى هى التى أتاحت عملية الانتقال ؛ وإما فى مظهر خاص يتعلّق بالبيئة التى حدث فيها الانتقال ؛ أو فى نوع من التفاعل بين العاملين : وسننظر أولا فى احتمال قيام أى من هذه العوامل بمفرده بهدايتنا إلى ما نبحث عنه :

فهل نستطيع أن ننسب بدء الحضارات إلى مزايا جنس أو أجناس خاصة بذاتها ؟

والجنس اصطلاح يستخدم للتعبير عن توفر بعض صفات مميزة وموروثة فى جماعات معينة من البشرية . والصفات الافتراضية للجنس التى نبحث عنها هنا ، إنما هى السجايا النفسية أو الصفات الروحية التى يُفترض وجودها بالفطرة فى بعض المجتمعات : بيد أن علم النفس – وبصفة خاصة علم النفس الاجتماعى – دراسة ما تزال فى المهد . وتتوقف من ثم جميع المناقشات المتصلة بالجنس – حتى الآن – وعندما يدرس الجنس كعامل منتج للحضارة ، على الفرض بأن ثمة علاقة بين الصفات النفسية المفيدة ، وبين طائفة من المظاهر الطبيعية الواضحة للعيان :

ويُعتبر اللون ، الصفة البدنية التى يعوّل عليها أكثر من غيرها فى غالبية الأحوال ، المدافعون عن نظريات الأجناس من الغربيين . وقد يفهم بداهة أن التفوق الروحى والذهنى – إلى حد ما – مرتبط نوعا ما بالنقص النسبى فى صباغة البشرة أو على اتصال وثيق به ، أو يتبادل معها (وإن كان يبدو أن ذلك غير محتمل من الناحية البيولوجية) :

ومعها يكن من الأمر ، فإن أكثر نظريات الحضارة العنصرية شيوعا ، هى تلك النظرية التى تضع على منصة الشرف ، السلالة ذات البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء والرأس الطويل[1] التى يدعوها البعض

---

(١) عبر عنها المؤلف مقتبسا من هوراثيوس Anthotrichous Glaucopian, dolichocerhalic Variety of homo-leucodermaticus.

بالإنسان النوردى ، ويدعوها نيتشه بالوحش الأشقر . وحرى بنا أن نبحث عن أوراق اعتماد هذا الوثن معبود أوساط التيوتونيين .

وضع الإنسان النوردى على منصة الشرف لأول مرة ، نبيل فرنسى هو الكونت دى جوبينو Compte de Gobineau فى مستهل القرن التاسع عشر . وكان ارتقاؤه بـ « الوحش الأصفر » إلى مستوى الأوثان حدثا عارضا ، قام فى غمار المجادلات التى انبعثت عن الثورة . فبينما كانت الأرستقراطية الفرنسية تُصادر أموالها أو تُنفى أو تطيح المقصلة بروؤسها ، كان متحذلقة الحزب الثورى الذين كانوا لا يقرون بالسعادة الكاملة إلا إن استطاعوا عرض أحداث يومهم فى أسلوب كلاسيكى ؛ يقولون بأن الغاليين[1] يدفعون الآن — بعد أربعة عشر قرنا من الخضوع — غزاتهم من الفرنجة[2] إلى الظلمة الخارجية وراء نهر الرين من حيث أتوا إبان فترة هجرات الشعوب ، وأنهم (أى الثوريين) يواصلون وضع يدهم على أراضى جنس الغاليين التى ما انفكت أراضيهم هم رغما عن اغتصاب البرابرة الطويل لها .

ولقد رد الكونت جوبينو على هذا الهراء بهراء أسخف منه ، إذ أجاب :

« إنى أقبل تشخيصكم . فلنتفق جدلا على انحدار الدهماء الفرنسيين من الغاليين ، وانحدار الأرستقراطية من الفرنجة ، وإن كلا الجنسين من ذرية صافية ، وأن ثمة ارتباطا واضحا ودائما بين صفاتهما والسمات البدنية والنفسية . فهل تتصورون حقيقة أن الغاليين يمثلون الحضارة والفرنجة البربرية ؟ من أين وفدت تلك الحضارة التى اكتسبتموها أيها الغاليّون ؟ أمن روما ؟ ومن الذى أقام عظمة روما ؟ يرجع ذلك إلى صبابة بدائية

(١) كانت غالة ولاية رومانية وتشمل الآن جزءا من فرنسا الحالية . (المترجم)

(٢) قبائل جرمانية . (المترجم)

من ذلك الدم النوردى الذى يجرى فى عروق الفرنجية . فإن الرومانيين الأوائل كاليونانيين الأوائل — وهم الآخيون الذين ذكرهم هوميروس — كانوا فاتحين شقر الشعور ، انحدروا من الشمال المنعش ، وأقاموا سيطرتهم على الوطنيين الأضعف منهم ، من سكان البحر الأبيض المتوسط الواهنين . بيد أن دمهم قد اختلط على طول المدى ، بدم هؤلاء ، فضعف جنسهم وتضعضعت قواهم ومجدهم . ثم حان الوقت لتنحدر من الشمال نجدة أخرى من الفاتحين الشقر لتدفع كرة أخرى نبض الحضارة إلى الحركة ، وكان الفرنجة ضمن هؤلاء » .

ذلك هو تفسير جوبينو المسلّى لطائفة من الوقائع التى بحثناها بشكل مغاير تماما ، فى تصورنا لأصول الحضارة الهلينية أولا ثم الحضارة الغربية من بعدها . ومما جعل هذا التلاعب الفكرى السياسى أقرب إلى التصديق ، كشف معاصر ، سارع جوبينو إلى الإفادة منه . إذ كان قد كشف وقتئذ أن جميع اللغات الأوربية الموجودة — على وجه التقريب — فضلا عن اليونانية واللاتينية ولغات فارس وشمال الهند الحية ، بالإضافة إلى الإيرانية القديمة والسنسكريتية القديمة ، تنتسب جميعها بعضها إلى بعض أعضاء فى عائلة لغوية واحدة واسعة المدى . ولقد استنتج من ذلك بحق ، أنه لا بد أن تكون هناك لغة أصلية آرية أو هندية أوربية اشتق منها لسان كل أفراد العائلة . بيد أنه قد استخلص منه خطأ أن الشعوب التى شاعت فيها تلك اللغات ذوات القربى ، تنتسب هى أيضاً بعضها إلى بعض انتسابا طبيعيا بنفس درجة انتساب اللغات إلى بعضها ، وإن تلك الشعوب تنحدر جميعها من جنس أصـلى أرى أو هندى أوروبى يرجع إلى العصور الأولى ، وانتشرت من موطنها الأصلى غازية أو مغزوة فى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وتمضى تلك الفكرة قائلة بأن ذلك العنصر قد أنتج العبقرية الدينية

لزرادشت وبوذا ، وعبقرية اليونان الفنية ، وعبقرية روما السياسية . وفى الختام نحن النبلاء[١] . لأنه إلى هذا الجنس ، يرجع تقريباً فضل جميع ما حققته الحضارة البشرية من أعمال وتقدم .

اعتنق فقهاء اللغة الألمان الثقلاء ، تلك الفكرة الخفيفة الوثّابة التى ابتكرها الفرنسى الرشيق ، وهذبوا كلمة « الهندى أوربى » ، فأصبحت « الهندى / جرمانى » . وجعلوا أملاك ملك بروسيا الموطن الأصلى لذلك العنصر الوهمى . وكتب هوستون ستيوارت تشامبرلين وهو انجليزى كان قد وقع فى حب ألمانيا ، كتاباً قبيل نشوب الحرب العالمية عنوانه « أسس القرن التاسع عشر[٢] » أضاف فيه السيد المسيح ودانتى إلى قائمة الهنود الجرمانيين .

وللأمريكيين كذلك اقتناع بالإنسان النوردى . فقد أزعجت الهجرة العارمة للأوربيين الجنوبيين إبان ربع القرن السابق لعام ١٩١٤ كتّاباً مثل ماديسون جرانت ولوثروب ستودارد . فطالبوا بتقييد الهجرة ، باعتبار ذلك هو الإجراء الوحيد للمحافظة — لا على المستويات الاجتماعية الأمريكية — ولكن على نقاوة الفرع الأمريكى من الجنس النوردى .

وما المذهب الذى تروّج له طائفة من اليهود البريطانيين ، إلا نظرية من نفس الطراز ، لكن مع استخدام اصطلاحات مختلفة ، والسعى لتعزيز تاريخ وهمى بآراء دينية غريبة معقّدة .

ومما يدعو إلى العجب ، أن نلاحظ أنه بينما يصر دعاة العنصرية فى الحضارة الغربية على اعتبار البشرة البيضاء دليلا على التفوق الروحى ، جاعلين الأوربيين أعلا من الأجناس الأخرى مقاماً ، والجنس النوردى فوق غيره من الأوربيين ؛ يستخدم اليابانيون علامة بدنية مختلفة . فمن قبيل المصادفة

(١) يتهكم المؤلف هنا على فكرة السيادة العنصرية والتفوق الجنسى التى يعارضها أشد المعارضة . (المترجم)

(٢) The Foundations of the 19th Century

أن أجسام اليابانيين تخلو من الشعر بشكل ملحوظ ، بينما يجاورهم فى جزيرتهم الشمالية جماعة بدائية من طراز مختلف تماماً ، طراز بدنى لا يفترق كثيراً عن الأوربى العادى ، وتسمى هذه الجماعة عند اليابانيين « الإينو المشعرين »[١] . فكان من الطبيعى جداً – والحال كذلك – أن يقرن اليابانيون الأمرد بالتفوق الروحى . وأنه وإن كانت دعواهم لا أساس لها ، مثلها مثل حجتنا عن تفوق البشرة البيضاء ، إلا أنها – من الناحية السطحية – أكثر منها قبولا لدى العقل . ذلك لأن الرجل الأمرد ، هو بالتأكيد بسبب خلوه من الشعر ، أبعد منزلة نوعاً ما عن ابن عمه القرد .

وإذا قسّم علماء أصول السلالات البشرية[٢] الرجال البيض حسب صفاتهم البدنية : الرؤوس المستطيلة والرؤوس المستديرة ، البشرة البيضاء والبشرة القاتمة وما إلى ذلك من الأنواع . . . خرجوا من ذلك بثلاث « أجناس » بيضاء أسموها : الجنس النوردى والجنس الألبى ، وجنس البحر الأبيض المتوسط .

ومهما تكن قيمة هذا التقسيم ، سنسرد عدد الحضارات التى أسهم فيها كل جنس من هذه الأجناس مساهمة فعلية :

ساهم النورديون فى أربع وربما فى خمس : الهندية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الروسية ، وربما الحيثية .

وأسهم الألبيون فى سبع وربما فى تسع : السومرية ، الحيثية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الأصلية والفرع الروسى منها ، والإيرانية ، وربما المصرية والمينووية :

---

(١) قدم الآينو Aino الجزائر اليابانية من جبال القوقاز عبر سيبريا وكوريا وسكنوها قبل المغول الذين وفدوا إليها فى وقت متأخر والذين سادوا الجزائر اليابانية . ومنهم العائلة المالكة . (المترجم)

(٢) Ethnolohists

وأسهم سكان البحر الأبيض فى عشر : المصرية ، السومرية ، المينووية ، السورية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية (الأصيلة) ، الإيرانية ، العربية ، البابلية .

أما بالنسبة لتقسيمات الجنس البشرى الأخرى : أسهم الجنس الأسمر (ونعنى به الشعوب الدرافيدية فى الهند والملاويين فى أندونيسيا) فى اثنتين : السندى والهندوكى .

وأسهم الجنس الأصفر فى ثلاث : الصينية ، وفى حضارتى الشرق الأقصى كلتيهما وهما الحضارة الأصيلة فى الصين والفرع اليابانى منها .

أما الجنس الأحمر فى أمريكا فقـد ساهم وحده فى الحضارات الأمريكية الأربع .

أما العناصر السوداء ، فهى وحدها التى لم تسهم — حتى الآن — مساهمة فعلية إيجابية ، فى أية حضارة .

ويتبين مما تقدم أن للعناصر البيضاء القدح المعلّى ، بيد أنه يجب أن لا يعزب عن البال أن ثمة كثيراً من الشعوب البيضاء بريئة من تقديم أية مساهمة لأية حضارة ، مثلها فى ذلك مثل السود أنفسهم سواء بسواء .

فإن كان ثمة شىء يبدو من وراء هذا التبويب ، فإن مداره أن نصف حضاراتنا قائم على مساهمات من أكثر من جنس واحد . فإن لكل من الحضارتين الغربية والهلينية — مثلا — ثلاثة مساهمين . ولو قسّمت الأجناس : الأصفر ، الأسمر ، الأحمر ، إلى عناصر فرعية مثل أقسام الجنس الأبيض (النوردى ، الألبى ، وجنس حوض البحر الأبيض المتوسط) لكان من المحتمل أن نحصل على تعدد من المساهمين فى جميع حضاراتنا . أما ماهية هذه التقسيمات الفرعية ، وهل كانت فى أى وقت من الأوقات قد مثّلت — من الناحيتين التاريخية والاجتماعية — شعوباً قائمة بذاتها ، فإن هذا شىء آخر . والواقع أن الموضوع برمته غامض غاية الغموض .

بيد أنه قد قيل ما فيه الكفاية لتسويغ رفضنا النظرية القائلة بأن جنساً أعلى هو الذى كان سبب الانتقال وصانعه من حالة الين إلى حالة اليانج ؛ من الثبات إلى الحركة الدافعة ، فى جزء بعد الآخر من أجزاء العالم ، منذ زمن يرجع إلى ستة آلاف سنة مضت .

(٣) البيئـــة

أوحى اتساع نطاق المجتمع الغربى فى أنحاء العالم فى غضون القرون الأربعة الأخيرة ، إلى العقول الغربية الحديثة ، بالمغالاة فى توكيد تأثير العامل العنصرى فى التاريخ . ولقد جعل هذا الاتساع الشعوب الغربية على اتصال – وغالباً على اتصال غير ودى – بشعوب تختلف عنها ، لا فى الثقافة فقط ، ولكن من الناحية البدنية أيضاً . ومن ثم كان نشوء فكرة وجود أنواع بيولوجية عليا وأنواع دُنيا ، هى النتيجة الطبيعية التى يتوقعها المرء من جراء هذه الاتصالات ، سيما فى القرن التاسع عشر ، عندما أصبحت العقول الغربية نتيجة لأعمال تشارلس داروين وغيره من الباحثين العلميين ، تُدرك وجود شيء اسمه بيولوجيا .

وانتشر اليونانيون القدماء قبل ذلك فى العالم المحيط بهم ، عن طريق التجارة والاستيطان . بيد أن عالمهم كان أضيق كثيراً من العالم الغربى ، وكانت تتعدد فيه الثقافات المختلفة دون أن تختلف فيه الأنواع البدنية كثيراً . فكان المصرى والأسقوذى(١) مثلا ، يختلف كل منهما عن الآخر كثيراً كما يبعدان كلاهما عن مراقبهما اليونانى (هيرودوتس مثلا) ، فى طرائق الحياة ، إلا أنهما لم يختلفا عنه فى الناحية البدنية ، ذلك الاختلاف الكبير الظاهر بين زنجى أفريقيا الغربية والرجل الأحمر فى أميركا ، وبين الأوربى .

---

(١) Scythian نسبة إلى Scythia الإقليم الواقع شمال البحر الأسود وبحر قزوين وبحر أورال (جزء من الاتحاد السوفييتى حاليا) . (المترجم)

فكان طبيعياً أن يجد اليونانيون عاملا آخر غير الوراثة البيولوجية للسمات البدنية — أى العنصر — لتفسير الاختلافات الثقافية التى لاحظوها حولهم : فوجد المراقبون اليونانيون التفسير فى الموقع الجغرافى والتربة والمناخ[١] :

وتبسط رسالة عنوانها « تأثيرات الجو والماء والموقع » ، الآراء اليونانية عن هذا الموضوع . وترجع الرسالة إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وحفظت ضمن مجموعة أعمال مدرسة هيبوقراط الطبية . ففيها نقرأ مثلا « يمكن تقسيم الأشكال الشرية إلى النوع الجبلى الغزير المياه والنوع ذى التربة الضعيفة عديمة المياه ونوع المراعى ذات المستنقعات ونوع السهول المستصلحة جيدة الصرف . . . وتميل أبدان سكان البلد الجبلى الصخرى والغزير المياه والموجود على ارتفاع كبير حيث يكون مجال التقلبات الجوية الموسمية واسعاً ، إلى ضخامة البنية التى تتفق مع ما يلزمهم من شجاعة وقدرة على الاحتمال . . . أما سكان الأراضى المنخفضة الحارة الرطبة التى تغطيها المروج المائية والتى هى أكثر تعرّضاً فى العادة للرياح الحارة منها إلى الباردة ، والذين يشربون ماءً فاتراً ، فإنهم على العكس ليسوا أقوياء البنية ، كما أنهم ليسوا نحافاً ، ولكنهم ضخام مترهلون ذوو شعور سوداء ، ولون الوجه أقرب إلى السواد منه إلى البياض ، وهم أميل إلى الغضب منهم إلى البرود ، وليست الشجاعة والاحتمال من الصفات الأصيلة فى طباعهم ، لكن يتأتى بثها فيهم بفضل تطبيق النظم الفعّالة . . . أما سكان البلد غير المستوى وذى الرياح الجارفة والمياه الغزيرة والموجود على ارتفاع كبير ، فهم أقوياء البنية ويمقتون النزعة الفردية ، وفى طباعهم نوع من

---

(١) الكاتب برنارد شو فى صف اليونانيين من هذه الناحية . إذ سيذكر قراء مقدمة جزيرة جون بول الأخرى John Bull other Island أنه استبعد مزدريا فكرة العنصر الكلى وعزا جميع الاختلافات بين الإنجليز والإيرلنديين إلى الاختلاف فى مناخى جزيرتيهما . (المؤلف)

الجبن وسهولة الانقياد . . . وسنجد فى غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشريين يتغيران وفقاً لطبيعة البلد[١] » .

على أن قوام التفسيرات الأثيرة لدى الهلينيين عن نظرية البيئة ، كانت مستمدة من الاختلاف بين تأثير الحياة فى وادى النيل الأدنى على طبيعة المصريين وخلقهم ونُظمهم ، وبين أثر الحياة فى السهل الأوراسى على طبيعة الأسقوذيين وخلقهم ونظمهم .

تحاول نظريتا الجنس والبيئة كلتاهما : تعليل التباين الملحوظ فى التصرف والسلوك النفسى (الفكرى والروحى) لأقسام مختلفة من البشر ، وذلك بافتراض علاقة سببية ثابتة ودائمة ، كالعلاقة بين العلّة والمعلول ، بين هذا التباين النفسى وطائفة من عناصر التباين الذى لوحظ فى محيط الطبيعة غير الروحى . وتجد نظرية الجنس علة التنوع فى اختلاف الصفات البدنية البشرية ، وتجده نظرية البيئة فى اختلاف الأحوال المناخية والجغرافية التى تعيش فيها المجتمعات المختلفة . وجوهر النظريتين كلتيهما ، هو الصلة بين مجموعتين من التغيرات :

هى فى الحالة الأولى ، الطبع والصفات البدنية .

وفى الحالة الثانية ، الطبع والبيئة .

ويجب التدليل على ثبات هذه العلاقة ودوامها ، إن أريد إثبات صحة النظريتين القائمتين عليها .

ولقد شاهدنا تداعى نظرية العنصر عند اختبارها بهذا المعيار . ويتضح لنا الآن ، أن نظرية البيئة ، وإن كانت أقل مجافاة للعقل ، إلا أن نصيبها من الصحة ليس بأكثر من نصيب نظرية العنصر . وما علينا إلا أن نفحص النظرية الهلينية على أساس مثاليها الأثيرين : السهب الأوراسى ووادى النيل. ولا بد أننا سنجد مناطق أخرى على سطح الأرض تتشابه من الناحيتين

---

(١) الفصلان ١٣ و ١٤ . ترجمه إلى الإنجليزية ا . ج . توينبى بعنوان :
Hippocrates : Influences of Atmosphere Weather and situation ; Greek Historical . Thought from Homer to the Age of Heraclins p.p. 167—8.

الجغرافية والمناخية مع كل من هاتين المنطقتين . فإذا أسفرت جميعها عن السكان فى طباعهم ونظمهم مع الأسقوذيين فى حالة ، ومع المصريين فى الأخرى ، ثبتت نظرية البيئة ، وإلا نُقضت .

فلنتناول أولا ، السهب الأوراسى ، الذى لم يعلم اليونانيين عنه سوى ركنه الجنوبى الغربى ، وفى مكنتنا أن نضع إلى جانبه السهب الأفراسى[1] الممتد من بلاد العرب عبر شمال إفريقيا . فهل يعنى التشابه بين أنحاء السهبين تشابها مماثلا بين المجتمعات البشرية التى انتشرت فى كلتا هاتين المنطقتين ؟ الرد بالإيجاب .

فإن كلا السهبين قد أنتجا النوع البدوى من المجتمع . وأظهرت هذه البداوة فى السهبين نفس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف ، اختلاف فى نوع الحيوانات المستأنسة مثلا ، التى كان يجب أن نتوقع وجودها نظراً لأوجه الشبه وأوجه الاختلاف القائمة بين المنطقتين .

بيد أن العلاقة تتهاوى بإجراء مزيد من الاختبارات . إذ نجد أن الأجزاء الأخرى من العالم التى تتوفر فيها البيئة اللازمة للمجتمعات البدوية — مراعى أمريكا الشمالية مثل منطقة اللانوس فى فنزويلا والبمباس فى الأرجنتين ومراعى استراليا — لم تُنتجب نوعاً خاصاً بها من المجتمعات البدوية . هذا وليست الإمكانيات الكامنة فى تلك المناطق ، موضع سؤال . لأن مشروعات المجتمع الغربى قد أدركتها فى عصرنا الحديث وغدت تستثمرها ، بفضل الرواد من أصحاب الماشية من الغربيين — مثل رعاة البقر فى أمريكا الشمالية ، والجوشو[2] فى أمريكا الجنوبية ، ورعاة الماشية فى أستراليا — الذين استحوذوا على هذه الأحراش التى لا مالك لها ونجحوا فى الاحتفاظ بها إبان بضعة أجيال ، مناضلين تقدم المحراث والمصنع ، قد سلبت روعة مغامراتهم مخيلة البشرية كالأسقوذيين والتتر والعرب سواء بسواء . ولو كانت

---

(٢) نعنى بالأوراسى ، الأوربى الأسيوى وبالأفراسى ، الإفريقى الأسيوى . (المترجم)

(٢) الجوشو هم رعاة البقر فى أمريكا اللاتينية . (المترجم)

لدى السهب الأمريكية والاسترالية ، القوة التى تمكنها من إحالة رواد مجتمع ليست له تقاليد بدوية وعاش على الزراعة والصناعة منذ نشأته أول مرة ، إلى بدو ولو لفترة جيل واحد ؛ لو كانت لديها هذه القوة ، لكانت طاقاتها الكامنة كبيرة جداً حقاً . وفضلا عن ذلك ، يلفت النظر أن الشعوب التى وجدها الرواد الغربيون الأوائل تشغل فى هذه المراعى ، لم تدفعها بيئتها إلى الحياة البدوية . إذ لم تجد تلك الشعوب فى هذه المناطق التى تصلح للحياة البدوية ، أى وجه لاستعمالها ، أفضل من تخصيصها للصيد .

فإن اختبرنا بعد ذلك نظرية البيئة فى المناطق المشابهة لوادى النيل الأدنى ، لأسفرت تجربتنا عن نفس النتيجة :

فإن وادى النيل منطقة شاذة نوعاً ما فى السهب الأفراسى ، إن صح هذا القول . لأن مصر ، بالرغم من أن مناخها هو نفس المناخ الجاف السائد فى المنطقة الشاسعة التى تحيط بها ، قد منحت موهبة استثنائية قوامها مدد منتظم من المياه والطمى ، يزودها به النهر العظيم الذى ينبع من وراء حدود السهب من منطقة غزيرة الأمطار . ولقد استخدم منشئو الحضارة المصرية هذه الموهبة ، لتهيئة مجتمع يختلف اختلافا ظاهراً عن الحياة البدوية التى تحيط بهم من الجانبين .

فهل تعتبر البيئة الخاصة التى أتاحها النيل لمصر ، ميزة إيجابية ؛ إليها يعزى بدء الحضارة المصرية ؟

للتدليل على صحة هذا الرأى ، علينا أن نبرهن على أنه فى كل منطقة منعزلة أخرى ، تتهيأ فيها بيئة من الطراز النيلى ، انبعثت حضارة مماثلة ؛ لهذا السبب دون غيره .

تصمد النظرية للاختبار فى منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة ، تلك هى المنطقة الدنيا من وادى الدجلة والفرات . هنا نجد ظروفاً طبيعية مماثلة ومجتمعا مماثلا هو المجتمع السومرى . لكن النظرية تنهار فى واد أصغر

وإن كان مشابها هو وادى الأردن ، الذى لم يكن يوما ما مركزاً لأية حضارة . ولعلها تنهار كذلك فى وادى السند – إن كنا على صواب فى افتراضنا أن الثقافة السندية قد استجلبها المستوطنون السومريون ، إلى هناك جاهزة كما هى . ويجوز استبعاد الوادى الأدنى للجانج من هذه المقارنة لشدة رطوبته وموقعه المدارى ، ويستبعد كذلك واديا اليانجتسى الأدنى والمسيسبى ، لشدة رطوبتهما وموقعهما فى المنطقة المعتدلة فى المناخ .

بيد أن أصعب النقاد تشدداً ، لايستطيع أن يُنكر أن أحوال البيئة التى تتيحها مصر والعراق يتيحها كذلك واديا نهرى ريوجراندى وكلورادو فى الولايات المتحدة . ولقد أنجز هذان النهران الأمريكيان ، بفضل أيدى المستوطن الأوربى الحديث مستخدماً موارد جلبها معه من الجانب الآخر من المحيط الأطلسى ، نفس المعجزات التى قيّضها النيل والفرات للمهندسين المصريين والسومريين . بيد أن نهر كلورادو أو ريو جراندى لم يُسِرّ بهذا السحر إلى شعوب لم تكن من مريديه ، وإن كانت قد تعلمته فى مكان آخر .

ومتى ثبت ذلك ، لا يمكن اعتبار البيئة العامل الإيجابى الذى جلب الحضارات النهرية إلى الوجود . وسنستوثق من هذه النتيجة ، إذا ألقينا نظرة على بعض البيئات الأخرى التى أنتجت حضارات فى منطقة ، ولم توح بها فى أخرى .

إذ برزت الحضارة الأنديانية إلى الوجود على هضبة مرتفعة ، ويختلف ما حققته اختلافا حادا عن الهمجية الوحشية التى تأويها غابات الأمازون الواقعة تحتها . فهل كانت الهضبة هى سبب تقدم الحضارة الأنديانية على جيرانها المتوحشين ؟

أحرى بنا قبل أن نتقبل هذه الفكرة ، أن نُلقى نظرة على نفس خطوط العرض الاستوائية فى إفريقيا حيث تلتف مرتفعات إفريقيا الشرقية بولايات غابات حوض الكنغو . وسنجد أن الهضبة فى إفريقيا لم يقيّض لها إنتاج أى مجتمع متحضر ، مثلها مثل الغابات المدارية فى وادى النهر الكبير .

ونلاحظ بالمثل أن الحضارة المينوية قد انبعثت فى عنقود من الجزر الواقعة فى بحر داخلى يتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط . بيد أن بيئة مماثلة فشلت فى ابتعاث حضارة أخرى من النوع الجزيرى حول بحر اليابان الداخلى ؛ إذ لم تُنجب اليابان حضارة مستقلة ؛ لكن شغلتها حضارة متفرعة عن حضارة مركزها القارة ، ظهرت فى داخلية الصين .

وتُذكر الحضارة الصينية فى بعض الأحيان على أنها سليلة النهر الأصفر ، لأنه اتفق نشوؤها فى وادى النهر الأصفر . بيد أن حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادى فى أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل ، قد أخفق فى إنجاب حضارة كالحضارة الصينية .

ولقد انبعثت الحضارة المايانية وسط الأمطار والأحراش المدارية فى جواتيمالا وهندوراس البريطانية . لكن مثل هذه الحضارات ، لم تبرز من خلال نفس الظروف الوحشية فى الأمازون والكنغو . حقاً يقع فعلا حوضا هذين النهرين على جانبى خط الاستواء ، فى حين يقع موطن الحضارة المايانية شمال الخط بخمس عشرة درجة . لكن إن تتبعنا سير خط العرض ١٥ درجة من الجهة الأخرى من العالم ، فإننا نعثر مصادفة على الخرائب الهائلة لأنجوروات[١] ، وسط الأمطار والأحراش المدارية فى كمبوديا . ولا شك أنه تُمكن فعلا مقارنة هذه الخرائب بخرائب كوبان وايكسوكون المدينتين المايانتين ؛ لكن الدليل الذى أسفرت عنه الحفريات ، يُظهر أن الحضارة التى تمثلها انجروات فى كمبوديا ، ليست حضارة كمبودية الأصل ولكنها فرع من حضارة هندوكية ظهرت فى الهند .

---

(١) أنجور وات Angkor Wat : يطلق لفظ أنجكور Angkor على مجموعة من الخرائب التاريخية فى كمبوديا . وهى بقايا حضارة مزدهرة طغت عليها الغابات . وأهم هذه الخرائب ما يكون بقايا معبدى أنجور ثوم وأنجور وات ويقمان على الضفة اليمنى لنهر سيم ريب Siem Peap وقد أقيم معبد آنجوروات لعبادة براهما الرب الهندى على أرجح الأقوال ، على أن العلماء الفرنسيين من رأيهم أنه أقيم لعبادة بوذا .   (المترجم)

نستطيع الإسهاب فى هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لكن لعلنا قد ذكرنا مافيه الكفاية لإقناع القارئ بأنه : لا الجنس ، ولا البيئة – إن أخذ كل بمفردة – يمثّل العامل الإيجابى الذى أيقظ الجنس البشرى فى غضون ستة آلاف السنة الماضية من حالة الركود فى مستوى مجتمع بدائى ، ودفعه إلى طريق محفوف بالمخاطر سعياً وراء الحضارة .

وعلى أية حال ، فإنه لا الجنس ولا البيئة كما تصورناهما حتّى الآن ، قد قدّما أو يمكن – كما هو ظاهر – أن يقدّما أى دليل عن سبب حدوث هذا التحول العظيم فى التاريخ البشرى ، لا فى أماكن معينة فحسب ، بل أيضاً فى تواريخ معينة .

الفصل الخامس

التحدى والاستجابة

(١) الدليل المستمد من الأساطير

استخدمنا حتى الآن فى بحثنا عن العامل الإيجابى فى بدء الحضارات ، خطط المدرسية الكلاسيكية فى الطبيعة الحديثة . واستعملنا لبسط أفكارنا اصطلاحات مجردة . وأجرينا بعض التجارب بشأن أثر قوتين جامدتين هما الجنس والبيئة . فالآن وقد أسفرت هذه المحاولات عن لاشئ ، فأحرى بنا أن نقف برهة لننظر فيما إذا كان مرد عجزنا شيئاً من الخطأ فى أسلوب البحث . إذ ربما نكون قد وقعنا تحت سيطرة خداعة لروح عصر مضى ، فأصبحنا ضحايا لما سندعوه بـ « خطأ الحكم على أساس السفسطة البليدة » .

ولقد حذّر راسكين قراءه من « خطأ الحكم بالعاطفة » الذى يتمثل فى إضفاء الحياة بوساطة الخيال على الأشياء الجامدة . بيد أنه من الضرورى بما لايقل عما تقدم ، أن نحترس من ارتكاب خطأ هو نقيض الخطأ السابق . ومداره تطبيق طريقة علمية معبّرة لدراسة الطبيعة الجامدة ، على دراسة الفكرة التاريخية وقوامها دراسة المخلوقات الحية . فعلينا أن نهتدى بهدى أفلاطون فى محاولتنا الأخيرة لحل اللغز ، فنسلك الطريق الآخر ، مطبقين أعيننا هنيهة عن القوانين العلمية ، لنفتح آذاننا لحديث الأساطير .

واضح أن بدء الحضارات لم يكن نتيجة العوامل البيولوجية أو البيئة الجغرافية ، كل تعمل بمفردها . فلا ريب أنه نتيجة نوع ما من التفاعل بينها جميعاً . وبعبارة أخرى ، ليس العامل الذى نسعى للتعرف عليه ، شيئاً مفرداً لكنه متعدداً ، هو ليس وحدة ، لكنه علاقة . وعلينا أن نختار بين تصوّر هذه العلاقة بين قوتين غير بشريتين ، أو كالتقاء بين شخصيتين

فوق مستوى البشر . فلنحاول ترويض أذهاننا على ثانى هذين المعنيين ، لعله يقودنا إلى النور .

أن الالتقاء بين شخصيتين فوق مستوى البشر ، هو مدار طائفة من المآسى العظمى التى تصورتها المخيلة البشرية . فالالتقاء بين ياهوى[١] والحية ، هو موضوع قصة سقوط الإنسان فى سفر التكوين . وثمة التقاء ثان بين نفس الشخصيتين بعد أن هذبتهما النفوس السورية المتوقدة ، أصبحت موضوع العهد الجديد الذى يروى قصة الفداء[٢] .

كذلك الالتقاء بين الرب والشيطان هو موضوع سفر أيوب ، والالتقاء بين الرب ومفيستوفيليس[٣] هو موضوع قصة فاوست ، والالتقاء بين الأرباب والشياطين هو حكمة الملحمة الاسكندنافيه فولوسبا Volusha ، والالتقاء بين آرتيميس[٤] وأفروديت[٥] موضوع هيبوليتيس[٦] لا وربيديس[٧] .

ولنفس الموضوع رواية أخرى نجدها فى الأسطورة التى تتكرر دائما

---

(١) يا هوى Yahweh أو Lehovah أقدس الأسماء التى يطلقها العهد القديم (التوراة) على الرب . ويعتقد اليهود أنه إلاههم وحدهم . (المترجم)

(٢) أى افتداء السيد المسيح عليه السلام للبشر . (المترجم)

(٣) شيطان جوته الأديب الألمانى فى رواية فاوست . (المترجم)

(٤) ربة القمر والصيد فى الأساطير اليونانية ويدعوها الرومانيون ديانا ، وهى ابنة زيوس وشقيقة أبولو . (المترجم)

(٥) ربة الحب والجمال عند اليونانيين وتعادل فينوس عند الرومانيين ، كما أنها ربة الخصب وحامية الزواج . (المترجم)

(٦) هيوليتيس فى الأساطير اليونانية هو ابن الرب اليونانى تيموس من انتيلوب . راودته زوجة أبيه عن نفسه فامتنع عليها فاتهمته لدى أبيه بإغوائها ، فمات غرقا لكنه بعث إلى الحياة . (المترجم)

(٧) آخر كتاب التراجيديا اليونانية المشهورين (٤٨٠ - ٣٠٦ ق . م) (المترجم)

وتظهر فى كل مكان[1] . ويتكرر المنهاج وتتجلى البشارة .

وقد أعيد التعبير عن هذه الأسطورة فى أيامنا هذه فى الغرب باعتبارها الكلمة الفاصلة لعلمائنا الفلكيين عن تكوين النظام الكوكبي مصداقا لنص العقيدة التالى .

« أننا نؤمن . . . أنه منذ حوالى الألفى مليون سنة . . . حدث أن أصبح نجم ثان ، يهيم فى أنحاء الفضاء على غير هدى ، على مدى الصوت من الشمس . وكما أن الشمس والقمر يرفعان المد على سطح الأرض ؛ كذلك لا بد وأن هذا النجم الثانى قد رفع المد على سطح الشمس . بيد أن هذا المد يختلف عن المد الضئيل الذى تحدثه كتلة القمر الصغيرة فى محيطاتنا . إذ لا بد وأن موجة ضخمة من المدّ قد اجتاحت سطح الشمس ، شكّلت فى النهاية طودا جسيما كبير الارتفاع ، أخذ فى الارتفاع الهائل أعلى وأعلى كلما أخذ سبب الاضطراب فى الاقتراب . وقبل أن يبدأ النجم الثانى فى الارتداد ، كانت الجذبة المدّية قد بلغت حدا من القوة بحيث فتت هذا الطود إلى قطع ، ونثرت شظايا صغيرة من الشمس ، مثلما يحدث أن تطرح قمة الموجة الرذاذ . . . وما برحت هذه الشظايا الصغيرة تدور منذ ذلك الحين حول أمها الشمس . . . وهى الكواكب — الكبيرة منها والصغيرة — التى أرضنا أحداها .

وهكذا تخرج من فاه الفلكي الرياضى — بعد الانتهاء من عملياته الحسابية — أسطورة الالتقاء بين الشمس كآلهة وبين مغتصبها ، وهى قصة شائعة بين أبناء الطبيعة غير المثقفين .

ولقد أصبح أحد علماء الآثار الغربيين المعاصرين يتقبّل وجود هذه

---

(١) وهنا يلحق المؤلف ثبتا بأسماء قصة اللقاء المزعوم بين ما أسماه العذراء وما يطلق عليه الأب ومن ضمن هذه الأسماء : داناى والنيث الذهبى ، أوروبا والثور ، سيميل الأرض المصابة وزيوس السماء الذى يدفع الصاعقة ، كوسا وأبوللو فى قصة إيون لأوربيدس ، وبسيكى وكيوبيد ، وجرتشين وفاوست . (المترجم)

الثنائية ويسلم بتأثيرها ، فى إحداث الحضارات التى ندرس بدئها هنا ؛ وهو يستهل دراساته بتركيز اهتمامه على البيئة ، وينتهى إلى إدراك سر الحياة :

« ليست البيئة هى السبب الكلى فى التشكيل الثقافى . . . وإن كانت بلا ريب أعظم العوامل تأثيراً . . . فإنه ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديدة وتجدر الإشارة إليه بالحرف « س » الكم المجهول ، وهو على ما يظهر سيكلوجى فى طبيعته . . . وإن لم يكن « س » أعظم عامل تأثيراً فى المسألة ، فإنه بالتأكيد أعظمها أهمية . . . وأكثرها ارتباطا بالقدر[١] » .

وفى دراستنا الحالية للتاريخ ، أثبتت هذه النظرية وجودها ، وهى القائلة بحدوث التقاء فوق مستوى البشر . إذ لاحظنا فى أحد الفصول الأولى « أن كل مجتمع . . يجابه فى مجرى حياته مشكلات متعاقبة ، وأن إبراز كل مشكلة هو تحد باجتياز تجربة » :

فلنحاول تحليل موضوع هذه القصة أو المأساة التى تكرر نفسها فى ظروف مختلفة وفى أشكال متعددة :

ونستطيع البدء بخاصتين عامتين :

الأولى : تصوّر اللقاء حدثاً نادراً ، وفريداً فى بعض الأحيان .

الثانية : أن له نتائج واسعة بنسبة ضخامة الثغرة التى أحدثها فى سير الطبيعة العادى .

نلاحظ أنه حتى فى عالم الأساطير اليونانية ، حيث تسير الحياة منطلقة فى يسر حيث الآلهة تتطلع إلى بنات البشر وترى أنهن حسناوات « فتتخذ سبيلها مع كثير منهن[٢] » إلى حد أمكن معه استعراض ضحاياها ووضع مجموعات

---

(١) صفحة ٢٥ – ٦ Means, P.A. Ancient Civilizations of the Andes

(٢) هذه العبارة مقتبسة من التوراة (سفر التكوين ٦ – ١) ولكنها محرفة نوعا ما لتطبق على الأساطير اليونانية . (المترجم)

شعرية عنهن ؛ ما فتئت هذه الوقائع موضوعات مثيرة تخلّف عنها كلها بدون استثناء إنجاب الأبطال . ونجد فى مختلف روايات هذه القصة — حيث فريقا اللقاء كلاهما من الشخصيات التى تعلو عن مستوى البشر — أن ندرة الحدث وخطورته ، تبرز بروزاً متزايداً .

فسفر أيوب يصوّر بكل جلاء ، اليوم الذى قال عنه « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم » ، كأنه حدث غير عادى . وكذلك اللقاء بين الإله ومفيستوفيليس فى « تقدمة فى الفردوس » (وهى مستوحاة بالطبع من سفر أيوب) التى استهل بها جوته موضوع روايته « فاوست » .

وفى كلتا المأساتين ، نرى أن النتائج التى غدت على الأرض لهذا اللقاء فى السماء ، من الضخامة بمكان . أو بلغة الخيال الحدسية ؛ تمثّل التجارب الشخصية التى مر بها كل من أيوب وفاوست ، تجارب البشر المتعددة تعدداً لا نهائيا . كما أن نفس النتائج واسعة المدى ممثلة بلغة اللاهوت ، سببها اللقاءان العلويان اللذان يصدرهما سفر التكوين والعهد الجديد . إذ أن طرد آدم وحواء من جنة عدن عقب اللقاء بين يا هوه والحية ، ليس إلا « سقوط الإنسان » . كما أن آلام المسيح فى العهد الجديد ليست إلا « افتداء الإنسان » . بل أن مولد نظامنا الكوكبي من التقاء شمسين كما صوره عالمنا الفلكى الحديث ، ما هو فى رأى هـــذا العالم نفسه ، إلا حدثا نادراً ندرة لا يمكن تصورها .

وتبدأ القصة فى كل حالة ، بوضع كامل لحالة « الين » :

فإن فاوست كامل المعرفة ، أيوب كامل فى رخائه وطيبته ، آدم وحواء كاملان فى براءتهما وهناءتهما ، والعذارى (سواء الجرتشين أو الرداناى أو غيرهن) كاملات فى طهارتهن وجمالهن . وحتى فى العالم الذى يصوره الفلكى : الشمس فلك كامل يجرى فى مساره سليما كاملا .

وهكذا ، عند ما يكتمل الين على هذا النحو ، يغدو مهيئاً للانتقال إلى حالة اليانج .

لكن ما هو الدافع إلى هذا الانتقال ؟

السبب حالة تعتبر — حسب تعريفها — كاملة فى نوعها ، لا تتغير إلا بفضل دافع أو باعث يفد عليها من الخارج . فاذا رأينا أن الحالة حالة توازن طبيعى ، علينا أن نُدخل فى الموضوع فلكاً آخر لإحداث التغيير . وإذا صورناها كحالة سعادة روحية أو نيرفانا[1]، يجب إدخال ممثل آخر على المسرح : أى ناقد يدفع العقل إلى التفكير مرة أخرى بوساطة إثارة الشكوك ، أو خصم يدفع القلب إلى الشعور مرة أخرى بوساطة بث اليأس أو عدم الرضاء أو الخوف أو النفور فى النفس . وهذا هو دور الحيّة فى سفر التكوين ، والشيطان فى سفر أيوب ، ومفيستوفيليس فى قصة فاوست ، ولوكى فى الأساطير السكندنافية ، والعشاق الأرباب فى أساطير العذارى .

إلا أننا نستطيع القول بلغة العلم أن وظيفة العامل الدخيل ، هى أن يهيئ الشىء الذى أدخل عليه حافزاً من النوع الذى يكفل تماماً استثارة أقوى التغييرات المبدعة . أما بلغة الأساطير واللاهوت ، فإن الدافع أو الحافز الذى يؤدى إلى تحويل حالة الين التامة إلى نشاط اليانج الجديد ، إنما يصدر عن تدخل إبليس فى عالم الله . وهذه الصور الأسطورية هى خير ما يسمح بوصف هذا الحدث ، لأنها لا تربك الذهن بالتناقض الناشىء عن تحويل هذا القول إلى لغة المنطق . إذ يقرر المنطق أنه إذا كان عالم الإله كاملا ، لما وجد إبليس خارجه . بينما أنه إذا كان لإبليس وجود فلا بد أن يكون الكمال الذى يتدخل لإفساده ناقصاً بسبب مجرد وجوده هو ، أى إبليس . وهكذا أصبح هذا التناقض المنطقى الذى لا يتأتى حله منطقياً ؛ من الأمور

---

(١) النيرفانا حالة الرضاء التام بفضل خلاص الروح من قيود البدن التى يفرضها تناسخ الأرواح فى الديانتين البوذية والهندوكية . (المترجم)

التى يتغاضى عنها بالحدس ، مخيلة كل من الشاعر والنبى . إذ يمجدان إلهاً قادراً على كل شىء(١) .

وفى رواية أخرى لهذه القصة نجد أن المعركة التى تتبع القبول الإجبارى للتحدى لا تأخذ شكل تبادل إطلاق النار ، يطلق فيها إبليس الطلقة الأولى ولا يخطىء فى قتل ضحيته ، بل تأخذ هذه المعركة شكل مراهنة كتب عليه فيها الخسران . ويعتبر سفر أيوب وقصة فاوست لجوته من الأعمال التقليدية التى يتجلى فيها موضوع المراهنة هذا .

وتبدو هذه النقطة فى أوضح صورها فى مأساة جوته . فإنه بعد ما قبل الرب مراهنة مفيستوفيليس فى السماء ، وضعت شروطها على الأرض بين مفيستوفيليس وفاوست ، حسب الحوار التالى :

---

(١) يرى المؤلف أن القدرة الإلهية وفقا للمنطق المستمد من دراسات الأساطير اليونانية مقيدة بقيدين :

القيد الأول : مداره أنه نظرا لكمال الخلق فإن هذه القدرة لا تستطيع أن تجد مناسبة لخلق شىء آخر . فإذا سلمنا بهذه القدرة ، تصبح الأعمال التى خلقتها والتى لا تزال تخلقها مجيدة ، لكن لا يتأتى تغييرها من مجد إلى مجد .

القيد الثانى : أنه عند ما تواتيها مناسبة لخلق جديد جديد من الخارج لايسعها إلا القبول . فعندما تتحدى ، لا تستطيع أن ترفض قبول التحدى . بل هى ملزمة بالاستجابة له ، لأنها لا تستطيع الامتناع إلا على حساب إنكار طبيعتها الإلاهية وانتهاء ألوهيتها .

ويدلل المؤلف على رأيه بأنه فى هيبوليتيس لأوريبيديس حيث تؤدى آرتميس دور الإله وتقوم أفروديت بدور إبليس ، لا تعجز آرتميس فحسب عن تجنب المعركة ، ولكن مقدر لها الانتصار . ولما كانت العلاقات بين آلهة الأوليمب فوضوية ، لذلك لا يستطيع آرتميس فى خاتمه التمثيلية أن تعزى نفسها إلا بالتفكير بأنها ستؤدى هى نفسها وقتا ما دور إبليس على حساب أفروديت . والنتيجة ليست خلقا ، بل دمارا . فى الرواية الإسكندنافية — كما يقرر المؤلف — الدمار هو أيضاً ما تؤدى إليه قصة راجناروك (وهى أسطورة إسكندنافية تذكر أن « القادر » (أب الجميع) يخلق سماء وأرضا جديدتين لا يعرف فيهما التعب والألم والشقاء والخطيئة) عندما تذبح الإلهة والأبالسة وتذبح . وإن كانت العبقرية الفذة لمؤلف فولوسبا Voluspa تجعل رؤية سيبل Sibyl قارئة المستقبل تخترق الظلام لتلمح وراءها ضوء فجر جديد . (المترجم)

فاوست : الراحة والصفاء ــ لا لا ليس شيء من هذا إني لا أطلب من هذا لنفسي شيئاً ــ إني لا أبحث عنهما . لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، ولئن أصبحت بفضل مكرك وخداعك ، وحيلك وألاعيبك ، أتوهم أنى فى رغد من العيش ، أو خُيّل لى أنى غدوت من السعداء ، فليكن ذلك اليوم آخر أيام عمرى . وهذى مراهنة بينى وبينك .

إبليس : إذن اتفقنا .

فاوست : وأزيدك فوق ما قلته : أنى لو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحُسن بحيث قلت لها « لا تبرحى فما أحلاك » . . فهنالك فلتهيِّ لى سلاسلك وأغلالك . . هنالك أرحب بالموت ، هنالك فلتعذبنى النوادب ، وهنالك تنتهى خدماتكم لى . . وعندها فلتقف ساعة عمرى وليخب سراج حياتى » .

ويمكن استخلاص أثر هذا العهد الأسطورى على مشكلتنا الخاصة ببدء الحضارات ، بوساطة تشبيه فاوست ــ فى اللحظة التى يعقد فيها رهانه ــ بأحد أولئك الراقدين الذين استيقظوا ونهضوا من على الطنف الذى كانوا مستلقين عليه فى حالة ثبات ، وشرعوا فى تسلق المنحدر الصخرى . وفى لغة هذا الشبيه ، يقول فاوست « لقد عزمت على ترك هذا الطنف وتسلق هذا المنحدر وراء الطنف الذى فوقها ، وفى محاولتى هذه أدرك أننى أخلف السلامة ورائى ؛ لكننى فى سبيل إمكان إنجاز عمل فذ سأعرض نفسى لخطر السقوط والدمار . أما فى القصة كما رواها جوته فإن المتسلق الباسل يوفّق فى النهاية إلى تسلق المنحدر الصخرى منتصراً بعد أن يمر بتجربة تتضمن أخطاراً قاتلة ، ويُعانى عدة نكسات يائسة .

ويعطى العهد الجديد فى النهاية نفسها ــ عن طريق الوعد بلقاء ثان بين نفس الخصمين فى المعركة بين ياهوى والحية تلك المعركة التى انتهت فى روايتها

الأصلية الواردة في سفر التكوين – على نمط أقرب إلى نهاية المعركة بين آرتميس وافروديت في تمثيلية هيبوليتيس .

ويوحي كل من سفر أيوب وفاوست والعهد الجديد على السواء ، بل ويعلن في صراحة أنه لا يمكن أن يكسب الشيطان الرهان ، وأنه إذ يتدخل في عمل الإله فإنه – أي الشيطان – لا يستطيع أن يضرّ فإن الإله دائماً سيد الموقف في جميع الأوقات وأنه يترك لإبليس الحبل على الغارب ليشنق نفسه .

وقد يكون مناط التفسير أن المراهنة التي عرضها إبليس والتي قبلها الإله تتناول – وبالتالي تعرّض فعلا للخطر – جانباً من خليقة الإله – لا الخليقة كلها – لمجازفة حقيقية . ويصبح هذا الجانب في الواقع هو موضوع الرهان . ورغماً عن أن الكل ليس كذلك ، فإن الاحتمالات أو التغيرات التي يتعرض لها ذلك الجانب لن تترك بداهة الكل دون تأثر . وبلغة الأساطير ، عندما يُغرى إبليس أحد مخلوقات الله ، تصبح الفرصة متاحة لإعادة خلق العالم . لأن تدخل إبليس سواء نجح أو فشل في عملية الإغراء ، قد أجرى التحوّل من حالة الين إلى حالة اليانج (أي من السكون إلى الحركة الدافعة) .

أما عن دور البطل البشري في القصة – وهو الإنسان ، فالألم هو محور هذا الدور في كل عرض للمأساة . سواء أكان القائم بالدور يسوع أو أيوب أو فاوست أو آدم أو حواء .

فإن صورة آدم وحواء في جنّة عدن ، ما هي إلا ترديد لحالة الين التي بلغها الإنسان البدائي في المرحلة الاقتصادية القائمة على التقاط الطعام ، بعدما وطّد الإنسان سيادته على ما عداه على الأرض من حيوان ونبات . ويرمز « السقوط » نتيجة للإغراء بالأكل من شجرة معرفة الخير والشر ، إلى قبول تحد يهدف إلى ترك هذا التكامل التام والشروع في عملية تفاضل جديدة قد تُسفر أو لا تُسفر ، عن تكامل جديد . كما أن الطرد من الجنة إلى عالم غير صديق ، يفرض فيه على المرأة أن تلد في الحزن ، وعلى الرجل

أن يأكل خبزه بعرق جبينه ، إنما هو تجربة ترتبت على قبول تحدى الحيّة . وما المعاشرة الجنسية بين آدم وحواء التى تلت ذلك ، إلا فعل الخلق الاجتماعى ، أثمرت ثمرتها فى إنجاب ابنين يمثلان مولد حضارتين : هابيل راعى الغنم وقابيل زارع الأرض .

وفى جيلنا الحاضر يقصّ عالم من أعظم علماء البيئة الطبيعية للحياة البشرية وأكثرهم طرافة فى التفكير ، نفس القصة على طريقته إذ يقول :

« تحركت منذ عصور مضت عصابة من المتوحشين العراة الذين لادار لهم ولا نار ، من موطنهم الدافئ فى المنطقة الحارة ، واندفعت قدماً إلى الشمال عند بداية الربيع حتى نهاية الصيف . ولم يفطنوا قط أنهم قد خلّفوا وراءهم أرض الدفء الدائم . حتى حل شهر سبتمبر فبدأوا يشعرون ببرد غير مستحب فى الليل . وطفقت الحال تسوء يوماً بعد يوم . ولما كانوا لم يدركوا علة هذا التغيير ، أخذوا يرتحلون فى هذا الطريق أو ذاك هرباً من البرد فيمم بعضهم شطر الجنوب ، ولكن حفنة فقط منهم هى التى عادت إلى موطنها السابق ، حيث واصلت حياتها القديمة وما تزال ذريتها جهلة على حالتهم الوحشية إلى يومنا هـذا . أما الذين هاموا فى الاتجاهات الأخرى فجميعهم هلكوا إلا جماعة صغيرة منهم رأى أفرادها أن لاسبيل إلى الهرب من الهواء القارس ، فاستعانوا بأسمى الملكات البشرية جميعاً ، وهى قوة الابتداع الواعى . وحاول بعضهم أن يجد ملاذاً بحفر الأرض ، وجمع آخرون أغصاناً وأوراق شجر لإقامة أكواخ وفرش دافئة . واكتسى آخرون بجلود الحيوانات التى كانوا يذبحونها ، وما لبث هؤلاء المتوحشون أن نجحوا فى اجتياز بضعة خطوات تعتبر من أكبر الخطوات فى سبيل الحضارة . إذ انبنى عليها كسوة من كانوا عراة وتوفير المأوى لمن كانوا لا مأوى لهم . وتعلم غير المتبصرين تجفيف اللحم وتخزينه مع الجوز للشتاء — واستكشف — على الأقل — فن إعداد النار كوسيلة للتدفئة . وهكذا نالوا البقاء حيث كانوا فى البداية يظنون

أنهم هالكون . وفى غضون عملية تكييف أنفسهم للبيئة القاسية ؛ تقدموا إلى الأمام فى خطوات هائلة مخلفين وراءهم بعيـداً ؛ الجانب المدارى من الإنسانية[١] » .

كما يعبرّ عالم كلاسيكى عن القصة نفسها باللغة العلمية لعصرنا إذ يقول :

« تنطوى عملية الارتقاء على تناقض مبناه ، أنه إذا كانت الحاجة أم الاختراع ، فإن أباه هو العناد ، أى أن تصمم على الاستمرار فى العيش فى ظل ظروف معاكسة وتفضلها على تحديد خسائرك والتوجه حيث سبل الحياة أسهل . ولم يكن من المصادفة إذن أن تبدأ المدنية كما نعرفها فى هذا الخضم من المد والجزر فى المناخ والنبات والحيوان ، الذى يتميز به عصر الجليد الرباعى . وإن أفراد الطلائع هؤلاء الذين ظهروا فى الوقت الذى ذبلت فيه البيئات الشجرية ، قد احتفظوا بأولويتهم بين أتباع القانون الطبيعى ، إلا أنهم كفوا عن غزو الطبيعة . أما الآخرون الذين وقفوا على الأرض عندما لم تكن هناك أشجار للجلوس عليها وأكلوا اللحوم وقت عدم نضج الفاكهة وأشعلوا النيران وصنعوا الملابس عوضاً عن الاعتماد على أشعة الشمس وحصنوا جحورهم ودربوا صغارهم وأثبتوا أن للدنيا منطقاً بينما كانت تبلو لا منطق لها ؛ هؤلاء انتصروا وأصبحوا رجالا[٢] » .

فالمرحلة الأولى من تجربة البطل البشرى من بين بطلى المأساة هى إذن الانتقال من حالة الين إلى حالة اليانج بوساطة فعل ذى قوة دافعة ، يقوم به مخلوق الله تحت تأثير تجربة من جانب الخصم ، ويعاون الإله نفسه على استئناف نشاطه الخلاق . لكن يجب دفع ثمن هذا الارتقاء . وهذا الثمن لن يدفعه الله ، بل يؤديه عبده ، أى الزارع البشرى . وأخيراً وبعد كثير من المتاعب يصبح المجرب المنتصر هو الرائد . ولا يقتصر دور البطل البشرى فى المأساة الإلهية

---

(١) ص ٤٠٥ – ٤٠٦ Huntington, Ellsworth : Civilization and Climate

(٢) Myres, J. L. Who were the Greeks ?

على تنفيذ الإرادة الإلهية فحسب ، لكنه يخدم كذلك زملاءه الرجال عن طريق رسمه معالم الطريق الذى يتعين عليهم اتباعه .

(٢) تطبيق الأسطورة على المشكلة

١ ـ العامل الذى لا يتأتى التكهن به :

حصلنا فى ضوء الأسطورة على قسط من المعرفة بشأن طبيعة التحديات والاستجابات ، ووفقنا إلى إدراك أن الخلق وليد لقاء ، وإن بدء الحضارة هو حصيلة تفاعل !.

ولنعد الآن إلى موضوعنا المباشر . أى البحث عن العامل الإيجابى الذى هز جانبا من البشرية وأخرجه من « تكامل العادة » ليدخله فى « تفاضل المدنية » فى غضون ستة آلاف السنة الماضية ؛ متأملين بدء حضاراتنا الواحدة والعشرين ، رانين إلى التحقق ـ باستخدام طريقة فحص تقليدية ـ من صدق القول بأن فكرة التحدى والاستجابة ، أوفر حظا فى الاتفاق مع العامل الذى نبحث عنه ، من نظريتى الجنس والبيئة اللتين سبقت موازنتهما قبلئذ ، ووجدنا ناقصتين ؟

وسنظل فى هذه الدراسة الجديدة مهتمين أيضاً بالجنس والبيئة ، ولكن مع فارق أننا سننظر إليهما فى ضوء جديد . ولن نحاول البحث عن سبب مبسط لبدء الحضارات ، يتيح إقامة الدليل على أنه ينتج نفس الأثر فى كل زمان ومكان . ولن ندهش بعد الآن إذا اتضح أثناء انبعاث الحضارات ، أن نفس الجنس أو البيئة مثمرة فى حالة ، عقيمة فى حالة أخرى .

وفى الواقع لن نعتبر بعد الآن الافتراض العلمى القائل « باطراد الطبيعة » ـ كما اعتبرناه باللغة العلمية طوال تفكيرنا فى مشكلتنا ـ حصيلة تفاعل قوى لاحياة فيها . وسنوطن أنفسنا على التسليم بأنه حتى

إن كنا على علم دقيق بجميع المعلومات المتصلة بالجنس والبيئة وغيرهما مما تتاح صياغته علمياً . فإننا لن نقدر على التكهن بنتيجة التفاعل بين القوى التي تمثلها هذه المعلومات ، أكثر مما يقدر عليه خبير عسكرى من التنبؤ بنتيجة معركة أو حملة ، مستعينا بمجرد معرفته الخاصة بطبائع هيئة أركان الحرب ومواردها فى كلا الفريقين . أو ما يستطيع معرفته خبير فى لعبة البريدج ، عن نتيجة أخذ الأدوار بمجرد علمه بجميع الأوراق الموجودة فى يد كل من اللاعبين .

ولا تعتبر المعرفة الباطنية فى قياسى التمثيل هذين كليهما ، كافية لتمكين حائزها من التكهن بنتائج ذات شىء من الدقة أو التأكيد ؛ لأن هذه المعرفة لا تبلغ مبلغ المعرفة الكاملة . وثمة أمر واحد لا مناص من أن يظل كماً مجهولا حتى لأحسن المشاهدين اطلاعاً . لأن ذلك الأمر خارج عن إدراك المقاتلين أو اللاعبين أنفسهم . مع أن لهذا الحد من حدّى المعادلة التى يجب على الحاسب الذكى أن يحلها ، أهمية قصوى . فإن هذا « الكم » غير المعروف هو رد فعل الممثلين للتجربة عند حدوثها فعلا . وهذه القوى السيكلوجية الدافعة التى يستحيل تطبيقها ووزنها وقياسها وبالأحرى تقديرها تقديراً علمياً مقدماً ؛ هى نفس القوى التى تعيّن فى الواقع عاقبة اللقاء عندما يأخذ سبيله . وهنا يتضح لنا سبب تسليم أعظم العسكريين عبقرية فى انتصاراتهم بعامل يعجزون عن تقديره ، فإن كانوا متدينين عزوا انتصاراتهم إلى الله – مثل كرومويل – وإن كانوا أميل إلى تصديق الخرافات – مثل نابليون – عزوها إلى حسن طالعهم :

٣ – بدء الحضارة المصرية :

افترضنا عند بحث البيئة فى الفصل السابق – كما افترض طبعاً واضعو نظرية البيئة الهلينيون – أن البيئة عامل ثابت . وبصفة خاصة ، أن الأحوال

الطبيعية فى السهب الأفراسى ووادى النيل ، قد ظلت دائماً كذلك خلال الزمن « التاريخى » كله كما هى اليوم وكما كانت منذ أربعة وعشرين قرناً ، عندما نسج اليونانيون نظرياتهم الخاصة بها .

بيد أننا نعلم فى الواقع أن الأمر لم يكن كذلك :

« بينما كان الثلج يغطى أوربا الشمالية حتى جبال الهارز[١] وكانت الثلوج تتوج جبال الألب والبرانس ، عمل الضغط العالى للقطب الشمالى على إمالة الزوابع المطرية تجاه الجنوب . وكانت الأعاصير التى تخترق أوربا الوسطى ؛ تمر فى ذلك الوقت ، فوق حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى وتستمر فى طريقها دون أن تعتصرها جبال لبنان ، مارة عبر العراق وبلاد العرب إلى فارس والهند . فكانت الصحراء الجدباء تنعم فى ذلك العهد بهطول الأمطار بانتظام بينما كانت الأمطار فى المنطقة الأبعد من ذلك شرقاً أعظم غزارة عما هى عليه الآن ، بل وموزعة على مدار السنة كلها ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال فى الوقت الحاضر . . .

« وتبعاً لذلك كان يجب أن نتوقع ازدهار الحدائق والأحراش فى شمال إفريقيا وبلاد العرب وفارس ووادى السند : على غرار ازدهارها اليوم فى شمال البحر الأبيض المتوسط . وبينما كان الماموث[٢] والخرتيت المشعر والرنة ترعى هنا وهناك فى فرنسا وجنوب إنجلترا كانت تعيش فى شمال إفريقيا حيوانات توجد اليوم فى منطقة الزمبيزى بروديسيا . . .

« وكان من الطبيعى أن تكون المراعى البهيجة فى شمال إفريقيا وجنوب آسيا كثيفة السكان مثل سهول أوربا الحالية . وبديهى أن نقدر أن الإنسان

---

(١) أقصى سلاسل جبال ألمانيا الشمالية . وتمتد بين نهرى ويرز والألب وتبلغ مساحتها حوالى ٧٨٤ ميلا مربعا . ولقد أوحى جمالها الطبيعى لكثيب إلى الألمان بوضع عدد ضخم من الأساطير التى أضحت جزءا ثمينا من الأدب الألمانى وخلدها الشاعر العظيم جوته فى قصته « فاوست » . (المترجم)

(٢) الماموث حيوان منقرض من فصيلة الفيل وجدت بعض وحدات منه متحجرة . (المترجم)

فى ظل هذه البيئة المواتية الحافزة قد أحرز تقدماً أعظم مما أحرزه فى الشمال المحصور بين الثلوج » .

بيد أن المنطقة الأفراسية أخذت عقب نهاية عصر الجليد تكابد تغيراً فى أحوالها الطبيعية مبناه اتجاهها نحو الجفاف . وانبعث حضارتان أو أكثر فى وقت واحد فى منطقة كانت تشغلها قبلئذ مجتمعات بدائية تنتسب إلى النوع الحجرى المبكر ، مثلها مثل بقية العالم المعمور حينئذ . ويشجعنا علماء الآثار المعاصرون على اعتبار جفاف أفراسيا تحديا ، كانت الاستجابة له هى بدء هاتين الحضارتين .

« نحن الآن على شفا الانقلاب الكبير . وسنواجه قريبا رجالا يسيطرون على موارد غذائهم بفضل امتلاكهم حيوانات مستأنسة وزراعتهم الغلال . ويبدو أن لا مناص من ربط هذا الانقلاب بالأزمة التى أحدثها ذوبان الجبال الثلجية الشمالية وما تلاه من انكماش الضغط القطبى العالى على أوربا . وتحويل عواصف الأمطار الأطلسية من منطقة جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى مجراها الحالى عبر أوروبا الوسطى » .

« وسيكون هذا الحادث — بكل تأكيد — امتحانا شديداً إلى أقصى حد لملكة الاختراع لدى سكان المنطقة التى كانت تنمو فيها المراعى والأعشاب فيما مضى » .

« وإزاء الجفاف التدريجى الذى ترتب على عودة حلقة الإعصار الأطلسى إلى التحول نحو الشمال كلما تقلصت جبال أوربا الثلجية ، أصبح على السكان الصيادين الذين تأثروا بهذا التغيير أن يختاروا أحد أمور ثلاثة وهى : التحرك نحو الشمال أو الجنوب مع صيدهم متتبعين المنطقة المناخية التى ألفوها ، أو البقاء فى موضعهم والحياة حياة تعسة مكتفين بما يصيدونه من الحيوانات التى قد تقاوم الجفاف . أو يستطيعون من غير أن يهجروا مواطنهم الجديدة

تحرير أنفسهم من الاعتماد على احتمالات بيئتهم باستئناس الحيوانات وفلاحة الأرض »(١) .

ففي حالة أولئك الذين عزفوا عن تغيير مواطنهم وتبديل طريقة معيشتهم كان الانقراض جزاء فشلهم فى الاستجابة لتحدى الجفاف .

وأما الذين تفادوا تغيير موطنهم بتعديل طريقة معيشتهم وبتحويل أنفسهم من صيادين إلى رعاة ؛ قد أصبحوا بدو السهب الأفراسى . وستستلفت أعمالهم ومصيرهم انتباهنا فى موضع آخر من هذا الكتاب .

أما أولئك الذين آثروا تغيير مواطنهم على تعديل طريقة معيشتهم ، أى تلك الجماعات التى تجنبت الجدب باتباع منطقة الأعاصير فى تحولها شمالا ، معرضين أنفسهم — عن غير قصد — إلى تحد جديد ، لتحدى البرد الموسمى الشمالى الذى لم تستسلم له تلك الجماعات ، فقد أثارت فيهم بيئتهم الجديدة ، استجابة خلاّقة جديدة .

بينما وقعت الجماعات التى تجنّبت الجدب ، بالارتداد جنوبا إلى منطقة الرياح الموسمية تحت التأثير المنوّم للمناخ المدارى الذى يسير على نمط رتيب لا يتغير .

ونرى خامسا وأخيراً ، أن ثمة جماعات استجابت لتحدى الجفاف ، بتغيير مواطنها وطريقة معيشتها معاً وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر ؛ هو العمل ذا القوة الدافقة الذى خلق الحضارتين المصرية والسومرية من بين ظهرانى المجتمعات البدائية التى كانت تعيش فى المراعى الأفراسية السائرة فى طريق الزوال .

ولقد تمثّل التغير فى طريقة معيشة هذه الجماعات الخلاقة فى تحولها تحولا شاملا من جامعى طعام وصيادين إلى زراع . وكان التغير فى موطنهم قليلا

(١) الفصل الثانى Childe V.G. The Most Ancient East ch. II.

من حيث المسافة ، لكنه واسع إن قيس بالاختلافات من حيث الطبيعة بين المراعى التى هجروها أو بين البيئة الطبيعية الجديدة التى استقروا فيها . وعندما استحالت المراعى المشرفة على وادى النيل الأولى إلى الصحراء الليبية ، والمراعى المشرفة على وادى الفرات والدجلة إلى صحراء الربع الخالى ودشت لوط ، خاض هؤلاء الرواد الأبطال – بوحى الجرأة أو اليأس – مستنقعات الأدغال الموجودة فى قرارة الوادى والتى لم يسبق لبشر التوغل فيها . وأحالها عملهم ذو القوة الدافعة إلى أرض مصر وأرض شينعار[1] .

ولا مشاحة فى أن مغامرتهم قد بدت لجيرانهم الذين سلكوا الطرق الأخرى سالفة الذكر أملا ضائعا . ذلك لأنه وقتما كانت المنطقة التى أخذت تتحول إلى السهب الافراسى – جنة الله فى الأرض – كانت مستنقعات أدغال النيل وما بين النهرين تبدو برية ، تمتنع على الإنسان وغير مطروقة . ونجحت المغامرة ، كما اتضح فيما بعد ، نجاحا يسمو على أعظم الآمال الفعلية التى راودت الرواد . فقد استطاعت أعمال الإنسان أن تُخضع لإرادته الطبيعة الفضفاضة ، فاختفت مستنقعات الأدغال وحلّت محلّها مجموعة منسقة من القنوات والمدرجات والحقول .

وهكذا استصلحت أراضى مصر وشينعار من الفلاة ، وشرع المجتمعان المصرى والسومرى فى مغامراتهما الكبرى .

ولم يكن وادى النيل الأدنى الذى نزل إليه روادنا يختلف كثيراً جداً عن الوادى الذى نشاهده فى الوقت الحاضر ، بعد أن تركت ستة الآلاف سنة من العمل الحاذق ، طابعها عليه . بل يكاد لا يقل اختلافا فى الغالب عما يصبح عليه لو ترك إلى الطبيعة ، أمر إعادة تشكيله . بل إنه فى زمن العصور المتأخرة نسبيا ، وفى عهد الدولتين القديمة والوسطى – أى بعد

(١) أرض شينعار : هى بلاد سومر ، أى العراق الحالى . (المترجم)

انقضاء عدة الآف من السنين على أيام الرواد — كانت رؤية فرس النهر والتمساح وأنواع عديدة من الطيور البرية ، من الأشياء المألوفة فى الوادى الأدنى كما يستدل على ذلك من النقوش والرسوم التى تخلفت عن هذا العصر . بينما لا يلاحظ من ذلك شىء فى الوقت الحاضر تحت الشلال الأول . وما يصدق على الطيور والحيوانات يصدق كذلك على النبات . فإنه رغما عن استقرار الجفاف : كان المطر لا يزال يسقط على مصر . وكانت الدلتا مستنقعا يفيض بالمياه . ويحتمل أن النيل الأدنى فى جزئه الواقع فوق الدلتا : كان يشابه فى تلك الأيام بلاد النيل الأعلى عند بحر الجبل فى المديرية الاستوائية بالسودان ، وأن الدلتا نفسها كانت تشابه المنطقة التى حول بحيرة نو ، حيث تمتزج مياه بحر الجبل بمياه بحر الغزال .

وفيما يلى وصف معاصر لهذه البلاد الموحشة :

« إن مشهد بحر الجبل فى كل مكان من مجراه على طول منطقة السد المليئة بالغاب رتيب نوعا ما . إذ ليست هناك شواطئ البتة اللهم إلا عند قليل من النقط المنعزلة . ولا توجد شبه ضفة على حد المياه . وتنتشر مستنقعات البوص فى كلا الجانبين إلى عدة كيلو مترات ، ولا يقطع انفساحها سوى بضعة بحيرات ضحلة من المياه المكشوفة تقع على أبعاد منفصلة . ولا تعلو سطوحها عن سطح الماء فى النهر فى أوطأ حالاته إلا بمقدار بضعة سنتيمترات . فإذا فاض النهر وارتفعت مياهه بمقدار نصف متر ، غمرت هذه البحيرات إلى مسافات هائلة . وتغطى هذه المستنقعات مقادير هائلة من البوص المائى تنمو فيها وتمتد فى كل اتجاه إلى الأفق . ويندر جداً مشاهدة أية علامة تدل على الحياة البشرية فى جميع أنحاء هذه المنطقة وبخاصة بين بور وبحيرة نو . وتتسم المنطقة جميعها بمظهر الخراب الذى تعجز الكلمات عن وصفه ، ولا يمكن إدراك حقيقتها إلا برؤيتها عن كثب[1]

---

(١) طبعة ١٩٠٤ ص ٩٨ — ٩٩

Garstin, Sir William: Report Upon the Basin of the Upper Nile

والمنطقة غير مأهولة ، لأن الشعوب التي تعيش في تخومها لا يواجهها من حين لآخر ذلك الاختبار القاسي الذي واجه آباء الحضارة المصرية من قبل وقتما جلسوا القرفصاء على حدود وادي النيل الأدنى منذ ستة آلاف سنة : أي بين اختيار الإقامة في منطقة السدود الموحشة ، أو التشبث بأرض الأجداد خلال تحولها من جنة أرضية إلى صحراء جدباء لا تُسكن .

وإن صدق حدس علمائنا ، كانت أسلاف هذه الشعوب التي تعيش الآن على حدود منطقة السد السوداني ، تحيا في المنطقة التي تعرف الآن بالصحراء الليبية متلازمة مع مؤسسي الحضارة المصرية حينما استجاب هؤلاء إلى تحدي الجفاف باختيارهم الخطير . ولقد يبدو أن أسلاف الدنكا والشيلوك الحاليين ، قد افترقوا وقتذاك عن جيرانهم الأبطال . فاتبعوا أقل السبل وعورة ، بانسحابهم في اتجاه الجنوب إلى بلد يستطيعون فيها مواصلة معيشتهم المألوفة من غير إحداث تغيير في طريقة معيشتهم ، في محيط يتماثل نوعاً ما من الناحية الطبيعية مع المحيط الذي اعتادوه من قبل . وهكذا استقروا في السودان المداري في نطاق منطقة الأمطار الاستوائية . وما تزال سلالاتهم تعيش هناك إلى وقتنا هذا نفس معيشة أسلافهم الأبعدين . وهكذا وجد المهاجرون الكسالى غير الصالحين ما همت إليه نفوسهم .

« وتعيش على ضفاف أعالي النيل اليوم شعوب تتصل بالمصريين القدماء من حيث المظهر والقد ونسب الجمجمة واللغة والملبس . ويحكم هذه الشعوب سحرة صانعو أمطار أو ملوك مؤلهون كانوا حتى وقت قريب يُذبحون في شعائر دينية . وتنتظم القبائل في عشائر طوطمية . . . وفي الحق ، يبدو كما لو كان التطور الاجتماعي بين هذه القبائل المقيمية على ضفاف أعالي النيل ، قد توقف عند المرحلة التي عبرها المصريون قبل أن يبدأ تاريخهم . فهناك نجد متحفاً حيا ، تتم معروضاته حالات ما قبل التاريخ في مجموعاتنا وتبعث فيها الحياة »[١] .

---

(١) Childe, V.G.: The Most Ancient East ص ١٠ – ١١

ويدعو التماثل بين الأحوال التي كانت سائدة في جانب من حوض النيل في وقت مضى والأحوال الحاضرة في جانب آخر منه ، إلى بعض الافتراضات :

فعلى فرض عدم حدوث تحدى الجفاف قطعاً لسكان حوض النيل في هذه الجوانب منه الخارجة في الظروف الحاضرة عن منطقة الأمطار الاستوائية ؛ هل كانت دلتا النيل وواديه الأدنى يظلان في هذه الحالة على حالتهما الطبيعية الأولى ؟

وهل كانت الحضارة المصرية لتظهر على الإطلاق ؟ وهل كان يقيض لتلك الشعوب أن تظل جالسة القرفصاء على حدود وادى نيل أدنى لم يُذلل ، كما يجلس الشيلوك والدنكا اليوم القرفصاء على ضفة بحر الجبل ؟

وثمة اتجاه آخر للافتراض لا يتصل بالماضى ، بل بالمستقبل . فلقد نذكّر أنفسنا بأنه حسب مقاييس الزمن في حياة الكون ، أو حياة كوكبنا ، أو الحياة عامة ، أو حتى حياة الجنس البشرى فقط ؛ تبدو فترة ستة الآلاف سنة مجرد برهة من الزمن لا يُعتدّ بها . فعلى فرض أن تحدياً آخر يماثل في ضخامته ذلك الذى واجه بالأمس سكان وادى النيل الأدنى في نهاية عصر الجليد ، يواجه غداً سكان حوض النيل الأعلى ؛ فهل يوجد أى سبب للاعتقاد بعدم قدرتهم على الاستجابة له باصطناع دافع مساو نوعاً ما في قوته الدافعة ، للعمل الذى قام به أهل النيل الأدنى وتكون له أيضاً آثار خلاقة مساوية ؟

ولسنا في حاجة إلى المطالبة بأن يكون هذا التحدى الافتراضى الذى يواجه الشيلوك والدنكا ، من نفس النوع الذى واجه آباء الحضارة المصرية ؛ فلنتصور أن التحدى لا يفد من المحيط المادى ، ولكن من المحيط البشرى : أو لا يكون سببه تغيّراً في المناخ ولكن مداخلة غريبة عنهم ؟ أليس هذا التحدى نفسه يواجه تحت أبصارنا سكان إفريقيا المدارية البدائيين في صورة

مواجهة الحضارة الغربية لهم ، وهى واسطة بشرية تؤدى فى جيلنا الدور الأسطورى الذى قام به ميستوفيليس[١] ، تجاه كل حضارة قائمة ، وتجاه كل مجتمع بدائى لا يزال موجوداً على وجه الأرض ؟

إن التحدى لا يزال حديثاً إلى درجة لا يتيسر لنا معها التنبؤ بالاستجابة النهائية التى ستصدر عن أى من المجتمعات التى تواجه هذا التحدّى . ويمكننا القول فحسب أن فشل الآباء فى الاستجابة لتحدٍّ واحد ، لا يقضى بالضرورة بالفشل على الأبناء فى مواجهة تحد آخر ، عندما تحين ساعتهم .

٣ ــ بدء الحضارة السومرية :

فى استطاعتنا تناول هذه المسألة باختصار ، لأن لدينا هنا تحديا يماثل ذلك الذى واجه آباء الحضارة المصرية ، واستجابة من نفس نوع استجابتهم إليه :

فإن جفاف أفراسيا[٢] قد ألزم كذلك آباء الحضارة السومرية بالدخول فى صراع مع مستنقعات غابات الوادى الأدنى للدجلة والفرات وتحويلها إلى أرض شنعار[٣] .

وتكاد المظاهر المادية لبدء كل من هاتين الحضارتين تتفق تماماً مع مظاهر بدء الأخرى . أما بالنسبة للسمات الروحية للحضارتين اللتين انبعثتا عنهما ودينهما وفنهما بل وكذلك حياتهما الاجتماعية ، فإن التماثل بينهما أقل بكثير . وتلك دلالة أخرى على أن تماثل الأسباب ــ فى نطاق دراستنا ــ لا يؤدى بالضرورة إلى تماثل النتائج .

ولقد خلّدت الأساطير السومرية ، التجربة التى مر بها آباء الحضارة

---

(١) إبليس فاوست للشاعر الألمانى جوته . (المترجم)
(٢) أى إفريقيا وآسيا . (المترجم)
(٣) سفر التكوين : ١٠ – ١٠ (المترجم)

السومرية ، إذ يرمز قيام الرب ماردوك بذبح التنين تيامات وخلق الرب العالم من بقايا التنين الفانية ، إلى السيطرة على الفقر البدائى وخلق أرض شنعار بوساطة تنظيم المياه فى قنوات ، وصرف المياه من التربة . وتسجل قصة الطوفان ثورة الطبيعة على القيود التى فرضها عليها جرأة الإنسان : والطوفان الذى ورد وصفه فى الآداب الدينية اليهودية نقلا عما تعلمه اليهود فى مياه بابل ، أصبح – كما جاءت قصته فى التوراة – كلمة مألوفة فى المجتمع الغربى ، إلى أن أتى علماء الآثار المعاصرون وكشفوا عن أصل الواقعة واستخلصوا أيضاً الدليل المباشر على حدوث فيضان معين عنيف إلى درجة غير عادية ، من وجود طبقة طمى سميكة خلفها الفيضان بين الطبقات الأولى والطبقات الأخيرة التى رسبت نتيجة لسكنى الإنسان فى مواقع طائفة من مراكز الثقافة السومرية .

ويهيئ حوض الدجلة والفرات أسوة بحوض النيل ؛ متحفاً لبحثنا ، يمكن استخدامه فى دراسة الناحية العادية للطبيعة غير الحية ؛ وذلك فى الفلاة التى حولها الإنسان إبان الحياة التى عاشها الرواد السومريون الأوائل فى هذه الفلاة . على أننا لن نهتدى إلى المتحف فى الدجلة والفرات خلافاً لما حدث فى حوض النيل – بواسطة السير فى النهرين من منبعهما إلى مصبهما . لكنا نجده فى الدلتا الحديثة التكوين الواقعة فى رأس الخليج العربى ، تلك الدلتا التى كونها ملتقى النهرين الشقيقين فى أزمان لاحقة ، ليس فقط لبدء الحضارة السومرية ، بل أيضاً لزوالها هى والحضارة البابلية التى خلفتها .

وما تزال المستنقعات التى جاءت تدريجياً إلى الوجود خلال السنوات الألفين أو الثلاثة آلاف الماضية على حالتها الأولى حتى يومنا هذا ، لا لسبب إلا لأنه لم يظهر على المسرح مجتمع بشرى تتوافر فيه إرادة السيطرة عليها . ولقد تعلم – أهل المستنقعات – أولئك الذين يتخذونها موطنا – أن يكيفوا أنفسهم تبعاً لهذه البيئة وفقاً لطريقة سلبية مصداقا لما يبدو من كنيتهم

بعبارة « ذوى الأقدام الغشائية » التى أطلقها عليهم الجنود البريطانيون الذين صادفوهم خلال حرب « ١٩١٤ – ١٩١٨ » . لكن هؤلاء السكان لم يشمرّو إطلاقا عن سواعدهم للعمل فى سبيل تحويل المستنقعات إلى شبكة من القنوات والحقول . مثلما فعل آباء الحضارة السومرية منذ حوالى خمسة أو ستة آلاف سنة مضت ، فى بلد تشابه بيئته وبيئتهم .

٤ – بدء الحضارة الصينية :

إذا تأملنا بعد ذلك فى بدء الحضارة الصينية فى الوادى الأدنى للنهر الأصفر ، ألفينا استجابة من جانب الإنسان لتحديات من الأحوال الطبيعية ، ربما كانت أشد عنفاً من كل من تحدى النهرين[1] وتحدى النيل . إذ قامت فى الفلاة التى أحالها الإنسان وقتا ما إلى مهد الحضارة الصينية ، تجربة جو تتغير فيه الحرارة موسمياً من نهاية قصوى للحرارة فى الصيف إلى نهاية قصوى للبرودة فى الشتاء ، مكملة لتجربة المستنقع والأدغال والفيضان . ولا يبدو أن آباء الحضارة الصينية يختلفون فى الجنس عن الشعوب التى تشغل المنطقة الواسعة إلى الجنوب والجنوب الغربى ، الممتدة من النهر الأصفر إلى نهر البراهما بوترا ، ومن هضـــبة التبت إلى بحر الصين .

فإذا كانت طائفة من أعضاء هذا الجنس الواسع الانتشار قد خلقت حضارة ؛ فى حين أصاب الباقين العقم من الناحية الثقافية ؛ فإن تفسير توافر ملكة إبداع دقيقة فيهم جميعاً ، إلا أنها قد استثيرت فى الأعضاء الأولين بالذات وفيهم وحدهم عن طريق مجابهتهم تحديا لم يتفق للباقين مجابهته . ومن المحال تحديد طبيعة ذلك التحدى تحديداً دقيقاً على أساس معلوماتنا الحاضرة . على أن ثمة شيئاً مؤكداً نستطيع قوله هو أن آباء الحضارة الصينية

---

(١) الدجلة والفرات . (المترجم)

لم يستمتعوا فى موطنهم على ضفاف النهر الأصفر كما قيل خطأ ـ بميزة تتمثل فى بيئة أيسر من بيئة جيرانهم ، وفى الحق لم يقيّض لأى شعب من الشعوب ذات القربى من شعب النهر الأصفر ، والمستوطنة بعيداً نحو الجنوب ، فى وادى نهر اليانجتسى مثلا ـ حيث لم تنبعث هذه الحضارة ـ أن يكافح فى سبيل حياته مثلما كافح هذا الشعب .

٥ ـ بدء الحضارتين المايانية والأنديانية :

كانت غزارة الغابة المدارية ، هى التحدى الذى كانت الحضارة المايانية استجابة له :

« تيسّر قيام الثقافة المايانية بفضل الغزو الزراعى للسهول المنخفضة الغنية حيث لا تتأتى السيطرة على فيض الطبيعة إلا بالعمل المنظم ، ومن السهل نسبياً إعداد الهضبات المرتفعة للزراعة ، بسبب قلة الإنبات الطبيعى ، وبفضل الضبط الثابت للرى . فى حين أن زراعة السهول المنخفضة تتطلب قطع الأشجار الضخمة وبذل جهود مضنية للحيلولة دون تكاثف الأدغال السريعة النمو . لكنه عندما تروّض الطبيعة فعلا ، تجزى الزارع الجسور على جهده أضعافاً مضاعفة : وفضلا عن ذلك فإن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن إزالة الغطاء الغابى من مساحات كبيرة ، يؤثر تأثيراً حسناً فى أحوال المعيشة التى هى صعبة فعلا تحت مظلة من أوراق الشجر[١] .

لم يلق هذا التحدى الذى أبرز الحضارة المايانية إلى الوجود فى شمال برزخ بناما ، أية استجابة فى الجانب الآخر من البرزخ . لأن الحضارات التى برزت فى أمريكا الجنوبية قد استجابت لتحديين مختلفين عنه تمام الاختلاف وفدا من هضبة الأندس ، ومن ساحل المحيط الهادى المتاخم .

---

(١) ص ٦٥ Spinder, H. J. : Ancient Civilizations of Mexico and central America

فعلى الهضبة ، تحدى المناخ القارص والتربة الشحيحة ، آباء الحضارة الأنديانية . أما على ساحل المحيط ، فقد تحدتهم حرارة وجفاف صحراء استوائية لايزيد مستواها على مستوى مياه البحر ، ويكاد لايهطل فيها المطر ولا يمكن أن تزدهر كالوردة ، إلا بفضل أعمال الإنسان . واستطاع طلائع الحضارة انتزاع واحاتهم من الصحراء ، بفضل حسن تدبير المياه القليلة التي كانت تسقط من السفح الغربي من الهضبة ، وإضفاء الحياة على السهول بفضل الري . وأحال رواد تلك الهضبة جوانب جبلهم إلى حقول ، بفضل حسن استخدام التربة القليلة وإنشاء مدرجات أمكنت المحافظة عليها بفضل نظام شامل من الحواجز المبنية أقيمت بمجهود كبير لحفظ التربة والمياه .

٦ – بدء الحضارة المينووية :

فسرنا حتى الآن بدء خمس من ست من حضاراتنا الأصيلة نتيجة للاستجابة إلى تحديات صادرة من البيئة الطبيعية . أما السادسة فكانت استجابة لتحد طبيعي من نوع لم يواجهنا بعد في هذا البحث وهو تحدي البحر .

من أين وفد رواد « دولة مينوس[1] البحرية » هؤلاء ؟ هل وفدوا من أوروبا ، أو من آسيا أو إفريقيا ؟

قد توحي نظرة عابرة إلى الخريطة بمجيئهم من أوربا أو من آسيا ، لأن جزائر بحر إيجه أقرب إلى هاتين القارتين الأخيرتين منها إلى شمال افريقيا ، وهي في الحقيقة رؤوس سلاسل جبال مغمورة بمياه البحر . ولولا الهبوط الذي حدث في عصور ما قبل التاريخ واندفاع المياه لسد الفراغ الناتج عنه ، لتواصل سير الجبال من الأناضول إلى اليونان دون انقطاع .

بيد أنه يجابهنا دليل يبلبل الفكر يسوقه علماء الآثار ، وإن كان غير

---

(١) نشأت دولة مينوس في جزيرة كريت . وقد أقامت سلطانها على جزائر بحر إيجه وازدهرت حضاراتها ازدهارا تنبئ عنه بقايا القصور الملكية في كريت . (المترجم)

قابل للشك : مبناه أن أقدم آثار التوطن البشرى توجد فى كريت ، وهى جزيرة أبعد نسبيا من كلا اليونان والأناضول ، وإن كانت أقرب إلى كل منهما منها إلى إفريقيا . ويؤيد علماء الأجناس البشرية الرأى الذى كشف عنه علماء الآثار . لأنه يبدو من الثابت أنه من بين أوائل السكان المعروفين فى الأراضى القارية المواجهة لبحر إيجه ، كانت ثمة طائفة من الاختلافات الظاهرة بجلاء من حيث الطراز البدنى . فكان أقدم سكان الأناضول واليونان المعروفين ، من ذوى الرؤوس العريضة . بينما كان أقدم سكان المراعى الأفراسية المعروفين ، من ذوى الرؤوس الطويلة . ويبدى تحليل أقدم بقايا الأجسام البشرية فى كريت ، أن الجزيرة قد سكنها أولا — جميعها أو جانباً كبيراً منها — أصحاب الرؤوس الطويلة ، بينما لم يُمثّل أصحاب الرؤوس العريضة قطعياً فى طوائف سكان الجزيرة أو كانوا فيها أقلية فقط ، وإن كانوا قد أصبحوا بعدئذ الغالبية العظمى فيها .

ونستخلص من هذا الدليل المستمد من علم الأجناس ، أن أول مخلوقات بشرية مكّنت لنفسها فى أى جزء من أرخبيل إيجه ، كانت من مهاجرى المراعى الأفراسية ، الفارين من الجفاف :

ومن ثم ، علينا أن نضيف استجابة سادسة إلى استجابات الجفاف الخمسة التى ذكرناها أى إلى : هؤلاء الذين ظلوا حيث هم فهلكوا ، وأولئك الذين ظلوا حيث هم وأصبحوا بدوا ، أولئك الذين يمموا شطر الجنوب واحتفظوا بطريقة معيشتهم القديمة مثل الدنكا والشيلوك ، وأولئك الذين قصدوا شمالا فأصبحوا زراع العصر الحجرى الأخير فى القارة الأوربية ، وأولئك الذين خاضوا مستنقعات الأدغال وأقاموا الحضارتين المصرية والسومرية ؛ يجب أن نضيف أولئك الذين اتجهوا شمالا وشقوا طريقهم لا بين المعبرت السهلة نسبياً التى أتاحتها البرازخ القائمة وقتئذ أو البواغيز الموجودة حتى الآن ، ولكن الفراغ الرهيب المتمثل فى عرض البحر الأبيض

المتوسط . فهم قد قبلوا هذا التحدى الإضافى ، فعبروا البحر الواسع ، وأقاموا الحضارة المينووية .

فإذا ثبتت صحة هذا التحليل ، فإنه يهيئ دليلا جديداً على الحقيقة القائلة بأن التفاعل بين التحديات والاستجابات ، هو العامل الذى يعتدّ به قبل كل شيء آخر فى بدء الحضارات ، وهو يسمو فى هذه الحالة على عامل قرب المسافة . فإن فرض وكان قرب المسافة هو العامل الحاسم فى احتلال الأرخبيل ، لكان سكان القارتين القريبتين ــ أوروبا وآسيا ــ هم أول من احتل جزائر بحر إيجه ؛ فإن كثيراً من هذه الجزائر على مرمى حجر من القارتين ، بينما تبعد كريت مائتى ميل عن أقرب نقطة فى إفريقيا .

بيد أن أقرب الجزائر إلى أوروبا وآسيا لم تحتل إلا فى زمن متأخر نسبياً على ما يبدو بعد احتلال كريت . وانضح أن محتليها كانوا من أصحاب الرؤوس الطويلة وأصحاب الرؤوس العريضة معاً . الأمر الذى يُوحى بأنه بعد أن وضع الأفراسيون أسس الحضارة المينووية ، اشترك آخرون معهم فى العمل ؛ سواء عن طريق المحاكاة البحتة للرواد ، أو بسبب حدوث ضغط أو تحد لا يمكننا تعيين ذاتيته بالضبط ؛ قد دفعهم كذلك فى زمنهم إلى الاستجابة لهذا التحدى ، بنفس الطريقة التى سبق أن لجأ إليها فعلا السكان الأفراسيون الأصليون لكريت فى ظل ظروف أشد رهبه .

٧ ــ بدء الحضارات المنتسبة :

بانتقالنا من الحضارات الأصلية التى انبعثت من حالة الين التى كان فيها المجتمع البدائى ، إلى تلك الحضارات التالية التى كانت تنتسب بطرق ودرجات متفاوتة ، إلى الحضارات الأصيلة ، يتضح أن التحدى الأساسى والجوهرى فى حالتها هو تحد بشرى نشأ عن صلتها بالمجتمع الذى تنتسب هى إليه ، وإن كان لا يُنكر وجود درجة ما من التحدى الطبيعى ساهمت هى أيضاً فى

حفزها . وهذا التحدى البشرى موجود ضمنا فى الصلة نفسها التى تبدأ بالتفارق وتبلغ ذروتها بالانفصال . ويتم التفارق داخل جسم الحضارة السابقة ، عندما تبدأ هذه الأخيرة فى فقد طاقتها الخلاقة التى كانت - فى فترة نمو هذه الحضارة - تحمل الشعوب الموجودة داخل أو خارج حدودها إلى الولاء لها بمحض إرادتها .

وعند حدوث ذلك ، تدفع الحضارة المعتلة جزاء عجز حيويتها بتحللها إلى :

أولا : أقلية مسيطرة تحكم حكماً استبدادياً يستفحل طغيانه باطراد ، ولكنها تعجز عن القيادة .

ثانياً : بروليتاريا (داخلية وخارجية) تستجيب لهذا التحدى بوساطة إدراكها . بأن لها نفساً خاصة بها وتعقد العزم على خلاص نفسها حية . وتثير نزعة استبداد الأقلية الحاكمة ، فى البروليتاريا ، الرغبة فى الانفصال . ويتصل الصراع بين هاتين المشيئتين ، بينما تقترب الحضارة الآفلة صوب السقوط ، إلى أن تشرف على الموت . وعندئذ تتخلص البرولتارية فى النهاية مما كان قبلئذ موطنها الروحى ثم أصبح سجنها الروحى واستحال أخيراً إلى « مدينة هلاك » .

ونستطيع أن نميز فى هذا النزاع بين البرولتارية والأقلية الحاكمة - وهو يتطور من البداية إلى النهاية - أحد تلك اللقاءات الروحية المصطنعة التى تستعيد فعل الخلق بإخراج حياة العالم من ركود الخريف عبر آلام الشتاء إلى طاقة الربيع الخلاقة . ويعتبر انفصال البرولتارية ، هو الفعل ذا القوة الدافعة الذى يتم - استجابة للتحدى - والذى يترتب عليه التحول من حالة الين إلى حالة اليانج .

وفى غمار هذا التفارق الدافع ، تتولد الحضارة المشتقة من الأولى .

فهل فى قدرتنا كذلك ، تمييز تحدٍّ طبيعي بالمثل فى بدء حضارتنا المنتسبة ؟

لقد رأينا فى الفصل الثانى أن الحضارات المنتسبة تنتسب بدرجات مختلفة إلى سابقتها من حيث موقعها الجغرافى . ففى أحد طرفى السلم ، أتمت الحضارة البابلية نموها كله فى نطاق موطن المجتمع السومرى الذى تنتسب إليه .

وهنا يكاد يكون من المستحيل أن يتدخل تحد طبيعي بأية حال من الأحوال فى بدء الحضارة ، اللهم إلا فى غضون فترة الفراغ بين الحضارتين . إذ قد يرتد مهدهما المشترك — بعض الشيء — إلى حالته الطبيعية الأولى ، مما يهيئ لآباء الحضارة التالية تحديا بإعادة تحقيق ما حققه أسلافهم فى البداية ، مساوياً مقداره لهذا الارتداد .

بيد أنه عندما تقتحم الحضارة المنتسبة أرضاً جديدة وتقيم لها موطناً يقع كله أو بعضه خارج منطقة الحضارة السابقة ؛ يُصبح هناك تحد صادر من البيئة الطبيعية الجديدة التى لم يسيطر عليها أحد بعد . ومصداقاً لذلك :

تعرّضت الحضارة الغربية عند بدئها إلى تحد صادر من غابات أوربا ما وراء الألب ويتمثّل فى أمطارها وصقيعها ؛ وهذا ما لم تجابه الحضارة الهلينية السابقة .

وتعرضت الحضارة السندية عند بدايتها إلى تحد الغابات المدارية الرطبة الواقعة فى وادى الجانج . وهو تحد لم يجابه سابقتها ؛ أى الجزء القصى من الحضارة السومرية ، أو القطاع المقابل له فى وادى السند[١] .

وتعرضت الحضارة الحيثية فى بدايتها لتحد صادر من هضبة الأناضول لم يواجه سابقتها الحضارة السومرية .

وكان التحدى الذى تعرضت له الحضارة الهيلينية فى بدايتها — تحدى

(١) أغفل المستر سومرفيل الذى قام بتلخيص كتاب المستر توينبى المناقشة التى أوردها هذا الأخير حول موضوع ما إذا كانت ثقافة وادى السند حضارة منفصلة أو مجرد فرع من الحضارة السومرية . ولم يبت توينبى فى هذه النقطة برأى قاطع . لكنه يعالج فى الفصل الثانى ثقافة وادى السند كجزء من المجتمع السومرى .

البحر - هو بالضبط نفس التحدى الذى واجه سابقتها الحضارة المينووية . على أن هذا التحدى كان برمته جديداً تماماً على البرولتاريا الخارجية ، فيما وراء الحد البرى للدولة البحرية المينووية فى القارة الأوربية .

وعندما نزل أولئك البرابرة من الآخيين وأمثالهم إلى البحر فى القارة بعد الهجرة المينووية ، أصبحوا يواجهون محنة واجتازوا تجربة تماثل فى قوتها التجربة التى جابهها - فى عصرهم - طلائع الحضارة المينووية أنفسهم ، وتغلبوا عليها مثلما تغلب عليها هؤلاء .

وفى أمريكا تعرضت الحضارة اليوكاتية فى بدايتها لتحدى انتفاء الماء والأشجار وعدم وجود تربة تقريباً فى الهضبة التى قوامها الحجر الجيرى فى شبه الجزيرة اليوكاتية . وتعرضت الحضارة المكسيكية لتحدى الهضبة المكسيكية . بينما لم تواجه سابقتهما - الحضـــارة المايانية - أيا من هذين التحديين .

يتبقى بعد ذلك الحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى والحضارة المسيحية الأرثوذكسية والحضارة العربية والحضارة الإيرانية . ولا يبدو أنها جميعا تعرضت لأى تحد طبيعى واضح المعالم . ذلك لأن مواطنها - عكس موطن الحضارة البابلية - وإن اختلفت عن مواطن الحضارات السابقة ، إلا أنها سبق أن أُخضعت لهذه الحضارات أو لغيرها من الحضارات . على أننا قد وجدنا مبرزا لتقسيم الحضارة المسيحية الأرثوذكسية وحضارة الشرق الأقصى تقسيما فرعيا . وأما فرع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية فى روسيا فقد تعرّض إلى تحد من الغابات والأمطار والجليد ، أعظم كثيراً مما كان على الحضارة الغربية مواجهته .

وتعرّض فرع حضارة الشرق الأقصى فى كوريا واليابان ، إلى تحد من البحر يختلف كلية عن أى تحد واجهه رواد الحضارة الصينية .

الآن وقد أظهرنا أن حضارتنا المنتسبة ، وإن تعرضت كلها -

بالضرورة – لتحد بشرى بعتبر سمة تلازم تفكك الحضارات السابقة التى تنتسب إليها . فإنها قد تعرضت فى بعض الحالات كذلك – دون حالات أخرى – لتحد اتاها من البيئة الطبيعية ، يشابه التحديات التى جابهتها الحضارات الأصـــيلة :

وأحرى بنا – استكمالا لهذه المرحلة من استقصائنا – أن نتساءل عما إذا كانت المجتمعات الأصيلة – بالإضافة إلى تحدياتها الطبيعية – قد تعرضت لتحديات بشرية صادرة عن تفارقها عن تلك المجتمعات البدائية : وكل ما نستطيع قوله فى هذا الصدد هو أن الدليل التاريخى غير متوافر فى حال من الأحوال – وهذا ما يتوقعه المرء . ومن المحتمل جداً أن حضاراتنا الست الأصيلة قد جابهت إبان ذلك الماضى السابق للتاريخ الذى يكتنف بدءها ، تحديات بشرية جديرة بالمقارنة – من حيث النوع – بالتحديات التى عرضت للمجتمعات المنتسبة ، نتيجة طغيان الأقليات المسيطرة فى الحضارات التى سبقتها .

بيد أن التوسع فى هـــذا الموضوع أكثر من ذلك يعنى التأمل فى فراغ .

الفصل السادس

فضائل الشدائد[1]

(١) اختيار أشد دقة

انتهى بنا المطاف إلى نبذ الافتراض الشائع بأن الحضارات تظهر وقتما تهيئ البيئات ظروفا للحياة فيها ، سهولة غير مألوفة . وسقنا الدليل على صحة الرأى المخالف لذلك تمام المخالفة .

وينبعث الرأى الشائع من حقيقة مدارها تسليم باحث حديث فى الحضارة المصرية – ويعتبر اليونانيون القدماء فى هذا السياق حديثين مثلنا تماما – بأن الأرض هى كما صنعها الإنسان ويفترض أنها كانت كذلك عندما وضع الرواد أيديهم عليها لأول مرة . ولقد حاولنا أن نُظهر ما كانت عليه حالة وادى النيل الأولى الحقيقية وقتما وضع الرواد أيديهم عليه لأول مرة ، بوساطة تصوير حالة طائفة من أجزاء وادى النيل الأعلى كما هى عليه فى الوقت الحاضر . بيد أن هذا الاختلاف فى الموقع الجغرافى ربما يكون قد حال دون جعل تصويرنا مقنعا تماما .

وننوى فى الفصل الحالى إثبات صحة رأينا عن طريق ذكر حالات نجحت فيها الحضارة فى بادئ الأمر ، ثم فشلت بعد ذلك فى نفس الموقع . وارتد البلد – عكس مصر – إلى حالته الأولى .

(٢) أميركا الوسطى

ثمة مثال يلفت النظر ، هو الحالة الراهنة فى مهد الحضارة المايانية . نجد

---

(١) وضع المستر توينبى لهذا الفصل عنوانا باللغة اليونانية القديمة يعنى « الجميل عسير » أو « جودة الصنع تتطلب عملا شاقا » .

هنا خرائب المبانى العامة ذات النقوش الفخمة الضخمة ، التى تنتصب الآن قائمة فى غور الغابة المدارية بعيدة جداً عن أية مساكن بشرية . فإن الغابة مثل حية البوا القابضة قد ابتلعت تلك الدور فعلا وتقوم الآن بهضمها على مهل ، تفتح الأحجار الجيدة الصقل المرصوصة رصاً متلاصقاً ، مستعينة فى ذلك بجذورها الملتوية وخيوطها المتسلّقة .

إن التناقض بين حالة البلاد الحالية وصورتها التى لابد وأنها كانت عليها وقتما كانت الحضارة المايانية على قيد الحياة ، من الشدة بحيث أنه يكاد يفوق الخيال ، ولأنه لابد أن يكون قد أتى زمن كانت فيه هذه الأبنية العامة الفسيحة قائمة فى قلب مدن كبيرة تعجّ بالسكان ، وكانت هذه المدن تقع وسط مساحات واسعة من الأرض المزروعة . إن ثمة عبرة أليمة على فناء العمل البشرى وبطلان الرغبات البشرية تتمثل فى عودة الغابة ، طاوية الحقول أولا ثم البيوت وأخيراً القصور والمعابد نفسها . على أن تلك العبرة ليست الأعظم دلالة من بين العبر التى تستخلص من الحالة الراهنة فى كوبان[١] أو تيكال[٢] أو بالينك[٣] . وتتحدث الخرائب بأفصح لسان عن قسوة الصراع مع البيئة الطبيعية التى لا بد وأن صانعى الحضارة المايانية قد واجهوها فى أيامهم . وتشهد الطبيعة المدارية فى أخذها بثأرها نفسه الذى يُزيح الستار عنها بكل قوتها البشعة ، بما كان عليه من الشجاعة والصلابة ، الرجال الذين قد نجحوا فى وقت ما – ولو إلى حين – فى إلزامها على الفرار وعلى البقاء بعيدة عنهم :

---

(١) Copan قرية فى دولة هندوراس فى أمريكا الوسطى كانت قديما مدينة عظيمة تتألف خرائبها من معبد وبضعة أهرامات صغيرة . (المترجم)

(٢) Tikal : مدينة مايانية قديمة فى شمال جواتيمالا . (المترجم)

(٣) Palenque قرية بالمكسيك تشهد خرائب قصورها بما كانت عليه من عز وسؤدد . (المترجم)

(٣) سيلان

فى سيلان تُسجِّل السدود المشدوخة والخزانات التى يُغطى العشب قاعها والتى أقيمت وقتاً ما على الجانب الممطر من أرض البلاد الجبلية ، على نطاق ضخم بمعرفة أهالى سيلان الذين اعتنقوا فلسفة الهينايانا السندية ؛ تسجّل عملا مساوياً فى مشقته لما سبق أن ذكرناه ، تمثّل فى إعداد السهول اللافحة للزراعة :

« كى يدرك المرء كيف ظهرت هذه الخزانات إلى الوجود ، عليه أن يعرف شيئاً عن تاريخ لانكا[١] ، كانت الفكرة الكامنة وراء هذه الخزانات بسيطة لكنها عظيمة جداً . إذ رنا الملوك بناة الخزانات إلى الحيلولة دون وصول ماء الأمطار الذى يسقط على الجبال بهذه الوفرة إلى البحر قبل أن يستفيد الإنسان منه .

« فإذا كانت توجد فى وسط النصف الجنوبى من سيلان منطقة جبلية شاسعة إلا أنه فى الشرق والشمال ، تُغطى السهول الجدباء آلاف من الأميال المربعة ، وهى الآن قليلة السكان جداً . وثمة خط رسمته الطبيعة تعجز الأمطار عن عبوره خلال ذروة الرياح الموسمية عندما تتدافع كتائب السحب المحملة بالعواصف يوماً بعد يوم لتجربة قوتها ضد الجبال . وهناك مواضع يضيق عندها الخط الفاصل بين المنطقتين — الممطرة والجافة — حتى يُخيل للمرء أنه فى مسافة ميل واحد ينتقل إلى بلد جديد . وينثنى الخط من بحر إلى بحر ويبدو كما لو كان ثابتاً لم تؤثر فيه الأعمال التى أنجزها الإنسان مثل قطع أشجار الغابات »[٢] .

---

(١) Lanka : منطقة فى شمال شرق جزيرة سيلان كانت وقتا ما موطنا لحضارة مزدهر . ثم أطلق الاسم على الجزيرة كلها . (المترجم)

(٢) Still, John : The Jungle Tide ص ٧٤ — ٧٥

على أن مبشرى الحضارة السندية فى سيلان ، قد أنجزوا ذات يوم عملا فريداً ، تجلى فى حملهم الهضاب التى ترزح تحت الرياح الموسمية ، على بذل الماء والحياة والثروة للسهول التى قضت الطبيعة عليها بأن تظل محرقة قفرة :

« نظمت السيول الجبلية وسُيِّر ماؤها إلى خزانات هائلة مقامة فى أسفل تلك الجبال وبلغت مساحة بعضها أربعة آلاف فدان . وتنساب من هذه الخزانات قنوات تتجه إلى خزانات أكبر من الأولى وأبعد من الجبال ، ومن هذه الأخيرة إلى خزانات ثالثة أبعد منها . وكانت توجد تحت كل خزان كبير وكل جدول كبير ، مئات من الخزانات الصغيرة كل منها نواة قرية ؛ وتتغذى هذه الخزانات جميعها فى نهاية الأمر من منطقة الأمطار الجبلية .

« وبهذه الطريقة سيطر أهل سيلان القدماء على جميع السهول — أو جميعها تقريبا — التى هى الآن خالية من البشر »(١) .

ويُستدل على مشقة العمل الذى استلزمه الاستيلاء على هذه السهول القاحلة بطبيعتها فى سبيل حضارة من صنع الإنسان ، بمظهرين بارزين فى مشهد سيلان الطبيعى فى الوقت الحاضر وهما :

الأول : انتكاس هذه البقعة التى كانت وقتاً ما مروية وكثيفة السكان ، وتحولها إلى جدبها البدائى .

الثانى : تركيز زراع الشاى والبن والمطاط الحاليين فى نصف الجزيرة الآخر حيث تهطل الأمطار .

(٤) الصحراء العربية الشمالية

ثمة دليل مشهور إلى حد الابتذال على صحة نظريتنا ، ألا وهو الحالة الحاضرة لمدينتى البتراء وتدمر : مشهد أوحى بسلسلة كاملة من الأبحاث فى

---

(١) Still, John : The Jungle Tide

فلسفة التاريخ ابتداء من كتاب « الاطلال »[١] تأليف فولني(٢) (١٧٩١) فصاعدا . ونجد اليوم أن هاتين المدينتين اللتين كانتا فيما مضى موطنين للحضارة السورية السالفة ، قد أصبحتا فى نفس الحال الذى أصبحت عليه المواطن السالفة للحضارة المايانية ، وإن كانت البيئة المعادية التى ثارت منها هى السهب الأفراسى عوضاً عن الغابة المدارية .

وتحدثنا هذه الأطلال بأن هذه المعابد والأروقة والمدافن المحكمة الصنع — وقتما كانت سليمة البنيان — لا بد وأنها كانت معدة لتجميل مدن كبيرة . وإذا كان الدليل المستمد من الحفريات هو وسيلتنا الوحيدة لرسم صورة عن الحضارة المايانية ، إلا أن هذا الدليل تعززه هنا النصوص المكتوبة الواردة فى السجلات التاريخية . إذ أننا نعلم أن رواد الحضارة السورية الذين انتزعوا هاتين المدينتين من الصحراء ، إنما كانوا واقفين على أسرار السحر المشهور به موسى فى الروايات السورية .

فكان هؤلاء السحرة يعلمون طريقة استجلاب الماء من الصخر الصلد ، وكيفية الاهتداء إلى طريقهم عبر الفلاة غير المطروقة . وكانت البتراء وتدمر فى ريعان ازدهارهما ، تقعان وسط بساتين مروية مثل تلك التى ما تزال تحيط بدمشق . بيدان البتراء وتدمر لم تكونا تعتمدان — كما لا تعتمد دمشق فى الوقت الحاضر — فى غذائهما اعتماداً كلياً أو حتى جوهريا على الفواكه التى تغلّها واحاتهما ذات الحدود الضيقة ، ولم يكن أغنياؤها من زراع الفواكه والخضر ، لكنهم كانوا تجارا حافظوا على اتصال الواحة

---

(١) Volnny : Les Ruines

هذه هي إحدى الحضارات التى توقف نموها والتى ستناقش فيما بعد .

(٢) فولنى Volney ، عالم فرنسى ومصور . ولد عام ١٧٥٧ وتوفى عام ١٨٢٠ . وأهم ما يؤثر عنه رحلته إلى مصر وسوريا وإقامته هناك حوالى الثمانية شهور ، دون خلالها طائفة قيمة من الملاحظات سجلها فى مؤلف عنوانه « رحلة إلى مصر وسوريا » ولقد كان هذا المؤلف فى طليعة المراجع التى منها استمدت حملة نابليون الكثير من المعلومات التى انتفعت بها . (المترجم)

بالقارة ، بفضل حركة قوافل نشطة تنتقل من نقطة إلى أخرى عبر ممرات تتناوب طريقها السهب والصحراء . وتكشف حالتها الحاضرة : لا عن فوز الصحراء النهائى على الإنسان فحسب ، ولكنها تكشف كذلك عن مقدار الانتصار الذى أحرزه فيما مضى الإنسان على الصحراء .

(٥) جزيرة إيستر

يمكن أن نستخلص نتيجة مشابهة بشأن بدء الحضارة البولينيزية[١] من حالة جزيرة إيستر فى الوقت الحاضر . فقد كانت هذه الجزيرة النائية الواقعة جنوب شرق المحيط الهادى وقت كشفها حديثاً ، مسكونة بعنصرين : عنصر من لحم ودم ، وعنصر من حجر . أى سكانها الأصليون ذوو الشكل البولينيزى الظاهر بجلاء ، وسكان من التماثيل متقنة الصنع . ولقد كان سكان الجزيرة الأحياء إبان الجيل الذى كشفت فيه الجزيرة ، يجهلون فن نحت تماثيل مثل هذه ، ولا علم لهم بالملاحة حتى يعبروا مسافة ألف ميل فى عرض البحار التى تفصل جزيرة إيستر عن أقرب أخت لها من جزائر الأرخبيل البولينيزى . ولقد ظلت الجزيرة قبل كشف البحارة الأوربيين لها منعزلة عن بقية العالم فترة من الزمن غير معلومة . إلا أن سكانها من النوعين من اللحم والحجر يشهدون بنفس الوضوح الذى تشهد به أطلال تدمر أوكوبان ، بماض زال وانقضى ، لا بد وأنه كان يختلف عن الحاضر اختلافاً تاماً .

لابد وأن هؤلاء البشر قد أنجبوا ، وأن هذه التماثيل قد نحتت بمعرفة ملاحين بولينزيين شقوا طريقهم فى زمن ما عبر المحيط الهادى فى زوارق مفتوحة واهية ، دون الاستعانة بخريطة أو بوصلة . ويكاد يكون من المستحيل أن تكون هذه الرحلة مغامرة مفردة جلبت حمولة قارب واحد من الرواد إلى جزيرة إيستر بفضل ضربة حظ لم تتكرر . فإن السكان من التماثيل من

---

(١) هذه هى إحدى الحضارات التى توقف نموها والتى سنناقش فيما بعد .

الكثرة بحيث لا بد وأن إنتاجها قد اقتضى أجيالا عدة . ويدل كل شيء على انقضاء وقت كانت الملاحة تتم فيه بانتظام عبر تلك الأميال الألف فى عرض البحر ، طوال فترة طويلة من الزمن .

وأخيراً أطبق البحر الذى عبره الإنسان بنجاح وقتا ما ، على جزيرة إيستر على غرار ما أطبقت الصحراء على مدينة تدمر ، والغابة على مدينة كوبان . أما عن الرجال من الحجر مثل التمثال الوارد ذكره فى قصيدة هوسمان[1] فقد سلكت مسلك الحجر . أما الناس اللحم والدم ، فقد أخذوا — الجيل تلو الجيل — ينجبون نسلا أكثر فظاظة وأشد قصوراً .

لا ريب أن دلالة جزيرة إيستر تناقض على طول الخط ، النظرة الغربية الشائعة عن جزائر البحر الجنوبى باعتبارها جنة أرضية وسكانها أطفال الطبيعة ، فى الحالة التى كان عليها آدم وحواء قبل سقوطهما . ونشأت تلك الفكرة الخاطئة نتيجة لافتراض أن قسما من البيئة البولينزية هو المجموعة كلها . وتتكون البيئة الطبيعية فى الواقع من المياه والأرض كليهما :

فالمياه تمثل تحديا جسيما لأية كائنات بشرية تسعى إلى عبورها من غير أن تستحوز على أية وسيلة خير من تلك التى كانت فى متناول البولينزيين ، وإذا كان الرواد قد فازوا بوضع أقدامهم على بقاع الأرض الجافة المتناثرة على التيه المائى الواسع فى المحيط الهادى ، تناثراً يكاد يشبه تناثر النجوم فى الفضاء ، إنما كان ذلك بفضل استجابتهم الجريئة الناجحة لتحدى البحر المالح المغرق ، محققين بذلك عملا فريداً يتمثل فى حركة ملاحة بحرية منتظمة بين الجزيرة والجزيرة .

---

(١) هوسمان ، لورانس : شاعر إنجليزى ولد عام ١٨٦٥ . ومن رواياته : الفز الأزرق ، جون جنجالو . كما ألف عدة مسرحيات أشهرها وفاة أورفيوس ، وأخرج ديوانا من الشعر عام ١٩٣٨ . (المترجم)

(٦) انجلترا الجديدة

قبل اختتام هذا العرض للانتكاسات إلى حالة الطبيعة ، يستطيع الكاتب أن يسمح لنفسه بأن يستشهد بمثالين : يخرج أولهما عن الموضوع ، ويتسم الآخر بالوضـــوح الشديد . وتصادف وقوع كليهما تحت ملاحظته الشخصية :

فى ذات يوم كنت أتجول فى ناحية ريفية من ولاية كونيكتكت فى إنجلترا الجديدة[1] عندما أشرفتُ على قرية مهجورة — وهو منظر ليس بغريب فى هذه الأنحاء كما قيل لى — إلا أنه مع ذلك منظر يثير العجب والحيرة فى الأوربى . فإلى مدة قرنين تقريباً ، ربما كانت تاون هيل ، — وهذا اسم القرية — تنتصب هى وكنيستها ذات الطراز الجورجى المبنية بالألواح الخشبية وسط ساحة القرية الخضراء وأكواخها وبساتينها وحقول قمحها . وما تزال الكنيسة منتصبة قائمة محافظ عليها كأثر تاريخى ، لكن المنازل قد زالت واستحالت أشجار الفاكهة إلى أشجار برية ، واختفت حقول القمح .

فى غضون المائة سنة الأخيرة ، قام سكان انجلترا الجديدة هؤلاء بدور لا يتفق مع عددهم لانتزاع القارة الأمريكية بأجمعها — من الأطلسى إلى الهادى — من الطبيعة البرية . بيد أنهم سمحوا للطبيعة — فى نفس الوقت — باسترداد هذه القرية الواقعة فى قلب موطنهم ، حيث عاش أجدادهم حوالى مائتى سنة . وتُبدى بكل جلاء السرعة والشمول والسهولة التى استطاعت بها الطبيعة استعادة سلطانها على تاون هيل بمجرد أن خفّت قبضة الإنسان عنها ، مدى الجهود التى بذلها الإنسان فيما مضى لترويض هـــذه الأرض القاحلة .

---

(١) فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى الواقع ما كان يكفى لتحقيق « الفوز بالغرب » إلا همة لا تقل فى شدتها عن تلك الهمة التى استلزمتها السيطرة على تاون هيل . وإن منظر المدينة القفر لدليل يذكرنا على أن قيام المدن القطرية مثل: أوهيو، وإيلينوى، وكولورادو، وكاليفورنيا، كان فى ذاته شيئاً خارقاً للعادة .

(٧) السهل الرومانى[1]

إن الأثر الذى أحدثته فى نفسي تاون هيل قد أحدثته فى نفس ليفى[2] ما يعرف بالسهل الرومانى . إذ أخذه العجب من أن عشيرة لا تُحصى من المزارعين المحاربين كانت تعيش وقتاً ما فى منطقة أصبحت فى عهده كما هى فى عهدنا[3] فلاة موحشة قاحلة ومستنقع أخضر يجلب الحمى .

وتمثل هذه الحالة المتأخرة الحالة الأولى للمشهد الطبيعى المخيف الذى استحال فى وقت ما بفضل الرواد اللاتين والفولسيين[4] إلى ريف عامر بالسكان والحقول المزروعة . وكانت الهمة التى استنفدتها عملية السيطرة على هذه المساحة الضيقة من الأرض الإيطالية القاسية، هى نفس الهمة التى غزت العالم فيما بعد من مصر إلى بريطانيا .

---

(١) The Roman Compagna منطقة إيطالية كانت إلى عهد قريب موحشة تمتد على طول البحر التيرانى . (المترجم)

(٢) هو المؤرخ الرومانى Titus Livius (٥٩ ق م . — ١٧ ب . م) والكتاب عن تاريخ روما منذ نشأتها الأسطورية حتى زمن دروسوس عام ٩ ق . ويقع الكتاب فى ١٤٢ جزءا لم يتبق منه سوى ٣٥ جزء . (المترجم)

(٣) يذكر المستر سومرفيل الذى قام بتلخيص كتاب المؤلف أن المنطقة لم تعد كما وصفها هنا المستر توينبى، إذ أمكن حكومة موسولينى استصلاح هذه المنطقة للإنسان .

(٤) Volsci شعب إيطالى قديم كان يعيش على جانبى ليريس . وكان فى حرب مع أهالى روما التى أخضعتهم لها فأصبحوا مواطنين رومانيين منذ عام ٣٠٤ ق . م . (المترجم)

(٨) كابوا الغادرة(١)

أما وقد درسنا طابع طائفة من البيئات التى كانت فعلا مشاهد لبدء الحضارات أو غيرها من آيات المآثر الإنسانية ، ووجدنا أن الملابسات التى هيأتها للإنسان لم تكن سهلة ، بل كانت بالأحرى على عكس ذلك . فلننتقل إلى دراسة تكميلية ، ولنفحص طائفة من البيئات الأخرى التى كانت فيها الأحوال المتاحة يسيرة . وندرس أثر مثل هذه البيئات على الحياة البشرية . وفى محاولتنا القيام بهذه الدراسة ، يجب أن نفرّق بين حالتين :

الأولى : حالة يتعرض فيها الناس لبيئة سهلة بعد مقامهم فى بيئة صعبة .

الثانية : حالة أناس فى بيئة سهلة ولم يسبق لهم — إلى مدى علم المرء — التعرض قط لأية بيئة أخرى منذ أن تحول الذين كانوا أجدادهم قبل البشرية ، إلى بشر .

وبعبارة أخرى ، علينا أن نميز بين تأثير بيئة سهلة فى إنسان فى حالة تطور نحو الحضارة وفى إنسان بدائى .

ففى إيطاليا القديمة وجدت روما نقيضها فى كابوا . إذ كان سهل كابوا بالإنسان رحيما ، بقدر ما كان سهل روما قاسيا . وبينما خرج الرومان من أرضهم المخيفة يغزون الجار بعد الجار ، ظل أهل كابوا فى موطنهم سامحين بأن يغزوهم الجار بعد الجار . وأنقذت كابوا من آخر غزاتها السمنيين(٢)

---

(١) Perfida Capua كابوا مدينة إيطالية على بعد ١٧ ميلا من نابلى . وتمتاز الأراضى التى حولها بالخصوبة وإنتاجها من الفاكهة . وقد استولى عليها هانيبال عام ٢١٦ ق . م ثم استعادها الرومان بعد ذلك بأربع سنوات . وتعتبر أطلالها من أقدم مثيلاتها فى إيطاليا . (المترجم)

(٢) Samnites سكان مقاطعة Samnium فى إيطاليا القديمة . وفى سنة ٢٩٠ ق . م غزتها روما ثم استعادت استقلالها ، وظلت الحرب سجالا بينها وبين روما حتى اجتاحتها الأخيرة عام ٨٢ ق . م . (المترجم)

بفضل تدخل روما نفسها بناء على رجائها هى . بيد أن كابوا جازت روما على صنيعها جزاء سنمار ، إذ جاءت فى أحرج لحظة لأحرج حرب فى التاريخ الرومانى ، غداة موقعة كاناى[1] وفتحت أبوابها لهانيبال . وكانت روما وهانيبال متفقين فى الرأى القائل بأن انتقال كابوا من صف إلى صف ، أعظم نتائج المعركة أهمية ، وربما الحدث الحاسم فى الحرب . ولقد ذهب هانيبال إلى كابوا ، واتخذها مقراً خلال الشتاء . وحينذاك حدث شيء خلف جميع الظنون ، إذ كان قضاء شتاء واحد فى كابوا كافياً لهدم الروح المعنوية فى جيش هانيبال ، إلى درجة لم يعد قط نفس أداة النصر مرة أخرى .

(٩) نصيحة أرتيمبيرس

أورد هيرودوتس قصة تتفق إلى حد كبير جداً مع وجهة النظر الواردة فى هذا البحث فقد أتى شخص يدعى أرتيمبيرس وأصدقاؤه إلى قورش وقدموا إليه الاقتراح التالى :

« الآن وقد خلع زيوس استياجس[2] من على عرشه ومنح السلطان للفارسيين كأمّة ولك أنت يا مولاى كفرد . فلمَ لا نهاجر من هذه الأرض الصخرية الضيقة التى نملكها فى الوقت الحاضر ونحتل أخرى خيراً منها ؟ إن هنالك أراضى كثيرة قريبة وفى متناول اليد ، وأكثر منها على مسافة منها ، وما علينا إلا تحديد اختيارنا لكى نؤثّر فى العالم تأثيراً أعظم مما نفعله بوضعنا الحاضر . هذه سياسة خليقة بشعب إمبراطورى ، ولن تقيّض لنا

---

(١) كاناى Cannae مدينة فى جنوب إيطاليا كانت مسرحا لأعظم معركة حربية فى التاريخ الرومانى والتى سحق فيها هانيبال الجيش الرومانى عام ٢١٦ ق . م (المترجم)

(٢) استياجس Astyages هو جد قورش . وكانا يعيشان فى وئام ، إلى أن رأى الجد فى المنام أن حفيده يسعى إلى القضاء عليه . فعمل على الإطاحة به ، لكن الحفيد خلع جده عن الحكم وتولاه هو عوضاً عنه . (المترجم)

مناسبة لتحقيقها خيراً من الآن . بعد أن بسطنا سلطاننا على عدد هائل من السكان وعلى قارة آسيا بأسرها » .

واستمع قورش لهذا الحديث دون أن يؤثر فيه ، ثم قال للملتمسين أن يفعلوا ما يشاءون ، لكنه أكمل نصيحته بقوله فى نفس واحدة ، أن يوطنوا أنفسهم على أن يضعوا أنفسهم فى مراكز رعاياهم وأخبرهم أن البلاد اللينة تنجب حتما رجالا لينين »[١] .

(١٠) الأوديسية والخروج[٢]

إذا ولينا وجهنا شطر مآثر الأدب القديم وهى أكثر شهرة من تاريخ هيرودوتس ، ألفينا أن السيكلوبس[٣] وغيره من الكائنات العدوانية الضارية ، كانت أقل خطراً على أوديسوس[٤] من الساحرات الفاتنات اللاتى دعينه إلى حياة سهلة مثل سيرس[٥] التى كان كرم ضيافتها يقوده إلى حظيرة الخنازير ، وآكلى اللوتس[٦] الذين كان الوقت دائماً فى بلادهم « بعد الظهر » والحوريات السيرينيات[٧] اللاتى أدى الخوف من أصواتهن الجذابة بعوليس إلى سد آذان

---

(١) هيرودتس : الكتاب التاسع صفحة ١٢٢ .

(٢) أى خروج بنى إسرائيل من مصر .

(٣) سيكلوبس Cyclops جبار خرافى بعين واحدة يقال إنه كان يعيش فى ليبيا . (المترجم)

(٤) أوديسوس Odysseus أو عوليس Ulysseus هو بطل الأوديسية ملحمة هومر الخالدة . وقد أضفى عليه الشاعر صفات الجرأة وصفاء الذهن والقدرة على حل المشكلات . (المترجم)

(٥) سيرس Circe هى الساحرة التى يحلو لها إغراء الرجال فإذا استجابوا لها سحرتهم خنازير . (المترجم)

(٦) ذكر هومر فى الأوديسية أن آكلى اللوتس قوم يعيشون على فاكهة تلك الشجرة فلا يعملون أو يرهقون أنفسهم فى سبيل العيش . ولقد أصبح هذا التعبير علما على الكسل والبلادة . (المترجم)

(٧) سيرين Sirens حوريات بحريات فى الأساطير اليونانية نصفهن آدمى والنصف الآخر سمك ؛ وكن يستملن البحارة بالغناء العذب . فيتبع البحارة الغناء فتتحطم المراكب على الصخور . (المترجم)

بحارته بالشمع ورجاهم بأن يقيدوه فى صارى المركب ؛ وكاليبسو[١] ذات الجمال الإلهى التى كانت أفتن من بنلوب[٢] ولكنها لقسوتها أقل منها جدارة لتكون شريكة حياة الإنسان الفانى .

أما بالنسبة للإسرائيليين الوارد ذكرهم فى سفر الخروج ، فإن كتاب الأسفار الخمسة الصارمين لم يُشيروا إلى أمثال السيرينيات أو سيرس يضلونهم . لكننا نقرأ أنهم كانوا يشتهون باستمرار قدور اللحم فى مصر . فلو كانوا قد اتبعوا هوى أنفسهم ، لما قُيّض لهم إنتاج التاريخ الذى سجله العهد القـــديم[٣] . ولكن كان موسى لحسن الحظ ينتمى إلى نفس مدرسة قورش الفكرية .

(١١) أمة افعل ما تشاء[٤]

قد يدعى ناقد بأن الأمثلة التى سقناها ليست مقنعة تماما . وسيقول بكل تأكيد إن أناسا يتحولون من أحوال معيشية شاقة إلى أخرى هينة ، مقدر لهم الفساد مثل رجل يتضور جوعا ، يحشو بطنه بوجبة كاملة . أما أولئك الذين ألفوا التمتع بالأحوال السهلة طوال الوقت ، فمن المتوقع أن يستفيدوا من هذه الأحوال على أحسن وجه . وللرد على هذا الاعتراض علينا أن ننتقل إلى الحالة الثانية من الحالتين اللتين ميزناهما فيما سلف ، حالة أناس فى بيئة سهلة ولم يسبق — إلى مدى علم المرء — وجودهم فى بيئة أخرى . ففى هذا الظرف يُستبعد العامل المخل وهو الانتقال . ويصبح فى مقدورنا دراسة أثر الأحوال السهلة فى حالتها المطلقة .

(١) كاليبسو Calypso هى أخت أطلس التى يذكر هومر عنها أنه عندما تحطمت سفينة عوليس على جزيرتها استضافته ووعدته بأن تمنحه الخلود إن تزوجها . واحتجزته سبع سنوات وأنجبت منه ولدين . لكن الشوق إلى عائلته دفعه إلى هجرها فماتت حزنا وكدا . (المترجم)

(٢) بنلوب هى زوجة عوليس . (المترجم)

(٣) أى التوراة .

(٤) وردت فى الأصـــل الإنجليزى The Doasyoulikes كلمة تجمع عبارات Do As You Like أى أمة تخلو من القيود والنظم . (المترجم)

وفيما يلى صورة أصيلة لها من نياسالاند كما شاهدها مراقب غربى من نصف قرن مضى :

« تختفى قرى الوطنيين الصغيرة بعيدا فى هذه الغابات اللانهائية مثل أعشاش الطيور فى الدغل ، ترهب إحداها الأخرى وتخشى عدوها المشترك تاجر الرقيق . ويسكن هنا الإنسان البدائى فى ظل هذه البساطة العذرية ، من غير ملابس ، ولا حضارة ولا تعليم ، ولا دين . إنه طفل الطبيعة الحقيقى ، لا فكر لديه ولا هم ، لكنه راض ، وتبدو سعادته كاملة . ليست لديه أية احتياجات تقريبا . كثيراً ما يلام الإفريقى على نزوعه إلى الكسل ، إلا أن فى ذلك سوء استخدام للألفاظ . فإنه لا يحتاج إلى العمل ، ومن ثم فإن تراخيه كما يقال هو جزء من شخصيته فعلا مثل أنفه المفرطحة ، ولا يستحق عليه أى لوم . . مثله مثل البطء فى السلحفاة[١] » .

ولقد كتب تشاربلس كنجزلى هذا الرجل الفيكتورى المنتصر للحياة الشاقة والذى آثر الريح الشمالية الشرقية على الريح الجنوبية الغربية ، قصة صغيرة تدعى « تاريخ أمة افعل ما تشاء العظيمة المشهورة » تلك الأمة التى وفدت من بلد « العمل الشاق » لأن أفرادها رغبوا فى العزف على العود طوال اليوم ، فكان جزاؤهم مسخهم قردة .

ومن الطريف أن نلاحظ الموقفين المختلفين اللذين اتخذهما تجاه آكلى اللوتس كل من الشاعر الهلينى والواعظ الغربى الحديث . فآكلوا اللوتس وأرضهم التى تنتج اللوتس ، شىء جذاب إلى أبعد الحدود ، عند الشاعر الهلينى . فهو شرك نصبه إبليس فى طريق اليونانى ناشر الحضارة . فى حين أن كنجزلى يتخذ الموقف البريطانى الحديث تجاه أمة « افعل ما تحب » إذ ينظر إليها باستنكار كله ازدراء يدل على أنه محصن ضد مغرياتها ، وهو يؤمن بأن ضم تلك الأمة إلى الإمبراطورية البريطانية واجب حتمى ،

---

(١) ص ٥٥ – ٥٦ Drummond, H. Tropical Africa.

لا لفائدتنا[1] طبعا ولكن لمنفعتهم هم . على أن يزوّدوا بالسراويل ونسخ من التوراة !!

ليست مهمتنا هى الموافقة أو عدم الموافقة ولكنها الفهم . فإن المغزى موجود فى فصول سفر التكوين الأولى ، وهى أن ذرية آدم وحواء لم تشرع فى اختراع الزراعة والتعدين والآلات الموسيقية إلا بعد طردهما من أرض اللوتس فى جنة عدن :

---

(١) أى فائدة البريطانيين . (المترجم)

الفصل السابع

تحدى البيئة

(١) الحافز فى البلاد الصعبة

١ – خطوط الاستقصاء :

عسانا نكون الآن قد أثبتنا صحة القول بأن السهولة عدو الحضارة ؛ فهل فى مكنتنا أن نخطو خطوة أبعد ؟ هل نستطيع القول بأن الحافز نحو الحضارة تزداد قوته فعلا كلما ازدادت البيئة صعوبة ؟

فلنفحص الدليل الذى يؤيد هذه النظرية . ثم نتلوه بالحجة ضدها ، ونتطلع إلى النتيجة التى تستخلص من كل ذلك .

لا يصعب العثور على دليل يبين أن الصعوبة والحافز فى بيئة معينة ينزعان إلى الازدياد بدرجة مماثلة[١] بل يحتمل على الأرجح أن تربكنا غزارة الشواهد التى تطفر إلى الذهن . وتأتى معظم هذه الأدلة فى شكل مقارنات .

فلنبدأ بتقسيم أدلتنا إلى مجموعتين تنتسب نقاط المقارنة فيهما إلى البيئة الطبيعية والبيئة البشرية ، على التوالى . ولنتأمل قبل كل شىء فى المجموعة الطبيعية . إنها تنقسم إلى فئتين :

أولا : مقارنات بين النتائج المنبهة لكل بيئة من البيئات الطبيعية التى تمثل درجات مختلفة من المشقة .

ثانياً : مقارنات بين النتائج المنبهة لكل من الأرض القديمة والأرض الجديدة . بصرف النظر عن الطبيعة الجوهرية للمنطقة فى حد ذاتها .

---

(١) Pari Passu

٢ – النهر الأصفر واليانجتسى :

لنتأمل – كمثال أول – فى الدرجات المختلفة للمشقة التى يقدمها الواديان الأدنيان لنهرى الصين العظيمين :

يبدو أنه عند ما سيطر الإنسان للمرة الأولى على الفوضى المائية للوادى الأدنى للنهر الأصفر (هوانج هو) ، لم يكن النهر صالحاً للملاحة فى أى فصل . إذ كان خلال الشتاء متجمداً أو غاصا بالثلج العائم . وكان ذوبان الثلوج فى الربيع يُحدث فيضانات مدمّرة تُغيّر باستمرار خط سير النهر عن طريق نحت مسالك جديدة له ، بينما تستحيل المسالك القديمة إلى مستنقعات تغطيها الأدغال . بل إنه اليوم – بعد انقضاء ثلاثة أو أربعة آلاف سنة من الجهد البشرى لتصريف المستنقعات وحصر النهر فى نطاق جسور ؛ لم يتأت بعد التخلص من فعل الفيضانات المدمرة . وإلى وقت حديث فى عام ١٨٥٢ ، حدث أن غير « الهوانج هو » طريقه كلية فانتقل مصبه فى البحر من الناحية الجنوبية إلى الناحية الشمالية لشبه جزيرة شانتونج ، أى مسافة تربى على المائة ميل .

أما اليانجتسى من الجهة الأخرى ، فلا بد وإنه كان صالحا للملاحة فى جميع الفصول ، وفيضاناته أقل تكراراً من فيضانات النهر الأصفر ، وإن اتخذت الفينة بعد الأخرى طابعاً مدمراً . كما أن فصول الشتاء فى وادى اليانجتسى أقل عنفاً .

ورغما عن ذلك ، انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر ، لا على اليانجتسى .

٣ ــ آتيكا وبويثيا[1] :

إن أى مسافر يدخل اليونان أو يغادرها ــ لا بطريق البحر ولكن عبر الممر البرى الشمالى المتصل بالقارة الأوروبية ــ لابد وأن تلفت نظره حقيقة مبناها أن موطن الحضارة الهيلينية صخرى و « بادى العظام » و « شاق » أكثر مما هى عليه الأراضى الشمالية التى لم تُنجب قط حضارة خاصة بها . كما تُمكن ملاحظة اختلافات مماثلة فى نطاق منطقة بحر إيجه نفسها .

فإذا سافر إنسان ــ مثلا ــ بالقطار من أثينا على طول السكة الحديدية التى تقوده فى النهاية إلى أوروبا الوسطى عبر سالونيك ؛ مر فى المرحلة الأولى من رحلته بريف منبسط يتكشّف للمسافر الآتى من غرب أوروبا أو وسطها ، لمحة سابقة للمنظر العام الذى اعتاده فى بلاده . وبعد أن يمضى القطار بضعة ساعات وهو يتسلق ببطء ، يلتف حول المنحدرات الشرقية لجبل بارنيس عبر منظر طبيعى يمثل طراز بحر إيجه أصدق تمثيل . ففيه الأشجار الصنوبرية التى توقفت عن النمو ، والأحجار الجيرية المدببة البارزة ؛ عندئذ تستولى الدهشة على المسافر إذ يجد نفسه بعد ذلك مدفوعاً فى السير إلى أسفل ، نحو بلد أراضيه سهول زراعية واطئة عميقة التربة وذات تموج لطيف . وفى الحق يُعتبر هذا المنظر الطبيعى « شذوذاً » . إذ لن يجد مرة أخرى له نظيراً إلى أن يغادر مدينة نيش وينحدر على طول نهر مورافا إلى الدانوب الأوسط .

فما هو الاسم الذى أطلق على هذه القطعة الاستثنائية من الأراضى خلال قيام الحضارة الهلينية ؟

إنها كانت تدعى بويثيا . وكان لصفة « بويثى » مدلول مميز خاص فى

---

(١) أتيكا Attica هى إحدى المقاطعات اليونانية القديمة وعاصمتها أثينا . وتحد شمالا بويثيا وغرباً ميجاريس وجنوباً ببحر إيجه . أما بويثيا Boeotia فكانت كذلك ولاية يونانية قديمة محصورة بين الجبال وتمتد من لاكريس وفوسيس شمالا وآتيكا جنوباً وعاصمتها مدينة طيبة . واشتهر سكانها بالخشونة والفظاظة حتى أصبح اسم المقاطعة علما على الجهل والغباء الأصيل . (المترجم)

الأذهان وأصبحت تمثل عقلية فظة فِدْمة عديمة الإحساس والخيال ، وحشية بعيدة عن التجانس مع عبقرية الثقافة الهلينية السائدة . وثمة أمر أبرز هذا التباين وهو أن آتيكا « أو » يونان اليونان «[1] — أي البلد الذي كانت عقليته هي خلاصة الهلينية — تقع تواً إلى الخلف من سلسلة جبال سيثيرون[2] وحول ركن جبل البارنيس مباشرة حيث يلتف اليوم خط السكة الحديدية . ويقع خداً على خد مع البلد الذي أثرت فطرته في الأحاسيس الهلينية العادية مثل تأثير نغمة نشاز في لحن جميل . ولقد لخص التباين في عبارتين لاذعتين « خنزير بويثي » و « ملح آتيكي » .

إن النقطة المهمة في دراستنا الحاضرة مدارها أن هذا التباين الثقافي ذاته الذي أثر تأثيراً على هذا الجانب من العمق على الوعي الهليني ، قد طابق جغرافياً ، تبايناً مقابلا له ومثيراً للعجب ؛ هو بالمثل في البيئة الطبيعية . فإن آتيكا لم تكن « يونان اليونان » في القيم الروحية فحسب ، ولكن في شكلها الطبيعي أيضاً . فوضعها بالمقارنة لبلاد بحر إيجه الأخرى ، مثل وضع تلك البلاد بالنسبة إلى المناطق الواقعة خلفها . فإذا اقتربت من ناحية الغرب ودخلتها عن طريق خليج كورنثيوس ؛ فإنك لتُطرى نفسك إذ ترى أنك قد اعتدت على المنظر الطبيعي اليوناني الجميل وعلى وحشته في الوقت نفسه ، قبل أن تخفيه الضفاف الشبيهة بالصخور لقناة كورينث العميقة . بيد أنه عندما تدخل سفينتك خليج سارونيك ، قد تصدمك من جديد صرامة المنظر الطبيعي ، لأن المشهد في الجانب الآخر من البرزخ لم يعد منك « إعداداً كافياً » لتوقعه . وتصل هذه الصرامة ذروتها عندما تدور حول ركن سلاميس وترى آتيكا تمتد أمام ناظريك . وفي آتيكا — بسبب تربتها الصخرية والخفيفة خفة غير عادية — فإن العملية المسماه بالتعرية التي نزعت لحم الجبال عن عظامها وألقت به في البحر — وهو ما سلمت منه بويثيا حتى يومنا هذا — كانت

---

(١) Hellas of Hellas

(٢) سلسلة جبال تقع في آتيكا باليونان وأعلى نقطة فيها جبل الآتيا . (المترجم)

قد انتهت فعلا فى زمن أفلاطون كما يُثبت ذلك وصفه الدقيق الذى أورده بشأنها فى مؤلفه المسمى كريتياس .

ما الذى فعله الأثينيون ببلادهم الفقيرة ؟

نعلم أنهم قاموا بالأعمال التى جعلت أثينا « معلمة هيلاس » . فإنه عندما أمحلت مراعى آتيكا وبارت مزارعها ، تحول شعبها من تربية الماشية وزراعة الحبوب — المهنتان الأساسيتان فى اليونان فى ذلك الوقت — إلى أعمال مبتكرة غدت علما عليهم وهى : زراعة الزيتون واستغلال باطن الأرض . ولم تقتصر شجرة أثينا المباركة على البقاء على قيد الحياة ، لكنها ترعرعت على الصخرة الجرداء . لكن الإنسان لا يستطيع العيش على زيت الزيتون وحده . فاقتضى الحال أن يقايض الأثنى محصوله من زيت آتيكا بالقمح الأسقوذى[١] ليستطيع كسب عيشه من بساتين الزيتون . وتطلب عرض زيته فى السوق الأسقوذى وضعه فى جرار وشحنه عبر البحار . وتلك ضروب من النشاط أبرزت إلى الوجود فخار آتيكا ، وبحريتها التجارية .

ولما كانت التجارة تتطلب النقود استغلت مناجم الفضة فيها أيضاً .

ولم تكن هذه الثروات سوى الأساس الاقتصادى للثقافة السياسية والفنية والفكرية التى جعلت أثينا « معلمة هيلاس » كما جعلت « ماج آتيكا » نقيض الحيوانية البويثية . وترتب على ذلك : فى المستوى السياسى ، الإمبراطورية الأثينية ؛ وفى المستوى الفنى ، هيأ رواج صناعة الفخار ، لرسام الزهرية الآتيكى فرصة ابتداع نمط جديد من الجمال فتن بعد انقضاء ألفى سنة الشاعر الإنجليزى كيتس ؛ بينما أدّى انقراض غابات آتيكا بالمهندسين الأثينيين إلى أن يستخدموا فى أعمالهم الحجر عوضاً عن الخشب ، فقاد هذا إلى تشييد البارثينون .

---

(١) نسبة إلى اسقوثيا وهى جنوب روسيا حالياً . (المترجم)

٤ — بيزنطة وكالشيدون[1] :

يعرض اتساع نطاق العالم الهليني الذى ذكرنا سببه فى الفصل الأول ؛ مثلا هلينيا آخر لنظريتنا ألا وهو التباين بين المستعمرتين اليونانيتين : كالشيدون وبيزنطه اللتين أنشئتا عند مدخل البسفور من بحر مرمرة . الأولى على الساحل الآسيوى ، والثانية على الساحل الأوروبى .

ويحدثنا هيرودونس — بعد مضى قرن أو نحوه من إنشاء المدينتين — أن الحاكم الفارسى مجابازوس « ابتدع عبارة مأثورة واتته شهرة خالدة عند يونانى الدردنيل . فقد سمع وهو فى بيزنطة أن أهالى كالشيدون قد شيّدوا مدينتهم قبل أن ينشئ البيزنطيون مدينتهم بسبعة عشر عاما ، فعلّق حين بلغه ذلك بقوله : (إذاً لا بد وأن الكالشيدونيين كانوا عميانا طوال ذلك الوقت) ويعنى أنهم لا بد قد كانوا عميانا إذ اختاروا الموقع السيئ بينما كان الموقع الأفضل فى متناولهم[2] » .

بيد أنه من اليسير أن يكون المرء حكيما بعد وقوع الواقعة . فى عصر مجابازوس (وقت الغزوات الفارسية لليونان) ؛ كان مصير كل من المدينتين قد تكشّف . فكانت كالشيدون لا تزال وقتئذ مستعمرة زراعية عادية كما أرادت دائماً أن تكون . ومن الناحية الزراعية كان موقعها ولا يزال أفضل بكثير جداً من موقع بيزنطة . ولقد وفد البيزنطيون مؤخراً فحصلوا على الفضلات ، وقد فشلوا كجماعة زراعية ، ولعل فشلهم يرجع إلى إغارات برابرة تراقيا المستعمرة عليهم . لكن البيزنطيين قد وقعوا مصادفة على منجم ذهبى يتمثل فى مينائهم « القرن الذهبى » . إذ ثبتت موافقة التيار الذى يأتى من البسفور لأية سفينة تقصد القرن الذهبى من أى الناحيتين .

---

(١) Calchedon تدعى الآن كاديكوى . مدينة قديمة تواجه بيزنطة على البسفور . وبيزنطة هى أستامبول الحالية . (المترجم)

(٢) هيرودوتس : الكتاب الرابع فصل ١٤٤ .

ولقد أوضح بوليبيس ذلك فيما كتبه في القرن الثاني ق . م . أي بعد حوالى خمسمائة سنة من تشييد المستعمرة اليونانية ، وقبل خمسمائة سنة تقريبا من رفعها — بعد تسميتها القسطنطينية — إلى مستوى عاصمة إمبراطورية ، إذ يقول :

« تشغل بيزنطة موقعاً يفوق كثيراً من ناحيتي السلامة والرخاء كليهما ، كافة مواقع العالم الهليني المواجهة للبحر . كما لا يتفوق عليه بحال ، أي موقع آخر من المواقع المواجهة للبر . فمن ناحية البحر ، تتحكم بيزنطة في مدخل البحر الأسود تحكماً مطلقاً بحيث أنه يستحيل على أية سفينة أن تعبره سواء كانت داخلة أو خارجة ، ضد إرادة البيزنطيين »[١] .

على أن مجابازوس قد كفل بعبارته المأثورة لنفسه شهرة بالفطنة يكاد لا يستحق منها شيئاً . إذ لا توجد شبهة شك في أنه لو كان المستعمرون الذين احتلوا بيزنطة قد وصلوا قبل ذلك بعشرين سنة لاختـــاروا موقع كالشيدون الحالي وقتئذ . ولو كانت غارات التراقيين أقل عرقلة لجهودهم الزراعية ، لربما كانوا أقل ميلا إلى تنمية إمكانيات موقعهم التجارية .

٥ — الإسرائيليون والفينيقيون والفلسطينيون :

إذا انتقلنا الآن من التاريخ الهليني إلى التاريخ السوري ، سنجد عناصر السكان المختلفة التي وفدت إلى سوريا أو استطاعت مقاومة الغزو في العصر الذي تلا النزوح المينووي ، قد ميزت نفسها بعد ذلك إلى درجة تتناسب تناسباً وثيقاً مع المشقة النسبية للبيئة الطبيعية في مختلف المناطق التي تصادف واتخذوها موطناً .

ولم يكن آراميو[٢] نهري آبانا[٣] Abana وفاربار Pharpar نهري

(١) بوليبيس : الكتاب الرابع الفصل ٣٨ .

(٢) نسبة إلى آراميا Aramaea وهي كلمة معناها اللغوى الأراضي العالية ، ويقصد بها اصطلاحاً البلاد الواقعة شمال شرق فلسطين . وقد ضمت داخل حدودها : سوريا وبابل وما بين النهرين وكانت لغتها الآرامية وهي فرع من اللغات السامية . (المترجم)

(٣) آبانا أو آبانا نهر بدمشق ورد ذكره في التوراة ويدعى الآن بردى . (المترجم)

دمشق ، هم الذين أخذوا زمام القيادة فى النهوض بالمدنية السورية ؛ ولا أولئك الآرميون الآخرون الذين استقروا على نهر العاصى حيث أنشئت الأسرة السولوقية[1] Sellucidae الملكية الإغريقية بعد ذلك بوقت بعيد عاصمة لها فى أنطاكية ؛ ولا تلك القبائل الإسرائيلية التى توقفت شرق الأردن لتسمين العجول التى نهبوها من أرض باشان[2] فى مراعى جلعاد الرقيقة[3]. كما أنه جدير بالملاحظة فوق هذا كله ، أن صدارة العالم السورى لم تكن لأولئك المهاجرين من بحر إيجه الذين وفدوا إلى سوريا ، لا كبرابرة ، ولكن باعتبارهم ورثة الحضارة المينووية . فاستولوا على الموانى والسهول الواقعة جنوب الكرمل ، وهم الذين يدعون بالفلسطينيين . ولقد اكتسب اسم هذا الشعب[4] مدلولا لقى من الازدراء مثلما لقى اسم شعب بويثيا بين الإغريق . وحتى إن سلمنا بأن البويثيين والفلسطينيين قد لا يكونون بهذه الصورة الحالكة التى رُسمت لهم ، وإننا إنما ندين بجميع معلوماتنا تقريباً عن كلا الشعبين إلى خصومهما ؛ فإن ذلك يعنى على الأقل أن خصومهما قد تفوقوا عليهما وظفروا على حسابهما بتبجيل الأجيال التالية ؟

وتنسب للحضارة السورية ثلاثة أعمال فذة :

الأول : اختراع الحروف الهجائية .

الثانى : كشف المحيط الأطلسى .

---

(١) Sellucidae اسم يطلق على ملوك سوريا أبتداء من سلوقوس الأول الذى حكم من ٣١٢ – ٢٨٠ ق . م وهو ابن انتيوخوس الذى أطلق أسمه على مدينة انطاكية (المترجم)

(٢) باشان Bashan كانت مملكة يسيطر عليها الملوك الأموريون ومركزهم عشتاروت ولقد هزمتهم القبائل الإسرائيلية فى موقعة اذرعى Edrei عام ١٩٤٥ ق . م وقضوا على سكان تلك المملكة عن بكرة أبيهم ونهبوا ماشيتهم واستلكوا أراضيهم غصباً وقهراً (سفر التثنية الإصحاح الثالث . (المترجم)

(٣) جلعاد Gilead بقمة جبلية تقع شرق الأردن وجنوب نهر اليرموك . (المترجم)

(٤) استخدمت كلمة Philistine فى بداية القرن السابع عشر تعبيراً عن الاحتقار والازدراء . ثم استخدمت بعد ذلك تعبيراً عن ضآلة المكانة الاجتماعية والثقافية وذلك تحت تأثير حالة سكان فلسطين أيام التوراة وقبل أن يسكنها العرب . (المترجم)

الثالث : التوصل إلى فكرة خاصة عن الله مشتركة بين اليهودية والزرادشتية والمسيحية والإسلام ؛ لكنها فكرة غريبة عن كل من الفكرة الدينية المصرية والسومرية والسندية والهلينية .

فما هى من بين هذه الجماعات السورية التى قدمت هذه المآثر ؟

فبالنسبة للحروف الهجائية . لا علم لنا فى الواقع بمن ابتدعها ، وإن كان المتعارف عليه تقليدياً نسبتها إلى الفينيقيين . وقد يكون الفلسطينيون قد نقلوها فى صورة بدائية من العالم المينووى . ومن ثم فإنه بالنظر لحالة معلوماتنا الراهنة ، يجب أن يُترك مهد اختراع الحروف الهجائية بلا تعيين .

ولننتقل إلى الاثنتين الأخريين .

من هم أولئك البحارة السوريون الذين مخروا عباب البحر الأبيض المتوسط بطوله كله حتى أعمدة هرقل[1] ، واجتازوها إلى ما بعدها ؟

لم يكونوا الفلسطينيين رغماً عن دمائهم المينووية ، فإنهم قد أولوا البحر ظهورهم وحاربوا فى معركة خاسرة للاستحواذ على سهل يزرعيل[2] والشفلاة[3] ضد مقاتلين أشد منهم مراساً ، هم إسرائيليو تلال أفرايم ويهوذا . إن كاشفى المحيط الأطلسى هم فينيقيو صور وصيدا .

وهؤلاء الفينيقيون هم بقايا الكنعانيين ، الشعوب التى سكنت المنطقة قبل وصول الفلسطينيين والعبرانيين ، وهى حقيقة عبّرت عنها سلسلة النسب الواردة فى أحد الإصحاحات الأولى من سفر التكوين حيث نقرأ أن كنعان (ابن حام بن نوح) «ولد صيدون بكره»[4] . ولقد استطاع الفينيقيون

---

(١) جبل طارق .

(٢) سهل أسدرلون Esdrelon باليونانية أو سهل يزرعيل Jekréel بالعبرية (انظر سفر القضاه ٧ – ٢٢) ويدعى الآن مدرج بنى عامر . (المترجم)

(٣) Shephelah أو التلال الواطئة : السهل الساحلى لفلسطين من غزة إلى يافا (انظر سفر أخبار الأيام ص ٢٨ – ٢٨) (المترجم)

(٤) سفر التكوين (١٠ – ١٥) .

البقاء على قيد الحياة لأن بلادهم على طول القسم الأوسط من الساحل السورى لم تكن مغرية إلى الحد الذى يكفى لاجتذاب الغزاة إليها . وتعتبر فينيقيا التى نحاها الفلسطينيون جانباً ، نقيضاً واضحاً للشفلاة حيث استقر الفلسطينيون . ولا يوجد فى هذا القسم من الساحل ، سهل خصيب . وترتفع سلسلة جبال لبنان ارتفاعاً رأسياً من البحر ، إلى درجة لا تدع مكاناً لطريق أو لسكة حديدية . ولم تكن المدن الفينيقية تستطيع الاتصال بسهولة حتى بين بعضها البعض إلا بوساطة البحر ، وتجثم صور ، أعظمها شهرة — مثل عش السنورس — على جزيرة صخرية .

وهكذا بينما كان الفلسطينيون يرعون كأنهم أغنام فى حقل برسيم ، شرع الفينيقيون الذين انحصر أفقهم البحرى حتى ذلك الوقت فى الملاحة الساحلية قصيرة المدى بين بيبلوص[١] ومصر . فى الاقتداء بالمينوويين فى النزوع إلى عرض البحر الواسع . فأنشأوا وطناً ثانياً يعبّر عن منحاهم الخاص فى الحضارة السورية ؛ على السواحل الإفريقية والإسبانية فى غرب البحر الأبيض المتوسط . فكانت قرطاجنة ، المدينة العالمية لهذا الوطن الفينيقى عبر البحار ، تتفوق على الفلسطينيين حتى فى ميدانهم المفضل : الحرب البرية . إذ كان جالوت من جت[٢] ، وهو أشهر بطل حربى عند الفلسطينيين ، صورة ضئيلة إلى جانب الفينيقى هانيبال[٣] .

بيد أن الكشف المادى للمحيط كعمل من أعمال البطولة البشرية الفذة لا يرتقى إلى مقام الكشف الروحانى للوحدانية ، الذى كان من أعمال جماعة سورية تُركت وحدها فى محنتها فى فترة النزوح وسط بيئة طبيعية أقل إغراء حتى من الساحل الفينيقى . تلك هى أرض أفرايم ويهوذا الجبلية . ولقد ظلت

---

(١) بيبلوص مدينة فينيقية قديمة كانت مركز عبادة أدونيس وتدعى الآن جبيل . (المترجم)

(٢) سفر صموئيل الأول (١٧ — ٤) . (المترجم)

(٣) هانيبال : أى هبى بعل . (المترجم)

هذه الرقعة من الأرض الجبلية ذات الطبقة الرقيقة من التربة ، والتى تغطيها الغابات ، خالية إلى أن سكنتها طليعة البدو العبرانيين الذين قدموا من سهب شمال بلاد العرب وحطوا رحالهم فى أطراف سوريا أثناء القرن الرابع عشر قبل الميلاد وبعده ، إبان فترة الفراغ التى تلت انهيار الدولة الحديثة فى مصر . وهنا حوّلوا أنفسهم من بدو يربون الغنم ،إلى زراع يزرعون أرضاً حجرية ، وعاشوا مغمورين إلى أن جاوزت الحضارة السورية أوجها . بل وحتى فى تاريخ متأخر كالقرن الخامس ق . م أى بعد ما أدى الأنبياء الكبار رسالتهم فعلا ؛ كان اسم إسرائيل نفسه غير معروف عند هيرودوتس وكانت أرض إسرائيل — فى الصورة العامة التى رسمها هيرودوتس عن العالم السورى — ما تزال تحجبها أرض الفلسطينيين . وهو يتحدث فيما كتب عن أرض الفلسطينيين ، وقد ظل اسمها حتى اليوم « فلسطين » أو « بلستين » .

وتحدثنا رواية سورية كيف أن إله الإسرائيليين قد امتحن مرة أحد ملوك بنى إسرائيل بأعظم تجربة يسبر بها الله غور الإنسان :

تراءى الرب لسليمان فى حلم ليلا . وقال الله : اسأل ماذا أعطيك . . فقال سليمان : فاعط عبدك قلباً فهيماً . . فحسُن الكلام فى عينى الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياماً كثيرة ولا سألت لنفسك غنى . . ولا سألت أنفس أعدائك ، بل سألت لنفسك تمييزاً لتفهم الحكم ، هو ذا قد فعلت حسب كلامك ، هو ذا أعطيك قلباً حكيماً مميزاً ، حتى إنه لم يكن لمثالك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك وقد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله : غنى وكرامة حتى إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك[٨] .

إن أسطورة اختيار سليمان ، تمثل تاريخ الشعب المختار ، لأن العبرانيين بفضل قوة فهمهم الروحانى (قديماً) ، قد فاقوا ما قام به الفلسطينيون من

---

(١) سفر الملوك — الأول (٣ — ٥ إلى ١٢) ؛ الترجمة العربية . (المترجم)

مهارة حربية وما أتى به الفينيقيون من أعمال بحرية بارزة . إن سليمان لم يطلب تلك الأشياء التى تنشدها البلاد الأخرى ، لكنه طلب أولا ملكوت الله وهذه كلها حققها الله له ، أما عن أعدائه فقد أعانه الله عليهم[١] .

٦ — براند بورج وأرض الراين :

قد تبدو المسافة بين آتيكا وإسرائيل إلى براندبورج طويلة بعيدة وعلى انحدار كبير وعر ، لكن براندبورج تعرض — فى مستواها الخاص — مثالا لنفس القانون .

إذ قد يخيل إليك وأنت تسافر عبر ذلك البلد غير الأليف الذى كوّن فيما مضى الأملاك الأصلية لفردريك الأكبر وهى : براندبورج وبوميرانيا وبروسيا الشرقية بغابات صنوبرها الهزيلة وحقولها الرملية ، إنك تعبر ناحية قصية من السهب الأوراسى . وفى أى اتجاه تتجه إليه خارج هـــذه المنطقة سواء نحو المراعى وغابات الزان فى الدانمارك أو الأرض السوداء فى ليتوانيا ، أو كروم أرض الراين ، تجد بلدا أكثر يسرا وأحلى منظراً .

بيد أن أحفاد المستعمرين الذين استوطنوا هذه الأرض الرديئة — فى القرون الوسطى — قد لعبوا دورا فذا فى تاريخ مجتمعنا الغربى . وهذا لا يرجع فقط إلى أنهم حكموا ألمانيا فى القرن التاسع عشر وقادوا الألمان فى القرن العشرين فى محاولة مضنية لتزويد مجتمعنا[٢] بدولته العالمية . لكن البروسى قد لقن جبر أنه كذلك كيف يجعلون الرمل ينتج غلالا عن طريق زيادة خصوبته بالأسمدة الكيميائية ، وكيف يرفعون مستوى جميع سكان البلد إلى درجة من الكفاية الاجتماعية لم يسبق لها مثيل ، باستخدام نظام

---

(١) يذكرنا المؤلف هنا أن اليهود استطاعوا بفضل أساليبهم الحلول محل صور وقرطاجنة فى القيام بصفات تجارية على نطاق يفوق أحلام الفينيقيين وفى تارات أبعد من دائرة معرفتهم ، ثم يقرر بأن الشعب اليهودى لايزال على قيد الحياة رغم غرابة أطواره ورغما عن التقلبات التى مرت بها جميع الأمم . (المترجم)

(٢) أى المجتمع الغربى . (المترجم)

تعليم أجبارى . وإلى درجة من الضمان الاجتماعى لم يسبق لها مثيل ، باستخدام نظام تأمين إجبارى ضد المرض والبطالة .

إننا قد لا نحب البروسى ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد تلقينا منه دروساً كبيرة الأهمية والقيمة .

٧ ــ اسكتلندا وانجلترا :

لاحاجة بنا إلى مناقشة مسألة كون أرض اسكتلندا أصعب من أرض انجلترا ، ولن نحتاج إلى بيان الاختلاف المعروف بين مزاجى الاسكتلندى والإنجليزى التقليديين .

فالاسكتلندى التقليدى : رصين ومقتر ودقيق ومواظب وحذر وذو ضمير حى ومثقف . فى حين أن الإنجليزى التقليدى : طائش ومسرف وغامض ومتقلب ومهمل وطليق وسطحى فى قراءاته .

وقد يعتبر الإنجليز هذه المقارنة التقليدية نوعا من الدعابة ، والإنجليز يعتبرون معظم الأمور نوعا من الدعابة ، لكن الاسكتلنديين لا يعتبرونها كذلك . ولقد دأب جونسون[١] على إغاظة بوسويل[٢] Bosswell بدعابة يبدو أنه كثيراً ما كان يرددها ، ومدارها أن خير منظر يتطلع إليه الاسكتلندى فى حياته هو الطريق إلى انجلترا . وقبل أن يولد جونسون قال أحد الظرفاء فى عصر الملكة آن ، إنه لو كان قابيل اسكتلنديا لتغير عقاب الرب له . فعوضا عن حكمه عليه بأن يكون تائها فى الأرض لقضى عليه بالبقاء فى موطنه ، أى اسكتلندا . وإن الصورة الذهنية الشائعة وهى أن الاسكتلنديين قد قاموا فى إنشاء الإمبراطورية البريطانية وفى

(١) صموئيل جونسون : ناقد وكاتب إنجليزى (١٧٠٩ – ١٧٨٤) .
(المترجم)

(٢) رفيق جونسون (١٧٤٠ – ١٧٩٥) من أصل اسكتلندى وترجم لجونسون ترجمة شهيرة . (المترجم)

شغل المناصب الكبرى فى كل من الكنيسة والدولة بدور لا يتناسب مع عددهم ، لها ما يبررها بلا ريب . فإن النزاع البرلمانى التقليدى فى عصر الملكة فيكتوريا كان بين اسكتلندى قح ويهودى قح[1] ، وتبلغ حتى الآن نسبة الاسكتلنديين خلفاء جلادستون فى رآسة وزارة المملكة المتحدة ، النصف تقريبا[2] .

٨ ـ الكفاح فى سبيل أمريكا الشمالية :

إن الدليل التقليدى على صحة نظريتنا ، نجده فى مجتمعنا الغربى نفسه : ويتصل بنتيجة التنافس بين حفنة من جماعات المستعمرين المختلفة فى سبيل السيطرة على أمريكا الشمالية ، ففيه خرج مستعمرو إنجلترا الجديدة من هذا النضال ظافرين .

وقد سبق لنا أن بينا فى الفصل السابق الصعوبة غير الاعتيادية للبيئة المحلية التى كانت من نصيب من سادوا القارة فى النهاية . فلنقارن الآن بيئة نيو انجلند هذه ، التى يعتبر موقع تاون هيل فيها أنموذجاً صحيحاً لها ، بالبيئات الأمريكية الأولى التى كانت من نصيب مستعمرى المنافسين الفاشلين نيو انجلند ، وهم : الهولنديون والفرنسيون والأسبان ، بالإضافة إلى المستعمرين الإنجليز الآخرين الذين استقروا على طول القسم الجنوبى من شاطئ المحيط الأطلسى فى فرجينيا وحولها .

وربما كان يسيراً فى منتصف القرن السابع عشر ، التنبؤ بالصراع وقتما نجحت هذه الجماعات فى وضع قدمها للمرة الأولى على مشارف القارة الأمريكية فى سبيل الاستحواذ على القارة من الداخل . بيد أنه لم يكن

---

(١) أى بين جلادستون ودزرائيلى . (المترجم)

(٢) روزبرى وبالفور وكامبل بانرمان ومكدونلد . وتمكن إضافة بوتارلو وهو من عائلة اسكتلندية ايرلندية ولد فى كندا . لكنه ولد من أم اسكتلندية أصيلة واستوطن جلاسجو وهذا يجعل العدد خمسة وكان عدد رؤساء الوزارات غير الاسكتلنديين سبعة . (المؤلف)

لينتظر أن يصدّق النبوة أبعد المراقبين نظراً من الأحياء وقتئذ ، إن طلب إليه عام ١٦٥٠ التنبؤ باسم الفائز : ولقد يبلغ من الفطنة بحيث يستبعد الإسبانيين رغماً عن ميزتيهما الواضحتين : امتلاكهم المكسيك — المنطقة الوحيدة فى أمريكا الشمالية التى تمدينت بفضل حضارة سابقة ، والشهرة التى كانت ما تزال أسبانيا تحظى بها وقتئذ — وإن كانت لم تعد تستحقها — بين الدول الأوربية . إذ أنه قد يُسقط المكسيك من حسابه لبعد موقعها ، كما يُسقط نفوذ اسبانيا من حسابه بسبب انكساراتها فى الحرب الأوربية (حرب الثلاثين سنة) التى كانت قد انتهت فعلا قبل ذلك مباشرة . ولقد يقول : إن فرنسا ستخلف أسبانيا فى سيادتها الحربية فى أوربا كما ستخلفها هولندا وإنجلترا ؛ فى تفوقها البحرى والتجارى فى البحار .

ومن ثم تنحصر المنافسة على أمريكا الشمالية بين هولندا وفرنسا وانجلترا . ويبدو للنظرة القصيرة أن حظ هولندا أعظم من غيرها ، إذ تتفوق فى البحر على كل من إنجلترا وفرنسا ، وتستحوذ فى أميركا على مدخل مائى باهر إلى داخل القارة يتمثل فى وادى الهدسون .

بيد أن إمعان النظر يوحى إلى الذهن بأن فرنسا هى التى يقدّر لها الفوز . إذ تستحوذ على مدخل مائى خير من السابق هو نهر السانت لورانس ، كما أنها تستطيع إنهاك الهولنديين وشل حركتهم عن طريق استخدام قواتها العسكرية الساحقة فى أوربا ضد هولندا نفسها . وقد يضيف بالنسبة لكلتى الجماعتين البريطانيتين قوله : يمكننى استبعادهما عن ثقة ، إذ يحتمل أن يعيش المستعمرون الإنجليز فى الجنوب بفضل تربة منطقتهم ومناخها الطيبين نسبياً ، محصورين ومنقطعين عن الداخل بفعل ؛ إما الفرنسيين أو الهولنديين ، أيهما يفوز بوادى المسيسبى .

على أن ثمة شيئا مؤكداً وهو أن مجموعة المستعمرات الصغيرة الواقعة فى نيوانجلند القاحلة الباهتة ، مكتوب عليها الفناء . لأن وجود الهولنديين على ضفاف الهدسون يحول بينهم وبين الاتصال بأبناء جلدتهم ، بينما يضغط الفرنسيون عليهم من سان لورنس .

ولنفترض أن مراقبنا الخيالى على قيد الحياة ليشاهد نهاية القرن . فى عام ١٧٠١ نجده يهنئ نفسه لأنه قدّر احتمال فوز الفرنسيين دون الهولنديين ؛ إذ كان هؤلاء قد تنازلوا عن الهدسون عن طواعية لمنافسيهم الإنجليز عام ١٦٦٤ . واندفع الفرنسيون فى هذه الأثناء صاعدين مجرى السان لورنس إلى البحيرات العظمى ، ومجتازين جزءه غير الصالح للملاحة إلى حوض المسيسبي . كما تتبع « لاسال » النهر إلى أسفله حتى مصبه ، وهناك أنشئت مستعمرة فرنسية جديدة ، لويزيانا وميناؤها نيو أورليانز الذى كان يبدو بجلاء أنه سيكون له مستقبل باهر .

أما بالنسبة للمقارنة بين فرنسا وإنجلترا ، فلم يكن مراقبنا ليجد ثمة داعيا لتعديل تنبوئه . فإن سكان نيو انجلند ربما قد أنقذهم من الفناء ، استيلاؤهم على نيويورك ، ولكن ليشاركوا فقط أقرباءهم الجنوبيين نفس المصير المتواضع . وبالأحرى بدا كما لو أن مستقبل القارة قد تقرر فعلا وأن الفوز من نصيب الفرنسيين .

هل نخلع على مراقبنا حياة أطول من حياة البشر ، ليتأتى له استعراض الموقف مرة أخرى فى عام ١٨٠٣ ؟ .

سيضطر إن أتيح له البقاء على قيد الحياة إلى ذلك التاريخ ، إلى الاعتراف بأن حدّة فطنته لا تعادل طول أجله . لأنه ما إن حل آخر عام ١٨٠٣ ، حتى اختفى العلم الفرنسى من الخريطة السياسية لأمريكا الشمالية كلية . إذ كانت كندا قد أصبحت ملكا للتاج البريطانى قبل ذلك بأربعين سنة ، بينما أن لويزيانا ، بعد أن تنازلت عنها فرنسا لأسبانيا ، أعيدت إليها ثانية ليبيعها نابليون إلى الولايات المتحدة قبل ذلك التاريخ مباشرة . وهى الدولة الكبرى الجديدة التى انبثقت من المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة .

وهكذا أصبحت القارة فى سنة ١٨٠٣ هذه ، فى حوزة الولايات المتحدة ، وتقلص مجال النبوءة . ولم يبق سوى التنبؤ عن أى قسم من الولايات المتحدة يقدّر له الاستحواذ على النصيب الأوفى من هذا الملك الفسيح :

وبالتأكيد يبدو أنه لا يمكن وقوع خطأ فى هذه المرة . فإن الولايات الجنوبية هى سيدة الاتحاد الظاهرة . فانظر . ألم تكن فى المقدمة فى الجولة الأخيرة من صراع التسابق بين الأمريكيين للظفر بالغرب ؟ كما أن رجال غابات فرجينيا البعيدة ؛ هم الذين انشأوا كنتكى ، أول ولاية جديدة تُنشأ غرب سلاسل الجبال التى تآمرت مع الفرنسيين للحيلولة بين المستوطنين الإنجليز والنفوذ إلى الداخل . وتقع كنتكى على طول ضفاف نهر أوهيو الذى يقود إلى المسيسبى . وفى غمار ذلك ، كانت مصانع القطن الجديدة فى لانكاشير تهيئ لهؤلاء الجنوبيين سوقا تتسع باستمرار لتصريف محصولهم القطنى الذى تساعدهم أرضهم ومناخهم على زراعته .

ولقد يلاحظ الأمريكى الجنوبى عام ١٨٠٧ « أن ابن عمنا الشمالى Yankee قد اخترع أخيرا مركبا بخاريا يستطيع الملاحة فى مجرى نهرنا المسيسبى نحو منبعه ، وآلة لتمشيط قطننا وتنظيفه ، إن أفكار الأمريكيين الشماليين تحقق لنا ربحا أعظم مما تحققه للمخترعين الأصليين » .

ولو سلم متنبئنا المعمّر السيئ الحظ بمصائر الجنوبيين وفقاً لما كانوا يقدّرونه لأنفسهم فى ذلك الوقت وإلى زمن متأخر عن ذلك التاريخ ، لتبين بلا ريب أنه يخرّف . ذلك لأن الجنوبى قدّر له فى هذه الجولة النهائية من الصراع ، أن يواجه هزيمة سريعة وساحقة مثل تلك التى حلت بالهولنديين والفرنسيين من قبل .

ففى سنة ١٨٦٥ ، تغير الموقف تغيراً لم يكن متوقعاً على الإطلاق ، عما كان متواضعاً عليه عام ١٨٠٧ . إذ استطاع الشمالى أن يبزّ خصمه المزارع الجنوبى ويهزمه ، فى معركة الفوز بالغرب . لأنه بعد أن كاد الجنوبى يوفّق إلى شق طريقه إلى البحيرات الكبرى عبر انديانا وحصل على الجزء الأكبر من الميسورى عام ١٨٢١ ، هزم هزيمة حاسمة فى كانساس (١٨٥٤ — ١٨٦٠) ، ولم يصل قط إلى المحيط الهادى . وكان سكان

نيوإنجلند قد أصبحوا فى ذلك الوقت سادة ساحل المحيط الهادى كله من سيتل Seattle حتى لوس انجلوس . ولقد اعتمد الجنوبى على مراكبه البخارية فى المسيسبى لاجتذاب جميع الغرب إلى نظام للعلاقات السياسية ، والاقتصادية من وضع الجنوب . لكن « أفكار الأمريكيين الشماليين » لم تتوقف . فإن قاطرة السكة الحديدية قد جاءت بعد المركب البخارى وسلبت الجنوبى أكثر مما منحته إياه السفينة البخارية . لأن الأهمية الكامنة فى وادى الهدسون ونيويورك – باعتبارهما المدخل من الأطلسى إلى الغرب – أصبحت أخيراً حقيقة واقعة فى عصر السكك الحديدية . لأن حركة السكك الحديدية من شيكاغو إلى نيويورك ، تفوق الحركة النهرية من سان لويس إلى نيوأورليانز . فكان أن حولت خطوط المواصلات داخل القارة من الاتجاه الرأسى إلى الأفقى . ومن ثم انتزع الشمال الغربى من الجنوب ولحم بالشمال الشرقى ، مصلحة وعاطفة .

حقا أن الأمريكى الشرقى[1] الذى أهدى إلى الأمريكى الجنوبى[2] ذات مرة السفينة النهرية البخارية وآلة حلج القطن ، قد فاز الآن بقلب الأمريكى الشمالى الغربى بعطية مزدوجة : إذ جاءه بالقاطرة البخارية فى يد ، وبآلة الحصاد والجمع فى الأخرى . أى أنه قد زوّده بحلول لمشكلتيه كليهما : المواصلات واليد العاملة . وبفضل هاتين الفكرتين من أفكار الأمريكى الشمالى ، تقرر ولاء الشمالى الغربى . وخسر الجنوبى – من ثم – الحرب الداخلية قبل أن تُنشب . وإذ حمل الجنوب السلاح آملا فى استعادة خسائره الاقتصادية بضربة عسكرية مضادة ؛ إنما كان يتمم فعلا انكساراً ، كان لا مناص من وقوعه .

ونستطيع أن نذكر أن جميع جماعات المستعمرين المختلفة فى أمريكا

---

(١) يقصد المستوطن فى الجانب الشرقى من الولايات المتحدة . (المترجم)

(٢) يقصد المستوطن فى الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة . (المترجم)

الشمالية كان عليها مجابهة تحديات شديدة صادرة من بيئاتها . فكان على الفرنسيين أن يواجهوا فى كندا فصول شتاء تكاد تكون قطبية ، وأن يواجهوا فى لويزيانا تقلبات نهر يكاد يقارب فى غدره وتدميره ، النهر الأصفر فى الصين الذى بحثنا أمره أثناء المقارنات الأولى من هذه السلسلة . ومن العسير إنكار أن الموطن الأصلى الذى احتله سكان نيوإنجلند فى البداية ، كان أشق البلاد كلها .

وصفوة القول ، يُثبت تاريخ أمريكا الشمالية صحة النظرية القائلة ؛ بأنه كلما عظمت المشقة ، كبر الحافز .

(٢) حافز الاستيطان فى أرض جديدة

يكفى هذا القدر من المقارنات بين الآثار الحافزة لكل من البيئات الطبيعية التى تختلف درجات المشقة فيها . فلنواجه الآن نفس الموضوع من زاوية مختلفة ، بمقارنة الآثار الحافزة لكل من الأرض القديمة والأرض الجديدة ، مع صرف النظر عن طبيعة الأرض فى حد ذاتها .

هل يترتب على كشف أرض جديدة فى حد ذاته أى أثر حافز ؟

جاء الرد على هذ االسؤال بالإيجاب فى أسطورة الطرد من جنة عدن وفى أسطورة الخروج من مصر . فإن آدم وحواء بخروجهما من الجنة الساحرة إلى دنيا العمل اليومى ؛ قد جاوزا اقتصاد الإنسان البدائى القائم على جمع الطعام ، وأنجبا مؤسسى حضارة زراعية وأخرى رعوية[1]. وإن بنى إسرائيل بخروجهم من مصر قد أنجبو جيلا عاون فى إرساء قواعد الحضارة السورية .

فإذا تحولنا من الأساطير إلى تاريخ الأديان ، ألفينا ما يؤكد هذه

(١) تتمثل الزراعية فى قابيل والرعوية فى هابيل ، وفقاً لآراء المؤلف السابق ذكرها . (المترجم)

التخمينات ، إذ نجد مثلا – وهذا ما يذهل السائلين – « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح[١] ؟ » أن مسيح اليهودية قد انطلق فعلا من هذه القرية المتواضعة فى « جليل الأمم[٢] » . وهى قطعة نائية من الأرض الجديدة ، ضمها المكابيون لليهودية قبل تاريخ ولادة يسوع بأقل من قرن . ولما استفحل نمو « حبة الخردل[٣] » الجليلية هذه التى لا تقهر ؛ وانقلب ذهول اليهودية إلى عداوة صريحة فعالة – وذلك ليس فى أرض يهوذا فحسب بل أيضاً بين المستعمرات اليهودية فى العالم – تحول ناشرو العقيدة الجديدة إلى الأمم ، شارعين عن عمد فى غزو أمم جديدة للمسيحية ، فى أرض أبعد كثيراً من أقصى حدود مملكة المكابيين .

ونفس القصة نجدها فى تاريخ البوذية . إذ لم تنل تلك العقيدة السندية انتصاراتها الحاسمة على أرض العالم السندى القديمة . فإن بوذية هينايانا وجدت فى البداية الطريق أمامها مفتوحاً فى سيلان ، التى كانت مستعمرة ملحقة بالحضارة السندية . وشرعت بوذية مهايانا فى رحلتها الطويلة غير المباشرة نحو مقرها المقبل فى الشرق الأقصى ؛ بفضل الاستيلاء على ولاية البنجاب السندية المتأثرة بالثقافتين السورية والهلينية .

وقد آتت أسمى التعبيرات لكل من العبقريتين الدينيتين السورية والهندية ثمارها فى الأرض الجديدة التى تنتمى إلى هذه البلاد الغريبة ، كشاهد صدق على صحة القول بأن لا كرامة لنبي فى وطنه ولا فى بيته .

وثمة اختبار تجريبي مناسب لهذا القانون الاجتماعى ، تقدمه لنا تلك الحضارات من الطبقة « المنتسبة » التى نشأ بعضها على أرض كانت تشغلها فعلا الحضارة السابقة المتصلة بها ، ونشأ البعض الآخر على أرض استولت عليها

---

(١) إنجيل يوحنا (١ – ٤٦) . (المترجم)

(٢) « جليل الامم » انجيل متى (٤ – ١٥) (المترجم)

« جليل » باللغة العبرية يعنى مركز أو مقر . (المترجم)

(٣) إنجيل متى (١٣ – ٣١) . (المترجم)

الحضارة المنتسبة لحسابها الخاص . فإن فى مكنتنا دراسة الآثار الحافزة لكل من الأرض القديمة والجديدة – كل منهما فيما يخصها – بوساطة معاينة مجريات تاريخ أية واحدة من هذه الحضارات « المنتسبة » مع ملاحظة النقطة أو النقط الواقعة فى نطاق مقرها ؛ والتى عندها تكون قد تميزت مآثرها فى أى ميدان . ثم التحقق مما إذا كانت الأرض التى فيها مثل هذه النقط ، قديمة أو جديدة .

فإن أخذنا الحضارة الهندية أولا ، علينا أن نميّز المصادر المحلية لعوامل الإبداع الجديدة فى الحياة الهندية ، سيما ما كان متعلقاً منها بالدين ؛ الذى ما برح دائماً فى المجتمع الهندى ، محور النشاط وأسمى ميادينه .

تطالعنا هذه المصادر من الجنوب ، وفيه اتخذت كافة مظاهر الهندوسية المميزة طابعها الخاص : عبادة الآلهة التى تمثلها أجسام أو صور منظورة تقيم فى معابد ، والصلة الشخصية العاطفية بين العابد والمعبود الذى كرّس العابد نفسه لعبادته ، والتسامى الروحى بعبادة الصور الانفعالية وتحويلهما إلى لاهوت يتسم بالتعقيد الفكرى[1] .

فهل كان جنوب الهند أرضاً قديمة أو جديدة ؟

كانت أرضاً جديدة فإنها لم تكن قد ألحقت بمنطقة نفوذ المجتمع السندى المبكر عنها ، إلا فى المرحلة الأخيرة لوجود ذلك المجتمع فى عهد الإمبراطورية الموريانية التى كانت « الدولة العالميـــة » لذلك المجتمع (جوالى ٣٢٣ – ١٨٥ ق . م) .

أنجب المجتمع السورى مجتمعين ربيبين : العربى والإيرانى . وقد أثبت ثانيهما – كما سبق أن ذكرنا – أنه أكثر توفيقاً ، إذ ابتلع شقيقه فى النهاية[2] .

---

(١) مؤسس اللاهوت الهندى هو سانكرا Sankara الذى ولد حوالى عام ٧٨٨ ميلادية فى مالابار . (المؤلف)

(٢) يقصد الأستاذ توينبى بكلمة « الابتلاع » استيلاء الدولة العثمانية على البلاد العربية فى القرن السادس عشر ولكن هذا الابتلاع لم يتعد النفوذ السياسى ، إذ بقى المجتمع العربى محتفظاً بمقوماته الثقافية إلى أن نهض خلال القرن التاسع عشر وسار فى طريقه نحو التحرر . (المترجم)

ففى أى من المناطق ازدهرت الحضارة الإيرانية بشكل ظاهر ؟

لقد تمت كافة أعمالها العظيمة تقريباً سـواء فى الحرب أو السياسة أو الهندسة المعمارية أو الآداب فى طرفى المجتمع الإيرانى القصيين : هندستان والأناضول . إذ بلغت هذه الحضارة ذروتها فى إمبراطورية المغول فى الهند ، والإمبراطورية العثمانية فى الأناضول . وتم ذلك فى أرض جديدة، خارج نطاق الحضارة السورية السابقة . وهى أرض انتزعت من المجتمع الهندى فى الحالة الأولى ، ومن المجتمع المسيحى الأرثوذكسى فى الحالة الثانية . فبالنسبة لتلك الأعمال الفذة ؛ كان تاريخ الحضارة الإيرانية فى المناطق المركزية لهذه الحضارة — فى إيران نفسها مثلا — وهى الأرض القديمة التى اقتطعتها لنفسها من الحضارة السورية ، خلوا من أى شىء يستحق الذكر .

وفى أى المناطق أظهرت الحضارة المسيحية الأرثوذكسية غاية عنفوانها ؟

تُبدى اللمحة العابرة على تاريخها أن مركز ثقلها الاجتماعى وقع فى مناطق تختلف حسب اختلاف الزمن . فإبان المرحلة الأولى عقب انبعاث تلك الحضارة من فترة الفراغ التى تلت الدولة الهلينية ، كانت حياة المسيحية الأرثوذكسية فى أعنف قوتها فى الأجزاء الوسطى والشمالية الشرقية من هضبة الأناضول . ثم كان أن تحوّل مركز الثقل — منذ منتصف القرن التاسع وما بعده — من الجانب الأوربى من المضيقين . وأما الجزء الأصلى للمجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، فقد ظل فى شبه جزيرة البلقان منذ ذلك الحين .
أما عن فرع المسيحية الأرثوذكسية القوى فى روسيا ، فإنه فى الأزمنة الحديثة قد فاق إلى أبعـد حد من الناحية التاريخية — الجزء الأصلى لذلك المجتمع .

هل تعتبر هذه المناطق الثلاث أرضاً قديمة أو جديدة ؟

أما من جهة روسيا ، فإن السؤال يكاد لا يحتاج إلى رد .

أما عن المنطقة الوسطى والشمالية الشرقية من الأناضول ، فلا ريب أنها كانت أرضاً حديثة بالنسبة للمجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، وإن كانت قبل ذلك بألفى سنة مضت ، موطن الحضارة الحيثية . وقد تأخر تحول هذه المنطقه إلى الهلينية وظل دائماً متعثراً ناقصاً ، وتمت أول مساهمة لها فى الثقافة الهلينية — ولعلها الوحيدة — إبان المرحلة الأخيرة من فترة حياة المجتمع الهلينى بوساطة آباء الكنيسة الكبادوقيين[١] خلال القرن الرابع من العصر المسيحى .

أما عن مركز الثقل الباقى للمجتمع المسيحى الأرثوذكسى — أى داخل شبه جزيرة البلقان — فقد كان كذلك أرضاً جديدة . لأن طلاء الحضارة الهلينية المُذاب فى محلول لاتينى والذى طُليت به هذه المنطقة طلاء خفيفاً فى غضون حياة الإمبراطورية الرومانية ، قد أُزيل خلال فترة الفراغ التى تلت انهيار هذه الإمبراطورية من غير أن تترك أثراً . وكان التدمير هنا ، أكثر شمولا منه فى أية مقاطعة غربية فى الإمبراطورية ، عدا بريطانيا .

ولم يقتصر الأمر على غزو البرابرة الوثنيين للأقاليم المسيحية الرومانية ، بل إنهم أفنوها فناء تاماً . واقتلعوا جميع أسباب الثقافة المحلية اقتلاعاً بلغ من قوته ، أن ذريتهم عندما رغبت فى إظهار الندم عن خطيئة آبائهم ؛ اضطرت بعد انقضاء ثلاثة قرون ، إلى أن تحصل على بذور جديدة من الخارج لاستنباتها من جديد .

وبذا ظلت الأرض بوراً ؛ لمدة تبلغ ضعف المدة التى ظلت خلالها أرض بريطانيا بوراً قبل بعثة أغسطينوس[٢] إليها . أى أن المنطقة التى أقامت فيها الحضارة المسيحية الأرثوذكسية مركز ثقلها الثانى ، كانت أرضاً أعيد استصلاحها من الفلاة فى وقت حديث جداً .

وصفوة القول كانت جميع المناطق الثلاث التى برز فيها المجتمع المسيحى

---

(١) Cappodocia كبادوقيه مقاطعة فى آسيا الصغرى . (المترجم)

(٢) أوفد البابا جريجورى الكبير القديس أغسطين للتبشير بالنصرانية فى بريطانيا وإلى هذا القديس ينسب كرسى كانتربرى . (المترجم)

الأرثوذكسى بصفة خاصة ، أرضاً جديدة . ويجدر بالذكر أن اليونان نفسها – وهى بؤرة إشعاع الحضارة السالفة – قد قامت على وجه الإجمال فى تاريخ المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، بدور لا يُعتدّ به . إلى أن أصبحت فى القرن الثانى عشر من العصر المسيحى ، المدخل الذى تدفق منه النفوذ الغربى إلى العالم المسيحى الأرثوذكسى .

فإذا ولينا وجهنا شطر التاريخ الهلينى لنتساءل نفس السؤال بالنسبة للمنطقتين اللتين حظيتا على التوالى بزمام القيادة خلال تاريخ المجتمع الهلينى المبكر وهما : الساحل الأسيوى من بحر إيجه وشبه جزيرة اليونان الأوربية ؛ فهل كانت الأرض التى ازدهرتا عليها من ناحية الحضارة المينووية السالفة ، أرضاً جديدة أم قديمة ؟

كانت الأرض هنا أرضاً جديدة كذلك . إذ لم تحتفظ الحضارة المينووية ، فى شبه جزيرة اليونان الأوربية – حتى عندما بلغت رُقعتها أقصى اتساعها – إلا بسلسلة من المواقع المحصنة على ساحلها الجنوبى والشرق . أما على الساحل الأناضولى ، فإن فشل علمائنا الأثريين المُحدثين فى العثور على آثار تكشف عن وجود الحضارة المينووية أو حتى مجرد التأثر بها ؛ له دلالة تصعب نسبتها إلى مجرد الصدفة . بل يبدو أن ذلك يدل ؛ على أنه لسبب ما ، خرج هذا الشاطئ عن نطاق الحضارة المينووية . وعلى العكس قامت جزائر « سيكليديس »[1] التى كانت أحد مراكز الثقافة المينووية ، بدور ثانوى فى التاريخ الهلينى ؛ لم يزد عن تأديتها دور الخدم الأذلاء لسادة البحر المتعاقبين : بل إن الدور الذى أدته كريت نفسها فى التاريخ الهلينى – وكانت كريت أقدم مراكز الحضارة المينووية وأعظمها دائماً – أكثر فى قصورها إثارة للعجب .

---

(١) Cyclades جزائر يونانية . (المترجم)

ولقد كان يتوقع أن تحافظ كريت على أهميتها لا لأسباب تاريخية فحسب – باعتبارها المكان الذى بلغت فيه الثقافة المينووية ذروتها – ولكن لعوامل جغرافية كذلك . فقدكانت كريت ، بين جزر الأرخبيل الإيجى ، أضخمها بمراحل . وتعترض طريقين من أهم الطرق البحرية فى العالم الهلينى . إذ كان على كل سفينة تبحر من بيريه إلى صقلية ، أن تمر بين طرف كريت الغربى ولاكونيا ، وعلى كل سفينة تبحر من بيريه إلى مصر ، أن تمر بين طرف كريت الشرقى ورودس . ومع ذلك بينما قامت كل من لاكونيا ورودس بدور رئيسى فى التاريخ الهلينى ، ظلت كريت بمعزل عنه ، مغمورة يحفها الظلام من أوله إلى آخره . وبينما كانت هيلاس بأجمعها تُنجب السياسين والفنانين والفلاسفة ، لم تُنجب كريت شيئاً ذا صيت سوى مشعوذين وجنود مرتزقة وقرصان . وأصبح لصفة كريتى فى الأيام الأخيرة فى اللغة الهلينية ، معنى مماثل لمعنى صفة بوئيْ . وفى الواقع فإن الشاعر الكريتى قد حكم عن نفسه عندما ألف بيت الشعر السداسى الوزن الذى أشير إليه فى كتاب المسحيين المقدس فى العبارة الآتية :

قال واحد منهم ، وهو نبى لهم خاص ، الكريتيون دائماً كذابون . وحوش رديئة ، بطون بطالة[١] .

وأخيراً ، لنطبق نفس الاختبار على مجتمع الشرق الشرق الأقصى الذى ينتسب إليه المجتمع الصينى .

فى أى مواضع نطاقه أظهر مجتمع الشرق الأقصى ، أشد قوته ؟

لا شبهة فى أن اليابانين والكانتونيين[٢] يعتبرون اليوم أقوى ممثلى ذلك المجتمع . وكلا الشعبين قد ظهرا فى أرض جديدة – بالنسبة لتاريخ الشرق

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى تيطس (١ – ١٢) ويقال إن الشاعر المشار إليه هو ابيمونيدس Epimonides . (المترجم)

(٢) سكان كانتون بجنوب الصين . (المترجم)

الأقصى . إذ لم يندمج شاطئ الصين الجنوبى الشرقى فى نطاق المجتمع الصينى الأصيل ، إلا فى طور متأخر من التاريخ الصينى . بل ولم يدمج وقتئذ إلا على المستوى السياسى السطحى ، وباعتباره ولاية على حدود إمبراطورية هان ؛ وبقى سكانه همجا . أما عن الأرخبيل اليابانى فإن فرع حضارة الشرق الأقصى الذى ازدرع[١] فيه عن طريق كوريا إبان القرنين السادس والسابع من العصر المسيحى ، قد انتشر فيه ، فى أرض لم يوجد فيها أثر لأية ثقافة سابقة . وتمكن مقارنة النمو القوى لهذا الفرع من حضارة الشرق الأقصى على تربة اليابان البكر ، بنمو فرع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ، الذى نقل من الهضبة الأناضولية ، إلى تربة روسيا البكر .

فإن صح كما يبدو من أدلتنا أن الأرض الجديدة تهيئ حافزاً أعظم للعمل مما تهيؤه الأرض القديمة ؛ يتوقع المرء أن يعثر على مثل هذا الحافز بارزاً بصفة خاصة ، فى الحالات التى تنفصل فيها الأرض الجديدة عن القديمة برحلة بحرية .

ويبدو هذا الحافز الخاص — الناشئ عن الاستعمار عبر البحار — بجلاء فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد (١٠٠٠ — ٥٠٠ ق . م) ؛ وقتما تنافس على استعمار حوضه الغربى ، الرواد البحريون لثلاث حضارات مختلفة من حضارات الشرق الأدنى . إذ يتضح هذا الحافز — مثلا — من الدرجة التى فاقت بها كل من قرطاجنة السورية وسيراكوز الهلينية (وهما أعظم قاعدتين من هذه القواعد الاستعمارية) ، أمتيهما ؛ أى مدينتى صور وكورنث على التوالى . وكذلك ، فإنه بينما أصبحت المستعمرات الآخية فى اليونان الكبرى Mangna Oreacia (جنوب إيطاليا وصقلية) أسواقاً رائجة للتجارة ومراكز لامعة للفكر ؛ ظلت المجتمعات الآخية الأصلية على طول الساحل الشمالى للبلوبونيز راكدة ،

---

(١) ازدرع أى نقل نباتاً من مكان لآخر . (المترجم)

إلى ما بعد تجاوز الحضارة الهلينية ذروتها ، وبدئها فى الأفول . وبالمثل فاق اللوكريون[١] الذين استوطنوا ابزيفير Epizephyr بإيطاليا ، اللوكريين الذين لبثوا فى اليونان بمراحل .

وأعظم الأمثلة التى تواجهنا ، هو مثل الأتروريين[٢] . وهم الفريق الثالث الذى نافس الفينيقيين واليونانيين فى استعمار غرب البحر الأبيض المتوسط . وعلى خلاف اليونانيين والفينيقيين ، لم يكتف الأتروريون الذين يمموا غربا ، بالبقاء بالقرب من البحر الذى قدموا عن طريقه ، بل اندفعوا إلى الداخل من ساحل إيطاليا الغربى عبر جبال الابنين ونهر البو حتى سفح جبال الألب . على أن الأتروريين الذين لبثوا فى ديارهم ، ظلوا فى ظلام دامس لا نظير له . فلم يرد لهم فى التاريخ ذكر ، بل ولم يُخلّفوا أى أثر يعين موطنهم تعيينا دقيقا . وإن ذكرت السجلات المصرية ؛ أن الأتروريين الأصليين قد اشتركوا مع الآخيين إبان الهجرات التى أعقبت انهيار الحضارة المينووية . واتخذوا قاعدة لعملياتهم مكانا ما على الساحل الأسيوى للشرق الأدنى .

ولعل الحافز الناشئ عن عبور البحر ، أعظم العوامل جميعها التى تنتج هجرة بحرية فى سياق فترة هجرات . بيد أنه يبدو أن مثل هذه الأحداث غير شائعة ، فإن الأمثلة الوحيدة التى يستطيع كاتب هذه الدراسة تذكرها هى هجرات ست لا أكثر :

---

(١) الوكريون Locri قبيلتان فى اليونان القديمة نزحت إحداها إلى إيطاليا وكونت مستعمرة Epizephyru . (المترجم)

(٢) سكان مقاطعة Eturia الواقعة جنوب نهر التيبر بإيطاليا . وكانت تضم وادى نهر البو . وقد تكوّن فى المقاطعة اتحاد ضم اثنتى عشرة مدينة . وبدأ تاريخهم عام ١٠٤٤ ق . م فهم والحالة هذه أقدم من الرومانيين . وللأتروريين حضارتهم الخاصة التى مابرحت رموزها تستعصى على العلماء . وكانت اتروريا إمبراطورية وقتا كانت روما مجرد مدينة لا يؤبه لها . (المترجم)

١ ــ هجرة التيوكريين Teucrians[1] والايوليين Aeolians والايونيين Ionians والدوريين Dorians ؛ عبر بحر إيجه إلى ساحل الأناضول الغربي .

٢ ــ هجرة التيوكريين والفلسطينيين إلى ساحل سوريا . وقد تمت هاتان الهجرتان خلال فترة الهجرات التي تلت سقوط الحضارة المينووية .

٣ ــ هجرة الإنجليز والجوت إلى بريطانيا خلال فترة الهجرات التي تلت سقوط الحضارة الهلينية .

٤ ــ هجرة البريطانيين اللاحقة عبر بحر المانش إلى المنطقة التي أصبحت تعرف بعد ذلك بولاية بريتاني[2] .

٥ ــ هجرة الإيرلنديين الاسكتلنديين إلى آرجيل المعاصرة لهجرة البريطانيين السالفة الذكر .

٦ ــ هجرة الفايكنج الاسكندنافيين خلال فترة الهجرات التي تلت محاولة الكارولنجيين[3] الفاشلة في سبيل بعث الإمبراطورية الرومانية من جديد .

ولقد أثبتت الهجرة الفلسطينية من بين تلك الهجرات الست ، عقمها نسبيا ، في ظل ظروف سبق بيانها .

---

(١) التيوكريون : نسبة إلى Teutria الاسم الذي أطلقه الشعراء القدماء على مدينة طرواده اشتقاقاً من اسم Teucer : أحد ملوك طروادة القدماء . (المترجم)

الأيوليون : نسبة : لـ Aeolis : ، قطر في الشمال الغربي من آسيا الصغرى .

الأيونيون : نسبة الى مقاطعة إيونيا Ionie على الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى . وقد استمدت اسمها من شعب يوناني قديم يدعى الأيونيين هاجر من اليونان إلى آسيا الصغرى . حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد . (المترجم)

الدوريون : نسبة إلى Dores وهى منطقة صغيرة في الجزء الأوسط من شبه جزيرة اليونان القديمة وهى مهد الشعب الهليني القديم الذى غزا اليونان خلال القرن الثاني عشر ق . م (المترجم)

(٢) ولاية بشمال فرنسا . (المترجم)

(٣) أسرة ملكية فرنسية دعيت باسم أعظم ملوكها شارلمان الذى خلف أباه شارل مارتل عام ٧٦٨ ميلادية . (المترجم)

كما جاء تاريخ البريطانيين خلواً من أى شيء يتميز به . أما الهجرات البحرية الأربع الأخر فإنها تتضمن طائفة من الظواهر التى تستلفت النظر ولا يوجد لها مثيل فى حالات الهجرة البرية الكثيرة العدد .

وتجمع هـــذه الهجرات البحرية حقيقة مفردة مجردة ، مدارها ضرورة حـــل الأنظمة الاجتماعية للمهاجرين وأجهزتهم ، فوق ظهر السفينة قبل مغادرة شواطئ البلد القديم ، ثم تفريغه من جديد فى نهاية الرحلة . وتخضع لهذا القانون جميع أنواع الأجهزة والأنظمة من أشخاص ومتاع وأساليب فنية ونظم وأفكار ، ويترك الشيء الذى يعجز عن احتمال رحلة البحر . وكل الأشياء — وليست كلها أشياء مادية — التى يأخذها المهاجرون معهم ، يجب فكها قطعا قطعا . وقد لايعاد تركيبها مرة أخرى فى صورتها الأصلية . وعندما يخرجونها من أغلفتها قد يجدون أنها عانت تغيرا أحدثه البحر ، وتحولت إلى شيء غزير غريب[١] .

وإذا حدثت هذه الهجرة البحرية خلال فترة هجرات ، كان التحدى أكثر هولا والحافز أكثر شدة . ويرد ذلك إلى أن المجتمع الذى يستجيب إلى التحدى ، ليس مجتمعا تقدميا من الناحية الاجتماعية (مثل المستعمرين اليونانيين والفينيقيين الذين عرضنا لهم آنفا) ؛ ولكنه مجتمع ما يزال متردیا فى تلك الحالة الراكدة التى هى الطور الأخير للإنسان البدائى . وللانتقال الذى يحدث أثناء فترة هجرات، من هذه السلبية إلى الشدة المفاجئة العاتية ، أثر دافع فى حياة أية جماعة . إلا أن هذا الأثر يكون طبعا أشد إن استخدم المهاجرون فى رحلتهم سفينة ؛ مما لو سافروا برا على أرض صلبة ، حاملين معهم الكثير من جهازهم الاجتماعى ، الذى لا مناص للمسافر بالبحر من طرحه جانبا :

---

(١) هذه العبارة مأخوذة عن شكسبير فى تمثيلية العاصفة The Tempest الفصل الأول ، المشهد الثانى . (المترجم)

« إن هذا التغيّر فى وجهة النظر (بعد الرحلة بحراً) قد قاد إلى ظهور فكرة جديدة عن الآلهة والبشر . فقامت مقام الآلهة المحليين الذين لا يتعدى سلطانهم حدود إقليم عبّادهم ، هيئة متحدة من الآلهة تسيطر على العالم . ورُفع المكان المقدس – مع داره الملونة – الذى كان يشغل مركز الساحة الوسطى[١] ، رفع إلى موقع مرتفع وأصبح قصراً للآلهة . ومن الأساطير التى لها قداسة القدم والتى كانت تروى مآثر آلهة مستقلة عن بعضها البعض ، نسجت ميثولوجيا شعرية ، أو ما يدعى الساجة الإلهية[٢] متبعين فى ذلك نفس الخطوط التى اتبعها جنس آخر من الفايكنج ظهر قبلهم وهم الإغريق الهومريون . ولقد بعث دين الفايكنج إلى الوجود إلها جديداً هو أودين Odin قائد البشر وسيد ميادين القتال »[٣] .

ومهّدت هجرة الكلت الاسكتلنديين البحرية من إيرلندا إلى شمال بريطانيا ، السبيل بطريقة مشابهة تقريباً لدخول دين جديد . ولم يكن من قبيل المصادفة أن أصبحت دالريادا Dalriade[٤] فيما وراء البحار ، مركز حركة القديس كولومب التبشيرية التى كانت إيونا Iona[٥] نقطتها المركزية .

والهجرة البحرية ظاهرة مميزة تتمثل فى امتزاج أصول عنصرية مختلفة . فإن أول شىء يجب تركه من الجهاز الاجتماعى ، هو الجماعة القائمة على القرابة . لأن السفينة لن تحمل أكثر من حمولتها . ويحتمل أن تكون السفن التى تبحر معاً تحقيقاً للأمان وتجتمع فى الوطن الجديد آتية من جهات مختلفة ، عكس

(١) الساحة الوسطى Midgard فى الأساطير السكاندينافية ، هى الأرض . (المترجم)

(٢) قصه الساجة Saga قصة قديمة تروى أعمال البطولة والمخاطرات . (المترجم)

(٣) الجزء الثانى ص ٣٠٦ = ٧ Gronbch V : The Culture of the Teutons,

(٤) الاسم القديم لمقاطعة فى شمال إيرلندا ، وينتسب سكانها إلى ريادا زعيم الاسكتلنديين النازحين . (المترجم)

(٥) إحدى جزائر هبريدس بجوار شاطئ فى اسكتلندا وبها قبر القديس كولومب . (المترجم)

عملية الهجرة البرية المعتادة التى تستطيع فيها جماعة من الأقارب بأجمعها ؛ أن تجمع نساءها وأطفالها وأدواتها المنزلية فى عربات تجرها ، وتتحرك جمعاً واحداً ببطء شديد على أرض ثابتة .

وظاهرة مميزة أخرى للهجرة البحرية ، تتجلى فى ضمور نظام أصيل فى الجماعة قبل الهجرة هو نظام « الجن ودورته » . ولعله التعبير الأعلى عن حياة اجتماعية ليس لها طابع خاص . وذلك قبل أن ينعكس هذا النظام على المستويات المختلفة للاقتصاد والسياسة والدين والفن ، بفضل إدراك اجتماعى يزداد وضوحاً .

وإذا رغبنا فى رؤية هذه الشعائر فى العالم السكندنافى على بهائها ، فأحرى بنا أن ندرس نشوءها بين الاسكندنافيين الذين لبثوا فى ديارهم . فإنه على العكس : « يبدو أن صيد يوم أول مايو والزواج الطقسى ومناظر الغزل ، لم تعش كثيراً فى أيسلندا بعد استقرار المستعمرين فيها ، وذلك لأسباب، يعزى بعضها بلا ريب إلى أن المستوطنين أغلبهم من الطبقة الجوالة المستنيرة ؛ ويرد البعض الآخر إلى ارتباط هذه الشعائر الريفية بالزراعة التى لم تكن فرعاً هاماً للنشاط فى أيسلندا »[١] .

ولما كانت تتوافر زراعة من نوع ما حتى فى بلد كايسلندا ، وجب اعتبار السبب الأول من السببين السالفى الذكر أكثرهما أهمية .

ترى نظرية المؤلف الذى اقتبسنا منه ما تقدم ، أن القصائد الشعرية التى سُجلت كتابة فى الديوان الأيسلندى المدعو « الأدّة الكبرى »[٢] ؛ قد استمدت من الكلمات الشفوية للدراما البدائية السكندنافية المتصلة بالخصوبة . وهى العنصر الوحيد من الشعائر الذى أمكن المهاجرون انتزاعه من جذوره المحلية العميقة المطمورة ، وحمله معهم على ظهر سفينتهم .

---

(١) ص ٢٠٤ Philipotts, B.S. : The Elder Edda and Ancient Scandinavian drama.

(٢) Elder Edda كتاب فى أساطير أهل اسكندناوه ولغتهم وأشعارهم . (المترجم)

ولقد توقف تطور الشعائر البـــدائية إلى دراما بين هؤلاء السكان السكندنافيين الذين هاجروا بحراً وفقاً لهذه للنظرية التي يمكن تأييدها بالقياس على ما حدث فى التاريخ الهليني . فإن ثمة حقيقة لا تمارى مؤداها أنه رغماً عن أن الحضارة الهلينية قد أينعت فى البداية عبر البحار فى إيونيا Ionia ، انبعثت الدراما الهلينية وهى قائمة على الشعائر البدائية من تربة الجزء القارى من شبه جزيرة اليونان . ففي هيلاس ، كان مسرح ديونيسوس فى أثينا يقابل معبد ابسالا . ومن ناحية أخرى ، أنتج المهاجرون البحريون الهلينيون والسكندنافيون والأنجلو سكسونيون الملاحم الشعرية لهومير وتلك الواردة فى « الأدة » Edda والبيولف Beowulf[1] فى أيونا وإيسلندا وبريطانيا .

ونشأت الساجة Saga[2] والشعر القصصي الحماسي ، استجابة لحاجة عقلية جديدة مدارها إدراك جديد بوجود شخصيات فردية قوية وأحداث عامة ذات شأن :

ومصداقاً لما يقرره هومير « يغالى الرجال فى تمجيد هذه القصيدة كلما بدت جديدة لأسماعهم » . بيد أن ثمة شيئاً فى الملحمة الشعرية تربى قيمته كثيراً على حداثتها ، ألا وهو أهمية القصة فى حد ذاتها من الناحية الإنسانية . إذ يكون الاهتمام بالحاضر مسيطراً على الأذهان طوال فترة استمرار العاصفة والشدة فى عصر البطولة ، بيد أنه لما كانت الشدة الاجتماعية شيئا عابراً ، يبدأ محبو الملحمة والساجة — بعد هدوء العاصفة — فى إدراك أن الحياة فى عصرهم أصبحت يسيرة نسبياً . وعندئذ يصدفون عن إيثار القصائد الشعرية الجديدة على

---

(١) ملحمة شعرية إنجليزية تروى قصة ابن أحد الملوك الجرمانيين الذى رحل مع أربعة عشر من أبنائه إلى الدنمارك ليساعد شقيقه الملك هناك الذى تغلب على مملكته جبار ذو شكل آدمى . وجرت معارك بينهما أسفرت فى نهاية الأمر على تغلبه على الجبار واستعادة المملكة للملك الشرعى . (المترجم)

(٢) الساجة قصة شاعت فى القرون الوسطى عن بطل ايسلندى . (المترجم)

القديمة ؛ ويستجيب الراوى الحديث للتغير فى ذوق سامعيه ، فيأخذ فى إعادة رواية أقاصيص الجيل الأقدم وتنميقها . وقد بلغ فن الملحمة الشعرية والساجة فى هذا العصر الأخير ذروته الأدبية . إلا أن هذه المصنفات القوية لم تكن لتظهر إلى الوجود أبداً لولا الحافز الذى ترتب فى الأصل عن محنة الهجرة البحرية . وهنا نصل إلى القانون الآتى وهو « تنشأ الدراما فى الوطن الأصلى ، والملحمة بين الشعوب المهاجرة »[1] .

أما الأثر الإيجابى الآخر الذى ينبعث من محنة الهجرة البحرية إبان فترة الهجرات ، فهو ليس أدبياً ولكنه سياسى . ويقوم هذا النوع الجديد من النظام السياسى على عقد يُبرم لا صلة له بالقرابة .

ولعل أشهر الأمثلة التى تطالعنا ، المدن التى أقامها جوابو البحار من مهاجرى اليونان على ساحل الأناضول ، فى المقاطعات التى عرفت بعد ذلك بأسماء أيوليس Aeolis وأيونيا Ionia ودوريس Doris . إذ يبدو من السجلات القليلة الخاصة بالتاريخ الدستورى الهلينى ، أن مبدأ التنظيم وفقاً للقانون والمكان لا وفقاً للعرف والقرابة ، قد استقر فى البداية فى هذه المستعمرات اليونانية عبر البحار ، ثم اقتبسته عنها اليونان الأوربية . فلم تكن العشائر هى خلايا النظام الجديد فى المدن التى تألفت عبر البحار ، بل كانت جماعات السفن هى خلايا ذلك النظام . فلما كانوا قد تعاونوا جميعاً فى البحر — كما يتعاون الرجال عندما يكونون فى نفس المركب بين أخطار اليم — فإنهم عندما يوفقون بعد جهد كبير إلى الاستحواز على قطعة من الساحل ، يحتفظون على البر بنفس الشعور ويتصرفون بنفس الطريقة فى مواجهة التهديد الآتى من الداخل .

وتظل الزمالة على البر تسمو على القرابة كما كانت فى البحر ، وتجبّ دوافع العرف ، أوامر الزعيم الثقة المختار . وفى الواقع لا بد وأن تتحول

---

(١) ص ٢٠٧ . Phillpotts, B.S. : The Elder Edda .

تلقائياً جماعات السفن التي تضم قواتها فى سبيل غزو موطن جديد لها عبر البحار ، إلى مدينة تنقسم إلى قبائل محلية ويحكمها حاكم منتخب .

فإذا ما ولينا وجوهنا شطر الهجرات السكندنافية ، نستطيع أن ندرك العناصر الأولية لتطور سياسى مشابه . فلو كان قد قيّض للحضارة السكندنافية التى لم تكتب لها الحياة ؛ الظهور إلى الوجود بدلا من أن تبتلعها الحضارة الغربية ، لقدّر للدول الخمس فى أوستمن Ostmen على الساحل الإيرلندى ، أو للمدن الخمس (لينكولن وستامفورد وليستر ودربى وتوتنجهام) التى أقامها الدانماركيون لحراسة خط حدود فتوحاتهم فى مرسيا من ناحية البر ؛ لقدّر لهـــا أن تؤدى نفس الدور الذى قامت به فى وقت ما مدينتا إيوليس وإيونيا .

بيد أن أسمى ازدهار التنظيم السياسى الاسكندنافى عبر البحار ، قد تجلى فى جمهورية ايسلندا التى قامت على أرض جزيرة قطبية تبدو أنها لا تبشر بخير ، وتبعد خمسمائة ميل عن أقرب قاعدة اسكندنافية فى جزائر فارو .

أما عن النتائج السياسية لهجرات الإنجليز والجوت[١] البحرية إلى بريطانيا ؛ فإن ثمة شىء أكثر من المصادفة مداره أن جزيرة كان يشغلها فى مطلع التاريخ الغربى مهاجرون كانوا قد تخلصوا أثناء عبورهم البحر من أصفاد العشيرة الأصلية ، قد أصبحت فيما بعد بلداً حقق فيه المجتمع الغربى طائفة من أهم خطى الارتقاء فى تقدمه السياسى . ولقد مر الغزاة الدانمركيون والنورمانديون الذين أعقبوا الإنجليز مباشرة والذين كان لهم فخر المساهمة فى المآثر السياسية الإنجليزية التالية ، بنفس التجربة التحررية .

ولقد أتاح مثل هذا المزيج من الشعوب ، تربة موافقة بشكل غير عادى للتطور السياسى . ولا غرابة فى أن المجتمع الغربى قد نجح فى إقامة « السلم الملكية » فى إنجلترا

(١) الجوت من القبائل الجرمانية الدنيا فى جوتلاند . وقد استقر بعضها فى إنجلترا فى القرن الخامس الميلادى . (المترجم)

ثم الحكومة البرلمانية بعد ذلك ، بينما تأخر فى القارة تطور المجتمع الغربى السياسى ، بسبب بقاء روابط القرابة بين الفرنجة واللومبارديين الذين لم تهيئ لهم رحلة بحرية تحررية ، مناسبة للتخلص من هذا العبء الاجتماعى منذ البداية .

(٣) الحافز الناتج عن الضربات

أما وقد بحثنا البيئات الطبيعية كعامل حافز ، حرى بنا استكمال هذا الجانب من دراستنا باستعراض ميدان البيئات البشرية من هذه الناحية نفسها . ونستطيع أن نفرّق أولا بين تلك البيئات البشرية التى هى جغرافيا خارج نطاق المجتمعات التى تعمل فيها ، وتلك التى تختلط معها جغرافيا .

وتشمل الفئة الأولى : تأثير المجتمعات أو الدول فى جيرانها عندما يكون الفريقان فى البداية مستحوزين دون سواهما على بعض المناطق . وبالنسبة للمنظمات التى تؤدى الدور السلبى فى مثل هذه العلاقة الاجتماعية ، تكون البيئة البشرية التى تجابهها ؛ إما : « خارجية » أو « أجنبية » .

أما ثانى الفئتين ، فإنها تشمل تأثير « طبقة » اجتماعية فى أخرى عندما تشترك الطبقتان فى استملاك نفس المنطقة . ونحن نستخدم هنا اصطلاح « الطبقة » بأوسع معانيه ؛ والصلة فى هذه الحالة « داخلية » أو « عائلية » ؛ فإذا تركنا بحث هذه البيئة البشرية الداخلية إلى حين ، نستطيع أن نبدأ بإجراء تقسيم آخر : بين الصدام الخارجى عند ما يتخذ شكل صدمة مفاجئة ، وبين مداه إذ يتخذ شكل ضغط متصل .

ومن ثم يصبح لدينا ثلاثة موضوعات للبحث : صدمات خارجية ، وضغوط خارجية ، واقتصاص داخلى .

ما هو أثر الضربات المفاجئة ؟ هل يسرى عليها المبدأ الذى وضعناه والقائل بأنه كلما عظم التحدى ، عظم العامل الحافز ؟

طبيعى أن تكون أولى الحالات التى تعرض للفكر تأييداً لهذا المبدأ ،

هي الحالات التي تكون فيها قوة عسكرية قد حفزت في البداية على أثر التحامات متعاقبة مع جيرانها ، ثم أخضعها فجأة خصم لها لم يسبق لها قط أن سبرت غور قوته .

فما الذي يحدث عادة عندما ينهزم على هذا النحو الدرامي بناة الإمبراطوريات المبتدئون في منتصف عملهم ؟ هل يلبثون هاجعين حيث سقطوا مثل سيسرا ؟ أو هل ينهضون مرة أخرى بقوة مضاعفة من فوق أمهم الأرض مثل انتيوس الجبار[1] في الأسطورة الهلينيسية .

تدل الأمثلة التاريخية على أن السبيل الأخير هو السبيل المعتاد .

فمثلا ماذا كان تأثير انتصار البرابرة على مقادير روما ؟ لقد دهمتها المصيبة بعد انقضاء خمس سنوات فحسب من انتصارها في صراعها الطويل مع مدينة فيي Veii الأترورية[2] ، ذلك الانتصار الذي هيأ لها أخيراً موضعاً يسمح لها بفرض زعامتها على بلاد اللاتين[3] ، وكان ينتظر بعد هزيمة الجيش الروماني في موقعة الليا واحتلال البرابرة روما نفسها من أولها لآخرها ، أن يزول بضربة واحدة ما كانت روما قد أحرزته أخيراً من نفوذ وسلطان . أفاقت روما عوضاً عن ذلك من النكبة الغالية سريعاً[4] حتى أمكنها بعد ذلك بأقل من نصف قرن أن تشتبك بنجاح تام في التحامات أطول مدى وأعظم مشقة مع جيرانها الإيطاليين ، مما قاد إلى بسط سلطانها على إيطاليا بأجمعها .

---

(١) Antaeos جبار ليبي الأصل تذكر الأساطير اليونانية عنه أنه لايقدر عليه أحد . ثم تغلب عليه هرقل . (المترجم)

(٢) Etruscan Veii مدينة تبعد عشرة أميال عن شمال غرب روما . وقد كانت منافساً هائلا لروما قبل أن يدمرها القائد الروماني كاميلوس تدميراً تاماً بعد حصار دام عشر سنوات . (المترجم)

(٣) Latium في الأصل أحد أقسام إيطاليا القديمة . وكانت تمتد على طول ساحل البحر الابيض المتوسط جنوباً بشرق نهر التيبر . (المترجم)

(٤) نسبة إلى بلاد الغال = فرنسا الحالية . (المترجم)

كذلك ماذا كان تأثير أسر تيمور لنك لبايزيد بالدبريم (السلطان بايزيد) فى موقعة أنقرة على مقادير العثمانيين ؟

داهمت هذه النكبة العثمانيين ، فى نفس الوقت الذى كانوا فيه على وشك استكمال غزوهم مقر المسيحية الأرثوذكسية الرئيسى ، فى شبه جزيرة البلقان . فكان أن طرحتهم أرضاً على الشاطئ الأسيوى من البوغازين فى هذه الآونة الحرجة ، صاعقة أتتهم من بلاد ما وراء النهر . وكل ما كان ينتظر ، هو انهيار صرح إمبراطوريتهم غير المكتمل انهياراً عاماً . إلا أن هذا لم يحدث فى الواقع . إذ لم يمض نصف قرن بعد ذلك ، حتى أمكن محمد الفاتح أن يضع الحجر الأخير فى بناء بايزيد باستيلائه على القسطنطينية .

وتُبين تواريخ منافسى روما الفاشلين ، كيف يترتب على هزيمة ساحقة ، اشتداد عزيمة جماعة حتى يصبح لنشاطهم هدف أعظم ؛ حتى وإن أحبطت غايتهم هزيمة أخرى ، بعد مقاومة أشد مراساً من مقاومتهم السابقة . فإن هزيمة قرطاجنة — مثلا — فى حربها الأولى مع روما ، قد حفزت هاميلكار باركا إلى الاستيلاء لحساب بلده على إمبراطورية فى اسبانيا ، فاقت الإمبراطورية التى فقدتها فى صقلية فعلا . بل أدهش القرطاجنيون العالم مرتين حتى بعد هزيمة هانيبال (فى الحرب البونية الثانية) ، إبان نصف القرن الذى انقضى قبل دمارهم النهائى :

الأولى ، بسرعتهم فى تسديد تعويضات الحرب واستعادة رواج تجارتهم .

والثانية ، بالبطولة التى أظهروها رجالا ونساء وأطفالا فى القتال والموت فى الصراع النهائى .

كذلك فإن فيليب الخامس المقدونى بعد هزيمته الساحقة فى موقعة سينوسيفالى Cynoscephalae — وكان حتى هذا الوقت ملكاً أقرب إلى التفاهة — كرّس نفسه لمهمة تحويل بلاده إلى دولة بلغت من القوة الفعلية قدراً أتاح لابنه برسوس Perseus تحدى روما بمفرده . وكان قريباً من

التغلب عليها ، قبل أن تنهار مقاومته العنيفة نهائياً فى موقعة بيدنا Pydna :

ويطالعنا مثال آخر من نفس النوع ، وإن اختلف فى نتيجته ؛ هو تدخل النمسا خمس مرات فى حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون . إذ جلب لها تدخلها فى المرات الثلاث الأولى الخزى فضلا عن الهزائم . لكنها أخذت بعد موقعة استرليتز تشمّر عن ساعدها . فإن كان لاسترليتز فى النمسا تأثير موقعة سينوسيفالى فى مقدونيا ، فإن موقعة واجرام[1] تماثل بالنسبة لها موقعة بيدنا . بيد أن النمسا كانت أوفر حظاً من مقدونيا إذ أمكنها التدخل مرة أخرى والانتصار عام ١٨١٣ .

وأكثر من ذلك إثارة للعجب ، تصرف بروسيا فى دورة الحروب نفسها . ففى غضون الأربع عشرة سنة التى توجت بنكبة إيينا[2] ، وما تلاها من استسلام ، اتبعت بروسيا خطة تبدو حقيرة وشائنة للوهلة الأولى ، لكن أعقبتها حملة الشتاء الباسلة فى إيلاو Eylau . ولم تؤد صرامة الشروط القاسية التى أمليت فى تيلسيت Tilsit ، إلا إلى زيادة أثر العامل الحافز الذى نشأ منذ البداية من جراء صدمة إيينا . وكانت الطاقة التى بعثها هذا العامل الحافز فى بروسيا شيئاً خارقاً . لأنه لم يقتصر على تجديد الجيش البروسى فحسب ، بل تجاوزه إلى تجديد النظم الإدارية والتعليمية البروسية . وفى الواقع قد حوّل الدولة البروسية إلى وعاء مختار لصون الخمر ، خمر القومية الألمانية الجديد تحت إرشاد « ستين » و « هاردنبرج » حتى « هامبولدت » و « بيسمارك » :

أعادت هذه الدورة نفسها فى عصرنا الحاضر بطريقة مؤلمة للغاية ومعروفة إلى حد أنها لا تحتاج إلى تعليق : فإن الهزيمة الألمانية فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨

---

(١) واجرام Wagram قرية قريبة من فيننا بالنمسا حدثت بها فى يوليو عام ١٨٠٩ موقعة هزم فيها نابليون النمساويين . (المترجم)

(٢) مدينة بألمانيا كانت مسرح موقعة انتصر فيها الفرنسيون على البروسيين فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦ . (المترجم)

وزيادة وطأة هذه الهزيمة بسبب احتلال الفرنسيين لحوض الروهر فى ١٩٢٣ / ١٩٢٤ ، قد أدى إلى الانتقام النازى الشيطانى ، وإن كان عقيماً[1] .

على أن المثال التقليدى عن تأثير الصدمة كعامل حافز ، يتجلّى فى رد فعل هيلاس بصفة عامة وأثينا بصفة خاصة على اجتياح الإمبراطورية الفارسية لها – وهى الدولة السورية العالمية – خلال سنة ٤٨٠ – ٤٧٩ ق . م . فلقد تناسبت انتقاضة أثينا ، مع شدة ما كابدته من آلام . فإنه بينما أُنقذت حقول بويثيا الخصبة بفضل خيانة أصحابها للقضية الهلينية وأُنقذت حقول لاقديمونيا Lacedaemon بفضل بسالة الأسطول الأثينى ؛ خربت بشكل منتظم أراضى آتيكا الفقيرة خلال موسمين متعاقبين ، واحتُلّت أثينا نفسها ، وهُدمت معابدها . واضطر جميع سكان آتيكا إلى الجلاء عن البلاد وعبور البحر لاجئين إلى جزر البلوبونيز . فكان أن قاتل الأسطول الأثينى فى ظل هذا الموقف وربح معركة سالاميس .

ولا يستغرب أن تصبح الصدمة التى أثارت هذه الروح التى لا تقهر فى الشعب الأثينى ، مقدمة مآثر فريدة فى تاريخ البشرية ، لسنائها وغزارتها وتعددها . وقد أبدت أثينا فى إعادة تشييد معابدها فى عصر بركليس – تلك المعابد التى كانت بالنسبة للأثينيين أقرب رمز إلى قلوبهم لبعث بلادهم – حيوية أسمى كثيراً مما أظهرته فرنسا بعد عام ١٩١٨ . إذ لما استخرج الفرنسيون القنبلة المتفجرة من كاتدرائية ريمس ، قاموا على نمط دينى باستعادة كل حجر تفتت وتمثال مكسور ؛ فى حين أن الاثينيين لما وجدوا معبدهم « هكاتامبدون » Hekatampedon

---

(١) كتب المستر توينبى هذا الجزء من الكتاب فى صيف ١٩٣١ عند ما كان الدكتور برونج ما يزال مستشار ألمانيا . ولكن بعد ماحققت الحركة النازية فعلا هذه المكاسب المثيرة والمشئومة فى انتخابات الريخستاخ فى سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، التى رفعت تمثيل الحزب فيه من ١٢ مقعداً من ٤٩١ مقعداً إلى ١٠٧ مقاعد من ٥٧٧ مقعداً ، كتب مايأتى : بدا واضحاً فعلا أن الضربات التى انهالت على ألمانيا منذ هدنة ١٩١٨ لها نفس التأثير الحافز الذى ترتب على الضربات التى ابتليت بها بروسيا قبل ذلك بقرن عام ١٨٠٦ – ١٨٠٧) : (ملخص الكتاب).

قد أحرق كله حتى أساسه ، تركوا الأساس على حاله وشرعوا فى بناء البارثنون Parthenon فى موقع آخر[١] .

إن أعظم دليل وضوحا على العامل الحافز المترتب على الضربات ، هو ردود الفعل الناشئة عن النكبات الحربية . إلا أنه يمكن استقصاء الأمثلة على ذلك والعثور عليها فى ميادين أخرى . فلنحصر أنفسنا فى حالة مفردة عُليا فى الميدان الدينى ، وتتمثل فى أعمال الرسل .

فإن هذه الأعمال التى تفيض بالحيوية التى كان مكتوبا لها أن تكتسب فى النهاية العالم الهلينى للمسيحية ، قد تم التفكير فيها فى اللحظة التى أصبح الرسل فى حالة انكسار روحى نتيجة لفقدهم فجأة وجود معلمهم بين ظهرانيهم وقتا قصيراً بعد أن ظهر لهم بمعجزة . كان من الجائز أن تكون هذه الخسارة الثانية أشد إيلاما من الصّلْب نفسه ، إلا أن شدّة الصدمة فى ذاتها بعثت فى نفوسهم رد فعل نفسانى متناسبا معها فى قوته ، تمثل رمزيا على شكل رجلين بثياب بيض ، وعلى ثورة نزول الألسن من النار فى اليوم الخمسين ، وبشّر الرسل بفضل قوة الروح القدس ، بألوهية يسوع المصلوب الغائب ، لا للشعب اليهودى فحسب ولكن للسنهدريم[٢] نفسه .

واستسلمت الحكومة الرومانية نفسها فى غضون ثلاثة قرون إلى الكنيسة التى أنشأها الرسل فى ساعة كانت فيها روحهم فى أوطأ حالاتها[٣] .

---

(١) كان للندن كذلك عقب الحريق الكبير عام ١٦٦٦ شجاعة التمسك بمثلها المعمارية فشيد فرن Wren كاتدرائية القديس بولس عوضاً عن محاولة استعادتها على الطراز القوطى فما الذى كان ليفعله الجيل الحاضر من اللندنيين لو أن كنيسة وستمنستر أو كاتدرائية القديس بولس هدمتا بفعل قنابل الإلمان ؟ (الملخص)

[والواقع أن الإنجليز يبنون كاتدرائية كونتبرى – وقد مرت تماماً – وفق طراز العمارة السائدة لا وفق ما كانت عليه] . (المترجم)

(٢) المجمع أو السنهدريم : مجلس الأمة اليهودية قديماً . (المترجم)

(٣) أعظم مثال حديث يطالعنا عن الصدمات كعامل إثارة : الصدمة التى تلقاها العرب –

(٤) الضغط كحافز

علينا أن نبحث حالات تأخذ فيها الصدمة شكلا مختلفا هو شكل ضغط خارجي متواصل . ومن الناحية الجغرافية السياسية ؛ تقع فى معظم الحالات ، الشعوب أو المدن التى تتعرض لمثل هذا الضغط ، فى نطاق الفئة العامة التى تضم ولايات التخوم أو الحدود .

وتتمثل خير طريقة عملية لدراسة هذا النوع الخاص من الضغط ، فى الالتجاء نوعا ما إلى استعراض الدور الذى قامت به أقاليم الحدود فى تواريخ الجماعات المالكة لها ، مع مقارنتها بالدور الذى أدته الأراضى التى تتمتع بمزيد من الوقاية ، والواقعة داخل أراضى الجماعات نفسها .

١ ـ فى العالم المصرى :

وجّهت سير الأحداث فيما لا يقل عن ثلاث مناسبات كبرى فى تاريخ الحضارة المصرية ، دول انبعثت من جنوب مصر العليا ؛ فإن تأسيس المملكة المتحدة حوالى ٣٢٠٠ ق . م ، وإقامة الدولة العالمية حوالى ٢٠٧٠ ق . م ، واستعادتها حوالى عام ١٥٨٠ ق . م ؛ تمت جميعها ابتداء من تلك المقاطعة الضيقة المحصورة .

وفى الواقع كانت هذه المقاطعة ، التى تعتبر فى الواقع « مشتلا » للإمبراطوريات المصرية ، الحد الجنوبى للعالم المصرى الذى كان معرّضاً لضغط قبائل النوبة . على أن القوة السياسية قد انكفأت إلى الدلتا خلال

ـ فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . إذ أصبحت نقطة التحول فى تاريخ العالم العربى الحديث . إذ لم تنقض أربع سنوات على هزيمة الحكومات العربية فى فلسطين حتى اندلعت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فقضت على الإقطاع وحققت الاستقلال الصحيح فى جميع الميادين ، وتلاها استقلال السودان وإنشاء الجمهورية العربية المتحدة وثورة العراق وتأثرت إفريقيا بهذه الموجة العارمة فى شمالها . ومازال انتصارات القومية العربية تتوالى .
(المترجم)

الجزء الأخير من التاريخ المصرى ، أى الستة عشر قرناً من الشفق بين انهيار الإمبراطورية الحديثة وفناء المجتمع المصرى نهائياً فى القرن الخامس بعد الميلاد . مثلما دأبت على الانكفاء إلى الحد الجنوبى خلال الألفى سنة السابقة . وكانت الدلتا هى المنطقة الحدية المواجهة لشمال إفريقيا وجنوب غرب آسيا كليهما .

ومن ثم تمكن قراءة التاريخ السياسى للعالم المصرى من بدئه حتى نهايته، باعتباره توتراً بين قطبى القوة السياسية ، يقعان فى كل عصر فى منطقة الحدود الجنوبية ومنطقة الحدود الشمالية على التوالى . ولا توجد هناك أمثلة لإحداث سياسية كبرى تنبعث من نقط واقعة فى الداخل .

فهل يمكننا أن نعرض سبباً لغلبة نفوذ المنطقة الحدية الجنوبية فى النصف الأول من الفترة الزمنية للتاريخ المصرى ، ونفوذ المنطقة الحدية الشمالية فى النصف الثانى ؟

قد يبدو أن السبب مداره أنه عقب غزو النوبيين الحربى واستيعابهم الحضارة المصرية إبان عصر تحتمس الأول (حوالى ١٥٥٧ — ١٥٠٥ ق . م) ؛ خفّ الضغط على منطقة الحدود الجنوبية أو اختفى . بينما تزايد فى الوقت نفسه أو بعد ذلك بقليل ، ضغط برابرة ليبيا وممالك جنوب غرب آسيا على الدلتا ، زيادة ملحوظة جداً .

ومن ثم لا تقتصر غلبة نفوذ أقاليم الحدود فى التاريخ السياسى المصرى على نفوذ الأقاليم الوسطى ؛ بل إن إقليم الحدود المعرّض للتهديد أكثر من غيره ، قد حظى فى جمع الأوقات منذ هذا الحين ، بنفوذ غلاب .

٢ — فى العالم الإيرانى :

يكشف التاريخان المتعارضان للشعبين التركيين : العثمانى والقرمانى اللذان احتل كل منهما إبان القرن الرابع عشر بعد الميلاد جانباً من الأناضول

« الحصن الغربى الأمامى فى العالم الإيرانى) نفس النتيجة فى ظروف جد مختلفة .

إذ كانت كلتا الجماعتين التركيتين « دولتين خليفتين » للسلطنة السلجوقية فى الأناضول . وكانت تلك السلطنة دولة إسلامية تركية أقامها فى الأناضول المغامرون الأتراك السلجوقيون خلال القرن الحادى عشر قبيل بدء الحروب الصليبية مباشرة . فحققوا لأنفسهم ، بفضل توسيعهم حدود دار الإسلام على حساب المسيحية الأرثوذكسية ، الجزاء فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

وعندما انهارت هذه السلطنة خلال القرن الثالث عشر الميلادى ، بدا كما لو أن من بين جميع ورثة السلجوقيين ، كان القرمانيون أكثر حظاً فى أن يخلفوا هذه السلطنة بينما كان العثمانيون أقلهم حظاً . إذ ورث القرمانيون لباب الأملاك السلجوقية مع عاصمتها قونية ، بينما ألفى العثمانيون أنفسهم حائزين على قطعة من القشرة .

وفى الواقع حصل العثمانيون على فضلات الملك السلجوقى لكونهم آخر الوافدين ، مع مجيئهم إبان ظروف متواضعة . فلقد كان عثمان الذى أضفى عليهم اسمهم السُلالى[1] ، ابن شخص يدعى أرطغرل وهو زعيم جماعة من اللاجئين لا اسم لها : شذرة لا يؤبه لها من الحطام البشرى ألقتها فى أقصى حدود دار الإسلام ، صدمة موجة المغول الهائلة ، وقتما تدفقت على حدود المجتمع الإيرانى الشمالية الشرقية من وسط السهب الأوراسى . ولقد خصص آخر هؤلاء السلاجقة الأناضوليين ، شقة من الأرض على حافة الهضبة الأناضولية الشمالية الغربية لآباء هؤلاء اللاجئين العثمانيين ؛ حيث كانت الأراضى السلجوقية ، تتاخم الأراضى التى ما فتئت الإمبراطورية البيزنطية تحتفظ بها على شواطئ بحر مرمرة الآسيوية . وهو موقع مكشوف

---

(١) الاسم السلالى : اسم شخص يطلق على سلالة أو أمة . (المترجم)

اصطلح على تسميته بـ « سلطان أونو » . وربما كان العثمانيون قد حسدوا حسن طالع القرمانيين ، لكن ليس للشحاذين خيار ! !

وقبل عثمان نصيبه وأخذ على نفسه توسيع حدوده على حساب جيرانه المسيحيين الأرثوذكس — جاعلا هدفه الأول مدينة بروصة البيزنطية . واستغرق الاستيلاء عليها تسعة أعوام (١٣١٧ — ١٣٢٦ ميلادية) . ومع ذلك كان العثمانيون على حق فى إطلاق اسمه على أنفسهم ، إذ كان عثمان هو المؤسس الحقيقى للإمبراطورية العثمانية . وأفلح العثمانيون فى غضون ثلاثين عاما من سقوط بروصه ، فى وضع أقدامهم على الشاطىء الأوروبى للدردنيل ، وفى أوروبا صنعوا مستقبلهم . بل إنهم قبل نهاية القرن ذاته ، غزوا بيدهم اليسرى القرمانيين وغيرهم من الجماعات التركية فى الأناضول ، بينما كانوا فى الوقت نفسه يخضعون بيدهم اليمنى الصرب واليونانيين والبلغاريين .

وكان ذلك نتيجة الحافز المترتب على الحد السياسى . ذلك لأن دراسة الحقبة السابقة من التاريخ تدل على أنه — على عكس بيئة القرمانيين الذين لم يُبدوا أية روح إقدام وانمحى ذكرهم عن استحقاق . فإن البيئة الجغرافية لقاعد عمليات العثمانيين فى الأناضول ، لم تتوفر فيها أية صفات خاصة تساعد على تكوين الأبطال وتجعل من سلطان أونو إحدى البيئات المشار إليها فى القسم الأول من هذا الفصل .

وإذا عدنا كرة أخرى إلى العصر السابق لظهور الأتراك السلجوقيين فى الربع الثالث من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقتما كان الأناضول ما يزال داخل حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ؛ نجد الأرض التى احتلها القرمانيون بعد ذلك تتفق على وجه التقريب مع المنطقة المخصصة من قبل لعمليات جيش الأناضول البيزنطى الذى احتل مكان الصدارة بين جيوش الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى الأزمنة الأولى من تاريخ المسيحية الأرثوذكسية . وبعبارة أخرى ؛ احتفظ خلفاء القرمانيين فى مقاطعة قونية

من الرومانيين الشرقيين ، بمكان الصدارة فى الأناضول الذى شغله بعد ذلك العثمانيون المقيمون بسلطان أونو . والسبب فى ذلك واضح ؛ إذ كانت مقاطعة قونية فى هذا التاريخ المتقدم ، مقاطعة حدود للإمبراطورية الرومانية تجاه الخلافة العربية . فى حين أن المنطقة التى احتلها العثمانيون بعد ذلك ، كانت تستمتع فيما سبق ، بالخمول المريح باعتبارها مركزا داخليا .

٣ – فى المسيحية الأرثوذكسية الروسية :

نجد هنا – كما وجدنا فى مكان آخر – أن حيوية المجتمع تنزع ، إلى تركيز نفسها – على التتابع فى مناطق الحدود الواحدة بعد الأخرى ، كلما اختلفت شدة القوة النسبية لمختلف الضغوط الخارجية على مناطق الحدود العديدة .

كان الحوض الأعلى لنهر الدنيبر ، هو المنطقة الروسية التى استقرت فيها لأول مرة الحضارة المسيحية الأرثوذكسية فى عصر ازدراعها[1] الأصلى عبر البحر الأسود وعبر السهب الأوراسى من القسطنطينية . ثم نقلها من هناك إلى حوض الفولجا الأعلى خلال القرن الثانى عشر ، سكان الحدود الذين كانوا يوسعون حدودهم فى هذا الاتجاه على حساب وثنىّ الغابات الشمالية الغربية من الفنلنديين البدائيين . ولكن ما لبث أن تراجع مركز الحيوية إلى الدنيبر الأدنى ، ليجابه ضغطاً ساحقاً من جانب بدو السهب الأوراسى ؛ وكان هذا الضغط الذى فُرض على الروسيين فجأة نتيجة لحملة باتو الخان المغولى عام ١٢٣٧ ميلادية ، متواصلا شديداً للغاية . ومن الطريف أن نلاحظ فى هذه الحالة أسوة بالحالات الأخرى ، أن تحدياً شديد الوطأة إلى درجة خارقة ، قد استثار استجابة إبداعية فريدة فى نوعها .

ولم تقل هذه الاستجابة شأناً عن تطور أسلوب جديد للحياة وتنظيم

(١) ازدرع : نقل نباتا من مكان لآخر لزراعته فيه . (المترجم)

اجتماعي جديد ، أتاح لمجتمع مستقر ، للمرة الأولى فى التاريخ ، لا مجرد الاحتفاظ بكيانه تجاه البدو الأوراسيين ولا مجرد ردعهم بحملات تأديبية مؤقتة فحسب ؛ بل أتاح لهم غزو أرض العدو غزواً نهائياً وتغيير أرض البدو الطبيعى بوساطة تحويل مراعى ماشية البدو إلى حقول فلاحين ، والاستعاضة عن خيامهم المتنقلة بقرى مستقرة . وكان القوزاق الذين أنجزوا هذا العمل البارع المنقطع النظير ، سكان حدود المسيحية الأرثوذكسية الروسية الذين صُهروا فى بوتقة الحدود ضد البدو الأوراسيين (قبيلة باتوخان الذهبية) فى غضون القرنين التاليين وتشكّلوا على سندانها ؛ ويدينون إلى أعدائهم باسمهم — القوزاق — الذى جعلوه أسطورياً . فما هو إلا كلمة قازاق التركية وتعنى الخارج عن القانون الذى يأبى الاعتراف بسلطان سيده الشرعى البدوى[١] . ولقد كانت جماعات القوزاق التى انتشرت بعيداً والتى كانت — وقت إبادتها خلال ثورة ١٩١٧ الشيوعية الروسية — تصطف عبر آسيا مباشرة من نهر الدون حتى نهر أوسورى[٢] ، تنحدر جميعها من جماعة مفردة هى لها بمثابة الأم ، جماعة قوزاق الدنيبر :

وكان هؤلاء القوزاق الأصليون أخوة حربية شبه رهبانية تماثل فى بعض نقاطها أخوة الإسبارطيين الهلينية ، أو عضوية هيئة الفرسان الصليبيين. ولقد أدركوا بفضل طرائق توجيه حروبهم بلا هدنة ولا هوادة ضد البدو ؛ بأنه إذا كان على الحضارة أن تشن حرباً ناجحة ضد البدو ، يجب مقاتلتهم بأسلحة وموارد أخرى تختلف عن أسلحتهم ومواردهم ، ومثلما تفوق بناة الإمبراطوريات الغربيون المحدثون على خصومهم البدائيين بوساطة توجيه

---

(١) يبدو فى الواقع أن المعنى التركى لكلمة « قوزاق » يطابق المعنى الإيرلندى لكلمة Tory ولكن المعنى الحرفى لكلمة قازاق هو « العازق » أى زارع الأرض الخاضع للجزية المقيم على حافة السهب والذى قد يعارض بالطبيعة السيادة البدوية . وبعبارة أخرى فإن القازاق يمثل قابيل فى قصة قابيل وهابيل التى رويت من وجهة النظر البدوية . (المؤلف)

(٢) نهر أوسورى فى سيبريا وهو أحد روافد نهر آمور . (المترجم)

موارد التصنيع المتفوقة ضدهم . كذلك تفوق القوزاق على البدو ، بفضل استفادتهم من موارد الزراعة المتفوقة . وكما أعجزت القيادة الحربية الغربية الحديثة البدو حربياً فى موطنهم نفسه بالتفوق على سرعة تحركاتهم باستخدام وسائل مثل السكك الحديدية والسيارات والطائرات ؛ كذلك أعجز القوزاق البدو حربياً بوسيلتهم الخاصة التى مدارها الاستيلاء على الأنهار ، وهى العامل الطبيعى الوحيد فى السهب الذى خرج عن سيطرة البدو والذى وقف ضدهم عوضاً عن أن يكون معهم . إذا كانت الأنهار عند فرسان البدو ، عقبات قاهرة لا تنفع فى النقل ، بينما كان الفلاح والحطاب الروسيين خبيرين فى الملاحة النهرية .

وهكذا ، بينما كان القوزاق يتعلمون منافسة أعدائهم البدو فى فن الفروسية ، لم يفتهم أن يصبحوا ملاحين . وكان استخدام المركب — لا صهوة الجواد — هو الذى شق لهم السيطرة على أوراسيا . فاجتازوا الدنيبر إلى الدون ومنه إلى الفولجا . وعبروا عام ١٥٨٦ المرتفعات الواقعة بين نهرى الفولجا والأوب Ob . وقادهم ارتيادهم الممرات المائية فى سيبريا عام ١٦٣٨ ، إلى شواطئ المحيط الهادى على بحر أوخوتسك .

وفى نفس القرن الذى تميز باستجابة القوزاق الظافرة لضغط البدو من الجنوب الشرقى ؛ تلقى حدّ آخر ؛ الضغط الخارجى الأساسى ، فأصبح بذلك البؤرة الأساسية للحيوية الروسية . إذ تعرضت روسيا فى القرن السابع عشر الميلادى — لأول مرة فى تاريخها الحديث — إلى ضغط هائل مصدره العالم الغربى ، تمثل فى احتلال جيش بولونى موسكو فترة عامين (١٦١٠ — ١٦١٢) . وأمكن السويد بعد ذلك بقليل فى عهد ملكها جوستافوس أدولفوس ، إبعاد روسيا عن البلطيق بفضل استيلائها على جميع ساحل هذا البحر الشرقى ؛ من فنلندا إلى حد بولندا الشمالى ، الذى كان يمتد وقتئذ حتى مقربة بضعة أميال من مدينة ريجا .

ولكن لم يكد ينصرم القرن السابع عشر ، حتى استجاب بطرس الأكبر لهذا الضغط الغربي بإنشائه مدينة بطرسبرج عام ١٧٠٣ على أرض استردها من السويد ، ونشر على بحر البلطيق على طريقة القوى البحرية الغربية علم البحرية الروسية .

٤ — في العالم الغربي المواجه لبرابرة القارة :

أول ما يطالعنا حينما ننتقل إلى تاريخ حضارتنا الغربية — وكان هذا أمراً طبيعياً — تعرّض حدّها الشرقي — أى حدها البرى المواجه لبرابرة أوروبا الوسطى — لأعنف ضغط خارجي . ولم تقتصر النتيجة على فوز الحضارة الغربية في الدفاع عن هذا الحد ، بل أمكنها أن تدفعه إلى الوراء باستمرار إلى أن اختفى البرابرة من المشهد . فكان أن وجدت حضارتنا الغربية نفسها عندئذ متصلة على حدودها الشرقية ، لا مع البرابرة ، ولكن مع حضارات تنافسها .

وإننا نعنى في الوقت الحاضر بإيراد أمثلة لنتائج ضغط الحدود كعامل حافز في الجزء الأول فقط من هذه الفترة من التاريخ .

أظهر ضغط برابرة القارة في المرحلة الأولى للتاريخ أثره الحافز في انبعاث كيان اجتماعي جديد على صورة إمارة الفرنجة التي كانت ما تزال نصف بربرية . إذ أولى نظام الميروفنجيين[١] — الذى استوعب الإمارة الفرنجية في بدء الأمر — وجهه إلى الماضي الروماني ، بينما تطلع عهد الكارولنجيين[٢] إلى المستقبل . فإذا كان الميروفنجيّون قد حاولوا بصفة

---

(١) الميروفنجيون Merovingians أو الميرونجيين Merwings اسم العائلة المالكة الأولى لملوك الفرنجة في الغال (اسم فرنسا قديماً) الذين حكموا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٢) الكارولنجيون Carolingians أو الكارلوفنجيون Carlovingians أسرة مالكة إفرنجية سميت باسم أعظم ملوكها كارلوس ماجنوس اى شارلمان . (المترجم)

عرضية استعادة الإمبراطورية الرومانية ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا استجابة لدعوة من قبيل القول المشهور :

« أيها الأموات انهضوا »[١] أي قوموا فعاونوا الأحياء على تأدية واجبهم .

ففي أي جزء من أملاك الفرنجة تم استبدال الكارولنجيين الايجابيين النشطين بالميرفنجيين المنحلين الكسالى ؟

لم يتم ذلك في الداخل ولكن على الحدود . حدث ذلك في أستراسيا (أرض الراين) وهي أرض تقع على جانبي الحدود الرومانية القديمة ، وتعرّضت لإغارات متصلة من سكسوني غابة أوربا الشمالية ، ومن الآفارين[٢] القادمين من السهب الأوراسي . ولم يحدث في نوستريا (وهي تعادل شمال فرنسا بوجه التقريب) وهي أرض أخصبتها الثقافة الرومانية القديمة ومحمية من إغارات البرابرة . وتُبدي مآثر شارلمان ، مدى تأثير الحافز المترتب على هذا الضغط الخارجي : حملاته السكسونية الثماني عشرة ، واستئصال الآفارين ، والنهضة الكارولنجية التي تعتبر أولى مظاهر انبثاق الطاقة الثقافية والذهنية في عالمنا الغربي .

ثم حدث انتكاس إثر رد الفعل الأوستراسي هذا ، على الحافز الناتج عن الضغط . فكان أن خلفه رد فعل ساكسوني قفز إلى المقدمة بعد فترة تقل عن القرنين ، وتتجلى في عهد أوتو الأول . فإنه وإن اعتُبر إدماج أراضي البرابرة السكسونيين في المسيحية الغربية مأثرة خالدة لشارلمان ،

---

(١) Debout Les Morts كلمة مأثورة عن صف ضابط فرنسي اسمه بريكار Péricart قالها في ٨ أبريل ١٩١٥ عندما كان الألمان يهاجمون خندقه وكان المدافعون عنه قد ماتوا أو أصيبوا بإصابات قاتلة . فصمدوا وصدوا الهجوم الألماني . (المترجم)

(٢) الآفاريون شعب ذو نزعة حربية ينتمي بأصله إلى العنصر التتري . استوطن سهب نهر الفولجا ومشارف القوقاز . وقد خدموا منذ عام ٥٥٨ ميلادية في جيش الإمبراطور جوستنيان واستطاعوا منذ عام ٥٦٦ ميلادية حتى النصف الأول من القرن السابع أن يوسعوا أملاكهم كثيرا وأن يخضعوا لسلطانهم البلغار وشعوب الدانوب السلافية . وأخيراً قضى شارلمان عليهم عام ٧٩٦ فزالوا كجنس ذي كيان خاص . (المترجم)

بيد أن هذا النجاح نفسه قد فتح طريق تحويل الحد — وتحويل العامل الحافز معه — من مقاطعته أستراسيا الظافرة إلى مقاطعة ساكسونيا التى فتحها. ففى عصر أوتو، أثار الحافز ذاته فى ساكسونيا، نفس رد الفعل الذى أثاره فى أستراسيا من قبل، إبان عهد شارلمان. وكما هزم شارلمان الساكسونيين، كذلك هزم أوتو الونديين[١]. وبعد ذلك دُفعت حدود المسيحية الغربية دفعا منتظما متواصلا فى اتجاه الشرق.

وتم فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تحويل البقية الباقية من برابرة القارة إلى غربيين بفضل نظامين جديدين : المدن والرهبانيات العسكرية. فلم يتم ذلك إذن بفضل زعامة ملوك ورائيين انتحلوا لأنفسهم اللقب الإمبراطورى الرومانى، مثل شارلمان وأتو. وقامت مدن الهانسا والفرسان التيوتون فيما بينهم بدفع حدود المسيحية الغربية من نهر الأودر إلى نهر دفينا. وكانت تلك هى الجولة الأخيرة فى هذا الصراع القديم. وتم به محو برابرة القارة من على وجه الأرض قبل ختام القرن الرابع عشر. أولئك البرابرة الذين طفقوا طوال ثلاثة آلاف سنة يغيرون على حدود ثلاث حضارات متعاقبة : المينووية والهلينية والغربية.

وهكذا أصبحت المسيحية الغربية والمسيحية الأرثوذكسية عام ١٤٠٠ ميلادية متاخمتين. بعد أن كانت تعزلهما فى القارة عزلا تاما الواحدة عن الأخرى، عصابات البرابرة التى كانت تعترض اتصالها على طول خط يمتد عبر القارة عرضاً، من بحر الأدرياتيك إلى المحيط القطبى (المتجمد) الشمالى.

ومن الطريف ملاحظة كيف حدث على هذا الحد المتحرك الفاصل بين حضارة تتقدم، وبربرية ترتد. وقد حدث بعد انقلاب الضغط الذى أصبح متواصلا منذ أن تولى أوتو الأول إتمام عمل شارلمان، أن انتقل عامل الحفز تدريجيا كلما تقدم الهجوم الغربى المضاد. فلقد عانت دوقية ساكسونيا

(١) من الشعوب السلافية فى شرق ألمانيا. (المترجم)

ـ مثلا ـ بعد انتصارات أوتو على الونديين ، نفس الخسوف الذى تعرضت له أوستراسيا قبل ذلك بقرنين ؛ بعد انتصارات شارلمان على السكسونيين : إذ فقدت ساكسونيا عام ١٠٢٤ ميلادية (أى بعد ذلك التاريخ بستين عاماً) سيطرتها ، وانشطرت قطعاً .

بيد أن الأسرة الإمبراطورية التى خلفت الأسرة المالكة السكسونية ، لم تنشأ فى الجهة الشرقية من خط الحدود الزاحف ، مثلما انبعثت الأسرة المالكة السكسونية شرق حدود الكارولنجيين . بل انبعثت أسرة الفرانكونيين[١] ـ وجميع الأسر المالكة التى أعقبتها والتى حملت اللقب الإمبراطورى (هوهنستوفين ولوكسمبرج وهابسبرج) ـ على رافد أو أكثر من روافد نهر الراين . ولم يتح خط الحدود البعيد ـ عندئذ ـ عامل الحفز إلى هذه الأسر المالكة الإمبراطورية المستخلفة . ولذلك لن يدهشنا تدهور السلطة الإمبراطورية تدهوراً متصلا ابتداء من الجانب الأخير من القرن الحادى عشر فصاعداً . وحدث ذلك رغماً عن عظمة بعض الأباطرة الأفراد كفردريك بارباروسا .

على أن الإمبراطورية التى أعادها شارلمان قد عاشت ـ وإن كانت بلا شك شبحاً لشبح ـ « لا هى بالمقدسة ولا هى بالرومانية ولا هى إمبراطورية »[٢] لتؤدى كرة أخرى دوراً حيوياً فى حياة المجتمع الغربى السياسية . وتدين باستعادة حيويتها إلى حقيقة مبناها أن سلسلة الأحداث وتنظيمات الأسر المالكة قد أقامت فى نهاية العصور الوسطى الأخيرة آل هابسبرج ـ وأصلهم من الراين ـ فى النمسا . ولما حملت هذه الأسرة على عاتقها

---

(١) نسبة إلى فرانكونيا دوقية قديمة بين ساكسونيا العليا وبوهيميا . وكانت تعتبر الوطن الأصلى للفرنجة . وقد استولى عليها كلوفيس فى القرن الخامس الميلادى ثم أصبحت تحت سلطان شارلمان وأصبحت بعد معاهدة فردون عام ٨٤٣ ميلادية مركز المملكة الألمانية . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى تسمية إمبراطورية شرلمان بالإمبراطورية الرومانية الألمانية المقدسة والجملة الأخيرة قالها فولتير ساخراً . ... (المترجم)

تبعات خط حدود جديد تماما ، استجابت لحافز جديد هيأته تلك التبعات .

وهنا يجب أن ننتقل إلى بحث هذا الموضوع .

٥ ـ فى العالم الغربى الموجه للإمبراطورية العثمانية :

شرع ضغط الأتراك العثمانيين على العالم الغربى يأخذ شكلا جدياً مع حرب المائة عام بين العثمانيين والمجر . وهى حرب بلغت ذروتها فى معركة وهاتش عام ١٥١٦ ؛ وترتب عليها استئصال مملكة المجر ، التى عاشت إبان القرون الوسطى . وكانت المجر التى قد انتصبت متحفزة تحت قيادة جون هانيادى وولده ماتياس كورفينوس ، أشد خصوم العثمانيين مراسا ، حتى ذلك الوقت . بيد أنه رغماً عن تعزيز قوات المجر بفضل اتحادها مع بوهيميا منذ عام ١٤٩٠ وما بعدها ؛ فإن عدم التكافوء بين قوى كلا الخصمين كان من العظم بحيث فاق الجهد طاقة المجر ، مما ظهر أثره فى نتيجة معركة موهاتش . وما كان إلا لكارثة فى مثل هذه الضخامة أن تكفل إبراز تأثير نفسانى قمين بجمع شمل بقية المجر مع بوهيميا والنمسا فى اتحاد وثيق مستديم فى ظل أسرة هابسبرج التى كانت تحكم النمسا منذ عام ١٤٤٠ ميلادية . ولبث هذا الاتحاد قرابة الأربعمائة سنة ، ولم يحل إلا فى سنة ١٩١٨ ، وهو نفس العام الذى شاهد انهيار الدولة العثمانية نهائياً ، وهى التى كانت وجهت قبل ذلك بأربعة قرون ضربة موهاتش الديناميكية .

حقاً ، تحددت مقادير مملكة هابسبرج الدانوبية منذ لحظة إنشائها ، وفقاً لمقادير عدوتها الدولة التى دفعها ضغطها إلى الحياة . ولقد اتفق من الناحية الزمنية عصر بطولة الملكية الدانوبية ، مع الفترة التى أحس فيها العالم الغربى باستفحال وطأة الضغط العثمانى . وقد يبدأ عصر البطولة هذا مع الحصار العثمانى العقيم الأول لفيينا عام ١٥٢٩ الذى انتهى مع الحصار الثانى خلال سنة ١٦٨٢ ــ ٣ ميلادية .

ولقد أدّت العاصمة النمسوية فى هاتين المحنتين الجسيمتين — فى المقاومة البائسة التى أبداها العالم الغربى للهجوم العثمانى — نفس الدور الذى قامت به مدينة فردون فى المقاومة الفرنسية للهجوم الإلمانى فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . وكان الحصاران اللذان منيت بهما فيينا ، نقطتى تحول فى التاريخ العسكرى العثمانى . إذ أوقف فشل الحصار الأول موجة الفتح العثمانى خلال قرن قبلها التى ظلت تمخر عباب الدانوب صوب أعاليه . وتبين الخريطة ما يصعب على الكثيرين تصديقه من غير تثبت ، وهو أن المسافة بين فيينا والقسطنطينية أطول من المسافة منها إلى مضيق دوفر . هذا ولقد انبنى على فشل الحصار الثانى ، تواصل ارتداد العثمانيين بعده — رغما عن الوقفات والتقلبات — حتى دفع الحد التركى إلى الوراء ، من جنوب شرق ضواحى فيينا — حيث توقف من سنة ١٥٢٩ إلى سنة ١٦٨٣ — إلى شمال غربى ضواحى أدرنه[١] .

إلا أن خسارة الإمبراطورية العثمانية لا تعنى ربحا للملكية هابسبرج الدانوبية ، إذ لم يظل عصر بطولة الملكية الدانوبية قائما بعد تداعى الإمبراطورية العثمانية . فإن انهيار الدولة العثمانية الذى فتح المجال فى جنوب شرق أوروبا لتشغله قوى أخرى ، قد رفع عن كاهل الملكية الدانوبية بالتبعية ، الضغط الذى كان يحفزها إلى ذلك الوقت . فكان أن أعقبت الملكية الدانوبية فى انهيارها ، الدولة التى أبرزتها ضرباتها إلى الوجود فى البداية ، ثم شاركتها الإمبراطورية العثمانية فى نهاية المطاف .

وإذا ما ألقينا نظرة على الإمبراطورية النمسوية خلال القرن التاسع عشر وقتما أصبحت الإمبراطورية العثمانية — التى كانت ذات خطر يوما ما — رجل أوروبا المريض ، نجدها تعانى فى الوقت الحاضر عجزا مزدوجا : إذ لم يقتصر الحال على انتفاء صفة دولة الحدود عنها ، فقد استحال نظامها القائم على وضع عدة دول تحت لواء واحد والذى برهن على كفاية استجابته

---

(١) يشير المؤلف إلى موقعة أدرنه خلال الحرب العالمية الأولى . (المترجم)

للتحدى العثمانى إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ، استحال إلى حجر عثرة تقف فى سبيل تحقيق المثل العليا القومية التى شاعت خلال القرن التاسع عشر .

فقد أضاعت دولة هابسبرج الملكية القرن الأخير لوجودها فى محاولات ترمى إلى عرقلة تعديل خريطة أوروبا على أساس قومى ، وقدر لجميع محاولاتها الفشل . فاضطرت أن تتحايل على العيش جنبا إلى جنب مع الإمبراطورية الألمانية الجديدة والمملكة الإيطالية الجديدة ببذلها ثمنا : التنازل عن السيطرة على ألمانيا وعن حيازة أرض فى إيطاليا وتوفيقها فى توحيد مصالحها مع المصالح القومية للمجريين والبولونيين فضلا عن مصالح العناصر الألمانية فى ممتلكاتها بفضل قبولها نظام الحل المتوسط[1] عام ١٨٦٧ الذى وفق بين الألمان والمجر وكذلك التوفيق بين الألمان والبولنديين فى جاليسيا . على أن الإمبراطورية النمسوية لم ترغب أو لم تستطع الوصول إلى اتفاق مع الرومانيين والتشيكوسلوفاكيين واليوجوسلافيين الموجودين فى إقاليمها ، فكان أن حققت طلقات المسدس فى ساراجيفو[2] نذير محوها من خريطة العالم .

ولنلق أخيراً نظرة على اتجاهى النمسا وتركيا المتعارضين فى فترة ما بين الحربين العالميتين :

لقد خرجتا كلاهما من حرب سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ جمهوريتين ، وجردتا من إمبراطوريتهما اللتين جعلتاهما وقتا ما جارتين وخصمين . بيد

(١) نظمت العلاقات المالية والتجارية بين النمسا والمجر بمقتضى معاهدة عقدت للمرة الأولى عام ١٨٦٧ ، وجددت فى أعوام ١٨٧٨ ، ١٨٨٧ و ١٩٠٢ و ١٩٠٧ . وكانت الغاية الأساسية من عقدها تعيين المبلغ الذى تساهم به كل من المجر والنمسا فى الميزانية الإمبراطورية وتقسيم الدين الأهلى بينهما على أساس نسبى . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى مصرع ولى عهد النمسا بطلقات مسدس أحد الوطنيين الصربيين عام ١٩١٤ وهى الحادثة التى كانت بداية الحرب العظمى الأولى . (المترجم)

أن التشابه ينتهى هنا . إذ كان النمسويون ، من بين الشعوب الخمسة التى كانت فى الجانب الخاسر أشدهما إصابة وأكثرها خضوعا ، وتجلى ذلك فى تقبلهم الوضع الجديد فى استكانة صحبها استسلام مطلق أو أسف عميق . بينما كان الأتراك على العكس ، الشعب الوحيد من بين الشعوب الخمسة الذى شهر سلاحه فى فترة تقل عن عام من تاريخ الهدنة فى وجه الدول الظافرة وأجبرها على تعديل معاهدة الصلح التى حاول المنتصرون فرضها ، من أساسها[١] .

وبهذا استطاع الأتراك تجديد شبابهم وتحوير مصيرهم . وهم ما عادوا الآن يقاتلون فى ظل أسرة مالكة عثمانية منهارة ، للمحافظة على هذه المقاطعة أو تلك من إمبراطورية متداعية ، بل يشنون مرة أخرى حرب حدود بعد تخلى أسرتهم المالكة عنهم . ويتبعون زعيما[٢] اختاروه من بين صفوفهم لفضائله ، على غرار اختيارهم سلطانهم الأول عثمان مستهدفين المحافظة على أراضيهم لاتوسيع نطاقها . هذا ويقع ميدان معركة إين أونو In onu التى تم فيها العمل الحاسم فى الحرب اليونانية التركية خلال أعوام ١٩١٩/١٩٢٢ ، فى ذلك التراث الأصلى الذى اقتطعه آخر السلاجقة إلى العثمانيين قبل هذا التاريخ بستمائة سنة .

ودارت بذلك العجلة دورة كاملة :

٦ ــ فى العالم الغربى على حدوده الغربية :

تعرض المجتمع الغربى فى عصوره الأولى لضغط تناول بالإضافة إلى حده القارى الشرقى ، جبهات ثلاث تقع فى الغرب :

الأول : ضغط ما يدعى بـ « الهدب الكلتى »[٣] فى الجزائر البريطانية ومقاطعة بريتانى[٤] .

---

(١) معاهدة سيفر . (المترجم)

(٢) يقصد المؤلف كمال أتاتورك . ولقد كتب هذا الفصل قبل وفاة أتاتورك عام ١٩٣٦ . (المترجم)

(٣) الهدب : شراشيب ، ويقصد الحد . (المترجم)

(٤) مقاطعة فى شمال فرنسا . (المترجم)

الثانى : ضغط الفايكنج الاسكندنافين على الجزائر البريطانية وعلى طول الساحل الأطلسى للقارة الأوربية .

الثالث : ضغط الحضارة السورية ممثلة فى الغزاة المسلمين الأوائل فى شبه جزيرة إيبريا .

الأول : ضغط الهُدب الكلتى :

كيف حدث أن قاد صراع البقاء بين الإمارات البربرية البدائية السريعة الزوال والإمارات التى كونت ما يسمى « بالنظام السباعى »[1] Heptarchy إلى انبثاق دولتين متطورتين ومستمرتين فى الكيان السياسى الغربى .

إذا تمعّنا فى العملية التى أدت إلى حلول مملكتى إنجلترا واسكتلندا مكان إمارات النظام السباعى ؛ سنجد قوام العامل الحاسم فى كل مرحلة ، استجابة تحد بهيئة ضغط خارجى . ومن هنا يتأتى إرجاع بدء مملكة اسكتلندا إلى التحدى الذى وجهه عنصرا البيكت Picts والاسكوت لإمارة نورثمبريا الانجلوسكسونية Northumbria .

وقد قام بإنشاء عاصمة اسكتلندا الحالية أدوين دوق نورثمبريا — وهى لا تزال تحمل اسمه — لتكون قلعة حدود لنورثمبريا مواجهة للبيكت فيما وراء مصب نهر فورث ومواجهة للبريطانيين فى ستراثكلايد Strachclyde الانجلوسكسونية .

ونشأ التحدى وقتما غزا البيكت والاسكوت أدنبره عام ٩٥٤ ميلادية وأجبروا نورثمبريا على التنازل لهم عن لوثيان بكاملها . وأثار التنازل عن تلك المقاطعة السؤال الآتى :

هل يقدّر لمنطقة الحدود المسيحية الغربية تلك ، الاحتفاظ بثقافتها

---

(١) لقب يطلق على سبع ممالك هى : كنت ، انجليا الشرقية ، ساسكس ، وسكس ، نورثامبريا ، مرسيا ، أسكس ، وكانت قوام إنجلترا السكسونية . وقد أصبحت وسكس فى مستهل القرن التاسع أقواها فأمكنها استيعاب الممالك الأخرى . (المترجم)

المسيحية الغربية رغماً عن تغيير النظام السياسى ، أو هل يكتب لها الاستسلام لثقافة الغرب الأقصى الدخيلة : ثقافة الغزاة الكلت ؟

كانت لوثيان أبعد من أن تستسلم ، بل إنها استجابت للتحدى وفتنت غزاتها مثلما فتنت اليونان المهزومة روما المنتصرة .

ولقد فتنت ثقافة الأرض المغزوة الملوك الاسكتلنديين حتى دفعتهم إلى اتخاذ أدنبره عاصمتهم . وباتوا يشعرون ويسلكون كما لو أن لوثيان هى موطنهم وأن المنطقة الجبلية Highlands ما هى إلا جزء غريب قصى من أملاكهم . فكان أن استعمرت شواطئ اسكتلندا الشرقية حتى مصب نهر موراى . ودفع مستوطنون من عنصر الإنجليز — من أصل لوثيانى — خط حدود الأرض الجبلية إلى الوراء تحت رعاية الحكام الكلت وعلى حساب السكان الكلت الذين تجمعهم روابط القرابة بالملوك الاسكتلنديين الأصليين . وأصبحت اللغة المسماة بالاسكتلندية تعنى اللغة الإنجليزية التى يتحدث بها أهل لوثيان ، عوضاً عن أن تعنى اللهجة الغالية Gaelic التى كان يتحدث بها السكوت الأصليون — وهذا من عجائب الأسماء . ولم تترتب النتيجة النهائية لغزو الاسكوت والبيكت للوثيان : زحزحة الحدود الشمالية الغربية للمسيحية الغربية إلى الوراء من نهر فورث[١] إلى نهر تويد[٢] ؛ بل كانت دفعها إلى الأمام ، حتى أصبحت تشمل جزيرة بريطانيا العظمى بأكملها .

وهكذا أصبحت إمارة من إمارات النظام السباعى الإنجليزى سيطر عليها الكلت ؛ نواة مملكة اسكتلندا الحالية . كما يلاحظ أن إمارة نورثمبريا

---

(١) نهر فورث ، نهر فى اسكتلندا ويبلغ طوله ١٠٧ أميال ويصب فى بحر الشمال ويسمى مصبه هناك Firth of Forth والـ Firth كلمة اسكتلندية تعنى « خور » .
(المترجم)

(٢) نهر تويد Tweed نهر فى جنوب اسكتلندا يصرف معظم مياه الجانب الشرقى من الأراضى الاسكتلندية الواطئة . ويصب فى بحر الشمال بعد مروره بمقاطعة نورثمبرلند . ويبلغ طول النهر ٩٧ ميلا ويصرف مياه أرض مساحتها ١٨٧٠ ميلا مربعاً . (المترجم)

التى أنجزت هذه المأثرة الفذة ، كانت مقاطعة حدود بين نهرى تويد وفورث لا مقاطعة داخلية بين نهر تويد وخور همبر[1] .

ولو زار أحد الرحالة المستنيرين نورثمبريا فى القرن العاشر عشية التنازل عن لوثيان للاسكوت والبيكيت ، لقرر بكل تأكيد أنه لا ينتظر لأدنبره مستقبل زاهر ، وأنه إن قدر لأية مدينة فى نورثمبريا أن تصبح عاصمة دائمة لدولة متحضرة لكانت هى يورك . ولما كانت يورك تقع فى أوسع سهول شمال بريطانيا المزروعة ، فقد أصبحت فعلا مركزاً عسكرياً لولاية رومانية ثم موطن الكرسى الاسقفى للكنيسة ؛ فضلا عن صيرورتها قاعدة مملكة دانيلو Danelau الاسكندنافية[2] التى لم تدم طويلا . لكن هذه المملكة قد استسلمت عام ٩٢٠ إلى ملك وسكس ، فانحدرت يورك — من ثم — إلى مستوى مدينة ريفية إنجليزية . ولا يوجد فى الوقت الحاضر شيء يُعيد إلى الذهن حقيقة المصير العظيم الذى كان مقدراً لها فى وقت ما ، عدا ضخامة حجم مقاطعة يوركشير غير العادى بين المقاطعات الإنجليزية .

وأية إمارة من إمارات النظام السباعى الواقعة جنوبى همبر عقد لها لواء الزعامة وكونت نواة مملكة إنجلترا المستقبلة ؟

نلاحظ أن الإمارات القريبة من القارة الأوربية لم تكن صاحبة الزعامة من بين المتنافسين وقت حلول القرن الثامن الميلادى ، بل كانت إمارتا مرسيا Mercia ووسكس Wessex اللتان تعرضت كلتاهما لعامل حافز انبعث على خط الحدود عند الكلت الذين لم يتم إخضاعهم فى ويلز وكورنوال . كما نلاحظ أن مرسيا ، كانت فى المقدمة فى الجولة الأولى من هذا النضال .

---

(١) خور على الساحل الشرقى لانجلترا يقع بين يوركشير شمالا ولينوكلنشير جنوباً . ولهذا الخور أهمية تجارية كبيرة . ويقع على شاطئيه ميناء هل Hull وجرمسبى Grimsby (المترجم)

(٢) مملكة كانت تضم خمس عشرة مقاطعة إنجليزية وهى المنطقة التى أخضعها الدنمركيون لحكمهم . (المترجم)

وكان الملك أوفا Offa ملك مرسيا يسيطر على قوة أعظم من قوة أى ملك من ملوك وسكس فى عصره . لأن ضغط ويلز على مرسيا ، كان أقوى من ضغط كورنوال على وسكس ، وإن كانت مقاومة أهالى ويلز الغربيين فى كورنوال قد خلفت صدى خالداً فى أسطورة « آرثور »[1] إلا أنه يبدو أن السكسونيين تغلبوا على هذه المقاومة فى يسر نسبى .

ومن الناحية الأخرى يشهد اشتقاق كلمة مقاطعة الحدود March أساساً من اسم مرسيا نفسه ؛ بقسوة الضغط على مرسيا . كما تشهد به من الناحية الأثرية ؛ مخلفات السد الترابى العظيم الممتد من مصب نهر دى Dee إلى مصب نهر سفيرون Severn الذى أطلق عليه اسم Offa's Dyke . ولقد بدا فى تلك المرحلة كما لو أن المستقبل يحالف مرسيا لا وسكس . لكن ظهر زيف هذه التنبؤات فى القرن التاسع وقتما تفوق تحدى اسكندنافيا الجديد تفوقاً ساحقاً ، إلى أبعد حد ؛ على التحدى الوافد من الهدب الكلتى . وفى هذه المرة ، أخفقت مرسيا فى الاستجابة للتحدى على حين استجابت له وسكس بنجاح تحت قيادة الفرد Alffred . ومن ثم أصبحت نواة مملكة إنجلترا التاريخية :

الثانى : الضغط الاسكندناف :

ترتب على الضغط الاسكندناف على شواطئ المسيحية الغربية الواقعة على المحيط فضلا عن انضمام إمارات هبتارشى فى مملكة إنجلترا تحت حكم بيت سدريك Cedric ، انضمام الإمارات المتروكة فى الجانب الغربى من امبراطورية شارلمان ، بعضها إلى بعض ، لتكوين مملكة فرنسا تحت حكم بيت كابيت Capet .

---

(١) أرثور ملك من ملوك البريطانيين أثناء القرن السادس الميلادى. وتغلب على سيرته الصبغة الأسطورية ، الأمر الذى يحدو بالكثيرين إلى الاعتقاد بأنه شخصية أسطورية . وتذكر الرواية أنه قاد الجيش البريطانى (عام ٥١٦ م) ضد الغزاة الساكسون . وقد انتصر جيش أرثور فى موقعة مونت بادون حوالى ٥٢٠ ميلادية . ويقال إنه قتل فى معركة كاملان (٥٣٧ م) . وتذكر الأسطورة أنه أنشأ نظام فرسان المائدة المستديرة . (المترجم)

ودفع هذا الضغط إنجلترا إلى الامتناع عن تشييد عاصمتها فى وينتشستر Winchester العاصمة السابقة لوسكس على مرمى البصر من الويلز الغربيين . وشيدتها بعيدة نسبياً عن الخطر الاسكندنافى ، فى لندن التى « تحملت الحرارة وثقل اليوم[1] » والتى ربما تكون قد هيأت الوسيلة لتحول المعركة الطويلة تحولا حاسماً فى عام ٨٩٥ ميلادية بفضل صدها محاولة ارمادا دانماركية[2] الوصول إلى أعالى نهر التيمس . كذلك لم تشيد فرنسا عاصمتها فى مدينة لاون Leaon التى كانت مقر آخر الكارولنجيين ، ولكن فى باريس التى وقفت تسد الثلمة تحت قيادة والد أول ملوك أسرة كابيت ، وأوقفت محاولة الفايكنج الوصول إلى أعالى نهر السين .

وهكذا تولدت مملكتا إنجلترا وفرنسا الحديثتان ، عن استجابة المسيحية الغربية لتحدى اسكندنافيا البحرى . كذلك صنع الشعبان الفرنسى والإنجليزى الأداة الحربية والاجتماعية القديمة التى امتاز بها النظام الإقطاعى خلال عملية فرض سيطرتهما على هؤلاء الأعداء . ولقد عبر الإنجليز تعبيراً فنياً عن الشعور الذى أثارته فيهم هذه التجربة فى مجموعة جديدة من الشعر الحماسى ، ما تزال باقية منه شذرة فى « أنشودة معركة مالدون » .

وجدير بالملاحظة كذلك أن فرنسا قد أعادت فى نورماندى ، ما حققه الإنجليز فى لوثيان . إذ أحالت غزاة نورماندى الإسكندنافيين إلى جنود لحضارة الشعب الذى غزوه . فبعد انقضاء أكثر من قرن بمدة وجيزة من إبرام « رولان » وأصحابه مع الملك الكارولنجى « شارل الساذج » المعاهدة التى كفلت لهم موطناً دائماً على شاطئ فرنسا على المحيط الأطلسى (سنة ٩١٢ ميلادية) ؛ كانت ذرارى هؤلاء الاسكندنافيين توسع حدود

---

(١) يشير المؤلف إلى عبارة فى الإنجيل تعنى حدة الموقف وثقله . (المترجم)

(٢) تعنى الأرمادا الأسطول القاهر . وهو فى الأصل أسطول أسبانى حاول غزو انجلترا وفشل . (المترجم)

المسيحية الغربية فى البحر الأبيض المتوسط على حساب المسيحية الأرثوذكسية والإسلام . وأخذوا ينشرون ضياء الحضارة الغربية الكامل – كما كان يسطع وقتئذ فى فرنسا – فى مملكتى إنجلترا واسكتلندا الجزيرتين اللتين كانتا ما تزالان حتى ذلك الوقت راقدتين فى الغبش[١] .

- قد يعتبر الغزو النورماندى لإنجلترا – من الناحية الفسيولوجية – العمل الفذ الأخير لأطماع البرابرة الفايكنج التى أصابها الإخفاق حتى ذلك الوقت . لكن هذا التفسير ينطوى من الناحية الثقافية على قسط كبير من السخف . لأن النورمانديين كانوا قد نبذوا ماضيهم الاسكندنافى الوثنى بقدومهم ، لا لنقض ناموس المسيحية الغربية فى إنجلترا ، ولكن لاستكماله .

ومصداقاً لذلك نجد فى ميدان المعركة بهاستنج ، تايفير Taillefer الراوية الحربى النورماندى ، يمتطى جواده فى طليعة الفرسان النورمانديين وينشد وسط المعركة ، مستخدماً اللغة الفرنسية فى إنشاده لا اللغة النوردية . ولم يتغن وقتئذ بأبيات ساجه سجورد[٢] ولكن بأنشودة رولان[٣] .

وعندما فتنت الحضارة المسيحية الغربية الإسكندنافيين الذين غزوا أملاكها ، لم يكن مستغرباً أن تنجح فى تسجيل انتصارها عن طريق حلولها محل الحضارة الاسكندنافية العقيمة فى اسكندنافيا ذاتها .

وسنعود إلى هذا الموضوع عندما نستجمع قائمة الحضارات العقيمة فى دراسة مقارنة .

الثالث : ضغط الحضارة السورية :

تركنا إلى آخر المطاف ، ضغط الحدود الذى كان من الناحية الزمنية

---

(١) الغبش : خط امتزاج النور بالظلام . (المترجم)

(٢) Soga of Sigurd

(٣) Chanson ed Roland

أقدم أنواع هذا الضغط وفاق جميع ما عداه فى شدته ؛ وذلك إن قيس بقدرة حضارتنا المتناهية فى ضآلتها وبشكل ظاهر، إبان طفولتها . وحقاً بلغ هذا الضغط حداً – كما يُبدى جيبون[١] – كاد يلقى بالمجتمع الغربى فى مكان من قائمة الحضارات العقيمة[٢] . إذ كان اكتساح العرب الحضارة الغربية وهى لا تزال فى المهد، ما هو إلا حادث فى رد الفعل الأخير للمجتمع السورى ضد افتئات للهيلينية طويل الأمد، على منطقة المجتمع .

ذلك لأنه لما قام العرب بهذا الواجب والإسلام فى أوج قوته ، لم يتوقفوا حتى استردوا للمجتمع السورى جميع ممتلكاته السابقة فى أوسع نطاقها . ولم يقتصروا على إعادة تكوين إمبراطورية عربية من الدولة السورية العالمية التى كانت قد أدمجت فى الأصل فى الإمبراطورية الأخيمينية الفارسية : بل إنهم واصلوا عملهم بإعادة فتح ممتلكات قرطاجنة الفينيقية القديمة فى إفريقيا وإسبانيا . فبالنسبة للاتجاه الأخير لم يعبروا عام ٧١٣ ميلادية – فى أعقاب هاملكار وهانيبال – مضيق جبل طارق فحسب ، ولكن جبال البرانس كذلك . ومن ثمت – فإنهم وإن لم يفعلوا ما فعل هانيبال فى عبوره الرون والألب ، إلا أنهم سلكوا أرضاً لم يطأها هانيبال من قبل ، لما حملوا أسلحتهم إلى نهر اللوار .

ولا شبهة فى أن الهزيمة التى لحقت بالعرب على أيدى الفرنجة بقيادة جد شارلمان فى موقعة تور عام ٧٣٢ ميلادية تعتبر إحدى وقائع التاريخ

---

(١) ادوارد جيبون هو أوسع المؤرخين الإنجليز شهرة . ولد عام ١٧٣٧ وتوفى عام ١٧٩٤ ميلادية . وقد جعله كتابه « أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ، فى مقدمة المؤرخين العالميين . (المترجم)

(٢) امتد خط حدود ظافر أكثر من ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى شواطئ نهر اللوار فلو كانت هذه المسافة قد ضوعفت لحملت العرب إلى حدود بولندا وإلى هضاب اسكتلندا ولربما كان يدرس الآن تفسير القرآن فى مدارس اكسفورد ولكان وعاظها يشيدون بقداسة وحى محمد وصدقه لشعب مختون . انظر جيبون الفصل ٥٢

Gibbon, E. The History and Fall of the Roman Empire.

الحاسمة . إذ استمر رد الفعل الغربى على الضغط السورى — الذى أبان عن نفسه تلك الموقعة — فى عنفوانه ، وازدادت كمية تحركة على هذه الجبهة ؛ حتى إنه بعد ذلك بسبعة أو ثمانية قرون ، حمل الدافع الذى أوجدته الطليعة البرتغالية؛ المسيحية الغربية خارج شبه جزيرة إيبريا ؛ ودفعها إلى الأمام عبر البحار ، حول إفريقيا إلى جاوه وملقا ومكاو . كما حمل الطليعة الكاستيلية[1] عبر المحيط الأطلسى ، إلى المكسيك وعبر المحيط الهادى ، إلى مانيلا . لقد أسدى هؤلاء الرواد الإيبريون خدمة لا نظير لها للمسيحية الغربية ، بتوسيعهم أفق المجتمع الذى يمثلونه — وبالتالى مجاله — حتى كاد أن يشمل كافة الأراضى المسكونة على الكرة الأرضية وبحارها القابلة للملاحة : ويرد إلى هذه الطاقة الإيبرية أساسا ، ازدهار المسيحية الغربية حتى غدت « المجتمع العظيم » مثل حبة الخردل المضروب بها المثل فى الإنجيل . وترعرعت حتى أصبحت شجرة ، تأتى جميع الأمم إليها .

ويؤكد انبعاث طاقة المسيحية الإيبرية بفضل عامل الضغط الحافز الذى أوجده العرب ، حقيقة مبناها انقضاء هذه الطاقة حالما توقف أثر الضغط المراكشى . وهنا فى القرن السابع عشر ، حل محل البرتغاليين والكاستيليين فى العالم الجديد الذى أبرزه إلى الوجود ؛ متطفلون هولنديون وإنجليز وفرنسيون من أجزاء المسيحية الغربية فيما وراء البرانس . واتفق تاريخ هزيمتهم وراء البحار ، مع وقت زوال عامل الحفز التاريخى فى داخلية بلادهم بسبب استئصال بقايا الموريسكو[2] فى شبه الجزيرة عن طريق الذبح أو الطرد أو إكراههم على التحول عن دينهم .

ويبدو إذن أن علاقة الحدود الإيبرية بالعرب ، تشابه علاقة ملكية هابسبرج الدانوبية بالعثمانيين . إذ كان لكليهما حيوية طالما كان الضغط

---

(١) أى الأسبانيون .

(٢) أى ذرارى المسلمين . (المترجم)

شديداً . ولما أن تراخى الضغط أخذ كل منهم — اسبانيا والبرتغالى والنمسا — يتوانى فخسر مركز القيادة بين الدول المتنافسة فى عالمه الغربى نفسه .

(٥) حافز النقم

١ — الحدادون العرج والشعراء العميان :

عندما تقع نقمة على عضو حى وحده دون الأعضاء الآخرين فى نفس نوعه ، وذلك بفقد القدرة على استخدام عضو معين فى الجسم أو ملكة معينة ، يصبح فى مكنته الاستجابة إلى هذا التحدى بالتخصص فى استعمال عضو آخر أو ملكة أخرى ، حتى يبز أقرانه فى ميدان النشاط الجديد هذا ، ليعوّض قصوره فى الميدان الأول . فنى مُكنة العميان مثلا ، تنمية شعور حساسية اللمس لديهم أكثر مما يتفق عادة للمبصرين

وهذا ما نجده بنفس الطريقة إلى حد ما فى الكيان الاجتماعى . فإن أية جماعة أو طبقة تتناولها النقمة اجتماعيا ، سواء من جراء إصابة أو بفعلها هى نفسها أو بفعل أعضاء آخرين فى المجتمع الذى تعيش فيه ، تستطيع الاستجابة للتحدى المقيّد لحريتها ، أو الذى يحرمها من مزاولة طائفة من أوجه النشاط . وذلك بوساطة تركيز طاقاتها فى ميادين أخرى والتفوق فيها .

ولقد يحسن بدء البحث من أبسط حالة ، مدارها : وضع تحوّل فيه طائفة من العوائق المادية بين بعض الأفراد وبين القيام بالوظائف العادية فى المجتمع الذى هم أعضاء فيه . وحرى بنا أن نستعيد إلى أذهاننا المحنة التى يمر بها الأعمى أو الأعرج فى مجتمع بربرى ، مطلوب فيه من الرجل العادى أن يكون محاربا ، إن احتاج الأمر . فماذا يكون رد فعل الأعرج الهمجى ؟ فإذا كانت قدمه لا تقوى على حمله إلى ميدان القتال ، فما تزال يداه تستطيعان صنع الدرع والسلاح لأقرانه ؛ يرتدونه ويستعملونه . ويكتسب فى الصناعة حذقا تدفعهم إلى الاعتماد عليه مثلما يستند هو عليهم ، وهنا

يصبح صـــورة عادية يومية من هيفيستوس Hephaestus أو فولولكان الأعرج[1] أو من ولاند Wayland الإعرج (الحداد ولاند Wayland) المشهورين فى عالم الأسطورة .

وكيف استجاب البربرى الأعمى ؟ كانت محنته أشد سوءاً ، لأنه يعجز عن استخدام يديه فى الحدادة . إلا أنه ما يزال فى قدرته استعالهما فى العزف على آلة الهارب[2] لتصاحب غناءه . ويستطيع كذلك استخدام عقله فى قرض أشعاره عن أعمال البطولة التى يعجز عن إتيانها ؛ وإن كان يعلم بها بعد حدوثها ، من أقاصيص الجندى غير الفنان عن أقرانه . وبذلك يصبح الشاعر الأعمى وسيلة الخلود التى يتوق إليها المحارب البربرى :

« جنس من الأبطال الشجعان »
« قاتلوا أمام اتريدس وماتوا »
« لم يكن هناك مثل هومير فما كانت أنشودة مقدسة »
« تخلد مآثرهم العظيمة »
« مغمورين لا ينوح عليهم أحد ، مجهولين »
« تخنقهم سحب الليل السرمدى »
« لم يكن هناك شاعر ليمجد »
« أسماءهم بالضياء »[3] .

٢ — الرق :

ما برح الرق من أقسى ضروب النقمة التى لا يفرضها حدث طبيعى ؛ لكنها من تدبير الإنسان وأكثرها شمولا ووضوحا . خذ مثلا سجل حشد

---

(١) إله من آلهة الأساطير عند الرومان كان يختص بصناعة الحديد أو المعدن .
(المترجم)

(٢) الهارب Harp آلة موسيقية تعزف بالأصابع وحدها واخترعها المصريون القدماء .
(المترجم)

(٣) هوراثيوس — الأناشيد ص ٤ — ٩

المهاجرين الهائل الذين جُلبوا إلى إيطاليا أرقاء من جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، إبان هذين القرنين الرهيبين ، بين حرب هانيبال وإقامة « سلم أغسطس » . وغالباً ما تكون العراقيل التى يبدأ فى ظلها هؤلاء الأرقاء المهاجرون حياتهم الجديدة ، فوق ما يتصوره العقل . ولقد كان بعضهم ورثة تراث الحضارة الهلينية الثقافى . وهؤلاء قد شاهدوا عالمهم المادى والروحانى بأكمله ينقلب رأساً على عقب تحت سمعهم وأبصارهم ، عندما نُهبت مدنهم وسيقوا هم ومواطنوهم إلى سوق الرقيق . وكان آخرون من البروليتاريا الداخلية الشرقية للمجتمع الهلينى قد فقدوا تراثهم الاجتماعى فعلا ؛ لكنهم لم يفقدوا مقدرتهم على الشعور بالألم الذى يسببه الرق .

وهناك مثل يونانى قديم يقول « يُجرد يوم الاسترقاق الرجل من نصف رجولته » . لقد تحقق هذا المثل إلى حد رهيب فى انحاط شأن برولتارية روما الحضرية المنحدرة من الرقيق ، والتى لم تكن تعيش على الخبز وحده بل على الخبز والاستعراضات Panem et Circenses ؛ من القرن الثانى قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى ، عندما لم يجدوا قدور اللحم واختفى الناس من على وجه الأرض .

وكانت هـــذه الحياة الطويلة الشبيهة بالموت ، عقوبة الفشل فى الاستجابة لتحدى الاسترقاق . ولا ريب فى أن هذا الطريق — طريق الإبادة الواسع — قد طرقته أغلبية تلك الكائنات الآدمية ؛ ذات الأصول المختلفة ، والأسلاف الذين استرقوا جملة خلال أشأم عصور التاريخ الهلينى .

على أن طائفة منهم ، قد استجابت للتحدى فعلا « بإنجاز شىء » ؛ فى شكل أو آخر .

إذ ارتفع بعضهم فى خدمة أسيادهم حتى أصبحوا المديرين المسئولين لأملاك واسعة . ولما اتسع نطاق ضيعة قيصر نفسه وأصبحت الدولة العالمية للعالم الهلينى ، استمر رجال قيصر العُتقاء يحكمونها . واشترى آخرون — ممن خلع عليهم سادتهم مؤسسات تجارية صغيرة — حريتهم بفضل مدخراتهم

التى سمح لهم سادتهم بالاحتفاظ بها . وصعدوا فى نهاية الأمر إلى الثروة والجاه فى عالم التجارة الرومانية . وظل آخرون رقيقاً فى هذا العالم ، ليصبحوا ملوكاً فلاسفة أو آباء كنيسة فى عالم آخر .

وكان الرومانى الأصيل المنبت – الذى يزدرى بحق سلطة نارسيسوس[1] Naracissus الشرعية أو مباهاة حديث النعمة أمثال تريمالشيو Trimalchio – يبهجه تكريم الحكمة الرصينة لإبيكتيتوس[2] Epictetus العبد الأعرج ؛ بينما لا يسعه سوى الإعجاب بحماس جمهرة العبيد والعتقاء المغمورين الذين كان إيمانهم « يحرك الجبال عن مواضعها » .

ولما شاهدت السلطات الرومانية خلال القرون الخمسة الواقعة بين حرب هانيبال واعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية ، معجزة إيمان الرقيق هذه تجرى تحت أنظارهم وتتكرر متحدية جهودهم لوقف تيارها بالقوة البدنية ؛ اضطرت هى نفسها فى نهاية الأمر إلى الاستسلام لها .

فإذا كان الأرقاء المهاجرون قد فقدوا دورهم وأسرهم وأملاكهم ، إلا أنهم احتفظوا بعقيدتهم . فجلب اليونانيون عقيـــدة باخاناليا[3] Bacchanalia ويونانيو الأناضول عبادة سيبيل Cycbele (وهى دين أهل أفسيس وكانت ربة حيثية الأصل ظلت تعبد طويلا بعد نهاية المجتمع الذى

---

(١) شاب فى الأساطير اليونانية اشتهر بجماله ثم تحول إلى زهرة تحمل نفس الاسم . (المترجم)

(٢) فيلسوف يونانى عاش فى روما طويلا كعبد لدى أحد بطانة الإمبراطور نيرون . وكان يلقى دروسا فى روما فى بدء الأمر ثم نزح عنها إلى نيكوبوليس بعد أن طرد الإمبراطور دوميتيان الفلاسفة من المدينة عام ٩١ ميلادية . وجماع فلسفته استقلال العقل البشرى عن الظروف الخارجية . (المترجم)

(٣) باخاناليا مشتقة من باخوس Bacchus إله النبيذ عند اليونانيين . وكان أساس شعائره أن يلبس النساء والرجال جلود الغزلان والملابس الأسيوية ويقرعون الطبول ويتصايحون باسم باخوس . وقد دخلت تلك العقيدة روما عام ١٨٧ ق . م . (المترجم)

ابتدعت فيه) . وجلب المصريون عبادة إيزيس ، والبابليون عبادة النجوم والإيرانيون عبادة ميترا . كما جلب السوريون المسيحية .

ولقد كتب جوفينال Jevenal فى القرن الثانى المسيحى أن نهر العاصى السورى قد صب مياهه فى نهر التيبر .

وأثار التقاء مياه هذين النهرين مسألة كشفت عن حدود خضوع العبد لسيده .

وقوام هذه المسألة ؛ هل يقدّر لدين البرولتارية الداخلية المهاجر ، اكتساح الأديان المحلية للأقلية المسيطرة فى المجتمع اليونانى ؟

إذ متى التقت المياه ، أصبح من المحال عدم امتزاجها بعضها بالبعض الآخر . ومتى امتزجت لم يبق ثمة ريب كثير حول التيار الذى سيسود ؛ ما لم تُقاوم الطبيعة باستخدام الفن ، أو القوة . ذلك لأن آلهة العالم اليونانى وحاميته ، كانت قد انسحبت فعلا من ذلك الاشتراك الوثيق المُعطى الحياة ؛ الذى كانت تعيش فيه مع عبّادها وقتا ما . فى حين دللت آلهة البرولتارية على أنها « ملاذ عبّادها ومناط قوتهم ، وأنها معونة قائمة فعلا فى وقت الاضطراب » .

وترددت السلطات الرومانية طوال خمسة قرون أمام هذه الاحتمالات ، بين رأيين :

الأول : هل يتحتم عليها أن تتخذ جانب الهجوم على الأديان الأجنبية ؟

الثانى : هل تحدب على تلك الأديان وترعاها ؟

لقد كان كل رب من الأرباب الجديدة يستهوى طائفة من الفئة الرومانية الحاكمة . فكانت ميترا تجد هوى فى نفوس الجنود ، وإيزيس قريبة إلى النساء ، والكائنات السماوية إلى المثقفين ، وديونيسوس إلى أصحاب النزعات الهيلينية ، وسيبيل إلى عبّاد الأصنام .

ويعتبر استقبال مجلس الشيوخ الرومانى عام ٢٠٥ ق . م إبان أزمة حرب هانيبال – بمظاهر التكريم الرسمى – الحجر السحرى أو الشهاب الساقط من السماء حاملا ألوهية سيبيل الذى جُلب إلى روما كتعويذة من مدينة بسينوس الأناضولية – يعتبر ذلك سابقة لترحيب الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون . كما يُعتبر إلغاء شعائر أتباع باخوس الهيلينيين بعد ذلك بعشرين سنة ، تقدمة لاضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .

وإن معركة الآلهة المشبوبة الأوار ، لهى الصورة المطابقة للصراع الأرضى بين المهاجرين الأرقاء وسادتهم الرومان . . وفى هذا الصراع ، فاز العبيد وآلهتهم .

وثمة مثل آخر على الحافز الناشئ عن النقمة يتجلّى فى التميز العنصرى ، كما هو حاصل فى النظام الطائفى للمجتمع الهندى . إذ نشاهد هنا عناصر أو طوائف تُستبعد من مهنة أو حرفة ، فتنجح فى غيرها .

ومع ذلك طفق رقيق أمريكا الشمالية الزنجى المهاجر يتعرض لنقمة مزدوجة : التفرقة العنصرية والرق الشرعى . واليوم ، بعد انقضاء ثمانين عاما على إزاحة العائق الثانى ، ما يزال الإنسان الملوّن المعتوق ، يرزح كما كان فى الماضى تحت ثقل العائق الأول . وليس ثمة ما يقتضى التوسع هنا فى سرد الإيذاء المروع الذى كان يوجهه تجار الرقيق وأصحابه فى العالم الغربى – أوربين وأمريكين – إلى الجنس الزنجى . ولكن ما نعنى هنا بملاحظته دون تعجب وبعد دراستنا لمثيله الهلينى ، هو أن الزنجى الأمريكى إذ يجد الموازين ترجح ضده دائما وبشكل ساحق فى هذه الدنيا ، ينظر إلى عالم آخر ليجد فيه العزاء .

ويبدو أن الزنجى يردّ على التحدى الغربى الهائل ، باستجابة دينية لعلها قد تُدلل فى النهاية – إن أمكن وقتئذ التطلع إلى الوراء – على أنه يمكن

مقارنتها باستجابة الشرقيين لتحدى سادتهم الرومانيين . وفى الواقع لم يجلب الزنجى من إفريقيا آية ديانة من أديان أسلافه ، ليأسر قلوب رفاقه المواطنين البيض فى أمريكا . إذ كان تراثه الاجتماعى البدائى من نسيج رقيق جداً بحيث أنه تناثر فى الهواء — خلا قطع معدودة — أمام ضغط الحضارة الغربية .

وبالأحرى وفد الزنجى إلى أمريكا عارياً روحانياً ، كما وردها عارياً بدنياً . لكنه طفق يواجه تلك الحالة الطارئة بوساطة تغطية عُريه ، بالملابس التى تركها له سيده . كما دأب الزنجى على تكييف نفسه مع بيئته الاجتماعية الجديدة ، باستكشافه فى المسيحية طائفة من المعانى والقيم الطريفة التى جهلتها المسيحية الغربية طويلا . فإنه قد كشف فى الأناجيل بفضل إعماله الفكر البسيط والقابل للتأثر ؛ أن المسيح نبى جاء إلى الدنيا لا ليعزّز مركز الأقوياء ، ولكن ليُعلى من شأن المتواضعين والمستضعفين .

وإذا كان الأرقاء السوريون المهاجرون الذين جلبوا المسيحية إلى إيطاليا الرومانية ذات مرة ، قد أنجزوا معجزة تشييد ديانة جديدة حية قامت مكان ديانة قديمة كانت قد ماتت فعلا ؛ فلعل المهاجرين الزنوج الأرقاء الذين قابلوا المسيحية فى أمريكا ، يُنجزون معجزة أعظم من ذلك ببعثهم الميت إلى الحياة . ولعلّهم بحدسهم الروحى الشبيه بحدس الأطفال ، وعبقريتهم فى التعبير تعبيراً فنياً جميلا عن مشاعرهم الدينية الانفعالية ، يوفقون فى إشعال النار فى رماد المسيحية الخامد الذى نقلناه إليهم نحن الغربيين ؛ إلى أن تتأجج النار المقدسة مرة أخرى فى قلوبهم . فربما أمكن بهذه الطريقة جعل المسيحية تنبض بالحياة مرة ثانية ؛ إن كان مكتوباً لها أن تكون العقيدة الحية لحضارة تحتضر .

فإن قدّر أن يتم ذلك على أيدى كنيسة زنجية أمريكية ؛ لاعتبر ذلك أعظم مراتب الاستجابة الديناميكية التى قام بها إنسان حتى الآن لتحدى النقمة الاجتماعية .

الثالث — الفناريون[1] والقازنلية[2] وسكان الشرق الأدنى :

لا يحتاج لكثير من الأمثلة ؛ موضوع النقمة الاجتماعية التى تصاب بها الأقليات الدينية الكائنة فى نطاق جماعة ، لولا وجودها لتوافر لها التجانس : إذ يعلم الكل قوة استجابة طائفة البيوريتان الإنجليزية لمثل هذا التحدى إبان القرن السابع عشر ؛ وكيف أن هؤلاء الذين ظلوا فى وطنهم استطاعوا عن طريق مجلس العموم أولا ثم جنود كرومويل ذوى البأس الشديد بعد ذلك ، قلب الدستور الإنجليزى ظهراً لبطن ، وكفلوا الفوز النهائى لتجربة نظام الحكم البرلمانى . وكيف أن هؤلاء الذين عبروا البحار منهم قد أرسوا أسس الولايات المتحدة .

وأهم من ذلك دراسة بعض الحالات الأقل شهرة ؛ حيث تنتهى — بفضل قوة قاهرة فرضتها الجماعة المسيطرة — الجماعات الممتازة والجماعات التى أصابتها النقمة ، كلاهما ، إلى حضارات مختلفة ، وإن كانت جميعاً داخلة فى نطاق هيئة سياسية واحدة

ففى الإمبراطورية العثمانية ، زُوِّد جسم المسيحية الأرثوذكسية الأساسى — عن طريق دخلاء ينتسبون إلى عقيدة وثقافة أجنبيين — بدولة عالمية لم يكن المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ليستطيع السير بدونها ، وإن كان قد أثبت عجزه عن إقامتها لنفسه . فكان على المسيحيين الأرثوذكس والحالة هذه ، أن يدفعوا ثمن قصورهم الاجتماعى بزوال سيادتهم فى عقر دارهم . أما الغزاة المسلمون الذين أقاموا السلام العثمانى وحافظوا عليه فى العالم المسيحى الأرثوذكسى ، فقد تقاضوا ثمن الخدمة السياسية التى يؤدونها لرعاياهم

---

(١) الفناريون Phanairiats نسبة إلى فنار (أو المنار) . والفناريون هم سكان الحى اليونانى فى الآستانة . ولقد أطلق هذا اللقب على اليونانيين الذين كانوا يعملون تحت سيطرة العثمانيين . (المترجم)

(٢) نسبة إلى قازان المدينة التترية القديمة . وهى الآن عاصمة جمهورية تتاريا ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد السوفيتى . (المترجم)

المسيحين ، على صورة تفرقة دينية . وهنا كما حدث فى جهات أخرى إستجابت الجماعة التى تناولتها النقمة ، بتحول أفرادها إلى خبراء فى تلك الأوجه التى أرغموا على قصر نشاطهم عليها .

ففى الإمبراطورية العثمانية القديمة لم يكن يُسمح إلا للعثمانيين بتولى الحكم أو حمل السلاح . بل تحول امتلاك الأرض وزراعتها فى بقاع كثيرة من الإمبراطورية من الرعايا المسيحيين إلى سادتهم المسلمين . وفى ظل هذه الظروف ، وصلت الشعوب المسيحية الأرثوذكسية العديدة لأول وآخر مرة فى تواريخها ، إلى تفاهم متبادل غير مصرح به ؛ وربما كان غير مقصود ولكنه كان مع ذلك فعالا ناجعاً ، كما لو كان قد اتفق عليه فعلا . فإذا كان لا يسعهم الآن مزاولة تسليتهم المحببة — قتال بعضهم بعضاً — أو الانخراط فى المهن الحرة ؛ فإنهم تقاسموا فيما بينهم — ضمنا — الصناعات الصغيرة . واستطاعوا بالتدريج استعادة تثبيت مركزهم — على هيئة صناع — داخل أسوار العاصمة الإمبراطورية التى كان قد طردهم منها محمد الفاتح جملة وعن عمد .

وهكذا مكّن الفلاخ من هضاب رومانيا أنفسهم فى المدن بقالين ، كما أقام اليونانيون المتحدثون باليونانية من أرخبيل إيجه واليونانيون المتحدثون بالتركية من قرمان Quaraman الأناضولية المحصورة بالأرض ، تجاراً . وغدا الألبانيون بنائين ، وأبناء الجبل الأسود Montenegrins حمالين وبوابين ، بل حتى البلغار الريفيون حصلوا على معاشهم فى الضواحى سائسى خيل ومنتجى فواكه وخضروات .

كان من ضمن المسيحيين الأرثوذكس الذين أعادوا استيطان القسطنطينية ، جماعة يونانية مفردة دعيت باسم الفناريين حفزهم تحدى النقمة ، إلى درجة أنهم ارتفعوا حتى أصبحوا فى حكم الشركاء ؛ بل وخلفاء احتماليين للعثمانيين أنفسهم فى إدارة الإمبراطورية وقيادتها . وكان الفنار الذى منه استمدت اسمها هذه العصبة من العائلات اليونانية الطموحة ، هو الركن الشمالى الغربى

من استانبول الذى تخلت عنه الحكومة العثمانية لرعاياها المسيحيين الأرثوذكس المقيمين بالعاصمة . فكان مثله مثل حى اليهود أو الغتو[1] . وهناك أقام البطريرك الأكبر بعد تحول كنيسة سانتا صوفيا إلى مسجد . وأصبح البطريرك فى هذا الملجأ الذى لا يبشر بمستقبل ؛ نقطة تجميع ، وعُدّة للمسيحيين الأرثوذكس اليونانيين الذين أثروا من التجارة .

وقد أتم هؤلاء الفناريون مأثرتين ذاتى شأن :

الأولى : فإنهم كتجار على نطاق واسع ، دخلوا فى علاقات تجارية مع العالم الغربى . فاكتسبوا علما بالأساليب والعادات واللغات الغربية .

الثانية : وهم كمديرين لشئون البطريركية ، اكتسبوا خبرة واسعة وفهما متينا بالإدارة العثمانية . مادام البطريرك فى ظل النظام العثمانى القديم هو الوسيط الرسمى بين الحكومة العثمانية وكافة رعاياها المسيحيين الأرثوذكس ، من كل لسان وفى كل إقليم .

ولقد كان هذان الأمران سبب رفعة حظ الفناريين خلال صراع الإمبراطورية العثمانية القديم مع العالم الغربى ، عندما تحوّل التيار ضد العثمانيين نهائيا ، بعد حصار فيينا الفاشل الثانى فى ١٦٨٢ — ١٦٨٣ ميلادية . وترتب على هذا التحول فى المقادير الحربية ، إصابة شئون الدولة العثمانية بطائفة من الارتباكات الهائلة . إذ كان فى استطاعة العثمانيين قبل نكسة عام ١٦٨٣ ؛ الاستناد دائماً على القوة وحدها فى تحديد علاقاتهم مع الدول الغربية . فكان أن واجههم انهيارهم العسكرى ؛ بمشكلتين جديدتين :

الأولى : اضطرارهم إلى التفاوض فى المؤتمرات مع الدول الغربية التى أخفقوا فى هزيمتها فى الميدان .

الثانية : اضطرارهم إلى مراعاة شعور رعاياهم المسيحيين ، لعدم تأكدهم من قدرتهم على السيطرة عليهم .

---

(١) اسم كان يطلق على حى اليهود فى كل عاصمة أوربية . ويستخدمون فى المغرب كلمة « الملاح » للدلالة على الحى الذى يقطنه اليهود . (المترجم)

وبعبارة أخرى ، ما عادوا يستطيعون الاستغناء عن الدبلوماسيين المهرة والمديرين الحاذقين . وكانت الذخيرة الضرورية من الخبرة التى يفتقر إليها العثمانيون أنفسهم ، متوافرة فى الفناريين وحدهم ومن بين رعاياهم . ونجم عن ذلك أن أصبح العثمانيون مكرهين على إغفال الأحداث السابقة والتهاون بمبادئ نظامهم نفسه ؛ بمنح الفناريين الذين جاءت كفاءتهم فى وقتها ؛ احتكار أربع وظائف عليا[1] فى الدولة ؛ وكانت هى الوظائف الرئيسية فى مركز الإمبراطورية العثمانية السياسى الجديد .

ومن ثم برزت باستمرار سيطرة الفناريين السياسية طوال القرن الثامن عشر الميلادى . وبدا كما لو أن الضغط الغربى ؛ يعمل على تزويد الإمبراطورية ، بطبقة حاكمة جديدة ، مستقاة من الذين كانوا خلال قرون عديدة ضحايا الاضطهاد العنصرى والدينى .

إلا أن الفناريين فشلوا فى النهاية فى تحقيق « مستقبلهم المُرتجى » . لأن الضغط الغربى على الكيان الاجتماعى العثمانى فى أواخر القرن الثامن عشر ، بلغ حداً من العنف والشدة ، غيّر من طبيعة هذا الكيان الاجتماعى تغييراً مفاجئاً . فلما كان اليونانيون أول رعايا الإمبراطورية العثمانية الذين أقاموا علاقات وثيقة مع الغرب ، فهم أول من أصابتهم جرثومة القومية الغربية الجديدة . وهذه نتيجة بعيدة لصدمة الثورة الفرنسية .

وكان اليونانيون بين اندلاع الثورة الفرنسية ونشوب حرب الاستقلال اليونانية ، تحت سحر أمنيتين متنافرتين :

الأولى ــ عدم تخليهم عن طموح الفناريين فى الاستيلاء على جميع ميراث العثمانيين والإبقاء على الإمبراطورية العثمانية سليمة واعتبارهم إياها « مشروعاً رائجاً » تحت الإدارة اليونانية .

---

(١) الوظائف هى : ترجمان الأسطول ، وترجمان الباب العالى ، وهسبودار الأفلاخ ، وهسبودار البغدان . (المترجم)

الثانية ـ تطلّعهم فى نفس الوقت إلى تحقيق مطمحهم فى إقامة دولة وطنية مستقلة ذات سيادة تخصّهم وحدهم : يونان يونانية ، كما كانت فرنسا فرنسية .

ولقد ظهر تعارض هذين المطمحين بطريقة قاطعة عام ١٨٢١ وقتما حاول اليونانيون تحقيق كليهما معاً . لأنه عندما عبر الأمير الفنارى هيبسيلانتى : Hypsilanti نهر بروث من قاعدته فى روسيا ليقيم نفسه سيداً على الإمبراطورية العثمانية ، وهبط الزعيم المانيوتى بترو بك مافروميخاليس من مكانه المنيع فى جبال شبه جزيرة المورة لينشئ اليونان المستقلة ، كانت العاقبة هى النتيجة المنتظرة . إذ قاد اللجوء إلى السلاح إلى دمار المطامح الفنارية . فإن العصا الجوفاء التى طفق العثمانيون يستندون عليها أكثر من قرن ، قد وخزت يدهم . فثار غضبهم لهذه الخيانة ، ودفعهم إلى تحطيم العكاز الغادر إرباً والوقوف على أقدامهم معتمدين على أنفسهم بأى ثمن . وقابل العثمانيون فعل الأمير هيبيسيلانتى الحربى ؛ بتدميرهم بضربة واحدة صرح النفوذ الذى دأب الفناريون على تشييده لأنفسهم فى سلام منذ عام ١٦٨٣ . وكانت تلك هى الخطوة الأولى فى سبيل استئصال كافة العناصر غير التركية من بقايا الميراث العثمانى ، وهى عملية بلغت منتهاها بإقصاء الأقلية المسيحية الأرثوذكسية من الأناضول عام ١٩٢٢ .

فى الواقع فإن انطلاق القومية اليونانية الأولى ؛ قد أضرم الشرارة الأولى للقومية التركية المناظرة لها .

وهكذا فشل الفناريون فى الواقع فى كفالة تلك « المشاركة العليا » فى الإمبراطورية العثمانية ؛ مشاركة بدت كما لو كانت مقدرة للفناريين . على أن دنوهم من تحقيق النجاح ، يدل على القوة التى استجابوا بها لتحدى النقمة ؛ والواقع يعتبر تاريخ علاقتهم بالعثمانيين مثلا رائعاً للقانون الاجتماعى الذى يحكم التحدى والاستجابة .

وبهذا المعيار يتأتى تفسير الاختلاف بين اليونانيين والأتراك : ذلك

الاختلاف الذى أثار كثيراً من الاهتمام والعصبية ؛ اختلاف لايقاس بالمعايير العنصرية والدينية التى استعملها كلا الفريقين فى المجادلات المعروفة . من ذلك أن الكتاب المتصرين لليونان ، والآخرين المتصرين للأتراك يتفقون على نسبة الاختلافات التاريخية فى المزاج بين اليونانيين المسيحيين والأتراك المسلمين ، إلى صفة أصيلة فى العنصر أو إلى سمة ثابتة فى الدين ، ولا يختلفون إلا فى قلب القيم الاجتماعية التى يخصصونها لهذه الكميات فى الحالتين . إذ نجد المتصرين لليونان يقولون بفضيلة كامنة فى الدم اليونانى وفى المسيحية الأرثوذكسية ، ورذيلة أصيلة فى الدم التركى وفى الدين الإسلامى . أما المتصرون للأتراك فإنهم ينقلون كلا من الفضيلة والرذيلة من جانب إلى الآخر .

وحقيقة الأمر أن ثمة حقائق واقعية لا ريب فيها تدحض الافتراض المشترك الذى يقوم عليه هذان الرأيان :

فمثلا ، بالنسبة لموضوع العنصر الطبيعى ، لا جدال فى أن دم أتباع أرطغرل من أتراك آسيا الوسطى الذى يجرى فى عروق الأتراك المعاصرين ، لا يتعدى كونه قطرة ضئيلة . إذ تطور الشعب التركى العثمانى إلى أمة بفضل استيعاب السكان المسيحيين الأرثوذكس الذين عاش العثمانيون بينهم طوال القرون الستة الأخيرة . فأصبح لايوجد الآن من الناحية العنصرية سوى القليل جداً للمفاضلة بين الشعبين .

وإذا كان فى هذا الكفاية لدحض التفسير غير العلمى للاختلاف بين اليونانى والتركى من أساسه ؛ فنستطيع تقويض التفسير الدينى غير العلمى بإلقاء نظرة على شعب تركى مسلم آخر يعيش وعاش زمناً طويلا فى ظل ظروف لا تشابه ظروف الأتراك العثمانيين ، بل تشابه ظروف رعاياهم اليونانيين الأرثوذكس السابقين : فإن على نهر الفولجا توجد جماعة تركية مسلمة تدعى القازنلين[1] ، ظلت خاضعة طوال بضعة قرون لحكومة روسيا

(١) نسبة إلى مدينة قازان وهى الآن عاصمة جمهورية تتاريا ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد السوفييتى . (المترجم)

المسيحية الأرثوذكسية وعانت الكثير من النقمة العنصرية والدينية نفسها فى ظل هذا الحكم الأجنبي الذى يماثل النظام الذى فرضه العثمانيون على المسيحيين الأرثوذكس .

فأى نوع من الناس هؤلاء القازانليون ؟ نقرأ عنهم :

« إنهم يمتازون بالأمانة والتدبير والجد . . . والتجارة هى المهنة الرئيسية للتركى القازانلى . . . . وصناعاته الرئيسية : الصابون والغزل والنسيج . . . . وهو يتقن صناعتى الإسكافى والحوذى . .. ولم يكن يسمح حتى نهاية القرن السادس عشر بقيام المساجد فى قازان ، وكان التتر يرغمون على العيش فى حى منفصل ، بيد أن عدد المسلمين ساد تدريجياً[1] » .

ولعل هذا الوصف للأتراك الذين اضطهدهم الروس أيام القياصرة ، ينطبق فى جوهره على وصف المسيحيين الأرثوذكس الذين اضطهدهم الأتراك إبان عنفوان الإمبراطورية العثمانية . وما برح الاشتراك فى التعرض للنقمة بسبب الدين ، هو العامل الأساسي فى ارتقاء كلتى الجماعتين . وولد فيهما على مر القرون رد فعل متماثل تجاه هذه المحنة المشتركة ؛ الأمر الذى أوجد « مشابهة عائلية » بين أحدهما والآخر . وهى مشابهة أزالت تماماً التباين بين السمات الأصلية لكل من المسيحية الأرثوذكسية والإسلام .

ويشترك فى هذه « المشابهة العائلية » أتباع طائفة أخرى من الجماعات الدينية التى تعرضت للاقتصاص بسبب عقيدتها الدينية والتى استجابت للاقتصاص بنفس الطريقة . أولئك هم الكاثوليك الرومانيون فى الشرق الأدنى الخاضعون للإمبراطورية العثمانية . إذ كان فى وسعهم – مثل الفناريين – أن يتفادوا النقمة بالارتداد عن دينهم واعتناق دين سادتهم . لكن قلائل

---

(١) الأميرالية البريطانية Manual on the Turanians and Pan-Turanianism ص ١٨١ – ١٨٤

هم الذين عنوا باتباع هذا السبيل : فإنهم على العكس ، قد نصبوا أنفسهم – مثل الفناريين – لاستغلال المناسبات المحدودة التى تركت مفتوحة أمامهم والتى تخلّفت عن عجزهم الذى فُرض عليهم فرضاً تعسفياً . فأسفر ذلك عن مزيج عجيب منفر ، مزيج يجمع بين خشونة الخلق وأسلوب الخنوع . ولعل ذلك المزيج هو طابع كافة الجماعات الاجتماعية التى وضعت فى هذا الوضع الخاص : ولم يغيّر من الأمر شيئاً احتمال انحدار مسيحىّ الشرق الأدنى من الناحية الطبيعية من صلب شعوب المسيحية الغربية : سكان جنوا والبندقية فى القرون الوسطى والفرنسيون والهولنديون والإنجليز المعاصرون ، وهى شعوب تعتبر من أشد الشعوب تعالياً وتمتاز بالنزعة الحربية والروح العالية .

ففى الجو الخانق السائد فى جحيم العثمانى ، لا بد لهم من أحد أمرين :

الأول : إما الاستجابة لتحدى النقمة الدينية ، بنفس الطريقة التى استجاب له أمثالهم من الضحايا من مختلف الأصول :

الثانى : وإما الهلاك :

ولقد افترض العثمانيون إبان قرون سيطرتهم الأولى ، أن أوروبا الغربية تسكنها كلها « سلالات دنيا همجية من أمثال سكان الشرق الأدنى » : وتعزى فكرتهم هذه إلى أنهم لم يعرفوا الشعوب المسيحية الغربية – الفرنجة كما كانوا يدعونهم – إلا عن طريق ممثليها من سكان الشرق الأدنى : ثم قادتهم زيادة معرفتهم بهم إلى تنقيح رأيهم . ثم خلص العثمانيون إلى تحديد فاصل قاطع يفرق بين « فرنجة الماء العذب » و « فرنجة الماء الملح » : فكان فرنجة الماء العذب أولئك الذين ولدوا وتربوا فى تركيا فى جو الشرق الأدنى والذين استجابوا عن طريق اكتساب خلق الشرق الأدنى . أما فرنجة الماء الملح ، فإنهم أولئك الذين ولدوا وتربوا فى وطنهم فى فرنجستان[1] ، وجاءوا إلى تركيا كباراً بعد أن تشكلت طبائعهم :

---

(١) فرنجستان الاسم الذى كان يطلقه الأتراك خلال العصر العثمانى على « أرض الفرنجة » . (المترجم)

ولقد تحيّر الأتراك إذ كشفوا أن وجود الهوة النفسانية التى تفصلهم عن « فرنجة الماء العذب » الذين يقيمون بين ظهرانيهم دائما ، لم تظهر فى معاملتهم فرنجة ما وراء البحار . فكان الفرنجة المجاورون لهم جغرافيا والمشاركون لهم فى الوطن ، غرباء عنهم ؛ فى حين اتضح أن الفرنجة القادمين من بلد بعيد ، رجال لهم نفس انفعالاتهم .

وتفسير ذلك بسيط للغاية فعلا : فلقد كان فى وسع التركى وفرنجى الماء المالح أن يفهم أحدهما الآخر ، نظرا للتشابه الواسع بين أسس كل منهما الاجتماعية . إذ تربى كل منهما فى بيئة كان هو فيها سيّد داره . ووجد كلاهما — من الناحية الأخرى ، صعوبة فى فهم فرنجى الماء العذب واحترامه ؛ بسبب اختلاف أساسه الاجتماعى ، عن أساس كليهما . فإنه لم يكن ابن الدار ولكن طفل الحى المنعزل « الغتّو » . وأضفى عليه هذا الوجود الاقتصاصى ، مزاجا ظل كل من الفرنجى الذى تربى فى بلاد الفرنجة ، والتركى الذى ترعرع فى تركيا ، بعيداً عن تأثيره .

٤ — اليهود :

لاحظنا نتائج التفرقة الدينية فى حالة انتماء ضحايا النقمة إلى نفس المجتمع الذى ينتمى إليه مرتكبوه ؛ من غير أن نناقش الفكرة طويلا ؛ ويعتبر البيوريتان الإنجليز ، أحد الأمثلة العديدة المألوفة . وناقشنا كذلك بتطويل أكثر ، أمثلة من تاريخ الإمبراطورية العثمانية فى حالة انتماء ضحايا التفرقة الدينية ، إلى حضارة تخالف حضارة مضطهديهم . وتبقى حالة يمثل فيها ضحايا التفرقة الدينية مجتمعا مندثرا يعيش كمجتمع متحجر ليس إلا . ولقد ذُكرت قائمة مثل هذه المتحجرات فى صفحة سالفة ؛ ويبيء كل واحد منها شواهد على نتائج مثل هذه النقم . بيد أن أعظمها بروزا هو بلا مراء أحد بقايا المجتمع السورى المتحجرة : اليهود ؛

وقبل أن نمضي إلى تبيان علة هذه المأساة الطويلة العمر التي لم تبلغ نهايتها بعد[١] ، نلاحظ أن بقية سورية أخرى — البارسيين — قد أدت في نطاق المجتمع الهندي — نفس الدور الذي يؤديه اليهود في جهات أخرى — وتُبدي الكثير من نفس الخبرة في ميدان التجارة والمال . كذلك ما برحت بقية سورية أخرى — المينوفيستيون[٢] الأرمن الغريغوريون — يؤدون الكثير من مظاهر الدور نفسه في عالم الإسلام .

وإذا كانت الصفات المميزة لليهود في ظل النقمة معروفة تماماً ، إلا أن ما يعنينا استكشافه هنا ، هو هل تعزى تلك الصفات — كما يفترض عادة — إلى الروح التي يتميز بها اليهود ســواء باعتبارهم عنصراً أو طائفة دينية ، أو ما هي إلا صفات اصطنعتها صدمة النقمة ؟ ولعل النتائج المستخلصة من الأمثلة الأخرى ، تجعلنا نميل مقدماً إلى جانب الرأي الأخير ، إلا أننا سنناقش الدليل بتفكير غير متحيز .

ويتأتى فحص الدليل بطريقتين :

الأولى : مقارنة النفسية المميزة التي يُظهرها اليهود وقت إخضاعهم للنقمة بسبب دينهم ، بتلك النفسية بعد ما تخفي حدة النقمة أو تزول كلية .

الثانية : مقارنة طابع اليهود الذين خضعوا للنقمة أو ما يزالون خاضعين لها ، بطابع الجماعات اليهودية الأخرى التي لم يوجه إليها قط حافز النقمة .

واليهود الذين يظهرون بكل جلاء في الوقت الحاضر الصفات اليهودية المألوفة جيداً — والتي تلقب عادة بـ « اليهودية » والتي تنطبع في أذهان الأمم عامة ، حتى لتصبح علامة اليهودية الدامغة دائماً وفي كل مكان — هم يهود

---

(١) كتب المستر توينبي هذا الجزء من كتابه قبل أن يفتح اضطهاد النازي اليهود فصلا جديدا من القصة وأشد هولا . فلا توجد إذن أية إشارة إلى هذا الفصل فيما يجيء بعد .
(الملخص)

(٢) القائلون بالطبيعة الواحدة — أي الطبيعة الإلهية — للسيد المسيح عليه السلام .
(المترجم)

شرق أوروبا الاشكنازيين الذين ظلوا فى رومانيا والأراضى المتاخمة لها التى كانت داخلة فى الإمبراطورية الروسية تحت ما يسمى « الحظيرة اليهودية » . محصورين أدبياً ، إن لم يكن بحكم التشريع ، فى حى خاص بهم يدعى « الغيتو » ؛ بفعل تلك الأمم المسيحية المتأخرة التى كان من نصيب اليهود أن يعيشوا بين ظهرانيها :

ونجد النفسية اليهودية بالفعل أقل وضوحاً بين يهود هولندا وبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة المتحررين . وإذ نتأمل فى قصر الفترة التى انقضت منذ تحرير اليهود قانوناً فى هذه البلاد الأخيرة ، وكيف أن تحررهم الأدبى ما يزال أبعد من أن يكون كاملا حتى فى بلاد الغرب المستنيرة نسبياً ، فإننا لن نبخس مغزى تغير النفسية الذى يبدو هنا واضحاً [1] .

ولعلنا نلاحظ أيضاً فى يهود الغرب المتحررين ، أن الذين هم من أصل اشكنازى ، ووفدوا إليه من الحظيرة اليهودية ؛ ما تزال تبدو فى نفسيتهم روح يهودية أشد مما يبدو فى نفسية « السيفارديم » الأقل عدداً الذين يقيمون بين ظهرانينا ، والذين قدموا أصلا من دار الإسلام .

ويتأتى تعليل هذا الاختلاف بتذكير أنفسنا بالتباين فى تاريخ هاتين الجماعتين اليهوديتين :

ينحدر اليهود الاشكنازيون من اليهود الذين اغتنموا فرصة فتح الرومانيين أبواب أوروبا ، فحققوا أرباحاً من ممارسة تجارة التجزئة فى مقاطعات ما وراء الألب شبه الهمجية . وتضاعفت محنة هؤلاء الاشكنازيين باعتناق

---

(١) ويقول المستر سمرفيل مختصر الكتاب : « أستطيع بصفتى مدرسا بمدرسة عامة أن أبدى أنى قد لاحظت عدة مرات أن الأولاد اليهود فى المدرسة العامة الذين يتفوقون رياضيا يجدون – من ثم – أمامهم الطريق مهيئا لتقدير زملائهم ، وتقل فيهم مظاهر النفسية « اليهودية » عن مظاهرها فى الأولاد اليهود الأقل حظا . والصبى غير اليهودى العادى لا يعتبرهم من اليهود بأية حال من الأحوال أيا ما تكون سحنتهم أو ألقابهم » .

الإمبراطورية الرومانية المسيحية ثم انهيارها . إذ أصبحوا يعانون من تعصب الكنيسة المسيحية ، ومن ازدراء البرابرة . إذ لا يستطيع الهمجى أن يحتمل مشاهدة مقيم غريب يحيا حياة منعزلة ويحصل على ربح بفضل التبادل التجارى الذى كان الهمجى يفتقر إلى المهارة اللازمة لممارسته بنفسه . فاندفع المسيحيون الغربيون مسيرين بهذه المشاعر ، إلى اضطهاد اليهودى ، طالما لا غنى لهم عنه . ثم طردوه بمجرد ما أحسوا بقدرتهم على الاستغناء عنه .

وبالأحرى صاحب قيام المسيحية الغربية وامتدادها ، دفع الاشكنازيين شرقا من حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة فى أرض الراين ، إلى حدود المسيحية الغربية فى « الحظيرة » .

وفى داخل المسيحية الغربية الآخذة فى الانتشار ، طفق اليهود يُطردون من بلد بعد آخر ؛ كلما بلغت الشعوب الغربية المتعاقبة مستوى معينا من الكفاية الاقتصادية . مثلما طردهم من انجلترا إدوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧ م) . فى حين قُبل هؤلاء اليهود المنفيون من داخل القارة فى أقاليم الحدود المتقدمة ، بل إنهم دعوا للإقامة فى بلد بعد الآخر إبان المراحل الأولى لتحولها الغربى ، باعتبارهم روادا تجاريين : لكنهم ما لبثوا أن تعرضوا للاضطهاد ثم طردوا فى النهاية مرة أخرى ، بمجرد أن أصبحوا غير ضروريين للحياة الاقتصادية فى ملجئهم الوقتى .

وفى الحظيرة ؛ توقفت هذه الرحلة الطويلة لليهود الاشكنازيين من الغرب إلى الشرق ، وبلغ اضطهادهم ذروته . وذلك لأنه هاهنا — عند نقطة التقاء المسيحية الغربية بالمسيحية الأرثوذكسية الروسية ، أُمسك باليهود وطحنوا بين شقى الرحى . وعندما نشدوا فى هذه المرحلة معاودة الارتحال شرقا ، سدّت « روسيا المقدسة » الطريق فى وجوههم . بيد أن أمم الغرب الرئيسية التى كانت البادئة بطرد اليهود فى القرون الوسطى ، بلغت فى هذا الوقت — لحسن طالع الاشكنازيين — مستوى من الكفاية

الاقتصادية لم تعد تخشى معه تلك الأمم تعريض نفسها للمنافسة الاقتصادية اليهودية ، مثلما حدث فى انجلترا فى عصر الكومنولث وقتما أذن كرومويل (١٦٥٣ — ١٦٥٨) لليهود بالعودة إلى انجلترا .

وجاء تحرير اليهود فى الغرب فى الوقت المناسب ، ليهيئ مخرجا جديداً لاشكنازى « الحظيرة » ، عندما وصلت بهم رحلتهم القديمة نحو الشرق إلى الحائط الذى لا منفذ له والذى يكوّن حد « روسيا المقدسة » الغربى . وطفق مدّ الهجرة الاشكنازية يتراجع طوال القرن الماضى من الشرق إلى الغرب : من « الحظيرة » إلى انجلترا والولايات المتحدة . ولم يكن مستغربا أن تبدى الاشكنازية — وهــذا ماضيها — التى أودعها بيننا تراجع المد والجزر هــذا ، ما يدعى بالنفسية اليهودية بشكل أكثر وضوحا من السفاردية ، إخوانهم فى الدين ، الذين وضعهم طالعهم فى أماكن كانوا فيها أسعد حالا .

ويفسّر ضعف حدة « الروح اليهودية » الذى نلاحظه بين مهاجرى طائفة السفاردية من أسبانيا والبرتغال ، بحياتهم السابقة فى دار الإسلام : ففى فارس وفى المقاطعات الرومانية التى استولى عليها العرب فى نهاية الأمر ، وجد أصحاب التشتت اليهودى أنفسهم فى مركز أسعد نسبيا . بل إنه من المؤكد أن وضعهم فى عهد الخلافة العباسية ؛ لم يكن أقل ملاءمة لهم من وضع اليهود فى الوقت الحاضر فى تلك البلاد الغربية الذين تحرر فيها اليهود فى وقتنا هذا ؛ إن المصيبة التاريخية التى حلّت بالسفارديم هى بانتقال شبه جزيرة أيبريا تدريجيا من المسلمين إلى المسيحيين الغربيين ؛ وهو الانتقال الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر ، وقتما عرض عليهم غزاتهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة : الإبادة ، أو الطرد ، أو اعتناق المسيحية .

ولنلق نظرة على مآل أفراد سفاردية شبه الجزيرة الأيبرية الذين أنقذوا حياتهم بقبولهم إحــدى طريقى الاختيار الأخيرتين : وهم الذين ما تزال

ذريتهم باقية حتى اليوم . وجد أولئك الذين آثروا المنفى ملاذا لدى أعداء أسبانيا والبرتغال الكاثوليكيتين : فى هولندا وتركيا وتوسكانى[١] . أما أولئك الذين قصدوا تركيا ، فقد شجعهم حماتهم من الأتراك العثمانيين على الإقامة فى القسطنطينية وسالونيك وفى المراكز الحضرية الصغيرة فى الروميلى ، ليسدوا الفراغ الناشئ عن زوال الطبقة اليونانية المتوسطة الحضرية السابقة أو فنائها . فاستطاع اللاجئون السفارديون فى ظل هذه الظروف المواتية ، أن يتخصصوا فى التجارة وأن تروج أحوالهم من غير أن يؤدوا الثمن ، وإظهار « نفسية اشكنازية » :

أما بالنسبة للمارانوس – يهود شبه جزيرة أيبريا – الذين ارتضوا اعتناق الدين المسيحى منذ أربعة أو خمسة قرون مضت – فقد هبطت حدة صفاتهم اليهودية المميزة إلى حد التلاشى تقريبا . وهناك أكثر من سبب ، يحمل على الاعتقاد بوجود صبغة قوية فى الوقت الحاضر من دم هؤلاء اليهود المرتدين فى عروق الأيبريين سكان أسبانيا والبرتغال ، سيما فى الطبقات العليا والمتوسطة . بيد أنه يصعب على أكثر المحللين النفسانيين حذقا ، أن يستشف أصحاب الأصل اليهودى ، إن عرضت عليه عينات حية من الطبقتين العليا والوسطى الحاليتين من الأسبانيين والبرتغاليين .

ولقد حاول حزب من اليهود الذين حررهم الغرب ، فى العصور الحديثة استكمال تحرر جماعتهم بإقامة دولة قومية وفقاً للنسق الغربى . إذ يهدف الصهيونيون فى نهاية المطاف إلى تخليص الشعب اليهودى من العقدة النفسية الشاذة التى كونتها قرون النقمة . وعند هذا الهدف الأخير المُرتجى ، يلتقى الصهيونيون مع المدرسة المنافسة لهم ذات الفكر اليهودى المتحرر[٢] .

---

(١) كان دزرائيل يعتبر نفسه منحدرا من بعض هؤلاء الأخيرين . ويحتمل أن يكون على حق . وإن كانت روايته لتاريخ أسرته ، تتسم بالإغراق كثيرا فى الخيال . (المؤلف)

(٢) ويتأتى ذلك بإدماج اليهود فى كل دولة فى عناصرها الأخرى . (المترجم)

إذ يتفقون مع الاندماجيين[١] فى الرغبة فى علاج اليهود من وضعهم كشعب شاذ . إلا أنهم يفترقون عنهم فى مدى تقديرهم طريقة الاندماجيين التى يعتبرونها غير وافية بالغرض .

وقوام المثل الأعلى للاندماجيين ، أن يصبح اليهودى فى هولندا أو انجلترا أو أمريكا مجرد مواطن هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يهودى الدين . ويستندون فى ذلك إلى أنه ليس ثمة ما يبرر إخفاق المواطن اليهودى فى أى بلد مستنير ، فى أن يصبح مواطناً مندمجاً راضياً فى هذا البلد ؛ لمجرد تصادف توجهه إلى المعبـــد اليهودى يوم السبت ، عوضاً عن الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد .

ويرد الصهيونيون على ذلك بإجابتين :

الأولى — تُشير إلى أنه بفرض قدرة « طريقة » الإدماج على إحداث النتيجة التى ينسبها لها المدافعون عنها ، فإنها قابلة للتطبيق فقط فى تلك البلاد المستنيرة . وأمثال هؤلاء من اليهود يكوّنون قلة ضئيلة جداً من يهود العالم .

الثانية — تدّعى أنه حتى فى ظل أحسن الظروف موافقة ، لن يتأتى حل المشكلة اليهودية بهذه الطريقة . لأن كون المرء يهودياً ، شىء أبعد مدى من كونه يهودى الدين .

واليهودى الذى يسعى إلى تحويل نفسه إلى هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يشوّه — فى أعين الصهيونيين — شخصيته اليهودية ، دون أن يكون لديه أى نية فى اكتساب شخصية الهولندى الكاملة أو أية جنسية أخرى يقع عليها اختياره من بين جنسيات الأمم . فإذا أراد اليهود أن ينجحوا فى أن يصبحوا « مثل بقية الأمم الأخرى » ، فأحرى أن تنفذ عملية الاندماج — كما يدعى الصهيونيون — على أساس قومى لا فردى . فبدلا

(١) Assimilationists

من أن يحاول الأفراد اليهود عبثاً الاندماج بحيث يصبحوا أفراداً إنجليزيين أو هولانديين يجب على الشعب اليهودى نفسه أن يتحول إلى شعب يماثل الشعب الإنجليزى . وذلك بإنشاء وطن قومى يغدو فيه اليهودى كالإنجليزى فى إنجلترا ، سيداً فى بيته الخاص .

ورغماً عن أن الحركة الصهيونية كمشروع عملى لا يتجاوز عمرها نصف قرن ، إلا أن النتائج جاءت فى هذه الفترة الوجيزة مصدقة لفلسفتها الاجتماعية فعلا . إذ تحول أبناء الغيتو فى المستعمرات الزراعية اليهودية فى فلسطين ، خلافاً لما يتوقعه الكل ، إلى طبقة زراعية رائدة تبدى الكثير من خصائص الأسلوب غير اليهودى فى الاستيطان[١] . ويكمن سوء طالع التجربة الأليم فى إخفاقها فى استرضاء سكان البلاد العرب الذين كانوا موجودين فى فلسطين قبلهم[٢] .

يتبقى تسجيل كيان بعض الجماعات اليهودية المعروفة قليلا والتى تجنبت النقمة طوال تاريخها بارتدادها إلى أمكنة منيعة نائية حيث أظهرت جميع خصائص الفلاحين الأشداء ، بل الجبليين الغلاظ ، مثل يهود اليمن فى الركن الجنوبى الغربى من شبه جزيرة العرب ، والفلاشا فى الحبشة ، ويهود القوقاز الجبليين ، ويهود القرم الكريمشاكيين الذين يتكلمون التركية[٣] .

---

(١) كتب الأستاذ توينبى هذا قبل الحرب العظمى الثانية ، أى قبل أن يقيم الصهيونيون الوطن القومى المزعوم بالقوة العارمة . ولقد عارضهم الأستاذ توينبى معارضة شديده بدت فى تصريحاته وكتاباته وبخاصة فى الموسوعة البريطانية . (المترجم)

(٢) يستخلص بعد استعراض هذا الفصل عن حياة اليهود ، أن يهود العالم الإسلامى هم الوحيدون من بين يهود العالم الذين خلت حياتهم من العقد النفسية التى تمكنت فى نفوس اليهود الآخرين . وذلك بفضل سماحة الإسلام ودماثة أخلاق أهله . (المترجم)

(٣) حدث تغير كبير فى أوضاع هذه الجماعات اليهودية بعد أن كتب الأستاذ توينبى هذا الكتاب . فقد هاجر اليهود اليمنيون إلى إسرائيل مدفوعين بإغراء الصهيونية . (المترجم)

الفصل الثامن

الوسط الذهبي

(١) الإفراط والتفريط

بلغنا الآن فى بحث هذا الموضوع نقطة نستطيع عندها استخلاص النتيجة :

فلقد أثبتنا أن الحضارات تتوالد فى البيئات التي تتسم بالمشقة غير العادية ، والتى لا تتسم بسهولة الحياة فيها سهولة غير مألوفة . وقادنا هذا إلى استقصاء فيما إذا كان هذا — أو لم يكن — أنموذجاً لقانون اجتماعى يمكن التعبير عنه فى العبارة : « كلما عظم التحدى اشتد الحافز » . وقدّمنا عرضاً للاستجابات التى استثارتها خمسة أنواع من الحوافز :

البلاد الشاقة ، الأرض الجديدة ، الضربات ، الضغوط ، النقم .

وتنبئ نتيجة استعراضنا فى الحالات الخمس عن صحة القانون . بيد أنه ما يزال علينا أن نبحث مدى صحة القانون صحة مطلقة .

فهل لو زدْنا شدّة التحدى إلى ما لا نهاية ، فهل نضمن بذلك اشتداد الحافز إلى ما لا نهاية ، وزيادة غير متناهية فى الاستجابة إن جوبه التحدى بنجاح ؟ أو هل تبلغ نقطة تؤدى بعدها الشدة المتزايدة إلى مفعول متناقص ؟

بل وإذا تعدينا هذه النقطة فهل نصل إلى نقطة ثانية ، يصبح عندها التحدى من الشدة بحيث يزول كل احتمال فى الاستجابة إليه بنجاح ؟ وفى هذه الحالة هل القانون هو أن « أعظم التحديات حفزاً يوجد فى متوسط بين التفريط والإفراط فى الشدة » ؟ .

وهل هناك تحد زائد عن الحد ؟

إننا لما نجابه حتى الآن مثالا لهذه الحالة . وهناك عدة حالات لم نذكرها بعد ، تتسم بتطرفها لعملية التحدّى والاستجابة . فلم نذكر بعد حالة

البندقية وهي مدينة شُيّدت على أعمدة غُرست في الطين على شواطئ بحيرة ضحلة ملحة ، لكنها فاقت في القوة والثراء والمجد جميع المدن التي بُنيت على الأرض الصلبة في وادي نهر البو الخصيب . كذلك لم نذكر حالة هولندا ، وهي بلاد استُنقذت من البحر فعلا ؛ ولكنها امتازت مع ذلك في التاريخ إلى أبعد حد ، عن أية قطعة أرض تماثلها في المساحة في سهل شمال أوربا . والمثل يقال عن سويسرا المحمّلة بحمل من جبال لا تُبشر بالخير . ومن ثم قد يبدو أن أكثر أراضي أوربا الغربية قسوة ، هي التي حفزت سكانها على أن يبلغوا — في ميادين مختلفة — مستوى من الرقي الاجتماعي أرفع مما بلغته أية شعوب أخرى في المسيحية الغربية .

بيد أنه توجد ثمة اعتبارات أخرى :

فإنه وإن بلغت حالات التحدي الثلاثة هذه غاية الشدة ، إلا أن مداها قاصر على أحد العنصرين اللذين يكونان بيئة أي مجتمع . فإنها تحديات متعلقة بالأرض الشاقة ، ولا شك . إلا أن شدة هذا الموقع الطبيعي لا تعتبر في ذاتها تحدياً ، بل نجدة . إن أُخذ في الاعتبار الجانب البشري من التحدي : الضربات ، الضغوط ، النقم . لأن هذا الموقع هو الذي حفظها من المحن البشرية التي تعرّض لها جيرانها . فالبندقية بقيامها على ضفافها الطينية ، وانعزالها عن القارة بفضل بحيراتها الضحلة ، قد نجت من الاحتلال العسكري الأجنبي طوال قرابة ألف سنة (٨١٠ — ١٧٩٧ ميلادية) . كذلك أنقذت هولندا مراكزها الرئيسية أكثر من مرة ، بقلب الجهاز الذي يحفظ وجودها وفتح السدود . فما أكبر التباين مع تاريخ جارتيها لومبارديا والفلاندرز ، ميداني الحرب المألوفين في أوروبا .

وبالطبع يتيسر جداً إيراد أمثلة على جماعات فشلت في الاستجابة لتحديات معينة ؛ إلا أن ذلك لا يدل على شيء . لأن الاستقصاء قد أظهر أن كل تحد من التحديات التي نالت في النهاية استجابة ظافرة ، قد خيّب

بوجه عام أمل المستجيبين إليه أو حطمهم واحداً بعد الآخر ، قبل أن يأتى فى نهاية الأمر دور المستجيب المنتصر لدخول الحلبة فى المرة المائة أو الألف . وهذا هو « إسراف الطبيعة » المشهور الذى يطفر إلى الذهن منه حشد من الأمثلة :

فمثلا خيّب التحدى الطبيعى لغابة أوروبا الشمالية ، أمل الرجل البدائى خيبة كبيرة . ولما كان الرجل البدائى فى أوروبا الشمالية يفتقر إلى أدوات قطع أشجار الغابة ، ويجهل كيفية الاستفادة من تربتها فى الزراعة حتى لو كان قادراً على تنظيفها من الأشجار ؛ فقد اقتصر – من ثم – على اجتناب الغابة والقعود القرفصاء على الكثبان الرملية والهضبات الجيرية ، حيث نجد الآن آثاره على هيئة دولمن : Dolmen[1] وأحجار صوانية وما إلى ذلك . وكان يسعى وراء الأراضى التى هزأ بها خلفاؤه بعد ذلك على اعتبار أنها أراضى رديئة ، وقتما كانت الغابة تخرّ تحت وطأة فؤوسهم . وبالفعل كان تحدى الغابة المعتدلة عند الرجل البدائى ، أشد هولا من تحدى السهول الجليدية . وقادته فى أمريكا الشمالية فى النهاية إلى التزام خطة تتسم بقلة مقاومة ، تتجه صوب القطب الشمالى وراء الحد الشمالى للغابات . فكان أن تحدد بصره بابتكار ثقافة الأسكيمو ، استجابة لتحدى الدائرة القطبية .

بيد أن تجربة الإنسان البدائى لا تدل على أن تحدى غابة أوروبا الشمالية كان زائداً عن الحد ؛ بمعنى أنه كان يستعصى على القوة البشرية الاستجابة إليه استجابة فعالة . فلقد كان فى مكنة البرابرة الذين وفدوا على أعقابه ، البروز نوعاً ما بمساعدة الأدوات والأساليب الفنية التى ربما كانوا قد اكتسبوها من الحضارات التى اتصلوا بها ، إلى تمام الوقت الذى أتى فيه رواد الحضارة الغربية والروسية الأرثوذكسية « ورأوا وغزوا »[2] ؛

(١) الدولمن : عبارة عن بناء يتألف من حجرين ضخمين قائمين – أو أكثر من حجرين فى بعض الأحيان – ويغطيهما حجر ضخم ثالث يكون بمثابة السقف . (المترجم)

(٢) إشارة إلى الكلمة المشهورة التى روى بها قيصر لمجلس الشيوخ فى روما ، سرعة انتصاره على فرناس (Pharnaces) ملك البونت (Pontis) . (المترجم)

وأخضع الرواد الرومانيون فى القرن الثانى قبل الميلاد ، الطليعة الجنوبية لغابة أوروبا الشمالية فى وادى نهر البو ، بعد أن خيبت منذ وقت سحيق آمال طلائع الرومانيين . ولقد صوّر المؤرخ اليونانى بوليبيوس : Polybius الذى زار تلك البلاد بعد فتحها مباشرة ؛ التباين المذهل بين الحياة القاصرة وذات الفقر المتأصل لأسلاف روما الغالين – الذين كانت البقية الباقية منهم ما تزال تعيش هذه الحياة فى الأجمات المهجورة عند سفح جبال الألب – وبين الرخاء والوفرة السائدين فى الأقاليم المجاورة التى تولت روما زمامها . وكثيراً ما كانت ترسم صورة مماثلة فى مطلع القرن التاسع عشر للتعارض بين إخفاق ذوى البشرة الحمراء المزرى ، مع حيوية رواد الإنجليز المتأمريكين الفياضة بالحركة فى غابة كنتكى أو غابة أوهيو البدائيتين .

وإذا انتقلنا من البيئة الطبيعية إلى البيئة البشرية ألفينا نفس الشىء . نجد أن التحدى الذى يهزم مستجيبا ، يتضح فيما بعد بفضل انتصار استجابة منافس تال ، أنه لا يستعصى على الهزيمة .

فلنتأمل مثلا الصلة بين المجتمع الهلينى وبرابرة شمال أوروبا .

كان الضغط هنا متبادلا ، إذ كان كلاهما يضغط على الآخر . ولكن فلنحصر التفاتنا فى ضغط المجتمع الهلينى على البرابرة . فكلما كانت هذه الحضارة ينفذ إشعاعها أعمق فأعمق فى داخلية القارة ، أخذت عندئذ طبقات من البرابرة تجابه الواحدة بعد الأخرى ، مسألة حياة أو موت : هل تستسلم لضغط هذه القوة الغربية الشديدة ، وتعانى تحلل نسيجها الاجتماعى الخاص لتغدو طعاما يندمج فى أنسجة الكيان الاجتماعى الهلينى ؟ أو هل تقاوم الاندماج وتنخرط – بحكم مقاومتها – فى صفوف البروليتاريا الخارجية العتيدة للمجتمع الهلينى ، والتى تصبح على مر الزمن فى داخل هذا المجتمع عند موته وتتغذى على رمته ؟ وبالاختصار هل يصبح البرابرة الجيفة أو النسر ؟

وقد واجه هذا التحدى كلا من الكلت والتيوتون على التوالى . فأما الكلت فقد انهاروا بعد صراع طويل . وأما التيتون ، فقد استجابوا إلى التحدى بعد ذلك النجاح .

وكان انكسار الكلت مثيرا ، لأنهم كانوا قد بدأوا بداية طيبة حصلوا منها على ميزة كبرى جديرة بأن تُصبح أساسا للعمل . وقد هيئت لهم الفرصة نتيجة لخطأ تكتيكى ارتكبه الأترووريون . فإن هؤلاء الحيثيين الذين تحوّلوا إلى ثقافة منافسيهم الهلينيين الذين زاحموهم فى فتح الجزء الغربى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، لم يكتفوا بتثبيت أقدامهم على ساحل إيطاليا الغربى ؛ بل اندفع روادهم بقوة برا عبر جبال الابنين ، وانتشروا طولا وعرضا فى جميع أرجاء حوض نهر البو ، وبذلك حمّلوا قوتهم ما لا تطيق ؛ بينما أثاروا الكلت للقيام بتحطيمهم .

وأدى اندفاع الأتروريين إلى غضبة الكلت ، غضبة ظلّت قائمة حوالى القرنين وحملت الجحافل الكلتية ، لا فوق جبال الابنين إلى روما فحسب (فى ٣٩٠ ق . م) ولكن إلى مقدونيا كذلك (٢٧٩ إلى ٢٧٦ ق . م) وإلى اليونان ، ثم تجاه الشرق نحو الأناضول حيث تركوا طابعهم واسمهم الغلاطيين(١) . ولقد استخدم هانيبال الغزاة الكلت حلفاء أثناء غزوه حوض البو ، إلا أن الفشل كان نصيبهم . فإن الهياج الكلتى قد حفز استجابة الروح الإمبراطورية الرومانية ، فانتهى الأمر بهم إلى التحلل فى مجالهم الأصيل الممتد من ريمنى : Rimini إلى نهر الراين ثم إلى نهر تاين Tyne ، بالإضافة إلى مواقعهم الشرقية على نهرى الدانوب وهالى . فكان أن بتلعتهم الإمبراطورية الرومانية وهضمتهم فى نهاية المطاف .

وعرّض تحلل طبقة الكلت من بين طبقات البربرية الأوربية الطبقة

---

(١) نسبة إلى غلاطية ، مقاطعة فى آسيا الصغرى . (المترجم)

التيوتونية الواقعة خلفها مباشرة إلى نفس التحدى . فكيف كانت تبدو مصائر قبائل التيوتون لمؤرخ عاش فى العصر الأوغسطى ، ولا يزال يذكر تدمير ماريوس للهياج التيوتونى تدميراً تاماً ، و شاهد قيصر يقذف بعتق أريوفيستوس Ariovistus[١] التيوتونى ورجاله جملة خارج بلاد الغال Gaul ؟

إنه ليتنبأ بأن قبائل التيوتون لا بد مقتفين أثر قبائل الكلت ، وربما كان القضاء عليهم أسهل سبيلا ، لكنه سيكون فى ذلك مخطئا . فقد بلغ الحد الرومانى نهر الألب Elbe لفترة وجيزة فقط ، لينسحب فوراً إلى خط الراين / الدانوب ، ويظل هناك . والقاعدة أنه عندما يلبث حد بين الحضارة والبربرية ثابتا ، يعمل الوقت دائماً فى صالح البرابرة . فلقد كانت قبائل التيوتون — عكس الكلت — محصنة صماء ضد غارات الثقافة الهلينية سواء تم نقلها بواسطة الجنود أو التجار أو المبشرين . وكان من الوضوح بمكان فى القرن الخامس الميلادى — وقتما كانت قبائل القوط والوندال تنهب البلوبونيز وتحتفظ بروما لحين دفع ديتها ، وتحتل بلاد الغال وأسبانيا وإفريقيا — أن قبائل التيوتون قد نجحت حيثما فشلت قبائل الكلت . وكان هذا دليلا على أن ضغط الحضارة الهلينية ، لم يبلغ أولا وأخيراً قوة المراس التى تحول دون الاستجابة إليه بنجاح .

كما يمثّل اقتحام الهلينية للعالم السورى إبان حملة اسكندر الأكبر تحدّيا مستديما للمجتمع السورى . فهل يثور أولا على الحضارة الدخيلة ويطردها خارج بلاده ؟

وأمام هذا التحدى قام المجتمع السورى بعدة محاولات للاستجابة

---

(١) زعيم قبيلة ألمانية فى القرن الأول قبل الميلاد . هزمه الرومانيون بقيادة قيصر عندما استنجدت به قبيلتان غاليتان كانتا تحاربان تلك القبيلة الألمانية . (المترجم)

له ، وكان لهذه المحاولات جميعها طابع مشترك . إذ اتخذ رد الفعل المناهض للهلينية لنفسه واسطة فى كل مرة ، شكل حركة دينية . لكن ثمة اختلافاً أساسياً بين الأربعة ردود الفعل الأولى ، ورد الفعل الأخير : إذ بينما أخفقت ردود الفعل الزرادشـتية واليهودية والنسطورية والمينوفيستية ، نجح رد الفعل الإسلامى .

فكان ردا الفعل الزرادشتى واليهودى ، محاولتين لمحاربة نفوذ الهلينية بمساعدة الديانات التى كانت سائدة فعلا فى العالم السورى قبل المداخلة الهلينية : وفى ظل قوة الزرادشتية ، ثار الإيرانيون فى المنطقة الشرقية من الحضارة السورية ضد الهلينية وطردوها فى غضون قرنين من موت الاسكندر ؛ من جميع المنطقة الواقعة شرق الفرات . على أن رد الفعل الزرادشتى قد وصل أقصى حدوده عند هذه النقطة ، وأنقذت روما الهلينية بقية فتوحات الاسكندر .

كذلك لم ينجح رد الفعل اليهودى الذى تمثل فى انتفاضة داخلية قادها المكابيون ، وهى محاولة رنت إلى تحرير الجزء الغربى من موطن الحضارة السورية – على مدى الرؤية من البحر الأبيض المتوسط ، لكنها خسرت خسراناً مبيناً . فلقد ثارت روما لانتصار اليهود المؤقت على السلوقيين[١] فطحنت الجماعة اليهودية فى فلسطين فى الحرب الرومانية اليهودية الكبرى (٦٦ – ٧٠ ميلادية) وسحقتها سحقاً . . وعاد « الرجس المخرّب »[٢] الذى سبق للمكابيين طرحه بعيداً عن قدس الأقداس ، عاد ليبقى . وذلك وقتما أرسى الإمبراطور هادريان مستعمرة آليا كابيتولينا **Aelia Capitolina** الرومانية فى موقع أورشليم السابق .

---

(١) نسبة إلى سلوقوس قائد الإسكندر الأكبر الذى استقل بفارس بعد موته .

(المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى ما ورد فى سفر دانيال (الأصحاح الحادى عشر) من التنبؤات التى أسرّها الرب إلى دانيال ومؤداها استعباد اليهود وتخريب مقدساتهم . لأن الرومانيين قد سحقوا ثورة اليهود التى قادها المكابيون ، وخربوا المقدسات اليهودية .

(المترجم)

أما عن ردّى الفعل النسطورى والمينوفيستى ؛ فقد كانا محاولتين متعاقبتين لاستخدام سلاح طرقته لنفسها الحضارة الهلينية الدخيلة[١] ، ويتكون السلاح من مزيج من معدن هلينى ، وآخر سورى . ففى مرحلة التوفيق للمسيحية الأولى ، اصطبغ جوهر الروح الدينية السورية بالطابع الهيلينى إلى حد جعله ملائماً للنفوس الهلينية وغير ملائم للنفوس السورية . وكان المذهبان الدينيان : النسطورية[٢] والمينوفيستية[٣] محاولتين لتجريد المسيحية من الصبغة الهلينية ، إلا أنهما أخفقتا كردّى فعل ضد المداخلة الهلينية . فكان أن جُرفت النسطورية ذليلة صوب الشرق إلى ما وراء الفرات . واحتفظت المينوفيستية بمركزها فى سوريا ومصر وأرمينيا ، بفوزها بقلوب فلاحين لم يسبق اصطباغهم بالطابع الهلينى . لكنها لم تستطع فى أى وقت أن تحول بين أقلية مسيطرة تقيم داخل أسوار المدينة ، وبين الأرثوذكسية والهلينية .

وقد يكون اليونانى الذى عاصر الإمبراطور هرقل وشاهد انتصار الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى آخر اختبار لقوتها مع الساسانيين الفرس ، وفوز السلطة الدينية المسيحية الأرثوذكسية فى آخر تجربة لقوتها مع الهراطقة النسطوريين والمونوفيستيين ؛ قد يُزجى فى سنة ٦٣٠ ميلادية تقريباً الشكر لله ، لأنه وهب المناعة للثالوث الدنيوى : روما ، الكاثوليكية ، الهلينية . ومع ذلك ففى هذه اللحظة بالذات ، بات رد الفعل السورى الخامس ضد الهلينية وشيكا ، وقدّر للإمبراطور هرقل نفسه أن لا يذوق

(١) أى الحضارة الهلينية ، لأنها اقتحمت العالم السورى . (المترجم)

(٢) مذهب أسسه نطوريوس (مات عام ٤٥٠ ميلادية) وينكر فيه على السيدة مريم لقب « أم الإله » بل يعتبرها أم المسيح الإنسان . والمسيح فى المذهب النسطورى مجرد إنسان خلقته الكلمة الإلهية . وينحصر المذهب الآن فى طائفة الكلدان فى العراق . (المترجم)

(٣) قام المذهب الميتوفيستى فى القرن الخامس الميلادى ، كرد فعل ضد النسطورية . ويؤمن بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية وحدها . وينكر من ثم الطبيعة البشرية على السيد المسيح . ويؤمن بهذا المذهب فى الوقت الحاضر أقباط مصر ومسيحيو أثيوبيا . (المترجم)

الموت إلا بعد أن رأى « عمرا » خليفة النبى محمد ، يفد إلى مملكته ليُبطل تماماً وإلى الأبد ، فعل جميع من طبعوا الأنحاء السورية بالطابع الهلينى ؛ ابتداء من الإسكندر فصاعدا .

فلقد وفّق الإسلام فيما فشل فيه سابقوه ، لأنه استكمل عملية طرد الهلينية من العالم السورى . كما عاد فأدمج فى الخلافة العربية ، الدولة العالمية السورية التى اختزل إسكندر الأكبر حياتها بقسوة قبل أن تستكمل رسالتها ، وقبّما هدم الإمبراطورية الأخيمينية الفارسية . وأخيراً منح الإسلام المجتمع السورى بعد طول الانتظار ، عقيدة دينية عالمية أصيلة . فعاون بذلك المجتمع السورى — بعد انقضاء قرون من توقف حيويته — على أن يُسلم الروح وهو متأكد أنه لن يزول دون أن يُخلف عقبا . إذ غدت العقيدة الإسلامية ، البرقة التى بزغت عنها فى حينها الحضارتان العربية والإيرانية .

وهكذا ، تُبدى الأمثلة سالفة الذكر ، أننا لما نعثر بعد على الطريقة الصحيحة لدراسة المشكلة التى تواجهنا الآن ؛ والتى تهدف إلى العثور على مثال صريح لا لبس فيه ، كان التحدى فيه زائداً عن الحد .

لذا يجب أن نبحث المسألة على أسس أخرى .

(٢) مقارنات بين حدود ثلاثة

١ — مواجهة جديدة للمشكلة :

هل نستطيع العثور على طريقة أخرى للبحث تؤدّى إلى نتائج أفضل ؟

فلنحاول معرفة أثر الشروع فى بحثنا من النهاية المضادة . لقد ابتدأنا حتى الآن بتحد هزم المستجيب إليه . فلنشرع فى البحث ابتداء من حالات كان فيها التحدى حافزاً فعّالا ، وأحدث استجابة ناجحة .

اختبرنا فى الأقسام المختلفة للفصل السابق حالات كثيرة من هذا النوع . وقارنا مثال الاستجابة الناجحة بالحالات المشابهة التى استجاب فيها نفس

الطرف أو طرف يشابهه لنفس التحدى أو إلى تحد يشابهه مع درجة نجاح أقل ؛ عند ما كان التحدى أقل عنفا . فلنعيد الآن النظر فى طائفة من حالات المقارنة هذه بين حدّين ، ولنرى فيما إذا كنا نستطيع زيادة حدّينا إلى حدود ثلاثة .

فلنبحث فى كل حالة عن وضع تاريخى ثالث لم يكن فيه التحدى أقل عنفا ، ولكنه كان أشد عنفا من التحدى فى الوضع الذى ابتدأنا منه . فإذا وفّقنا فى العثور على حد ثالث من هذا النوع ، يُصبح الوضع الذى ابتدأنا منه — أى الاستجابة الناجحة — حداً متوسطاً بين الحدين المتطرفين : وتقل فى أحد هذين الحدين المتطرفين شدة التحدى عما كانت عليه فى الوضع المتوسط ، وتعظم عنه فى الحد الآخر .

فكيف كان نجاح الاستجابة ؟

سبق أن وجدنا فى الوضع الذى يقل عنده التحدى ، أن الاستجابة أقل فعلا . ولكن ماذا عن الوضع الثالث الذى نقدّمه الآن للمرة الأولى ؟ هنا حيث شدّة التحدّى فى أعلا درجاتها ، هل سنجد نجاح الاستجابة فى أعلا درجاته كذلك ؟

لنفترض أننا وجدنا ، على العكس ، أن ازدياد شدة التحدى حتى تصبح فوق المتوسط ، لا تصحبه أية زيادة فى نجاح الاستجابة ، ولكن على العكس تهبط الاستجابة . فإن ثبت أن الأمر كذلك ، نكون قد وجدنا أن التفاعل بين التحدّى والاستجابة ، يخضع لقانون « الأثر المتناقص » . وعندئذ نخلص من ذلك إلى القول بأن :

« ثمة مدى متوسط للشدة يكون الحافز عنـــده فى أعلا درجاته : وسنلقّب هذه الدرجة بالمثلى ، باعتبارها نقيضاً للقصوى » .

٢ — النرويج ، إيسلندا ، جرينلند

سبق أن وجدنا أن الحضارة الاسكندنافية العقيمة أحرزت أعظم

انتصاراتها سواء فى الأدب أو فى السياسة ؛ فى أيسلندا لا فى النرويج أو السويد أو الدنمرك . وكان ذلك استجابة لحافز مزدوج : حافز الهجرة البحرية ، وحافز بلد أكثر جدباً وأشد قسوة ، مما خلفه الملاحون الاسكندنافيون وراءهم :

والآن ، لنفترض أن نفس التحدى ، قد تكرر بشدة مضاعفة : لنفترض أن الرجال الشماليين قد ارتحلوا مسافة خمسمائة ميل واستقروا فى بلد تبلغ شدته بالنسبة لأيسلندا ، مثل شدة أيسلندا بالنسبة إلى النرويج . فهل ينجب هذا الثول[1] وراء الثول ، جماعة اسكندنافية أقوى من الجماعة الأيسلندية بمقدار الضعف ، فى توقدها فى الأدب والسياسة ؟

ليس هذا السؤال افتراضياً ، لأن الشروط التى وضعناها جدلا قد تحققت فعلا ، وقتما وصل الملاحون الاسكندنافيون إلى جرينلند . وليست الإجابة على هذا السؤال موضع شك ، فقد دلل استيطان جرينلند على فشله . فى غضون أقل من خمسمائة سنة ، هُزم مستوطنو جرينلند تدريجياً فى معركة ألمة خاسرة ضد بيئة طبيعية كانت عنيفة للغاية حتى بالنسبة إليهم .

٣ — ديكسى ، ماساتشوستس ، ماين[2]

قارنا بالفل ؛ شدة التحدى الطبيعى الممثل فى المناخ القاسى والأرض الصخرية لإنجلترا الجديدة ، مع التحدى الأقل شدة الذى قدمته فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية ، إلى المستعمرين البريطانيين الأمريكيين : وأظهرنا كيف أن مستوطنى إنجلترا الجديدة قد بزوا جميع منافسيهم فى صراع الاستحواز على القارة . وظاهر أن خط ماسون وديكسون ، يتطابق على وجه التقريب مع الحد الجنوبى لمنطقة ذات تحد مثالى .

وأحرى أن نخاطب أنفسنا الآن ؛ فيما إذا كانت هذه المنطقة ذات

(١) الثول Thule الاسم الذى أطلق قديما على أصقاع أوروبا الشمالية (جرينلندا ، ايسلندا ، النرويج ... الخ . (المترجم)

(٢) Dixie — Massachusetts — Maine

الحافز المناخي الأكبر ، لها حد آخر على الجانب الشمالى ؟ وهاقد أصبحنا بمجرد صياغة السؤال ، ندرك أن الرد بالإيجاب ولاشك :

فإن الحد الشمالى لمنطقة المناخ المُثلى ، يقسّم فعلا إنجلترا الجديدة . لأننا إذ نتكلم عن إنجلترا الجديدة والدور الذى قامت به فى التاريخ الأمريكى ، فإننا نفكر فعلا فى ثلاث ولايات فحسب من ولاياتها الست الصغيرة ، ماساتشوستس ، كونيكتكت ، رودايلند ؛ لا فى ولايات هامبشير الجديدة وفيرومونت وماين .

وما برحت ماساتشوستس إحدى الجماعات الرئيسية التى تتكلم الإنجليزية فى قارة أمريكا الشمالية . فقد قامت فى القرن الثامن عشر بدور رئيسى فى مقاومة النظام الاستعمارى البريطانى . وما تزال ماساتشوستس تحتفظ بمركزها فى المحيط الفكرى وفى محيطى الصناعة والتجارة كذلك ، إلى حد ما ، رغما عن تقدم الولايات المتحدة الهائل منذ ذلك الحين .

ومن الناحية الأخرى ؛ فإن ماين — وإن كانت فعلا جزءاً من ماساتشوستس حتى إقامتها ولاية منفصلة عام ١٨٢٠ — إلا أنها ما برحت عديمة الأهمية . وتعيش اليوم بمثابة قطعة فى متحف ، فإنها أثر من آثار إنجلترا الجديدة فى عصر القرن السابع عشر يسكنها الحطّابون وبحارة الأنهار والصيادون . ويدبر أبناء الأرض القاسية هؤلاء معاشهم الضئيل فى الوقت الحاضر ، بخدمتهم أدلاء لطلاب اللهو الذين يفدون من مدن أمريكا الشمالية لتمضية أجازاتهم فى هذه الولاية . لأن ماين ما تزال كما كانت عليه فى ذلك العصر ، وقلما كان الكثير من هذه المدن لما تبدأ بعد فى الانبعاث من هذا القفر . وعلى حين أن ماين من أقدم مناطق الاتحاد الأمريكى استيطانا ، فإنها أقلها تحضراً وتعقيداً .

فكيف يفسّر هذا التباين بين « ماين » و « ماساتشوستس » ؟

قد يبدو أنه مشقة بيئة إنجلترا الجديدة التى تبلغ درجتها المُثلى فى ماساّتشوستس ، تشتد فى ماين إلى درجة تجعل الاستجابة البشرية فيها متناقضة الأثر . وفعلا لو تابعنا دراستنا أبعد من ذلك شمالا ، لتأكد لنا هذا الفرض : فإن نيوبرونسويك ونوفاسكوشيا وجزيرة الأمير إدوارد ، هى أقل أقاليم كندا رفاهية وتقدما . وإلى أبعد من ذلك شمالا مرة أخرى ، اضطرت نيوفوندلند فى الأعوام الحديثة إلى ترك صراع غير متكافئ فى سبيل الاحتفاظ بذاتيتها ، وقبلت – من ثم – شكلا مستترا وراء قناع خفيف من أشكال حكومات مستعمرات التاج ، مقابل مساعدة من بريطانيا العظمى . وإلى أبعد من ذلك شمالا فى لابرادور نصل إلى أحوال مماثلة لتلك التى جابهت المستوطنين الشماليين فى جرينلند ؛ أى التحدى الأقصى الذى شتان بينه وبين كونه مثاليا ، والذى يجدر وصفه حقا بأنه « أسوأ » التحديات .

٤ – البرازيل ، لابلاتا ، باتاجونيا :

يعرض الشاطئ المطل على الأطلسى فى أمريكا الجنوبية بجلاء ، ظواهر مماثلة :

فى البرازيل مثلا ، يتركز الجانب الأعظم من الثروة القومية والمعدات والسكان والطاقة فى الجزء الصغير من هذه البلاد الشاسعة ، الذى يقع جنوب الدرجة العشرين من خطوط العرض الجنوبية . وفضلا عن ذلك ، فإن البرازيل الجنوبية نفسها هى أقل حضارة من المناطق الممتدة أبعد من ذلك جنوبا ، على أى جانب من مصب نهر لابلاتا : جمهورية أورجواى وولاية بوينس أيريس الأرجنتينية .

وواضح أن القطاع الاستوائى على طول الشاطئ الأمريكى الجنوبى على المحيط الأطلسى ، ليس بذى حافز ، ولكنه يبعث قطعا على التراخى ؛ ولكن ثمة دليلا على أن المناخ المعتدل عند مصب نهر لابلاتا أكثر حفزا ويعتبر مثاليا : ذلك لأننا إذا ما تتبعنا الشاطئ أبعد من ذلك جنوبا ،

سنجد بلا شك زيادة فى « الضغط » . ولكن إن اخترقنا هضبة باتاجونيا الكئيبة ، سنجد الاستجابة تقل . وإن آثرنا المضى إلى أبعد من ذلك ، تُصبح النتيجة أسوأ من ذلك ، إذ سنجد أنفسنا بين المتوحشين الجياع البليدى الإحساس الذين يسعون بالكاد للبقاء أحياء بين الجليد والثلوج فى أرض النار (Tierra del Fuegs)

٥ ــ جالواى ، آلستر ، آبالشيا(١) :

فلنتأمل بعد ذلك حالة لا يكون فيها التحدى كله طبيعيا ، ولكن جانبا منه طبيعى والآخر بشرى :

يوجد فى الوقت الحاضر تباين ذائع الصيت بين آلستر وبقية ارلندا : ففى حين أن أيرلندا الجنوبية بلد زراعى من الطراز القديم إلى حد ما ، فإن آلستر هى من المناطق الصناعية الأكثر نشاطا فى العالم الغربى . وتقف بلفاست(٢) فى هذا المضمار على قدم المساواة مع جلاسجو أونيوكاستل أو هامبورج أو ديترويت . ولساكن آلستر الحديث شهرة عظيمة فى الكفاية والمقدرة ، تماثل شهرته فى عدم استعداده للمجاملة .

فإلى أى تحد استجاب مواطن آلستر ليصبح على ما هو عليه ؟

إنه قد استجاب إلى تحد ثنائى المظهر . مداره ، الهجرة عبر البحر من اسكتلندا ، والنزاع بعد وصوله آلستر مع السكان الأيرلنديين المحليين الذين وجدهم حائزين على البلاد ، فمضى هو قُدُما فى تجريدهم منها . وكان لهذه التجربة المزدوجة تأثير ذو حافز ، لعله يقاس بمقارنة قوة آلستر وثروتها فى الوقت الحاضر بالظروف المتواضعة نسبيا لتلك المقاطعات الواقعة على الجانب الاسكتلندى عند الحد بين اسكتلندا وانجلترا ، وعلى طول قطاع

---

(١) Galloway — Ulstar — Appalachia

(٢) بلفاست عاصمة آلستر (ارلندا الشمالية) وهى جزء من المملكة المتحدة . (المترجم)

الأرض الواطئة المدى على الهضبة الاسكتلندية التى جمع منها مستوطنو آلستر الاسكتلنديون الأصليون ، فى مطلع القرن السابع عشر[١] .

بيد أن سكان آلستر الحاليون ليسوا هم وحدهم ممثلى هـذه السلالة الأحياء عبر البحار : إذ أنجب الرواد الاسكتلنديون الذين هاجروا إلى آلستر ذرية من « الاسكتلنديين » الأيرلنديين هاجروا من جديد فى القرن الثامن عشر من آلستر إلى أمريكا الشمالية . وتعيش ذراريهم فى الوقت الحاضر فى قلاع جبال آبالاش ، وهى منطقة جبلية تمتد عبر حفنة من ولايات الاتحاد الأمريكى من بنسلفانيا إلى جورجيا .

ماذا كان أثر هذا الازدراع[٢] الثانى ؟

عبر رعايا الملك جيمس إبان القرن السابع عشر مضيق سان جورج ، وطفقوا يحاربون الأيرلنديين الهمج ، عوضا عن محاربة الاسكتلنديين الهمج . وعبر أحفاد أحفادهم المحيط الأطلسى إبان القرن الثامن عشر ليصبحوا « مقاتلين هنود » فى الأجمات الأمريكية المهجورة .

وظاهر أن هذا التحدى الأمريكى كان أشد عنفاً من التحدى الأيرلندى فى كلا مظهريه : الطبيعى والبشرى .

فهل استثارت زيادة التحدى ، استجابة أكبر ؟

سنجد الإجابة سلبية مرة أخرى ، إن قارنا حالة فرد من آلستر بحالة فرد من أفراد الآبالاش فى الوقت الحاضر ، أى بعد انقضاء قرنين من ابتعاد أحدهما عن الآخر . إذ أن فرد الآبالاش الحديث لم يمتز عن فرد آلستر فى شىء ، بل إنه أخفق فى الاحتفاظ بمركزه . فلقد هبط إلى المنحدر ، بطريقة مخيبة للآمال إلى أقصى حد . فإن شعب أبالاش الجبلى لا يفضل فى الوقت

---

(١) يتبين أن الاصطلاح Galloway الذى استخدمناه فى تسمية هذه الفقرة ليس وصفا ملائما تماما للوطن الذى وفد منه مستعمرو آلستر . (الملخص)

(٢) الازدراع : نقل نبات من مكان إلى آخر . (المترجم)

الحاضر الهمج ، إذ ارتد إلى الأمية والسحر ، ويعانى الفقر والقذارة واعتلال الصحة ، وهو الصورة الأمريكية المقابلة للبدائيين من الجنس الأبيض المنتشرين فى العالم القديم فى هذه الأيام : أهل الريف[1] والألبانيون والأكراد والباثان والأينو المشعرون ، مع فاروق أنه بينما أن الأخيرين مخلّفات باقية للهمجية القديمة ، يعرض سكان الآبّالاش مشهداً محزناً لشعب استحوذ على الحضارة ثم أضاعها .

٦ — ردود الفعل لتخريب الحروب :

كان التحدى فى حالة آلستر / أبّالاش ، طبيعياً وبشرياً فى وقت واحد ؛ بيد أن سريان قانون « النتيجة المتناقصة » ؛ يبدو فيه واضح المعالم تماماً ، كما يبدو فى الحالات الأخرى التى يكون فيها التحدى فى المجال البشرى دون سواه : تأمل مثلا ، نتائج التحدى الذى يمثله التدمير الذى تحدثه الحرب ؛ ولقد سبق أن بيّنا حالتين قوبل فيهما تحد شديد من هذا النوع ، باستجابتين ظافرتين :

فقد استجابت أثينا لتدمير الغزو الفارسى بأن أصبحت « معلمة هيلاس » ، واستجابت بروسـيا لتدمير الغزو النابليونى بتطورها إلى ألمانيا بسمارك .

فهل نستطيع أن نعثر على تحد من هذا القبيل يبدو مفرطاً فى شدته ، على تدمير تقرّحت جراحه وأصبحت مميتة على مدى الأيام ؟

نستطيع ذلك .

لم يسفر تدمير هانيبال لإيطاليا عن نعمة مستترة ، على غرار تلك الهجمات الأقل عنفاً . إذ استحالت الأراضى الزراعية المجتاحة فى جنوب إيطاليا ؛

---

(١) الريف(*) منطقة فى شمال المغرب الأقصى وباثان منطقة فى شمال غرب باكستان . (المترجم)

(*) لا نستطيع أن نقر المؤلف على وصفه تلك الشعوب بالبدائية فليسوا همجا ولكن لهم مُثلهم العليا ويضحون بكل عزيز فى المحافظة عليها . (المترجم)

بعضها إلى مراع ، والبعض الآخر إلى كروم ومزارع زيتون . وتولى شئون الاقتصاد الريفي الجديد - الغرس وتربية الماشية على السواء - العمال الأرقاء عوضاً عن الفلاحين الأحرار ، الذين كانوا يحرثون الأرض وقتاً ما قبل أن يحرق جنود هانيبال كوخ الفلاح ، وقبل أن تغزو الأعشاب والحشائش حقوله المهجورة :

ولا ريب أن هذا التغير الثوري من الفلاحة لإشباع الحاجة إلى زراعة المحاصيل لبيعها ؛ ومن تولى الفلاح تربية الماشية بنفسه إلى استخدام القوة العاملة من الرقيق ؛ قد رفع - إلى حين - ولا شك ، قيمة إنتاج الأرض النقدية . بيد أنه قابل تلك الزيادة - بأكثر منها - الشرور الاجتماعية التي ترتبت عليها : إقفار الريف من السكان ، واحتشاد برولتارية فقيرة من المزارعين السابقين في المدن . ولم ينتج عن محاولة آل جراكتشي - Gracchi في الجيل الثالث بعد جلاء هانيبال عن إيطاليا - لوقف هذه الشرور - سوى تفاقم سخط الكومنولث الروماني والتعجيل بالثورة السياسية ، دون وقف الثورة الاقتصادية . ولقد استعرت نار الصراع السياسي ، فأصبحت حرباً أهلية . وقبل الرومان بعد انقضاء مائة عام من تريبونية[1] تيبريوس جراكوس ، ديكتاتورية أغسطس قيصر المستديمة : إذ اعتُبرت علاجاً مراً لشئون العامة الميئوس منها .

ومن ثم يعتبر تدمير هانيبال لإيطاليا ، أبعد من أن يحفز الشعب الروماني ، مثلما حفز وقتا ما تخريب آجزرسيس لآتيكا أهل أثينا . بل إنه قد وجه إلى الرومان صدمة لم يفيقوا منها أبداً .

وهكذا ، فإن نقمة التدمير الذي أثبت أنه حافز ، عند ما امتزج بحيوية الفرس ، كان قتالا عند ما وقع بالشدة الفينيقية[2] .

---

(١) أحد مناصب الحكم الروماني . (المترجم)

(٢) نشبت الحرب البونية بين روما وقرطاجنة . (المترجم)

٧ – ردود الفعل الصينية تجاه تحدى الهجرة :

قارنا فعلا نتائج درجات التحدى الطبيعى المختلفة على مجموعات المهاجرين البريطانيين المختلفة . فلنتأمل الآن ، رد فعل المهاجرين الصينيين على درجات التحدى البشرى المختلفة :

فعندما يهاجر العامل الصينى إلى الملايو أو أندونيسيا[١] ، يستطيع اجتناء جزاء مغامرته . لأنه عند ما يجابه تجربة اجتماعية تتمثل فى مغادرته موطنه المعتاد وانخراطه فى بيئة اجتماعية غريبة عنه ، إنما يستعيض عن بيئة اقتصادية توهن عزيمته بتقاليدها الاجتماعية العميقة الجذور ، ببيئة يجد فيها حافزاً لإصلاح حاله . وليس بالأمر النادر أن يصيبه التوفيق .

لنفترض – مع ذلك – أننا زدنا فى شدة التجربة الاجتماعية ، التى هى ثمن المغامرة الاقتصادية . ولنفترض ، أنه عوضاً عن إرساله إلى الملايو أو أندونيسيا ، نبعث به إلى استراليا أوكاليفورنيا . عندئذ يخضع عاملنا الصينى المغامر فى بلاد الرجل الأبيض هذه – بفرض السماح له بدخولها – لتجربة أشد بكثير من الأولى . فبدلا من أن يجد نفسه مجرد غريب فى أرض أجنبية ، فإنه سيضطر إلى مكابدة نقمة متعمدة يكون فيه القانون ضده ، عوضاً عن أن يهب لنجدته كما يحدث فى الملايو ، حيث تخصص إدارة استعمارية طيبة ، موظفاً رسمياً يدعى « حامى الصينيين » .

فهل تستثير هذه التجربة الاجتماعية ذات الشدة الأقوى ، استجابة اقتصادية أشد ، تتناسب فى قوتها مع اشتداد تلك التجربة ؟

هذا ما لا يحدث ، كما نستطيع أن نشاهده إن قارنا مستويات الرخاء التى يبلغها الصينيون فعلا فى الملايو وأندونيسيا . بالمستويات التى يدركها مهاجرو نفس العنصر الموهوب فى استراليا وكاليفورنيا .

---

(١) أورد المؤلف فى الأصل : ملايو البريطانية وجزائر الهند الشرقية الهولندية . لكتابته هذا الفصل قبل إعلان استقلال البلدين . (المترجم)

٨ — السلاف والآخيون والتيوتون والكلت :

لنعيد النظر بعد ذلك فى التحدى الذى توجهه إحدى الحضارات للهمجية البربرية : وهو تحد هيأه فى أوروبا ، إشعاع الحضارات المختلفة إلى طبقات البرابرة المتعاقبة ، فى عصور متتالية داخل هذه القارة التى كانت مظلمة وقتا ما .

ويستلفت نظرنا — إذ ندرس هذه المأساه — حالة واحدة استثار فيها التحدى استجابة ذات سناء غير عادى . ولعل الحضارة الهلينية هى أروع زهرة من الأنواع التى قدّر لها أن تزدهر فى أى وقت من الأوقات . وكان انبعاثها استجابة لتحد وجهته الحضارة المينووية للبرابرة الأوربيين .

إذ لما مكّنت الحضارة المينووية البحرية لنفسها فى شبه الجزيرة اليونانية لم تقم بالقضاء على البرابرة الآخيين الموجودين فى الداخـــل . كما أنها لم تُخضعهم أو تُدمجهم فيها . وعلى العكس ، نجح هؤلاء الأخيون فى المحافظة على ذاتيهم كبرولتاريا خارجية للإمبراطورية البحرية المينووية ، دون أن يقصّروا فى إبراز فنون الحضارة التى كانت كامنة فيهم .

وفى الوقت المناسب نزلوا إلى البحر وتغلّبوا على المينوويين البحريين فى ميدانهم الخاص . فأصبحو ، من ثم ، آباء الحضارة الهلينية الحقيقيين .

ويبرر الفحص القائم على أساس الدين ، الادعاء الآخي بأبوة الهلينية ، مصداقا لما رأيناه فعلا : إذ تُبدى أسارير وجه آلهة البانثيون الأولمبى بجلاء ، حقيقة مبناه أن هذه الآلهة منحدرة من البربرية الآخية . فى حين لا يتأتى العثور على أية آثار للديانة الهلينية المشتقة من العالم المينووى — إن وجدت — إلا فى طائفة من الهياكل الجانبية والمدافن المقامة تحتها فى معبد الديانة الهلينية ، أى فى طائفة من الشعائر المحلية والأسرار الدفينة والعقائد السرية .

وتقاس قوة الحافز فى هذه الحالة ، بما بلغته الهلينية من سناء . إلا أنه

يتأتى قياس تلك القوة بطريقة أخرى مدارها : مقارنة مصائر هذه الطبقة الآخية من البرابرة بطبقة أخرى تصادف بقاؤها على مسافة بعيدة وآمنة ؛ إلى حد جعلها فى حكم المحصنة ضد إشعاع أية حضارة – مهما كانت – لمدة ألفى سنة من تلقى الآخيين التحدى المينووى ، وقيامهم باستجابتهم الرائعة . هؤلاء هم السلاف الذين أخفوا أنفسهم فى مستنقعات نهر بريبت[1] وقتما تُركت حثالة القارة هذه إلى الإنسان عند ارتداد الدائرة القطبية إلى الوراء : فاستمروا يعيشون هناك حياة البربرية الأوروبية قرناً بعد آخر . ولما أنهى النزوح التيوتونى المأساة الهلينية الطويلة التى بدأها النزوح الآخرى قبل ذلك ، وكان هؤلاء السلاف ما يزالون فى هذا الموضع .

وفى هذا الزمن المتأخر من عهد البرابرة الأوربيين ؛ تم اقتلاع السلاف فى نهاية الأمر من مكانهم المنيع ، بمعرفة الرُّحل الأفاريين الذين أغواهم ؛ الاشتراك مع التيوتون فى نهب الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على حطامها فى البيئة الغربية . فهاموا على وجوههم فيما وراء حدود أرضهم الوطنية ، فى السهب الأوراسى .

ورنا أبناء السهب الضالين هؤلاء ، إلى تكييف أسلوب حياتهم القديم مع ملابساتهم الجديدة فى البيئة الغريبة لعالم زراعى . ولقد كان الأفاريون يكتسبون فى السهب ، معاشهم كرعاة ماشية . لكنهم وجدوا أن الفلاحين الآدميين فى الأراضى الزراعية التى اغتصبوها ، أنسب شيء يقوم بالدور الذى قامت به الماشية فى السهب . ولهذا شرعوا – بشيء من المنطق – فى تحويل أنفسهم إلى رعاة للمخلوقات البشرية . ومثلما كانوا يُغيرون على ماشية جيرانهم البدو بغتة ليرعوا بها فى المراعى الجديدة التى يستولون عليها ،

---

(١) نهر بريبت Pripet أو نهر بريبيات Pripyt باللغة الروسية : نهر قابل للملاحة يقع جنوب جمهورية روسيا البيضاء (وهى إحدى الجمهوريات السوفيتية الخمس عشرة.) وهذا النهر فرع من فروع نهر الدنيبر فى أوكرانيا بالاتحاد السوفيتى . ويلتقى النهران قرب مدينة كييف عاصمة أوكرانيا . (المترجم)

باتوا يتطلعون حولهم بحثا عن قطيع آدمى ليملأوا به فراغ أقاليم الإمبراطورية الرومانية التى استولوا عليها والتى أقفرت من السكان . فوجدوا ضالّتهم فى السلاف . فكان أن حشدوهم فى قطعان ، واستقروا بهم فى دائرة شاسعة حول السهل المجرى ، حيث أقاموا مخيماتهم . ويبدو أن هذه هى الطريقة التى أخذت بها الطليعة الغربية للجماعة السلافية ـ أسلاف التشيك والسلوفاك واليوغوسلاف الحاليين ـ سبيلها البطىء المهين فى التاريخ .

ويُبدى هذا التباين بين الآخيين والسلاف ، صدق الرأى القائل بأن مناعة المجتمع البدائى الكاملة ضد تحدى ملاقاة الحضارات ، تشكّل عقبة خطيرة فى طريق ذلك المجتمع . ويبدو فعلا أن لهذا التحدى تأثيراً حافزاً عندما تصل شدته إلى درجة معينة .

فإن فرضنا وزيدت درجة شدة التحدى ، فهل يقود ذلك إلى الحصول على استجابة أعظم سناء مما حققه آباء الحضارة الهلينية الآخيين ، أو هل يتدخل قانون « الأثر المتناقص » ، فيؤدى دوره مرة أخرى ؟

ومن قبيل المثال أن تأثيرات الطاقة التى أشعّها المجتمع المينووى ، قد ارتفعت إلى درجة أعلى .

لسنا فى حاجة بالنسبة لهذه النقطة ، أن نفكر فى الفراغ : فإن بين الآخيين والسلاف ، طبقات عديدة أخرى من البرابرة تعرّضت بدرجات مختلفة لإشعاع حضارات متنوعة ، فماذا حدث لهم ؟

سبق أن مرت بنا حالة ، فشل فيها برابرة أوربيون أمام إشعاع ذى قوة مدمرة . فلقد رأينا كيف أن الكلت فى نهاية الأمر قد أُبيدوا أو أُخضعوا أو امتزجوا ، بعد فورة عابرة للطاقة نتيجة استجابة لحافز تلقوه عن طريق الأترورين : وقابلنا وقتئذ إخفاق الكلت النهائى ، بنجاح التيوتون النسبى فى الصمود أمام المداخلة الهلينية : ولاحظنا كذلك ، أن الطبقة التيوتونية من البرابرة الأوربيين ـ عكس الطبقة

الكلتية منهم – قد قاومت التأثير الهليني الذى يعمل على الانحلال إلى حد أن التيوتون استطاعوا تبوأ مركزهم ضمن البروليتاريا الخارجية للعالم الهليني ، فاستطاعوا أن يوجّهوا إلى المجتمع الهليني الضربة القاضية ، إبّان معاناته آلام الاحتضار .

ويعتبر رد الفعل التيتونى هذا توفيقاً كبيراً ، إن قورن بالهزيمة الكلتية : ولكن حينما نقارن ما حققه التيوتون بما حققه الآخيون ، يرجع بنا الفكر إلى حقيقة مبناها ؛ أن التيتون لم يفوزوا بأكثر من نصر أجوف[١] . لأنهم لم يظهروا عند وفاة المجتمع الهليني ، إلا ليتلقوا ضربة مميتة فى ذات المكان ، من أيدى منافسيهم أفراد البروليتاريا الداخلية الذين خلفوا المجتمع الهليني بعد موته .

وبالأحرى لم يكن الفائز فى هذا المعترك ، عصابة التيتون العسكرية . ولكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، التى أدمجت فى نطاقها البروليتاريا الداخلية للمجتمع الهليني . وأصبحت كل عصابة من تلك العصابات ، – الآرية التيوتونية العسكرية أو الوثنية – التى تجاسرت على التعدى على المناطق الرومانية ؛ إما وقد تحولت إلى الكاثوليكية ، أو أبيدت من الوجود .

وكانت الحضارة الجديدة المتفرعة من الحضارة الهلينية ، تتصل بسابقتها عن طريق البروليتاريا الداخلية ، لا عن طريق البروليتاريا الخارجية . لأن المسيحية الغربية هى أصلا من صنع الكنيسة الكاثوليكية ، عكس الحضارة الهلينية التى هى أصلا من صنع البرابرة الآخيين[٢] .

فلنرتب الآن مجموعتنا الحالية عن أنماط التحدى ، ترتيباً تصاعدياً من حيث الشدة :

---

(١) فى الأصل فرغوسى ، نسبة إلى فرغوس ملك أفيروس . ويضرب مثالا للانتصار المؤقت الذى تعقبه هزيمة حاسمة . (المترجم)

(٢) وهم البروليتاريا الخارجية للحضارة المينووية . (المترجم)

١ – لبث السلاف فترة طويلة محصنين كلية ضد التحدّى . مما زاد مركزهم سوء بشكل واضح بسبب افتقارهم إلى الحافز .

٢ – تلقى الآخيون تحدياً يجب – وفقا لما يبدو من مدى استجابتهم – اعتباره تحدياً مثالياً .

٣ – ثبت التيتون لتحدّى الحضارة الهلينية . لكن تحدّى الكنيسة الكاثوليكية قد هزمهم فيما بعد .

٤ – واجه الكلت المجتمع الهليني فى عنفوانه – على عكس التيتون الذين واجهوه إبان تدهوره – فكان أن سحقهم ذلك المجتمع .

وبالأحرى ، كابد السلاف والكلت ظروفاً على طرفى نقيض : مناعة لا طعم لها من ناحية ، وغارة ساحقة من ناحية أخرى . ويشغل الآخيون مركزى الحدّين الأوسطين ؛ فى مقارنة تضم هذه المرة أربعة حدود عوضاً عن ثلاثة . على أن مركز الوسط من حيث التجربة المثالية ، كان مركز الآخيين .

(٣) حضارتان عقيمتان

١ – مؤخرة الهجرات التيوتونية :

هل يتيسر تحديد النقطة التى يبدأ عندها سريان مفعول قانون « الأثر المتناقص » تحديداً أكثر دقة ، فى مجموعة التحديات التى تحدث بين الحضارات المشعّة والبرابرة الأوربيين ؟

أجل يتيسر ذلك . إذ ثمة مثالان لم نحسب لهما حسابا بعد :

الأول : النزاع بين الكنيسة الرومانية – باعتبارها مُنشئ مجتمعنا الغربى – وبين المجتمع العقيم لكنيسة الغرب الأقصى المسيحية فى « المقاطعة الحديّة الكلتية » .

الثانى : النزاع بين مجتمعنا الغربى إبان مراحله الأولى ، ومجتمع الفايكنج الشمالى الأقصى أو السكندنافى :

وكان الخصم فى كلا هذين النزاعين ، مؤخرة بربرية ظلت دائماً خارج نطاق الحكم الرومانى . وظلت فى الوقت الذى كانت فيه الطليعة التيتونية تغمس سيفها فى جسد المجتمع الملينى المحتضر ، مدخرة نفسها هى الأخرى لتقوم بأعمال تدميرية ، وليتم تدميرها هى الأخرى كما ظهر فيما بعد . وبالإضافة إلى ذلك ، أحرزت كلتا هاتين المؤخرتين درجة من النجاح ، وإن كانت أقل من نجاح الآخيين ، إلا أنها جاوزت كثيراً نجاح التيتون الذين جاءوا بعد الآخيين مباشرة ، فى الترتيب ؛ فى مقارنتنا ذات الحدود الأربعة الآنفة الذكر .

ولقد نجح الآخيون فى إنتاج حضارة كبرى خلعت الحضارة المينووية التى هاجموها . وحظيت المقدمة التيوتونية بفترة موفقة من « وقت طيب » : إذ جعلت مدار لهوها ، القيام بأعمال تدمير خفيفة . على أنها لم تحقق شيئاً — أو لا شىء تقريباً — ذا قيمة إيجابية :

ومن الناحية الأخرى ، توصل مسيحيو الغرب الأقصى والفايكنج فى أقصى الشمال ، إلى حد إنجاب حضارة . إلا أن الجنين سقط فى كل حالة ، أمام تحد أثبت أنه أشد من أن يواجهه الجنين .

كنا قبل الآن قد أشرنا ضمنا أكثر من مرة ، إلى وجود حضارات عقيمة ، وهى الحضارات التى لم تتضمنها قائمتنا الأصلية . لأن جوهر الحضارة ، إنما يظهر عند تمام نضوجها ، بينما أن الحضارات العقيمة تموت فى المهد .

ويتيح لنا الآن سير بحثنا مناسبة دراسة اثنتين منهما[1] :

---

(١) سنصادف فى الفصل التالى كذلك مجموعة أخرى مختلفة وهى « الحضارات المتعطلة » ، وستجد أنها ليست ضحايا « وفيات الأطفال » ولكنها تعتبر ضحايا « شلل الأطفال » . وهى حضارات ولدت لكنها أخفقت فى أن تنمو ؛ مثلها مثل أطفال أرض الأحلام (مثل بيتر بان) .

(المؤلف)

٢ – حضارة مسيحية الغرب الأقصى العقيمة :

تمثل رد فعل القطاع الحدى الكلتي للمسيحية ، فى نمط انفرد هو به . فعلى عكس القوط الذين انضموا إلى الآرية ، أو الأنجلوساكسون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية ، لم يعتنق هؤلاء الكلت هذا الدين الأجنبي بالحالة التى وجدوه عليها . بل صاغوه بحيث يتمشى مع تراثهم الاجتماعى الهمجى الخاص ، عوضا عن سماحهم له بتحطيم تقاليدهم الوطنية :

« ولم تبدُ على عنصر آخر » ، كما يقول رينان ، « مثل هذه الطرافة فى طريقة اعتناقه المسيحية » . ولعلنا ندرك ذلك حتى فى ردود الفعل التى أظهرها الكلت المتنصرون فى بريطانيا تحت الحكم الرومانى . ولا نعلم سوى القليل عنهم . لكننا نعلم أنهم أنجبوا فى شخص بيلاجيوس : Pelagius[1] ؛ زعيم شُعبة من الهراطقة ، هزم كيان العالم المسيحى كله فى عصره . على أن ثمة ما ثبت مع الوقت أنه أهم من حركة بيلاجيوس ، وهو أعمال باتريك مواطن بيلاجيوس ومعاصره ، الذى حمل المسيحية إلى إيرلندا فيما وراء حدود العالم الرومانى .

وكانت الهجرات البحرية الإنجليزية (غزو الأنجلو ساكسون لبريطانيا)، ضربة قاصمة للكلت البريطانيين ، فى حين كانت بركة على الكلت الإيرلنديين . إذ قادت إلى فصل إيرلندا عن تلك الأقاليم الرومانيـــة السابقة فى أوروبا الغربية ، حيث تطورت حضارة مسيحية جديدة تستلهم روما . وحدث ذلك إبان الفترة التى تلت مباشرة بذر بذور المسيحية هناك – عند مرحلة من مراحل النمو الأولى كان فيها تشكيل الجنين أكثر تأثراً – مما أدى إلى بزوغ

---

(١) بيلاجيوس Pelagius زعيم طائفة دينية ظهرت فى القرن الخامس الميلادى . وقوام تعاليمه الدينية عدم وجود خطيئة أصيلة . ولا يحتاج المرء إلى الغفران لتفادى الخطيئة الفعلية ؛ وتكفى إرادة الإنسان الاختيارية لبلوغ درجة الخلاص ، وإن كان الغفران ييسر بلوغ تلك الدرجة . (المترجم)

جنين مجتمع مسيحي غربي أقصى منفصل ومميز ، توجد ركيزته في إيرلندا ؛ وذلك في نفس الوقت الذي انبعثت فيه المسيحية الغربية حديثة المولد في القارة الأوربية .

وتتضح بالمثل طرافة مسيحية الغرب الأقصى هذه ، في تنظيمها الكنسي وفي شعائرها وحياة القديسين وفي أدبها وفنها .

ولم تقتصر الكنيسة الإيرلندية في غضون مائة عام من بعثة سان باتريك (التي قد تؤرخ في ٤٢٣ — ٤٦١ ميلادية) على استكمال مظاهرها المميزة ؛ بل إنها انطلقت في نواح كثيرة إلى أبعد مما ذهبت إليه كاثوليكية القارة ؛ ويظهر الدليل على ذلك من حرارة الحفاوة التي استقبل بها المبشرون والعلماء الإيرلنديون في بريطانيا والقارة بعد انقضاء فترة الانعزال : ومن ولع الطلبة في بريطانيا والقارة بالالتحاق بالمدارس الإيرلندية .

واتصلت فترة التفوق الثقافي الإيرلندي من وقت تأسيس الجامعة الرهبانية في « كلون ماك نويس » — Clonmacnois في إيرلندا عام ٥٤٨ ميلادية ، إلى تأسيس دير سان جيمس الإيرلندي في راتيسبون عام ١٠٩٠ ميلادية ؛ ولم يكن نقل هذه الثقافة هو النتيجة الاجتماعية الوحيدة لتجدد الاتصال بين مسيحية الجزيرة ومسيحية القارة[1] . إذ كان لهذا الاتصال نتيجة أخرى ، عبارة عن صراع في سبيل السيطرة .

وكان هذا الصراع يدور حول معرفة هل ستنمو حضارة أوربا الغربية المقبلة من أصل إيرلندي أو من أصل روماني . وقد هزم الإيرلنديون في هذا الصراع قبل أن يفقدوا سيادتهم الثقافية بوقت طويل .

ولقد وصل الصراع إلى ذروته في غضون القرن السابع بسبب المنافسة بين مريدي سان أوغسطين الكنتربري ، ومريدي سان كولومبا الأيوني ؛

---

(١) أي المسيحية في جزيرة ايرلندا والمسيحية في القارة الأوربية . (المترجم)

على تحويل إنجليز نورثمبريا إلى المسيحية . ومن مظاهره اللقاء الدرامى بين مندوبيهما فى مجمع هويتبى المقدس عام ٦٦٤ ميلادية ، وقرار ملك نورثمبريا بإيثار سان ويلفريد نصير روما . واستتب النصر لروما مباشرة تقريبا عقب وصول مبعوثها « ثيودور » الطرسوسى مطراناً لكنتربرى لتنظيم كنيسة انجلترا وفقاً لنظام المطرانيات الرومانى ، وإنشاء كرسيين أسقفيين فى كنتربرى ويورك . ومن ثم تقبلت — فى غضون نصف القرن التالى — كافة جماعات القطاع الحدى الكلتى : البيكت والإيرلنديين والويلزيين والبريطون وأخيراً أيونا نفسها : الطريقة الرومانية فى حلق قمة الرأس قبل الدخول فى الرهبنة والأسلوب الرومانى فى حساب تاريخ عيد الفصح ، اللذين كانا مثار نزاع رسمى فى مجمع هويتبى . بيد أنه لبثت هناك اختلافات أخرى لم تختف تماماً حتى القرن الثانى عشر .

وانعزلت حضارة الغرب الأقصى منذ أيام انعقاد مجمع هويتبى إلى ما بعده ، وكتب عليها الهلاك . فقد كابدت كثيراً من قسوة إغارات الفايكنج على إيرلندا . ومصداقا لذلك لم يؤلف فى إيرلندا — إلى مدى معرفتنا — كتاب واحد باللاتينية خلال القرن التاسع الميلادى ، وقتما لم يسلم دير أيرلندى واحد من النهب . مع أن اللاجئين الإيرلنديين فى القارة كانوا قد بلغوا إبان هذا العصر ذاته أعلى مراتب العلم والمعرفة .

وإذا كان التحدى السكندنافى يعتبر السبب الحقيقى لقيام كل من انجلترا وفرنسا الحديثتين ، لما وجهه إلى الشعبين الإنجليزى والفرنسى من حافز بالغ الدرجة المثلى ؛ إلا أنه واجه إيرلندا — فى عزلتها الجديدة — بدرجة مفرطة فى الشدة ، جعلتها لا تستطيع أن تفوز بأكثر من نصر أجوف[1] ، عندما تغلب بريان بورو[2] Brian Boru فى كلونتارف

(١) فى الأصل ، نصر فرغوسى نسبة إلى فرغوس ملك أبيدوس (٣١٨ - ٢٧٢ ق . م) ويضرب مثلا للنصر الذى يكلف كثيراً بحيث يتعادل مع الفشل . (المترجم)

(٢) ملك مويستيس Mustes الشمالية (٩٢٦ - ١٠٢٤ ميلادية) ولقد فاز فى معاركه ضد الدنمركيين فى كلونتارف . (المترجم)

Clontarf على الغزاة . وكانت الضربة القاضية بدء الغزو الإنجليزى النورمندى لإيرلندا على أيدى الملك هنرى الثانى الانجفينى فى منتصف القرن الثانى عشر مصحوبا ببركة البابا .

وهكذا بدلا من أن يقيم رواد القطاع الحدى الكلتى الروحانيون حضارة خاصة بهم ، قُدر عليهم أن يفرض عليهم الجزية بمعرفة منافسيهم أنفسهم الذين سلبوهم حقهم الميراثى فى أنشاء حضارة مستقلة . وأصبحت الثقافة الإيرلندية خادمة تعمل لرقى الحضارة الغربية فى القارة بفضل التحاق العلماء الإيرلنديين ، الذين لجأوا إليها هربا من المذابح الاسكندنافية ، بخدمة النهضـــة الكارولنجينية التى يعتبر جوهانس سكوتس اريجينا Johannes Scotus Erigena العالم الأيرلندى الهلينى الاتجاه ، الفيلسوف واللاهوتى ، أعظم شخصية فيها .

٣ ــ الحضارة الاسكندنافية العقيمة :

سيتبين لنا أن فى السباق بين روما وإيرلندا للحصول على شرف ابتداع الحضارة الغربية الجديدة ، لم تفز روما إلا بكسب محدود .

وكان على المسيحية الغربية الناشئة أن تشتبك وهى ما تزال فى طفولتها ــ بعد فترة راحة قصيرة للغاية ــ فى صراع آخر للحصول على نفس الغنيمة . وكان الصراع هذه المرة مع مؤخرة برابرة شمال أوروبا التيوتونية ، التى كانت محتفظة بنفسها فى اسكندنافيا ، متحفزة للوثوب .

ولقد كانت الملابسات هذه المرة أشد قسوة . وجرى الصراع فى المجال الحربى ، وفى المجال الثقافى على السواء . واتسم الصراع بأن كلا الفريقين المتنابذين ــ كل بمفرده ــ كان أقوى وأكثر بعدا عن الآخر ، مما كان عليه قبل ذلك بقرنين ، كل من الفريقين المتنافسين الإيرلندى والرومانى : وهما جنينا المسيحية الغربية العتيدة :

ولقد تماثل تاريخا الاسكندنافيين والإيرلنديين خلال الحقبة التى سبقت نزاع كل منهم مع المسيحية الغربية ، من وجهة انعزال الفريقين فترة ما ، عن خصمها المقبل . إذ أدت غزوة الوثنيين الأنجلوساكسون لانجلترا ، إلى انعزال المسيحيين الإيرلنديين . بينما انعزل السكندنافيون عن المسيحية الرومانية قبل نهاية القرن السادس الميلادى ، بسبب تداخل الوثنيين السلاف بينهم وبينها . وكان هؤلاء السلاف قد سبقوا برا على طول شواطئ البلطيق الجنوبية من خط نيمين Niemen إلى خط نهر الإلب Elbe[1] ، داخل الفراغ الذى خلفته هجرة البرابرة التيتون الذين جلوا عن هذه المنطقة ، لانسياقهم فى خضم الهجرات التى أعقبت انهيار الهلينية . بينما لبث الاسكندفيون قابعين فى ديارهم .

فألفى الإيرلنديون أنفسهم — من ثم — منعزلين عن رفاقهم المسيحيين ؛ كما وجد الاسكندنافيون أنفسهم منعزلين عن رفاقهم التيوتون ، بكتل من المتطفلين أشد منهم همجية . على أنه كان ثمة اختلاف جوهرى . فإنه فى حين أطلق بين الإيرلنديين الإشعاع السابق المنبعث من الإمبراطورية الرومانية — قبل غزوة الأنجلو ساكسون — شرارة من المسيحية تفجرت إلى لهب إبان مدة العزلة ؛ ظل الاسكندنافيون وثنيين .

وكانت الهجرات الاسكندنافية — كأنواع الهجرات الأخرى — رد فعل مجتمع همجى على صدمة حضارة . وكانت الحضارة فى هذه الحالة مندمجة فى إمبراطورية شارلمان . ولقد ثبت أن هذه الإمبراطورية مقدر لها الفشل لكونها مهيبة وسابقة لأوانها فى وقت واحد . لأنها صرح سياسى طموح أقيم فى عجلة على أسس اجتماعية واقتصادية بدائية ؛ وكان السبب الأساسى لتداعيه ؛ شروع شارلمان فى غزو ساكسونيا . فلقد تبين فى سنة ٧٧٢ ميلادية ، أن إدماج ساكسونيا فى المسيحية الرومانية ، باستخدام القوة الحربية ؛

---

(١) النيمين والإلب نهران بألمانيا . (المترجم)

يخالف مخالفة قاتلة : سياسة التسلل السلمى التى اتبعها المبشرون الإيرلندون والإنجليز طوال قرن مضى ،والتى وسّعت فعلا نطاق المسيحية بفضل تحويلها البافاريين والثورنجيين والهسيانيين والفرسيانيين(١) . فالواقع أن محنة حرب الثلاثين سنة الفرنجية الساكسونية ، قد مزقت إلى حد بعيد ، الأنسجة الضعيفة للمجتمع الغربى الناشئ . واستثارت فى نفوس السكندنافيين نفس « الحمية الهمجية » التى انبعثت فى نفوس الكلت من قبل ، وقتما توقف عند سفح جبال الألب توسع الأتروريين الطموحين .

وفاق التوسّع الاسكندنافى خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، التوسع الكلتى إبان المدة من القرن الخامس إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، فى ناحيتى المدى والشدة على السواء .

وإن محاولة الكلت الفاشلة الالتفاف حول العالم اليونانى ونشرهم جناحهم الأيمن فى قلب أسبانيا وجناحهم الأيسر فى قلب آسيا الصغرى ؛ لتتضاءل أمام أعمال الفيكنج الذين هددوا كلا من المسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية على السواء . فإنهم قد نشروا جناحهم الأيسر فى روسيا ، وجناحهم الأيمن فى شمال أمريكا .

ولما حاول الفايكنج شق طريقهم على طول نهر التيمس والسين والبسفور إلى ما وراء لندن وباريس والقسطنطينية ؛ تعرضت الحضارتان المسيحيتان ، إلى خطر يفوق ما جابهته الحضارة الهلينية عند ما أصبح الكلت فترة ما سادة روما ومقدونيا .

ولقد فاقت الحضارة السكندنافية العقمية التى بدأت تنتشر فى ايسلندا قبل أن يذوب جماها البارد بفعل حرارة النسمة المسيحية وتتحول إلى شىء لاشكل له ؛ فاقت كثيرا الثقافة الكلتية البـــدائية التى كشف عن

(١) Bavarians, Thuringians, Hessians and Frisians

آثارها علماء الآثار المحدثون . وذلك سواء من احية ما حققته تلك الثقافة ، أو من ناحية ما كان يتوقع لها تحقيقه(١).

وتتطلب طبيعة الطريقة المتبعة فى هـــذه الدراسة إعادة دراسة نفس الأحداث التاريخية فى ظروف مختلفة . ولقد سبق لنا وصف التحدّى الذى أبرزته الغزوات السكندنافية تجاه شعبي إنجلترا وفرنسا ، وأبنّا أن الشعبين قد خرجا منتصرين على التحدى باستكمال وحدتهما الخاصة . بل وأعظم من ذلك ، بتحويل المستوطنين الاسكندنافيين إلى المسيحية ، ثم إدماجهم فى حضارتهما .

وكما ساهم أبناء الثقافة المسيحية الكلتية — بعد زوالها الأبدى — فى زيادة ثروة المسيحية الرومانية ، غدا النورمنديون كذلك رأس حربة الاعتداء اللاتينى بعد ذلك بقرنين . ولقد كان أحد المؤرخين على حق فى وصف الحملة الصليبية الأولى بأنها غزوة من غزوات الفايكنج اصطبغت بالصبغة المسيحية .

ولقد سبق لنا بيان أهمية ايسلندا فى حياة الحضارة الاسكندنافية العقيمة ، وأنعمنا الفكر فى النتائج العجيبة التى ما كانت لتحدث ، لو تساوى الوثنيون السكندنافيون فى أعمالهم مع الآخيين ، وتمكنوا من دفع المسيحية إلى الانزواء فى السرادب وأقاموا فى أنحاء أوربا الغربية ثقافتهم الوثنية الخاصة على اعتبار أن تلك الثقافة هى التى ورثت — وورثت دون سواها — الحضارة الهلينية فى تلك المنطقة .

وما يزال علينا أن نُلقى نظرة على غزوات الحضارة الاسكندنافية وانقراضها فى موطنها نفسه .

تم هذا الغزو بفضل العودة إلى الأساليب التى سبق أن نبذها شارلمان .

---

(١) ثقافة لاتين La Tene Culture عبارة عن اسم الموقع عند تلفق بحيرة نيوشاتل الذى كشفت فيه الآثار الأولى العجيبة لهذه الثقافة . (المؤلف)

فقد تم الدفاع عن المسيحية الغربية بالقوة وبالطرائق الحربية المجردة . ولكن ، ما إن نجح الدفاع الغربى الحربى فى وقف الهجوم العسكرى السكندنافى ، حتى استأنف الغربيون استخدام أساليب التسلل السلمى ، وبعد أن حولت المسيحية الغربية إليها المستوطنين الاسكندنافيين فى أوربا الغربية المسيحية وأخرجتهم بهذه الطريقة عن ولائهم الأصلى ، طبقت نفس الأساليب على الاسكندنافيين الذين لبثوا فى ديارهم . وعند هذه النقطة ، ساعدت إحدى فضائل الاسكندنافيين البارزة — وهى سرعة استجابتهم — على تحللهم . ولقد لاحظ عالم مسيحى غربى معاصر لهم هذه الفضيلة وعبر عنها فى بيتين من الشعر سداسى الوزن ردىء نوعا ما[1] قال فيها : « إنهم قد تقبلوا لغة وعادات أولئك الذين شاركوهم أعلامهم ، فأصبحوا من ثم كأنهم عنصر واحد » .

وعجيب مثلا ، أن نجد الحكام الاسكندنافيين — حتى قبل اعتناقهم المسيحية — يجعلون من شارلمان بطلا . ويميلون إلى إطلاق اسم كارلوس أو ماجنوس على أبنائهم . ولو كان اسما محمد وعمر قد أصبحا فى نفس الجيل اسمين محببين بين حكام المسيحية الغربية ؛ لاستخلصنا من ذلك بلاشك ، أن فى هذا النمط الجديد نذيراً للمسيحية الغربية بسوء المصير فى صراعها مع الإسلام .

وفى الممالك الاسكندنافية التى قامت فى روسيا والدانمارك والنرويج ، فرض على الشعوب إجمالا ، اعتناق المسيحية بصفة رسمية علنية ، بمحض إرادة الأمراء الاسكندنافيين الثلاثة الذين حكموا فى عصر واحد قرب نهاية

---

(١) هذا الشاعر هو وليم الأبولى William of Apulia فى مصنفه المسمى (De Gestis Normanoram) أعمال النورمان الذى نشر فى مجموعة موراتورى (Muratori) المسماه Scriptores Rerum Italicarum)

أما الشعر فهو :

Moribus et lingua, quoscumque venire videbant,
Informant propria, gens efficiatur et una.

القرن العاشر الميلادى . وبرزت فى النرويج فى بدء الأمر ، مقاومة عنيفة . لكن قوبل التغيّر فى الدانمرك وروسيا بسلبية ظاهرة : وبهذه الطريقة ، لم يغز المجتمع السكندنافى فحسب ، بل أصابه الانقسام : وذلك لأن المسيحية الأرثوذكسية وإن أصابها قسط من المذابح التى ارتكبها الفايكنج ، إلا أنها قد ساهمت فى الهجوم الدينى والثقافى المضاد الذى أعقب ذلك .

« قارن سفراء الإمارة السكندنافية فى روسيا أو تجارها بين عبادة أوثان الغابات وبين خرافة القسطنطينية الرشيقة ، أنهم قد حدّقوا معجبين إلى قبة سانتا صوفيا ، وتطلعوا إلى صور القديسين والشهداء الزاهية ، وفى ثروة الهيكل وفى عدد الكهنة وأرديتهم ، وفى أبهة الشعائر ونظامها : وأخذ بلبهم تتابع السكون المتسم بالورع والتراتيل المتناسقة . ولم يكن إقناعهم شيئاً كبيراً بأن جوقة ترنيم من الملائكة تهبط يومياً من السماء لتشارك المسيحيين فى تعبّدهم[1] .

وأعقب ذلك مباشرة — على وجه التقريب — اعتناق إيسلندا نفسها المسيحية عام ١٠٠٠ . فكان هذا بدء نهاية الثقافة الأيسلندية . صحيح أن العلماء الأيسلنديين التاليين الذين سجلوا « الساجه » كتابة وجمعوا قصائد الـ « ادّه » ، وأنشأوا المجموعات التقليدية للأساطير الاسكندنافية القديمة ، والسلالات ، والقوانين الاسكندنافية ؛ قد وهبوا تراثاً ثقافياً مسيحياً ونوردياً فى وقت واحد ، وقاموا بعملهم هذا بعد اعتناق بلادهم المسيحية بما يقرب من مائة وخمسين سنة إلى مائتين وخمسين سنة ؛ إلا أن تلك الرجعة الثقافية إنما كانت فى الواقع آخر مآثر العبقرية الأيسلندية .

وتمكن مقابلة هذه المآثر الايسلندية ، بدور القصائد الهومرية فى التاريخ الهلينى . فقد كانت هذه القصائد أيضاً ، عملا من أعمال الرجعة الثقافية إلى

---

(١) انظر : Gibbon E. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الرابع

الماضي . لأن هومر لم يُضْفِ عليها المسحة الأدبية ، إلا بعد انقضاء عصر البطولة الذى أوحى بها . بيد أن العبقرية الهلينية بعد أن انتهت من تلك الملاحم الشعرية ، انتقلت إلى تحقيق أعمال فريدة أخرى تماثلها فى عظمتها فى ميادين أخرى . أما العبقرية الأيسلندية فقد امّحت بعد بلوغها ذروتها « الهومرية » حوالى ١١٥٠ — ١٢٥٠ ميلادية .

(٤) — اصطدام الإسلام بالعالمين المسيحيين

لكى نختتم هذا الجزء من بحثنا ، علينا أن نرى هل أسفرت اصطدامات الإسلام بالمسيحيتين عن تهيئة مقارنة أخرى من تلك « المقارنات ذات الحدود الثلاثة » والتى أصبح القارئ يألفها الآن .

سبق أن لاحظنا — فى مناسبة أخرى — تحدياً أبرزه الإسلام واستثار استجابة مُثلى . فإن تحديه الفرنجة فى القرن الثامن الميلادى قد استثار هجوماً مضاداً من جانبهم استمر عدة قرون . ولم يقتصر ذلك الهجوم على دفع أتباع الإسلام بعيداً عن شبه الجزيرة الأيبرية ، لكنه تجاوز كذلك هدفه الأصيل حاملا الإسبانيين والبرتغاليين عبر البحار إلى قارات العالم بأسرها : ولعلنا نلاحظ فى هذه الحالة كذلك ، ظاهرة سبقت ملاحظتها بمناسبة بحث هزيمة الحضارتين الإسكندنافية والغربية القصوى .

إذ حدث قبل أن تقتلع الثقافة الأيبرية الإسلامية ، أن تم استغلالها لمصلحة خصمها الظافر . فلقد ساهم علماء إسبانيا الإسلامية — عن غير قصد — فى تشييد الصرح الفلسفى الذى أقامه فلاسفة المسيحية الغربية المدرسيون إبان العصور الوسطى . كما وصلت بعض مؤلفات الفيلسوف الهلينى أرسطو ، العالم المسيحى الغربى للمرة الأولى عن طريق التراجم العربية : وصحيح كذلك أن كثيراً من المؤثرات الشرقية على الثقافة الغربية ، وهى

المؤثرات التى عُزى انتقالها إلى الغرب عن طريق تسربها إلى الأيالات الصليبية فى سوريا ، إنما وفدت فى الحقيقة من أيبريا الإسلامية .

ولم يكن الهجوم الإسلامى على المسيحية الغربية عن طريق أيبريا وفيما وراء جبال البرانس — من الناحية الفعلية — بالشدة التى بدأ بها ، وذلك بسبب طول خط المواصلات بين هذه الجبهة ، وينابيع الطاقة الإسلامية فى جنوب غرب آسيا . ولا يصعب علينا العثور على نقطة كانت فيها خطوط المواصلات أقصر ، وظهر بالتالى أن الهجوم الإسلامى كان عندها عنيفاً غاية العنف . وتتجلى هذه الناحية فى الأناضول التى كانت فى ذلك الوقت معقل الحضارة المسيحية الأرثوذكسية .

ولقد هدف الغزاة العرب فى المرحلة الأولى من هجومهم ، إلى شل حركة الروم (كما كانوا يدعونهم أى نسبة إلى روما) ، وسحق المسيحية الأرثوذكسية جملة ، بالانطلاق رأساً نحو العاصمة الإمبراطورية نفسها عبر الأناضول . وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً فاشلا من سنة ٦٧٣ إلى سنة ٦٧٧ ثم من سنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٨. بل إنه حتى بعد فشل الحصار الثانى — وقلما استقر الحد بين الدولتين على طول خط جبال طورسوس — طفق المسلمون يغزون بانتظام مرتين فى السنة ، ما بقى من أملاك المسيحية الأرثوذكسية فى الأناضول .

واستجابت المسيحية الأرثوذكسية لهذا الضغط الإسلامى بوسيلة سياسية . ونجحت هذه الاستجابة نجاحا قصير المدى . فإنها ساعدت على وقف تقدم العرب عند حد معيّن ، لكن لم يكتب لتلك الوسيلة التوفيق على طول المدى بسبب تأثيراتها الضارة على حياة المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الداخلية ونموه .

ومناط تلك الوسيلة السياسية ، محاولة الإمبراطور ليو السورى استعادة الإمبراطورية الرومانية إلى العالم المسيحى الأرثوذكسى . وقد سبقت تلك

المحاولة ، محاولة مماثلة قام بها شارلمان وفشل فيها فشلا جرّدها من كل أذى تقريبا . وكان أسوأ أثر قام به ليو السورى ، هو توسيع سلطان الدولة البيزنطية على حساب الكنيسة الأرثوذكسية ، والحرب المدمرة التى ترتبت على ذلك وهى حرب المائة عام بين الإمبراطورية والبطريركية الرومانيتين الشرقيتين من جانب ، والإمبراطورية والبطريركية البلغاريتين من جانب آخر . وقاد هذا الجرح الذى ابتلت به نفسها الإمبراطورية البيزنطية ، إلى موت المجتمع المسيحى الأرثوذكسى فى شكله الأول وفى وطنه الأصلى .

وتكفى هذه الحقائق لإظهار أن التحدى الذى هيأه الاصطدام الإسلامى للمسيحية الأرثوذكسية ، كان تحديا مفرطا فى شدته ، عكس التحدى الإسلامى للمسيحية الغربية .

هل نعثر على حالة فشل فيها الاصطدام الإسلامى فى إيجاد الحافز ، لعدم كفاية شدته ؟

نستطيع ذلك ؛ وتمكن مشاهدة نتائجه حتى يومنا هذا فى الحبشة . فلقد غدت جماعة الكنيسة المونوفيستية التى ظلت قائمة فى هذا المعقل الإفريقى ، إحدى العجائب الاجتماعية فى العالم ، لسببين :

الأول : مجرد بقائها حية فى عزلة تامة تقريبا عن الجماعات المسيحية الأخرى ، من وقت غزو العرب المسلمين مصر منذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

الثانى : هبوط مستواها الثقافى هبوطا غريبا . فإذا كانت الحبشة المسيحية قد قُبلت — فى شىء من التردد — فى عضوية عصبة الأمم ، إلا أنها كانت مثلا سيئا للاضطراب والبربرية ، اضطراب الفوضى الإقطاعية والقبلية ، وبربرية تجارة الرقيق . وفى الواقع فإن الحالة التى عليها الدولة الإفريقية الوحيدة — فيما خلا ليبريا — التى احتفظت باستقلالها

التام ، ربما كانت خير تبرير يمكن العثور عليه لتقسيم بقية أنحاء القارة بين الدول الأوروبية[١] .

ويبدى إمعان الفكر ، أن وضعى الحبشة الشاذين وهما احتفاظها باستقلالها وركود ثقافتها ، مستمدان كلاهما من نفس العلة : المناعة الفعلية التى يمتاز بها المعقل الجبلى الذى اعتصم به هذا المجتمع المتحجر . وبالأحرى انكسرت حدة موجة الإسلام وموجة الحضارة الغربية الأشد منها قوة ، حول جرف الصخور ، ثم قفزت مؤقتا إلى ما وراء قمتها من غير أن تغمر هذه القمة بصفة دائمة .

وقد كانت المناسبات التى وصلت فيها هاتان الموجتان المعاديتان إلى الأراضى الجبلية قليلة وقصيرة . ولقد تعرضت الحبشة لخطر الغزو الإسلامى فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وقلما سبق المسلمون فى الأراضى الواطئة على ساحل البحر الأحمر ، الأحباش فى حيازة الأسلحة النارية . لكن الأسلحة المستحدثة التى حصل عليها الصوماليون من العثمانيين ، وصلت الحبشة بواسطة البرتغاليين فى الوقت المناسب لإنقاذهم من الدمار . وعند ما جاء بعدئذ دور البرتغاليين وشرعوا فى إزعاج الأحباش بمحاولة تحويلهم من مذهب الطبيعة الواحدة إلى الكاثوليكية ، أخمدت أنفاس المذهب المسيحى الكاثوليكى ، وطرد جميع الزائرين الغربيين من البلاد حوالى سنة ١٦٣٠ ، أى فى نفس الوقت الذى شرعت فيه اليابان فى تنفيذ سياسة مشابهة[٢] .

---

(١) إن سجل الاستعمار الأوربى فى إفريقيا لا يبرر قطعيا استيلاء الأوروبيين على القارة . فها هى البلاد الإفريقية تحصل على استقلالها الواحدة تلو الأخرى ، ويكابد كل منها مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية جسيمة ، الأمر الذى يهدم كل ذريعة تذرعت بها البلاد الأوربية المستعمرة للاستيلاء على القارة . وإن السياسة الحمقاء التى تتبعها حكومة جنوب إفريقيا تجاه أصحاب البلاد الأصليين لشاهد صدق على فساد دعوى القائلين بجدوى الاستعمار وفائدته للبلاد المتأخرة . (المترجم)

(٢) وقلما سعى البرتغاليون والأسبانيون إلى التبشير بالكاثوليكية فى اليابان ، وتبين الحاكم الياباني (الشوجن) أن هذا التبشير يحمل بين طياته الاستعمار . فطرد الغربيين من بلاده واستأصل شأفة المسيحية من اليابان ، وأقفل بلاده حتى فتحت أبوابها للأدميرال بيرد الأمريكى عام ١٨٥٣ . (المترجم)

وقُيِّض للحملة البريطانية الحبشية عام ١٨٦٨ نجاحاً تاماً ، لكن لم تعقبها أية نتائج أخرى ، عكس نتائج فتح البحرية الأمريكية أبواب اليابان قبل ذلك بخمسة عشر عاماً .

بيد أنه كان مقدّراً لإحدى الدول الأوربية أن تنقضّ على الحبشة إبان التدافع على إفريقيا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر : وكان الإيطاليون هم الذين قاموا بالمحاولة . وقام الفرنسيون فى هذه المرة بالدور الذى قام به البرتغاليون قبل ذلك بقرنين ونصف قرن ، إذ أمدوا الإمبراطور منليك ببنادق سريعة الطلقات عاونته على إيقاع هزيمة طنانة بالمغير الإيطالى فى عدوه عام ١٨٩٦ .

وعند ما عاد الإيطاليون — معززين عن سوء قصد بروح بربرية جديدة غرسوها عمداً فى أنفسهم[1] — إلى الهجوم على الحبشة فى سنة ١٩٣٥ مع تصميم أعظم هذه المرة ، بدا وقتئذ كما لو أنهم قد توصلوا إلى وضع نهاية لمنعتها القديمة ، كما قضوا فى نفس الوقت على الأمل الذى تولّد حديثاً فى الأمن الجماعى للعالم الغربى المعذّب :

بيد إنه حدث خلال أربع سنوات من إعلان الإمبراطورية الإيطالية فى الحبشة ، أن اشترك موسولينى فى الحرب العالمية ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ؛ فدفع اشتراكه هذا ، أولئك الذين كانوا امتنعوا فى سنة ١٩٣٥—١٩٣٦ عن مساعدة الحبشة لإنقاذ عصبة الأمم ، أن يسدوا إلى الحبشة فى عام ١٩٤١ إنقاذاً لحياتهم أنفسهم ؛ نفس الخدمة الجليلة التى سبق أن أسداها إليها الفرنسيون والبرتغاليون إبان أزمتيها السابقتين .

هذه الهجمات الأجنبية الأربع ، هى كل الهجمات التى واجهتها الحبشة فى غضون الستة عشر قرنا التى انقضت منذ اعتناقها المسيحية . وعلى أية حال صُدّت الهجمات الثلاث الأولى فى سرعة لا تدع لها السبيل لتصبح عاملا حافزا .

---

(١) يقصد المؤلف الفاشية .   (المترجم)

وفيما عدا ذلك ، ما برحت خبرتها غفلا . ولعل حالتها تدحض القول بأن الأمة السعيدة هي التي لا تاريخ لها . فإن سجلها يضم القليل إذا استثنينا تكرار توجيه عنف ممل لا معنى له في محيط من البلادة ، ضد أساس قائم من خاصية تدعى بـ « المناعة ضد آلام التجربة » ، أو بعبارة أخرى الاستعصاء على الحافز . ففي سنة ١٩٤٦ ورغما عن الجهود الجريئة التي ما فتئ يبذلها في سبيل الإصلاح الإمبراطور هيلاسيلاسي ومعاونوه ذوو العقول المتحررة ، ما كان ليتأتى القول بأن للغزوة الأجنبية الرابعة للحبشة أثرا حافزاً أشد من آثار سابقاتها .

الباب الثالث

نمـــو الحضـارات



الفصل التاسع

الحضارات المتعطلة

(١) البولينزيون والاسكيمو والبدو

أخذنا فى الباب السابق من هذه الدراسة ، نجاهد المشكلة المسلم بصعوبتها ، ألا وهى كيفية انبعاث الحضارات إلى الوجود . ولكن قد يظن أن المشكلة التى تطالعنا الآن ، أيسر من أن تستحق إمعان النظر فيها كمشكلة أيا ما تكون .

فإذا انبعثت حضارة — على شريطة عدم قتلها فى نموها كما حدث بالنسبة لما أسميناه بالحضارات العقيمة — فهلا يكون من المتوقع أن يكون نموها أمراً مفروغاً منه ؟

خير وسيلة للاهتداء إلى إجابة على هذا السؤال ، توجيه سؤال آخر :

هل نلاحظ — كمسألة تاريخية مقررة — أن الحضارات التى تغلبت على أخطار الميلاد والطفولة المتتالية ، تنمو كلها دون استثناء نمواً ثابتاً مقرراً ؛ إلى « مرحلة الرجولة » ؟ .

وبعبارة أخرى ، هل تواصل كلها دون أى استثناء نموها الطبيعى إلى أن توفق إلى السيطرة على أسلوب حياتها والبيئة التى تعيش فيها ، سيطرة تبرر إدراجنا إياها فى القائمة التى وردت فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ؟

والإجابة ، هى أن بعضها لا يقيض له ذلك . فبالإضافة إلى الطبقتين اللتين لوحظتا فعلا — الحضارات المتطورة والحضارات العقيمة — توجد ثمة طبقة ثالثة أخرى حرىّ بنا أن نطلق عليها اسم الحضارات المتعطلة : ونعنى حضارات ظلت على قيد الحياة لكنها أخفقت فى متابعة نموها . ويضطرنا وجود مثل هذه الحضارات ، إلى دراسة مشكلة النمو . وستكون خطوتنا الأولى ، استجماع النماذج الموجودة من حضارات هذه الفصيلة ودراستها.

وفى مقدورنا أن نضع أيدينا فوراً على بضعة من النماذج :

فمن ضمن الحضارات التى انبعثت استجابة لتحد مادى : حضارات البولينزيين والاسكيمو والبدو .

ومن ضمن الحضارات التى انبعثت استجابة لتحد بشرى ، ثمة طائفة من الجماعات الشاذة مثل العثمانيين فى العالم المسيحى الأرثوذكسى ، والإسبارطيين فى العالم الهلينى .

وانبعثت هذه الجماعات إلى الوجود ، بفضل ازدياد شدة التحديات البشرية التى كانت سائدة حين انبعاثها ؛ ازديادا محليا ، فى ظل ظروف خاصة . فبلغت درجات من الشدة غير عادية .

هذه كلها أمثلة للحضارات المتعطلة ، فى مكنتنا أن ندرك من النظرة الأولى ، أنها تهيئ جميعها صورة من نفس الحالة العامة .

ولقد تعطلت حركة جميع هذه الحضارات المتعطلة نتيجة إنجازها عملا فذا . وهى استجابات لتحديات بلغت شدتها المرتبة الجدية بالذات . أى المرتبة الواقعة بين الدرجة التى تتيح حفزاً يقود إلى مزيد من الارتقاء ، والدرجة التى يتحتم عندها الإخفاق .

وقياساً على المثل الذى ضربناه بشأن متسلقى المنحدر ؛ يمكن تشبيه تلك الحضارات بمتسلقين أصعدوا فجأة ، ولا يستطيعون التوجه لا إلى الخلف ولا إلى الأمام . فأصبح وضعهم جمودا محفوفاً بالمخاطر ، على درجة من التوتر عالية وعسانا أن نضيف ، أن أربع حضارات متعطلة من الخمس التى ذكرناها ، اضطرت فى النهاية إلى التسليم بالهزيمة . وما تزال واحدة منها فقط — ثقافة الاسكيمو — تحاول البقاء .

فالبولينيزيون مثلا ، أقدموا على عمل فريد ، برحلتهم الجريئة عبر المحيط ، وتجلى حذقهم فى إنجاز هذه الرحلات العجيبة فى زوارق ضعيفة مفتوحة . وكان الثمن الذى أدوه ، بقاءهم — إلى أجل غير

مسمى – لكنه طويل بلا ريب – فى حالة توازن دقيق مع المحيط الهادى .
فكانوا يستطيعون بالكاد عبور مسافاته الشاسعة الخاوية ، دون أن
يمكنهم فى أى وقت من الأوقات اجتيازها بشيء من السلامة أو الراحة .
وظلت الحال كذلك حتى زالت بفعل التراخى حالة التوتر الغير المحتملة ،
فضعفت حدتها . فأصيب بالانحلال هؤلاء الذين كانوا فيما مضى ، سادة من
مستوى المينوويين والفايكنج . واستحالوا إلى « آكلى اللوتس » و « أمة
افعل ما تشاء »[١] . فانهارت من ثم سيطرتهم على المحيط وقنعوا بالبقاء ،
كل فى فردوسه الجزرى الخاص . وظلوا كذلك ، إلى أن حطّ البحّار
الغربى عليهم . ولن يقتضينا الأمر البحث هنا فى آخر أمرهم ، ما دمنا قد
تناولناه قبل ذلك فعلا ، عند كلامنا عن جزيرة ايستر .

أما بالنسبة للاسكيمو : فقد كانت ثقافتهم تطوراً لأسلوب حياة هنود
أمريكا الشمالية ، ليوائم بصفة خاصة ، ظروف الحياة حول شواطئ المحيط
المتجمد الشمالى . وتمثلت مأثرة الإسكيمو فى البقاء عند الثلج أو فوقه خلال
الشتاء ، وصيدهم عجول البحر . ومهما يكن الحافز التاريخى على ذلك ،
فمن الواضح أن أجداد الإسكيمو قد صارعوا بجسارة عند نقطة معينة من
تاريخهم ، البيئة المتجمدة الشمالية ، وكيّفوا حياتهم وفقاً لمقتضيات ظروفها
بحذق بلغ حد الكمال . ولا يتطلب الأمر للتدليل على هذا القول ، سوى سرد
قائمة الأجهزة المادية التى صنعها الإسكيمو أو اخترعوها :

الكاياك Kayak [١] واليومياك Umiak (قارب للنساء) ، والسهم
الهلبى[٢] ، ورمح الطير مع لوح القذف ، والحربة ذات الشوكات الثلاث لصيد
سمك السلمون ، والقوس المركّب الذى تعززه بطانة من الأوتار ، والـ حافة

---

(١) زورق الاسكيمو ويصنع من جلد عجل البحر . (المترجم)
(٢) رمح مريش لصيد الحيتان . (المترجم)

التى يجرها الكلاب ، حذاء الثلج ، المنزل الشتوى والمنزل الثلجى المزدود بمصابيح لإحراق شحم الحوت ، والدكة ، والخيمة الصيفية ، وأخيراً الثياب الجلدية(١) .

تلك هى العلامات الظاهرة والمنظورة لإرادة وإدراك يثيرا الدهشة ، ومع ذلك فإنه :

« يظهر الإسكيمو فى اتجاهات معينة – بالنسبة للتنظيم الاجتماعى مثلا – » أن تطوره لم يصل نوعاً ما إلى هذا الحد . وهذا يبعث على التساؤل عن مرد هذا التباين الاجتماعى المنحط ، وهل يرجع إلى الروح البدائية أو يرجع بالأحرى إلى الظروف الطبيعية التى ما برح الإسكيمو يعيشون فى ظلها منذ زمن سحيق . ولا يتطلب الأمر معرفة عميقة بثقافة الإسكيمو ، لإدراك أنها ثقافة اضطرت إلى استخدام جانب كبير للغاية من طاقتها فى سبيل تنمية الوسائل التى تحصل بها على قوتها ليس إلا(٢) .

وتمثل الثمن الذى وجب على الإسكيمو أداؤه لاجترائهم على مصارعة البيئة القطبية الشمالية ، فى المواءمة – دون أية مرونة – بين معيشتهم ودورة المناخ القطبى الشمالى السنوية . إذ يضطر جميع الذين يستطيعون كسب العيش من أفراد القبيلة إلى مزاولة مهن مختلفة باختلاف فصول السنة . ويفرض طغيان الطبيعة القطبية الشمالية على الصياد القطبى جدول مواعيد يماثل فى شدة وطئته ، ما تفرضه على عامل المصنع ، الإدارة العلمية التى وضعها الطغيان البشرى . وفى الواقع لعلنا نميل إلى التساؤل عما إذا كان الإسكيمو سادة الطبيعة القطبية الشمالية أو عبيداً لها .

وسيجابهنا سؤال مماثل عندما نصل إلى فحص حياة الإسبرطيين والعثمانيين ، وسنجد أن صعوبة الإجابة واحدة فى جميع الأحوال . بيد [illegible] يجب أن نتأمل

---

(٢) راجع : Steensby, H.P. An Anthropological Study of the Eskimos Culture. ص ٤٣

(١) المرجع السابق ص ٤٢

أولا فى مصير حضارة متعطلة أخرى نشأت هى الأخرى – مثل حضارة الإسكيمو – عن تحد مادى .

فبينما كان الإسكيمو يصارعون الجليد، والبولينيزيون يصارعون المحيط ، كان للبدو الذين استغرقوا فى تحدى السهب ، الجسارة على مصارعة عامل مساو لهذين فى العناد . فإن السهب بسطحه العشبي والحصبائى ، يشابه فى علاقته بالإنسان « بحراً لا يحصد » (كما يدعوه هومير) ، أعظم من مشابهته اليابسة التى يسهل علاجها بالمجراف والمحراث . ولسطح السهب وسطح الماء ، شيء مشترك وهو أنه لا يسهل للإنسان الاقتراب منهما إلا حاجاً أو زائراً . ولا يهيئ له فى أى مكان من سطحه الواسع – باستثناء الجزر والواحات – مكاناً يستطيع الإقامة فيه إقامة مستقرة . ويهيئ كلاهما أسباباً ميسرة – إلى حد مذهل – للسفر والانتقال أكثر مما تهيؤه تلك الأجزاء من سطح الأرض التى اعتادت الجماعات البشرية أن تقيم عليها دورها الدائمة : لكن يقتضى كليهما – كعقاب على انتهاك حرمتهما – ضرورة التحرك الدائم عليهما ، أو الابتعاد عن سطحهما كلية إلى شواطئ اليابسة المحيطة بهما .

لذلك يوجد تشابه حقيقى بين جحافل البدو الرحل الذين يتبعون سنوياً نفس مدار المراعى الصيفية والشتوية ، وبين أسطول الصيد الذى يتجول من ضفة إلى أخرى وفقاً للموسم : تشابه بين قوافل التجار التى تقايض حاصلات الشواطئ البحرية المتقابلة ، وبين قوافل راكبي الجمال التى تتصل عن طريقها شواطئ السهب المتقابلة بعضها بالبعض الآخر ، تشابه بين قرصان الماء وغزاة الصحراء ، تشابه بين تلك التحركات ذات الطابع الانفجارى للسكان التى دفعت المينوويين أو النورديين إلى النزول إلى البحر والانحدار نحو شواطئ أوروبا أو الشرق الأدنى انحدار أمواج المد ، وبين تلك التحركات الأخرى التى ساقت البدو العرب أو الأسقوذيين[1]

(١) بدو كانوا يقطنون جنوب روسيا الحالية . (المترجم)

أو الأتراك أو المغول إلى الخروج من مداراتهم السنوية ، والاندفاع بمباغتة وعنف متساويين على الأراضى المستقرة فى مصر أو العراق أو روسيا أو الهند أو الصين ؟

، وسيظهر أن استجابة البدو – كاستجابة البولينيزيين والأسكيمو – لتحدى الطبيعة المادية ، تعتبر عملا فذاً . وليس الباعث التاريخى بأكمله فى هذه الحالة – عكس الحالتين الأخريين – مسألة تخمين بحتة . وفى مكنتنا أن نستخلص أن البداوة قد استثارها نفس التحدى الذى استثار الحضارات المصرية والسومرية والمينوية والذى دفع أجداد الدنكا والشيلوك إلى المنطقة الاستوائية – وهذا التحدى هو الجفاف . ولقد ألقت أبحاث بعثة بامبللى[1] فى واحة آناو فيما وراء بحر قزوين ، أوضح ضوء لدينا حتى الآن ، على أصول البداوة .

ونجد هنا أن تحدى الجفاف قد يحفز عند ظهوره للمرة الأولى ، طائفة من الجماعات التى كانت تعتمد على امتهان الصيد فى الماضى . فاضطرت لتدبير معاشها فى ظل ظروف أقل موافقة إلى الإقبال على شكل بدائى من أشكال الزراعة : وتثبت الأدلة بصفة قاطعة أن هذه المرحلة الزراعية قد سبقت البداوة .

وللزراعة كذلك تأثير غير مباشر – وإن لم يقل فى أهميته – على التاريخ الاجتماعى لهؤلاء الصيادين السابقين . إذ هيأت لهم إقامة علاقات جديدة للغاية مع الحيوانات البرية . فإن فن استئناس الحيوانات البرية يتيح للمزارع ، إمكانيات أوسع مدى بكثير مما يتاح للصياد الذى يعجز بطبيعة مهنته نفسها عن مزاولة هذا الفن ، اللهم إلا فى نطاق حدود ضيقة جداً . فلقد يتصور استئناس الصياد للذئب أو ابن آوى الذى ينازعه فريسته أو يقاسمه إياها

(١) تنسب هذه البعثة الجيولوجية إلى قائدها « رافاييل بامبللى الأمريكى . ولقد أوفده معهد كارنيجى عام ١٩٠٣ إلى آسيا الوسطى والتركستان للقيام بأبحاث جيولوجية . (المترجم)

بوساطة اتخاذه شريكاً له ، لكن لا يمكن تصور توليه استئناس حيوانات أو طيور الصيد التى يطاردها . وإن الزارع بواسطة كلب حراسته - لا الصياد الذى يصحبه كلب الصيد -هو الذى فى قدرته الانتقال إلى المرحلة التالية التى تنتج الراعى وكلب حراسة الغنم . فالزارع هو الذى تتوافر لديه موارد الطعام التى تُغرى الحيوانات المجترّة كالثور والغنم ، التى لا يغريها لحم فريسة الصياد كما يغرى الكلاب .

ويشير الدليل الأثرى فى آنو Anau ، إلى أن هذه الخطوة التالية فى سبيل التطور الاجتماعى قد تمت فيما وراء منطقة بحر قزوين وقتما زادت الطبيعة شدة جفافها فى المرة الثانية . واستعاد الفرد الأوراسى - بفضل توفيقه فى استئناس الحيوانات المجترة - طاقة الحركة التى فرّط فيها إبان فترة تحوله السابقة من صياد إلى زارع . واستجاب إلى التحدى السابق عندما ظهر فى المرة التالية باستخدام قدرته على الحركة المكتسبة حديثاً ، بطريقتين جد مختلفتين .

الأولى : مدارها أن بعض زراع الواحات الواقعة وراء منطقة بحر قزوين ، اقتصر استخدامهم لحركتهم ، على الهجرة التدريجية إلى مناطق أبعد ، كلما تعاظمت شدة ميل المناخ إلى الجفاف . وذلك رجاء التمشى مع البيئة الطبيعية التى فيها يستطيعون مواصلة أسلوب معيشتهم .

وبالأحرى فإنهم قد غيّروا موطنهم كيلا يبدّلوا عاداتهم .

الثانية - لكن زراعا آخرين افترقوا عن صحبة الأولين ، بغية الاستجابة إلى نفس التحدى على نمط أعظم جرأة ، تمثل فى هجران هؤلاء الأوراسيين الآخرين أيضاً ، الواحات التى كانت قد أصبحت وقتئذ غير محتملة ، وحطوا هم وأسرهم وأسرابهم وقطعانهم على سطح السهب الشحيح .

بيد أنهم لم يُقلعوا كهاربين يبحثون على شاطئ أبعد ، بل هجر

أجدادهم الصيد أسلوب معيشتهم السابق وجازفوا بوجودهم اعتماداً على الفن الذى كانوا اكتسبوه حديثا — وهو تربية الماشية . وانحدروا إلى السهب ليتخذوه لهم مقاماً ، لا ليتجاوزه إلى ما وراءه . فأصبحوا بذلك بدوا .

وإذا قارنا بين حضارة البدوى الذى هجر الزراعة ومكّن لنفسه فى السهب ، بحضارات إخوانه الذين احتفظوا بتراثهم الزراعى بوساطة تغيير موطنهم ، نلاحظ أن البداوة تبدى تفوقها بعدة طرق : فنى المرتبة الأولى يعتبر استئناس الحيوانات ، بكل جلاء ، فنا أسمى من استئناس النباتات ، بالنظر إلى أنه يمثل انتصار الفطنة والإرادة البشريتين على مادة أصعب قياداً . إن الراعى فنان أعظم من المزارع ، وهذه حقيقة ذكرت فى عبارة مأثورة من القصص وهى :

« عرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قابيل . . . ثم عادت فولدت أخاه هابيل ، وكان هابيل راعياً للغنم وكان قابيل عاملا فى الأرض ، وحدث من بعد أيام أن قابيل قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر »[1] .

حقاً ، إن حياة البدوى انتصار للحذق البشرى . إذ قد أحكم أمره على أن يستخلص غذاءه من الحشائش الخشنة ، التى لا يستطيع أن يأكلها هو نفسه . ولكنه يحوّلها إلى لبن ولحم حيواناته المستأنسة ؛ ولكى يوفر الرزق لماشيته فى الموسم أو فى غير الموسم ، من الإنبات الطبيعى للسهب العارى الشحيح ؛ كيّف حياته وتحركاته وفقا لجدول مواقيت موسمى بالغ منتهى الدقة . وفى الوقع فإن العمل الفذ الذى يتمثل فى البداوة يتطلب مستوى عالياً متزمّتا من الخلق المتين والسلوك .

(١) سفر التكوين الأصحاح الرابع : ١ – ٥

وكان الثمن الذى اضطر البدوى إلى تأديته هو — فى جوهره — نفس الثمن الذى جابهه الاسكيمو . فإن البيئة الهائلة التى نجح فى غزوها قد استعبدته بطريقة غادرة . لأن البدو — مثلهم فى ذلك مثل الاسكيمو — غدوا سجناء دورة سنوية مناخية ونباتية . وهم بحيازتهم ميزة السبق بالنسبة للسهب ، أضاعوا ميزة السبق بالنسبة للعالم فى مجموعه . غير أنهم فى الحقيقة ، لم يغادروا مسرح تاريخ الحضارات دون أن يخلّفوا علامتهم المميزة . إذ دأبوا من حين لآخر على الإغارة على موطن الحضارات المستقرة المجاورة ، ودفعوا فى بعض المناسبات كل شىء أمامهم . ولكن هذه الانتفاضات ، لم تكن تلقائية فى أى وقت من الأوقات . لأن البدوى عندما تدفق من السهب واعتدى على بستان الزارع ، لم يتحرك عن نيّة متعمدة فى تغيير دورته المألوفة ، بل إنه استجاب آليا لقوى خارجة عن إرادته .

وثمة قوتان خارجيتان من هذا النوع يتعرض لهما البدوى :

قوة تدفع ، وأخرى تسحب .

إذ يدفعه فى بعض الأحيان خارج السهب ، ازدياد الجفاف إلى درجة تجعل موطنه السابق أشد من قوة احتماله .

ويدفعه خارج السهب كذلك — الفينة بعد الفينة — الامتصاص الناتج عن فراغ اجتماعى يظهر فى محيط مجتمع مستقر مجاور نتيجة لعمليات تاريخية كانهيار حضارة مستقرة وما يتلوه من هجرات .

ولا دخل لتجارب البدوى الخاصة على الإطلاق فى هذين السببين . ويبدو أن استعراض الأحوال التى تدخّل فيها البدو على نطاق واسع فى تاريخ المجتمعات المستقرة ، يُثبت إمكان إرجاع هذه المداخلات جميعها إلى أحد هذين السببين[1] .

---

(١) يعرض العلامة توينبى هذه النقطة عرضا مستفيضا فى ملحق طويل لهذا الفصل ، مما لا يتأتى إعادته هنا ثانية . (الملخص)

وهكذا ، فإنه رغما عن تلك الإغارات العرضية داخل نطاق الأحداث التاريخية ، فإن البداوة هى فى جوهرها مجتمع من غير تاريخ . فبمجرد انطلاق القبيلة البدوية فى مدارها السنوى ، تظل تدور فيه . وقد تستمر فى الدوران إلى الأبد ، إن لم تظهر قوة خارجية لا تملك حيالها شيئاً ، فتوقف تحركاتها وتنتهى حياتها . وتتمثل هذه القوة فى الضغط الناتج عن الحضارات القائمة حولها . لأنه وإن كان الرب يحترم هابيل وقربانه ، لا قابيل وقربانه ؛ فإن ليس ثمة قوة تنقذ هابيل من القتل على يد قابيل[١] :

« يُبدى البحث الحديث فى الأرصاد الجوية ، أن ثمة تناوبا منتظما ــ ربما يظهر فى جميع أنحاء العالم ــ بين فترات الجفاف النسبى وفترات الرطوبة . ويترتب على هذا التناوب ، تبادل الفلاحين والبدو الإغارة على مناطق بعضهم بعضا : فإنه عندما يبلغ الجفاف درجة يعجز عندها السهب عن توفير المرعى لمقدار الماشية التى يحتفظ بها البدو ، يخرج الرعاة عن السبيل التى اعتادوا طرقها خلال نزوحهم السنوى ، ويغيرون على البلاد الزراعية المجاورة بحثا عن الطعام لحيواناتهم ولأنفسهم . ومن ناحية أخرى عند ما يعود المناخ إلى ما كان عليه ، وتصل مرحلة الرطوبة التالية نقطة يصبح عندها السهب قادراً على إنتاج النباتات ذات الدرنات والغلال المزروعة ، يشنّ الفلاح هجومه المضاد على مراعى البدوى .

» وتتباين طرائق العدوان عند كل فريق منهما تباينا شديداً . فإن هجوم البدوى مفاجئ مثل حملة الفرسان . أما هجوم الفلاح فإنه كتقدم المشاة ، وهو فى كل خطوة يثبت إقدامه باستخدام الفأس أو المحراث البخارى ، ويؤمّن مواصلاته ببناء الطرق أو السكك الحديدية . ولعل أبرز أمثلة على

---

(١) باعتبار قابيل يمثل الحضارة الزراعية ، وهابيل يمثل حضارة الرعى وفقا لنظرية المؤلف . (المترجم)

هجوم البدوى ، اقتحامات الأتراك والمغول التى وقعت فى غضون ما يحتمل أن يكون فترة الجفاف قبل الأخيرة . ويعتبر توسع روسيا التالى شرقا أعظم مثل على اعتداءات المزارعين . وكلا النوعين من التحركات غير عادى ويبغضه إلى أقصى حد الفريق الذى يتم على حسابه . على أنهما يتماثلان من حيث انتمائهما إلى سبب طبيعى واحد لا يمكن السيطرة عليه .

ولعل ضغط المزارع الذى لا هوادة فيه أشد إيلاماً على طول المدى — إن حدث أن وقع أحد ضحية له — من مجازر البدو الوحشية ، ومصداقاً لذلك فإن غزوات المغول قد انتهت فى غضون جيلين أو ثلاثة . بينما الاستعمار الروسى — وهو الذى كان بمثابة أخذ الثأر من المغول وغزواتهم — قد استمر حتى الآن أى أكثر من أربعمائة سنة : أولا خلف خطوط القوزاق التى أحاطت بالمراعى وحصرتها من الشمال ، ثم على طول سكة حديد ما وراء منطقة بحر قزوين التى مدّت مجسّاتها حول حدها الجنوبى .

وفى نظر البدوى تشبه الدول المزارعة — كروسيا — الآلات الدائرة والآلات الطاحنة التى تشكّل بها الصناعة الغربية الصلب الساخن وفق ما تشتهيه ، فالبدوى فى قبضتها ، إما أن يسحق من الوجود أو يوضع فى قالب الاستقرار ولا تكون عملية التداخل سلمية دائماً . إذ أخلى الطريق لإقامة سكك حديدية ماوراء قزوين ، بذبح التركمان فى جوكيتبى Goktepé . لكن الصيحة التى يطلقها البدوى وهو يموت قلما تسمع . فإنه بينما كان شعب إنجلترا إبان الحرب الأوربية الأولى يعزو مسئولية قتل ستمائة ألف أرمنى إلى الأصل البدوى للأتراك العثمانيين ، كان ثمة خمسمائة ألف من الناطقين بالتركية من بدو آسيا الوسطى الذين ينتسبون إلى اتحاد قازاق القرغيز ، يبادون كذلك وفقاً لأوامر عليا كذلك بمعرفة ما يزعم أنه أكثر البشر عدلا ؛ أى الفلاح الروسى (الموجيك)[1] :

---

(١) Toycbee A. J. The Western question in Greece and Turkey ص ٣٣٩ — ٣٤٢

قُضى على البداوة فى أوراسيا قضاء تاماً ابتداء من اللحظة التى تم فيها للإمبراطوريتين المستقرتين : الموسكوفية والمنشوكية ، مد مجسّاتهما إبان القرن السابع عشر ، حول السهب الأوراسى من ناحيتين متقابلتين .

وإذا كانت حضاراتنا الغربية قد بسطت « مجسّاتها » فوق سطح الأرض بأسرها ، فإنها تستكمل الآن استئصال البداوة من جميع مواطنها القديمة الأخرى . ففى كينيا ، قطعت مراعى قبائل الموساى Mosai وضمر حجمها لفتح السبيل أمام المزارعين الأوربيين[1]. ويشاهد البدو حصنهم الصحراوى فى الصحراء الكبرى الذى كان منيعاً حتى الآن ، تغزوه اليوم الطائرة والسيارة ذات العجلات الثمان . بل إنه فى شبه جزيرة العرب موطن البداوة الأفراسية التقليدى ، يحول البدو بالقوة إلى فلاحين . ويتم ذلك لا بوساطة دولة أجنبية ، ولكن بفضل سياسة مرسومة لعربى صميم هو الملك عبد العزيز آل سعود ، ملك نجد والحجاز ، وأمير الجماعة الوهابية التى تضم مسلمين أتقياء غيورين : فإنه عند ما يعزز حاكم وهابى فى قلب شبه الجزيرة العربية سلطانه باستخدام السيارات المدرعة ، ويحل مشكلاته الاقتصادية بفضل مضخات النفط والآبار الارتوازية ، ويمنح امتيازات إلى شركات النفط الأمريكية ، يعنى ذلك بكل جلاء أن ساعة البداوة الأخيرة قد آذنت .

وهكذا قتل هابيل على يد قابيل ، وبقى علينا أن نتساءل هل لا تزال لعنة قابيل تسقط بانتظام على قاتله ، أى قاتل هابيل ؟

« والآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك ، متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها ، تائها وهارباً تكون فى الأرض »[2] .

ولقد أثبتت الفقرة الأولى من لعنة قابيل عدم جدواها بجلاء : فإذا

---

(١) وكان ذلك فى طليعة عوامل ثورة الماوماو . (المترجم)

(٢) سفر التكوين الأصحاح الرابع ١١ — ١٢

كان زارع الواحة قد ألفى نفسه عاجزاً بالتأكيد عن جنى محصولات من أرض السهب الجافة ، فإن هجراته قد حملته إلى مناطق ذات أحوال مناخية لأمته ، وعاد من هناك جالباً وراءه التصنيع الدافعة ليطالب بمرعى هابيل باعتبارها ملكا له كذلك .»

فهل كان قابيل سيد التصنيع الذى أوجده بنفسه أو ضحيته ؟
هذا أمر فيه نظر .

على أنه بدا خلال عام ١٩٣٣ — وقمّا بات النظام الاقتصادى العالمى الجديد مهدداً بالتعطل والتحلل — أنه لا يستبعد أن يؤخذ بثأر هابيل فى النهاية . وبالتالى فإن الإنسان البدوى ، فى ساعة موته ، قد يظل فيه رمق حتى يرى قاتله — الإنسان الصانع — يسقط مذعوراً ويقاد إلى الجحيم(١).

(٢) العثمانيون

يكفينا هذا القدر بالنسبة للحضارات التى وقف تطورها ثمنا أدته على نشاطها المفرط فى الاستجابة لنوع ما من التحدى الطبيعى . وننتقل الآن إلى حالات لم يكن فيها التحدى المبالغ فيه طبيعيا بل كان بشريا .

تمثّل التحدى المبالغ فيه الذى كان على النظام العثمانى الاستجابة له ، فى انتقال الجماعة البدوية جغرافيا من بيئتها الأصلية فى السهب ، إلى بيئة جديدة جابهتها فيها مشكلة لا عهد لها بها ، مدارها ممارسة السلطان على كائنات بشرية غريبة عنها .

ولقد رأينا من قبل كيف أن البدو الأفاريين ، عندما ألفوا أنفسهم مبعدين عن مراعيهم فى السهب ومبعثرين فى المنطقة الزراعية ؛ قد

(١) لو كان المستر توينبى يكتب هذا عام ١٩٤٥ كما يفعل المختصر — لما احتاج إلا إلى إجراء تعديل سطحى طفيف فى هذه الفقرة . (المؤلف)

حاولوا معاملة السكان المستقرين[١] الذين قاموا بغزوهم ، كما لو أنهم قطيع آدمى :

وبالأحرى رنا البدو الأفاريون إلى تحويل أنفسهم من رعاة غنم ، إلى رعاة بشر . فإنهم بالتالى عوضا عن أن يقتاتوا من الكلأ البرى فى السهب بعد تحويله إلى غذاء عن طريق جهاز التحويل الذى يتمثل فى الحيوانات المستأنسة ، ارتأى الأفاريون (على غرار ما فعله الكثير من القبائل البدوية الأخرى) ، التزوّد من المحاصيل الزراعية التى تغلّها الأرضى المحروثة ، عن طريق جهاز تحويل آخر ؛ يتمثل لا فى الجهاز الهضمى الحيوانى ، بل فى الأيدى العاملة البشرية . ولقد تغرى مقارنة حيوانات الرعى بالبشر ، إلى تطبيق الفكرة ، وقد تنجح التجربة عمليا إلى حد ؛ إلا أن الاختبار التجريبى يكشف عن وجود عيب فيها يكاد أن يكون قاتلا ..

فى السهب ؛ يعتبر المجتمع المركب الذى يتألف من البدو وقطعانهم غير الآدميين[٢] ، أنسب أداة يمكن الاهتداء إليها للمواءمة مع هذا الضرب من البيئة الطبيعية ، وليس البدوى فى تلك البيئة — بصفة قاطعة — متطفلا على شركائه غير الآدميين ، لأن بينهما تبادلا معقولا للمنافع .

وتفسير ذلك ، أنه إذا كان على القطعان أن تغلّ للبدو لحومها فضلا عن ألبانها ، فقد اهتم البدو فى المحل الأول بأن يكفلوا لقطعانهم وسائل العيش : ولا يستطيع أى من الفريقين البقاء فى السهب بأعداد كبيرة من غير معاونة الطرف الآخر .

. فإذا انتقلنا إلى بيئة الحقول والمدن ، فإن وجود المجتمع المركب الذى يتألف من البدو المبعدين عن مواطنهم ومن « القطيع الآدمى » من أهالى

---

(١) أى السكان الذين يلتزمون البقاء فى أماكن معينة عكس البدو الذين شيمتهم الترحال من مكان لآخر انتجاعا للمرعى . (المترجم)

(٢) باعتبار قطيع البدو فى الأراضى الزراعية من البشر ، وفقا لآراء المؤلف . (المترجم)

البلاد الأصليين ، أمر يجافى المنطق من الناحية الاقتصادية . إذ يعتبر وجود « رعاة بشر » هنا غير ضرورى من الناحية الاقتصادية ، وإن لم يكونوا كذلك من الناحية السياسية .

وبالأحرى فإنهم متطفلون على البيئة . لأنهم — من الناحية الاقتصادية — لم يعودوا رعاة يتولون رقابة قطعانهم ، بل تحولوا إلى يعاسيب[1] ، تستغل النحل الشغّالة . أى أنهم قد استحالوا إلى طبقة حاكمة غير منتجة ، تعيش على عمل سكان منتجين ، تصبح حالتهم الاقتصادية خيراً مما هى عليه ، لولا وجود تلك الطبقة الحاكمة الدخيلة بين ظهرانيهم .

لهذا السبب ، أصاب بصفة عامة ، الانحلال السريع والفناء قبل الأوان ، الإمبراطوريات التى أقامها البدو الغزاة . ولا شك أن المؤرخ المغربى الكبير ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦ ميلادية) كان يفكر فى الدول البدوية لما قدّر لها أعماراً طبيعية — كما للأشخاص — لا يجاوز مجموعها ثلاثة أجيال . وحقا ، فإنه ما إن يستكمل الغزو ، حتى يتحلل الفاتح البدوى نتيجة لابتعاده عن عنصره الخاص وتحوله من الناحية الاقتصادية إلى شخص زائد عن الحاجة . على حين يتحسن أمر قطيعه البشرى ، بفعل استمراره فى أرضه ذاتها وتواصل بقائه منتجا من الناحية الاقتصادية . ويعيد القطيع الآدمى توكيد طبيعته البشرية بقيامه بطرد حكامه الرعاة أو باستيعابهم .

ومصداقاً لذلك ، لبثت سيطرة الأفاريين على السلاف فترة تقل عن الخمسين سنة على الأرجح ، تكوّن خلالها السلاف من جهة وتحلل الأفاريون من الجهة الأخرى . ولم يجاوز عمر إمبراطورية الهون الغربيين عمر فرد واحد هو أتيللا . ولبثت إمبراطورية خانات المغول فى إيران والعراق أقل من ثمانين سنة . ولم تتعد تلك الفترة ، إمبراطورية الخانات العظام فى جنوب الصين . وظلت إمبراطورية الهكسوس (الملوك الرعاة) فى

---

(١) جمع يعسوب — ذكر النحل . (المترجم)

مصر قرناً واحداً لا أكثر . أما الفترة الزائدة على قرنين التى دامها دون انقطاع حكم المغول وأسلافهم المباشرين المحليين (الكين Kin) فى شمال الصين ، (من ١١٤٢ إلى ١٣٦٨ ميلادية تقريباً) والفترة الأطول البالغة ثلاثة قرون ونصف التى ظل خلالها البارثيون سادة إيران والعراق (من ١٤٠ ق . م . إلى ٢٢٦/٢٣٢ ميلادية تقريباً) فإنما كانتا استثناءا ظاهراً من تلك القاعدة .

وإذا قيست سيادة الإمبراطورية العثمانية على العالم المسيحى الأرثوذكسى بهذه المعايير ، لبدت شيئاً فذاً . فإذا أرّخنا قيامها بغزو مقدونيا عام ١٣٧٢ ميلادية ، وبدء نهايتها بمعاهدة كوتشوك كاينجارجى عام ١٧٧٤ ميلادية ؛ نكون قد أفردنا لها فترة أربعة قرون دون أن ندخل فى الحساب الزمن الذى استغرقته قبل ذلك فى النهوض ، ثم بعد ذلك فى السقوط . فما هو تفسير طول بقائها بالنسبة للإمبراطوريات البدوية الأخرى ؟

يتيسر العثور بلا ريب على تفسير جزئى فى هذا الأمر مداره أن العثمانيين وإن كانوا عبئاً من الوجهة الاقتصادية ، إلا أنهم أدوا رسالة سياسية إيجابية قوامها تزويد العالم المسيحى الأرثوذكسى بالدولة العالمية التى كان يعجز عن توفيرها لنفسه .

بيد أن فى استطاعتنا أن نسوق تفسيرنا إلى مدى أبعد من ذلك .

فلقد رأينا أن الأفاريين ومن فى حكمهم ، قد حاولوا — لما جاوزوا الصحراء إلى الأرض المنزرعة — تكييف موقفهم الجديد على أساس كونهم « رعاة بشر » ، لكنهم فشلوا . ويبدو إخفاقهم أقل مدعاة إلى العجب ، إن علمنا أن هؤلاء البدو الفاشلين — بناة الإمبراطوريات فى المناطق الزراعية — لم يحاولوا العثور من بين البشر المستقرين فى المناطق الزراعية ، على بديل لواحد من شركائهم الأساسيين فى مجتمع السهب ذى الطابع المركّب . وتفسير ذلك أن مجتمع السهب هذا ، لا يقتصر على الراعى البشرى وقطيعه فحسب . لأن

البدوى يحتفظ – بالإضافة إلى الحيوانات التى يقتنيها ليعيش على منتجاتها – بحيوانات أخرى ، هى : الكلب والجمل والحصان ؛ وظيفتها مساعدته فى عمله . وتعتبر هذه الحيوانات المساعدة ، خير ما أنتجته الحضارة البدوية ، ومفتاح توفيقها : فاقتضى الأمر مجرد استئناس الغنم والبقر – وإن كان هذا الأمر ليس باليسير – حتى تكون ذات فائدة فى خدمة الإنسان . لكن الحال يختلف بالنسبة للكلب والجمل والحصان . فإن استئناسها وحده لا يكفل قيامها بوظائفها الأشد تعقداً ، إذ يتطلب الحال تدريبها على العمل بالإضافة إلى استئناسها .

ويعتبر تدريب البدوى لمساعديه من غير الآدميين ، ذروة مآثره . وعلى ذلك كان تكييف هذا الفن البدوى السامى ليتمشى مع حياة الاستقرار ، هو ما ميّز الإمبراطورية العثمانية على الإمبراطورية الأفارية ، وإليه يرد بقاؤها أمداً أطول بكثير . فلقد احتفظ الباديشاهات[1] بإمبراطورياتهم ، بفضل تدريبهم الأرقاء ليكونوا مساعدين آدميين يعاونونهم على حفظ النظام بين « قطيعهم البشرى » .

وليس هذا النظام الفذ – نظام إعداد الجنود والإداريين من بين الأرقاء – من ابتكارات العثمانيين وحدهم . فإنه فكرة تتصل تماماً بالعبقرية البدوية ، وتجافى تفكيرنا إلى أبعد حد . ونجدها فى إمبراطوريات بدوية أخرى فرضت نفسها على الشعوب المستقرة ؛ وتصدق بالذات على أطول الإمبراطوريات عمراً .

إذ نلمح إمارات الأرقاء العسكريين فى الإمبرطورية البارثية[2] :

---

(١) الباديشاه هو السلطان العثمانى . (المترجم)

(٢) نسبة إلى بارثيا Parthia الاسم القديم لقطر يقع فى آسيا الغربية جنوب شرق بحر قزوين ، ويقابله فى الوقت الحاضر القسم الشمالى من ولاية خراسان الإيرانية . ولقد كانت مركز إمبراطورية امتدت إلى نهرى دجلة والفرات وبحر قزوين ونهر السند والمحيط الهندى . وقد حاربت بارثيا روما أمداً طويلا ثم انتهى بها المطاف إلى الخضوع لسلطان فارس عام ٢٢٦ ميلادية . (المترجم)

إذ قيل إن أحد الجيوش التى أحبطت مطمح مارك أنطونى فى منافسة الإسكندر الأكبر ، لم يضم سوى أربعمائة رجل من الأحرار من بين قوتها البالغة خمسون ألف مقاتل ؛ واستخدم الخلفاء العباسيون بعد ذلك بألف سنة ، نفس الطريقة واتبعوا نفس الأسلوب للاحتفاظ بسلطانهم ؛ فاشتروا الأرقاء الأتراك من السهب ودربوهم على الجندية وعلى الأعمال الإدارية . واحتفظ الخلفاء الأمويون فى قرطبة بحرس شخصى من الأرقاء ، اختارهم لهم جيرانهم الفرنجة الذين كانوا يزودون سوق الرقيق فى قرطبة بما يأسرونه فى إغاراتهم على الجانب الآخر من حدود الأملاك الفرنجية ؛ ومن قبيل المصادفة أن يكون البرابرة المأسورون بهذه الطريقة ، من الصقالبة ؛ وهذا هو أصل كلمة رقيق (Slave) فى اللغة الإنجليزية .

على أن نظام المماليك فى مصر ، هو مثال لنفس الظاهرة أعظم شهرة . وتعنى كلمة « مملوك » فى اللغة العربية ، الشىء الذى يملك أو يستحوذ عليه . وكان المماليك فى الأصل ، هم المحاربون الأرقاء للأسرة الأيوبية التى أنشأها صلاح الدين . ثم استطاعوا عام ١٢٥٠ ميلادية ، التخلص من سادتهم ومواصلة الانتفاع بنظام الرق الأيوبى لمصلحتهم الخاصة ؛ وطفقوا يعززون صفوفهم ، لا بطريق التناسل ، ولكن بشراء فريق الأرقاء من الخارج . وهذا الحرس الخاص من الأرقاء الذين يملكون أنفسهم — مستترا وراء خلافة صورية — قد حكم مصر وسوريا ، واستطاع صد الزحف المغولى الرهيب عند خط الفرات إبان الفترة من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧ ؛ وعندئذ واجهته قوة أشد بطشا ممثلة فى المماليك الأرقاء التابعين للعثمانيين ؛ لكن ذلك لم يكن يشير نهايتهم ، فلقد سمح لهم الحكم العثمانى فى مصر بالاحتفاظ ببقائهم ، باتباعهم نفس طريقة التدريب وتجديد صفوفهم من نفس المصادر ؛ وعندما

أخذت الدولة العثمانية فى التداعى ، أكدت دولة المماليك نفسها من جديد ، إلى أن أصبح الباشا العثمانى فى مصر خلال القرن الثامن عشر ، فى حكم السجين السياسى للمماليك ؛ على غرار ما كان عليه الخلفاء العباسيون فى القاهرة قبل الفتح التركى .

وبرز فى الفترة بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين سؤال سافر مداره فيما إذا كان التراث العثمانى فى مصر سيرتد إلى المماليك أو أن مصيره الوقوع فى قبضة إحدى الدول الأوربية – فرنسا النابليونية أو إنجلترا ، بيد أن هذين الافتراضين كليهما لم يتحققا عمليا بفضل المغامر العثمانى المسلم محمد على ؛ الذى وجد صعوبة فى تسوية أمر المماليك أكبر مما وجده فى إيقاف الإنجليز والفرنسيين عند حدهم : واقتضاه استئصال هذه الكتائب من الأرقاء التى تجدد نفسها بنفسها ، استخدام كل مهارته وصرامته . وهكذا كانت نهاية المماليك ، بعد أن أقاموا أكثر من خمسمائة سنة فى تربة مصر الأجنبية عنهم ؛ بفضل تدفق الطاقة البشرية المستمر ، من السهب الأوراسى والقوقاز .

على أن الحاشية العثمانية المكونة من الأرقاء التى أقامتها الأسرة المالكة العثمانية لفرض سيطرتها والاحتفاظ بسلطانها على العالم المسيحى الأرثوذكسى ، هى أحـدث عهداً من نظام المماليك وقد فاقته كثيراً من ناحيتى النظام والطاعة على السواء . ذلك لأن ممارسة السلطان على مجموعة اجتماعية بأسرها تنتمى إلى حضارة غريبة ، هى بكل جلاء أصعب المهام التى يجابهها فاتح بدوى . ولقد استثار هـذا الأمر فى عثمان وخلفائه حتى سليمان القانونى (من سنة ١٥٢٠ – إلى سنة ١٥٦٦) أسمى ما لدى البدو من كفايات اجتماعيـة . ..

ولقد أشارت دراسة أريبة لعالم أمريكى إلى السمة العامة لنظام الحاشية العثمانى من الأرقاء فى العبارة الآتية :

« شملت الخطط العثمانية السلطانية ، السلطان وعائلته وبطانته وكتّابه وعماله والجيش العامل من الفرسان والمشاة ، وطائفة كبيرة من الشبان الذين كانوا يدربون للخدمة فى الجيش العامل وفى القصر وفى الحكومة . وكان هؤلاء الرجال يمتشقون الحسام والقلم والصولجان ؛ ويسوسون كافة المناحى الحكومية ، خلا ما يتصل منها بالقضاء فى المسائل التى تحكمها الشريعة الإسلامية . وكذلك باستثناء تلك الوظائف التى عيّنت تعيينا للجماعات الأجنبية والرعايا العثمانيين من غير المسلمين . وتمثلت أهم السمات الأساسية والحيوية لهذا النظام فى :

أولا : انحدار أفراده – عدا فى حالات استثنائية قليلة – من أشخاص مولودين من أبوين مسيحيين .

ثانيا : أن كل فرد من هذا النظام تقريباً وفد باعتباره رقيقاً للسلطان، وظل عبداً للسلطان طوال حياته مهما بلغ من الثراء أو المركز أو السطوة .

« بل إن العائلة المالكة . . . يمكن – بحق – إلحاقها بطائفة الأرقاء لأن أمهات أبناء السلطان كن من تلك الطائفة ، بل كان السلطان نفسه ابن أمة . . . ولقد امتنع السلاطين من الوجهة العملية قبل عصر سليمان بزمن طويل ، عن الاقتران بزوجات ذوات نسب ملكى ، أو عن منح لقب الزوجة إلى أمهات أبنائهم . . . وأخذ النظام العثمانى متعمدا الأرقاء وجعل منهم وزراء للدولة ، وكان يأخذ الصبية من مرعى الغنم ومن وراء المحراث ، ويجعل منهم رجال حاشية وأزواج أميرات . . . كان يأخذ الشبان الذين حمل أجدادهم أسماء مسيحية قرونا طوالا ، ويجعل منهم حكاما فى أكبر الدول الإسلامية ، وجنودا وقادة فى جيوش لا تقهر ، كانت مسرّتهم العظمى إنزال الصليب ورفع الهلال . . . وإذ كان النظام العثمانى يزدرى إلى حد بعيد نسيج العادات الأساسية الذى يدعى « الطبيعة البشرية » ، ويستخف بتلك الاتجاهات الدينية والاجتماعية التى يُعتقد بأنها عميقة

عمق الحياة نفسها ، فقد كان ينزع الأطفال من آبائهم إلى الأبد .
ولا يشجع الصلات العائلية بين أفراده طوال سنوات حياتهم الأكثر نشاطاً ، ولا يتيح لهم أى ضمان على الممتلكات ، ولا يمنحهم أى وعد صريح بأن أبناءهم وبناتهم سيستفيدون من نجاحهم وتضحيتهم . ويرفعهم النظام ويخفضهم دون أى اعتبار للنسب أو لمركزهم السابق . ويلقنهم قانونا ودينا وأخلاقاً غريبة ، ويجعلهم يشعرون دائما بأن ثمة سيفاً مسلطاً على رؤوسهم ، قد يضع فى أية لحظة ، حداً لحياة مشرفة فى طريق من المجد البشرى لا نظير له » .

ولقد برزت الأحداث جدوى فكرة إقصاء الأرستقراطية العثمانية الحرة المنشأ عن مناصب الحكم ، وهو ما يبدو لنا أنه أغرب ما فى النظام . فإنه عندما وفّق المسلمون الأحرار فى نهاية الأمر إلى شق طريقهم إلى وظائف البلاط فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان ، أخذ النظام فى التداعى ، وشرعت الإمبراطورية العثمانية فى الانهيار .

فطالما ظل النظام سليما ، كان يستمد أتباعة الجُدد من مختلف مصادر التوريد غير المسلمة : من وراء الحدود بوساطة الأسْر فى الحرب والشراء من سوق الرقيق أو الانضواء الإرادى فى الصفوف ، ومن داخل الإمبراطورية عن طريق جمع الأطفال دورياً بطريق القرعة . وكان المجنّدون يخضعون بعد ذلك لنظام تربوى محكم مع تطبيق مبدأى الاختيار والتخصص فى كل مرحلة ، وكان النظام صارماً والعقاب وحشياً . بينما كان يوجد فى الجهة الأخرى ، استثارة للطموح مستمرة ومتعمدة ، وكان كل طفل ينخرط فى سلك أسرة رقيق الباديشاه العثمانى ، على علم باحتمال تنصيبه وزيراً أكبر ، وأنه على بطولته ، كما يبديها تدريبه ، يتوقف تحقيق مطامعه .

ولدينا وصف شائق تفصيلى لهذا النظام التعليمى إبان ازدهاره ، كتبه

معاصر له هو العالم الفلمنكى والديبلوماسى Cligier Ghiselin de Basbeeg الذى كان سفيراً لبلاط هابسبرج لدى سليمان الأعظم . وقد جاءت استنتاجاته فى صف العثمانيين ، ومناهضة لأساليب المسيحية الغربية المعاصرة له :

« حسدت الأتراك – كما يقول – على نظامهم هذا ، إنه أسلوب الأتراك دائماً عند ما يوفّقون إلى اقتناء رجل كريم الخصال إلى حد غير عادى ، فنجدهم يطربون ويسرون غاية السرور ، كما لو أنهم قد عثروا على لؤلؤة غالية الثمن ، ويبذلون فى سبيل إبراز جميع مواهبه ، كل ما يسعهم من الجهد والفكر ولا سيما إذا رأوا فيه كفاية عسكرية . ولا ريب أن طريقتنا الغربية تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، إذ نسّر فى الغرب أن حصلنا على كلب أو شاهين أو حصان ممتاز ، ولا ندخر أى شىء فى سبيل الوصول بهذا المخلوق إلى أسمى درجات الكمال التى يقيض لفصيلته أن تبلغه . أما بالنسبة للإنسان – فإذا وفّقنا إلى العثور على رجل ذى مواهب تلفت الأنظار – فإننا لا نجشم أنفسنا إطلاقاً نفس المتاعب ، ولا نعتبر أن مسألة تعليمه مسألة تهمنا بصفة خاصة . وبالأحرى نحصل نحن الغربيين على الكثير من أنواع المتعة والمنفعة من حصان أو كلب أو شاهين مدرب تدريباً جيداً ، بينما يجتنى الأتراك من رجل هذب التعليم خلقه ، على منفعة أعظم مدى يتيحها تسامى الطبيعة البشرية وتفوقها على بقية المملكة الحيوانية[1] » .

واندثر النظام فى النهاية ، بسبب تسابق كل فرد فى سبيل الحصول على نصيب من امتيازاته . فكان أن فتح حوالى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، باب القبول فى كتائب الانكشارية لجميع المسلمين الأحرار عدا الزنوج . فقاد ذلك إلى زيادة عددها ، فضعفت كفايتها وتضعضع نظامها . ولا بدع

---

(١) انظر : Busbecy, O. G. Exclamatre, sive de Remililari contra Turcam instituenda Consilium طبعة ليدن سنة ١٦٣٣ ص ٤٣٩ . وقد ترجم للإنجليزية . (المترجم)

أن ترتد « كلاب الحراسة البشرية » هؤلاء فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى طبيعتها ، فإذا بها تنكفئ إلى ذئاب تنهب ماشية البادیشاه البشرية ، عوضاً عن توليها حراستها وحفظ النظام بينها .

وهنا انخدع السكان من أتباع المسيحية الأورثوذكسية فى السلام العثمانى Pax Ottomaniea ، الذى كان يحملهم فى الأصل على احتمال ربقة العثمانيين . فلقد تمثلت الحرب الكبرى من سنة ١٦٨٢ إلى سنة ١٦٩٩ بين الإمبراطورية العثمانية ودول المسيحية الغربية الخسارة الأولى من سلسلة خسائر العثمانيين لأراضيهم . وهى سلسلة بدأت منذ حرب ١٦٨٢ - ١٦٩٩ الكبرى بين الدولة العثمانية والدول الغربية ، واستمرت بعد ذلك حتى عام ١٩٢٢ . وانتقل التفوق والنظام بعد تلك الحرب من المعسكر العثمانى إلى الغرب بشكل قاطع .

ولقد تكشفت النهاية التى وصل إليها اضمحلال نظام الرق العثمانى ، عن ترمته الصارم ، وكان ذلك عيباً قضى عليه . فما أن تصدع هذا النظام ، حتى استحال إصلاحه أو إعادة تشكيله أو صياغته . وتحول إلى كابوس . وانحدر الحكام الأتراك فى عصورهم الأخيرة إلى مستوى محاكاة طرائق أعدائهم الغربيين . وإذا كانت تلك السياسة قد اتبعت طويلا فى تردد وقصور ، إلا أن مصطفى كمال قد نفذها أخيراً فى أيامنا هذه تنفيذاً شاملا صارماً .

وإنه وإن بدا هذا التحول فى ذاته عملا فذاً ، تماثل صورته ابتكار الساسة العثمانيين الأوائل نظام الدولة القائم على استخدام الرقيق ، إلا أن مقارنة نتائج هذين الإجراءين تبرز تفاهة الثانى نسبياً لأن أصحاب نظام الرق العثمانى قد ابتدعوا أداة مكنت جماعة ضئيلة من البدو طردت من موطنها فى السهب ، من المحافظة على أملاكها فى عالم يختلف عنها . بل وأتاح لها كذلك فرض السلام والنظام على مجتمع مسيحى كبير ، كان قد سار شوطاً فى طريق التحلل . وقادها أيضاً إلى تهديد حياة مجتمع مسيحى آخر أعظم من الأول ، استطاع هو الآخر أن يبسط ظله على البشر جميعاً .

ولا يسدّ ساسة الأتراك فى أيامنا الأخيرة إلا جانباً من الفراغ الذى خلفه فى الشرق الأدنى ، زوال صرح الإمبراطورية العثمانية القديم الفريد فى بابه . أما بقية الفراغ ، فقد تأتّى شغله بإقامة دول مصطنعة على نمط غربى وعلى شكل الدولة التّركية القديمة . وأصبح ورثة الحضارة العثمانية المتعطلة ، يعيشون قانعين فى هذا المثوى المتواضع ؛ مثلهم مثل الصهيونية ورثة الحضارة السورية المتحجرة المجاورة لهم ، والإيرلنديون ورثة حضارة الغرب الأقصى العقيمة فى الشارع التالى . وهى عيشة تافهة ، لكنها تعتبر فراراً من وضع لم يعد يُستطاع احتماله ، ألا وهو ، وضع « الشعب الشاذ » .

أما عن نظام الرق الإدارى نفسه ، فقد قضى عليه السلطان محمود الثانى عام ١٨٢٦ قضاءاً مبرماً إبان منتصف الحرب اليونانية التّركية ، بعد انقضاء خمسة عشر عاماً من توفيق محمد على والى مصر وتابعه الاسمى وحليفه بعض الوقت وعدوه البعض الآخر ، فى تحطيم نظام المماليك ، الصورة المطابقة للرق العثمانى .

وهذا هو المصير الطبيعى لكلب الحراسة الذى انحرف ، فأصبح يؤذى الأغنام .

(٣) الاسبرطيون

يعتبر التنظيم العثمانى ، أقرب شيء فى الحياة الواقعية تتحقق به مثالية جمهورية أفلاطون . بيد أنه من المؤكد ، أنه كان فى ذهن أفلاطون نفسه — وقتما تخيّل مدينته الفاضلة[١] ؛ نظم إسبرطة . ورغماً عن اختلاف مقاييس العمليات العثمانية والإسبرطية ، فإن ثمة تشابهاً كبيراً بين « النظم الشاذة » التى اعتنقها كلا الشعبين فى سبيل إنجاز عمله الفذ .

---

(١) ترجمنا كلمة Utopia بالمدينة الفاضلة أخذا عن الفارابى الفيلسوف الإسلامى .
(المترجم)

ولقد لاحظنا فى أول مثال ذكرناه فى هذه الدراسة أنه قد انبعثت عن الاسبرطيين استجابة تتسم بالشذوذ ، للتحدى المشترك الذى جابه كافة الدول الهلينية إبان القرن الثامن قبل الميلاد وقتما أخذ سكان هيلاس يتزايدون بمعدل يفوق زيادة مصادر المعيشة . فكان الاستعمار هو الحل الطبيعى لهذه المشكلة ؛ ومبناه ، توسعة نطاق المساحة الهلينية باستكشاف أراض جديدة وغزوها واستيطانها على حساب « البرابرة » سكانها الأصليون . وكان تطبيق هذا الحل يسيراً سهلا نظراً لقصور مقاومة البرابرة .

بيد أن الاسبرطيين وهم الذين تفردوا وحدهم من بين الجماعات اليونانية الأساسية بنظامهم ، كانوا بعيدين عن البحر ، فآثروا — والحالة هذه — غزو جيرانهم اليونانيين الميسينيين ، على الاستعمار الخارجى : إلا أنه انبعث عن هذا الإجراء ، تحدى يتسم بصرامة غير مألوفة . فإن الحرب الميسينية الأولى (حوالى ٧٣٦ — ٧٢٠ ق . م .) لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الحرب الثانية (حوالى ٦٥٠ — ٦٢٠ ق . م .) إذ نهض الميسينيون ضد سادتهم بفضل الروح التى بثتها فيهم مشقة خضوعهم . وإنه وإن أخفقوا فى كفالة حريتهم ، لكنهم نجحوا فى تحوير خط سير التطور الإسبرطى بأسره . إذ كانت الثورة الميسينية تجربة من الهول بحيث أنها خلفت المجتمع الإسبرطى « مقيداً بأغلال البؤس والحديد » . ولم تُقيّض للإسبرطيين الراحة أبداً من ذلك الوقت ، وعجزوا دائماً عن انتشال أنفسهم من رد الفعل الذى ألم بهم بعد الحرب . فإن الغزو قد أسر الغزاة ، مثلما استعبد غزو البيئة المتجمدة ، الأسكيمو الغزاة . فإن الأسكيمو كما أصبحوا مصفدين بأغلال دورة معيشتهم السنوية الصارمة ، تقيد الإسبرطيون كذلك بواجب احتجاز أرقائهم الميسينيين .

تزود الاسبرطيون لإنجاز عملهم الفذ بنفس طريقة العثمانيين القائمة على تطبيق نظم مألوفة للوفاء باحتياجات جديدة ؛ مع اختلاف مؤداه أنه فى حين

استطاع العثمانيون الاستقاء من التراث البدوى الاجتماعى الغزير ، كانت النظم الاسبرطية تطبيقاً لنفس النظام الاجتماعى البدائى للبرابرة الدوريين الذين اجتاحوا اليونان بعد عصر الهجرات المينووية . وتنسب الأساطير اليونانية هذه المآثر إلى ليكورجوس Lycurgus ، لكن ليكورجوس لم يكن إنساناً بل إلهاً . فالمحتمل إذن أن يكون واضعو الأنظمة الاسبرطية طبقات فى السياسة عاشوا حتى القرن السادس قبل الميلاد .

والسمة الغالبة للنظام الاسبرطى – كما فى النظام العثمانى – هى ازدراء الطبيعة والتهوين من شأنها إلى أبعد حد . وإلى هذه السمة تُعزى كفايته وصلابته القتالة على السواء ، وإليها يرد انهياره فى خاتمة المطاف . على أن الأجوجيين[1] الاسبرطيين ، لم يتطرفوا تطرف نظام الرق العثمانى فى الاستخفاف بحقوق الميلاد والوراثة . كما اختلف فى الإمبراطورية العثمانية أصحاب الأراضى من أعيان المسلمين الأحرار اختلافاً بيّنا عن ملاك الأرض من مواطنى اسبرطه الأحرار . إذ أُلزم الأخيرون – من الناحية الافتراضية – بواجب الاحتفاظ بالسيطرة الاسبرطية كاملة على الميسينيين . وكان مبدأ المساواة فى نفس الوقت يطبّق تطبيقاً صارماً على أفراد الكيان الاسبرطى ذاته . إذ يحصل كل فرد اسبرطى على قطعة أرض مساوية فى مساحتها وإنتاجها لما يحصل عليه غيره . وكانت كل قطعة أرض – ويتولى زراعتها الميسينيون – كافية لسد احتياجات العائلة الاسبرطية ، الأمر الذى يتيح له تكريس جميع مواهبه إلى فن الحرب .

وكان يُفرض على كل طفل اسبرطى من السابعة وما بعدها ، حضور برنامج التدريب الحربى . إلا إن أُعفى لضعفه ، وعندئذ يعرّض فى العراء ليموت ؛ ولم تكن ثمة استثناءات . وكانت البنات يدربن على الألعاب الرياضية

---

(١) نسبة إلى كلمة agâgé اليونانية ، وتعنى زعيم . (المترجم)

كالصبيان سواء بسواء . وكانت البنات – مثل الأولاد – يتبارين عراة أمام جمهور من الذكور . ويبدو الاسبرطى فى مثل هذه الأمور مشابها لليابانى الحديث من ناحية قدرته على ضبط إحساسه الجنسى أو الشعور إزاءه بالفتور . وكان إنجاب الأطفال الاسبرطيين يتم وفقاً لأسس استنسالية[١] صارمة فيُوحى إلى الزوج الواهن بالبحث عن ذكَر خير منه لكفالة حصول الأسرة على الأطفال .

كان الاسبرطيون ، كما يقرر بلوتارخ :

« يعتبرون القواعد المنظمة للعلاقات الجنسية لغيرهم من البشر ، معرضاً للخشونة والزهو . وعندهم أن ما عداهم من الناس يهتمون بتزويد أناث كلابهم وخيولهم بخير الفحول التى يستطيعون اقتراضها أو استعارتها ، بينما يحتجزون نساءهم ويخضعونهن للرقابة والحراسة بغية التأكد من أنهن سينجبن أطفالا من أزواجهن وحدهم فحسب ، فارضين أن الاتصال الجنسى حق مقدس للزوج حتى ولوكان هو ضعيف العقل أو هرماً أو مريضاً »[٢] .

ويلاحظ القارئ التشابه العجيب بين تعليقات بلوتارخ على النظام الاسبرطى وتفسيرات بوسبك Busbecq التى سبق أن أوردناها ، لنظام الرق عند العثمانيين .

وهكذا تماثل السمات الرئيسية فى كلا النظامين الاسبرطى والعثمانى : الرقابة والاختيار ، والتخصص ، وروح التنافس . ولم تقتصر هذه السمات فى كلتا الحالتين على مرحلة التعليم . إذ كان الاسبرطى يخدم مع الأعلام ثلاثة وخمسين سنة ، وكانت الواجبات المفروضة عليه تجاه بعض الأوجه ، أفظع مما كان يفرض على الانكشارية . وكانت الانكشارية تثبط عن الزواج ،

---

(١) نسبة إلى علم الاستنسال ، أى علم تحسين النسل . (المترجم)

(٢) Plutarch : Lycurgus Ch XV .

فإن تزوجوا ، سمح لهم بالعيش فى مضارب المتزوجين . فى حين كان الاسبرطى يُجبر على الزواج ولكن مع الحيلولة بينه وبين مزاولة الحياة المنزلية بوساطة إجباره — حتى بعد الزواج — على الأكل والنوم داخل ثكناته .

وأسفرت هذه النظم عن انبعاث روح عامة ساحقة بصفة مؤكدة ، إلى درجة تكاد لا تصدق ، روح ألفاها الإنجليز شاقة كريهة حتى تحت ضغط ظروف الحرب ، ولا يتأتى احتمالها فى غيرها من الأوقات . الأمر الذى جعل « اسبرطى » غير مقبولة منذ ذلك الحين . وتبدى قصة الثلاثمئة فى ترموبيلاى[1] أو قصة الصبى والثعلب ، جانباً من تلك الروح . ولا يعزب عن ذهننا من الناحية الأخرى ، أن الصبى الاسبرطى كان يقضى العامين الأخيرين من تعليمه فى الخدمة السرية التى كانت لا تعدو الانتماء إلى عصابة قتل منظمة تطوف أنحاء البلاد للقضاء على أى رقيق يبدى علامة عصيان ، أو يظهر خلقاً ناشزاً أو إقداماً على أى صورة أو شكل .

ولا تظفر عينا الزائر لمتحف اسبرطه الحالى بأى أثر عن عبقرية النظام الاسبرطى . وتباين مجموعة هذا المتحف أية مجموعة أخرى لأعمال الفن الهلينى تبايناً تاماً : فإذا كان فى وسع زائر المتاحف الأخرى التى تضم مجموعات الفن الهلينى ؛ أن يمتع ناظريه بمرأى طرائف العصر الكلاسيكى (حوالى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد) ، فإن الفن الكلاسيكى لا وجود له فى المتحف الاسبرطى . على أن معروضاته السابقة للعصر الكلاسيكى تبشر بالخير ، أما ما بعدها فلا شىء على الإطلاق . فإن ثمة فراغاً تاماً فى تسلسلها ، ويتسم ما تلاها كله بأنه عمل رتيب ممل خال من طابع الإلهام ، أُنجز إبان العصرين الهلينى والرومانى : ويقع التاريخ

---

(١) ممر يصل بين تساليا ولوكريس فى اليونان . وقد أمكن لثلاثمئة يونانى عام ٤٨٠ ق . م الدفاع عنه دفاعاً باسلاً ضد الجيوش الفارسية . (المترجم)

الذى قُضى فيه على الفن الاسبرطى المبكر إبان « مراقبة تشيلون Chilon »[١] فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد تقريباً . وهذا غالبا ما يدعو إلى افتراض أن هذا السياسى هو أحد واضعى هذا النظام . وتقع فترة معاودة الإنتاج الفنى معاودة مفاجئة غير متصلة ، فى عصر الاضمحلال بعد سنة ١٨٩ــ ١٨٨ ق . م . وقتما أبطل الفاتح الأجنبى النظام بالقوة .

ومما يبعث على العجب بالنسبة لصرامة النظام الاسبرطى ، بقاؤه قائما قرابة المائتى سنة بعد زوال علة بقائه ــ أى بعد ضياع ميسينيا إلى غير رجعة . أما قبل هذا التاريخ ، فقد كتب أرسطو العبارة التذكارية على قبر اسبرطة ، فى صورة قضية عامة :

« أحرى بالشعوب أن لا تدرّب نفسها على فن الحرب بقية إخضاع جيران لا مبرر لإخضاعهم (أى إخوانها اليونانيين ، أى غير المنتمين إلى السلالات الأوطأ التى لا يحكمها القانون والتى يلقبها اليونانيون بالبرابرة) . . . يجب أن يغدو الهدف الأعلى لأى نظام اجتماعى ، تنسيق النظم الحربية مثل جميع النظم الأخرى ، بغية اتفاقها مع ظروف السلام وقتما يصبح الجندى بعيداً عن الخدمة »[٢] .

(٤) خصائص عامة

تبرز خاصيتان عامتان فى جميع هذه المجتمعات المتعطلة ، بروزا واضحا : الطائفة والتخصص :

ويتيسر إدراج كلتا هاتين الظاهرتين فى صيغة واحدة مدارها أن كافة المخلوقات الفردية الحية التى يضمها بين ظهرانينا كل مجتمع من هذه

---

(١) تشيلون هو أحد الحكماء السبعة . عاش خلال ٦٢٠ – ٥٥٠ ق . م . وإليه يعزى المثل المشهور « اعرف نفسك » . (المترجم)

(٢) Aristotle : Politics : 1333B — 1334A .

المجتمعات ليست جميعها من نوع واحد . لكنها تتوزع على مجموعتين أو ثلاث مجموعات مختلفة ، بشكل ظاهر :

فى مجتمع الاسكيمو ، ثمة طائفتان : الصائدون البشر ، ومساعدوهم ذوو الأنياب والأظافر . وفى المجتمع البشرى ، توجد ثلاث طوائف : الرعاة البشر ، والحيوانات المساعدة ، والماشية .

ونعثر فى المجتمع العثمانى على ما يعادل طوائف المجتمع البدوى الثلاث ، مع إحلال الكائنات البشرية محل الحيوانات . وبينما يتكوّن الكيان الاجتماعى البدوى ذو الشكل المتعدد ، من اجتماع الكائنات البشرية والحيوانات فى فرد ولا يتأتى لها العيش فى السهب دون مشاركة بعضها بعضا ؛ نجد الكيان الاجتماعى العثمانى ذو الشكل المتعدد ، يتكون على العكس من تفريق الناس المتجانسين تجانساً طبيعياً ؛ إلى طوائف بشرية تُعامل كما لو أنها تنتسب إلى أنواع مختلفة من الحيوانات . على أننا نستطيع تجاهل هذا الاختلاف تحقيقاً لغايتنا .

لقد استحال كلب الاسكيمو وحصان البدوى وبعيره – بفضل مشاركتها للإنسان – إلى أشباه آدميين . بينما أضاع السكان الخاضعون للعثمانيين – أى الرعية وتعنى القطيع – والأرقاء اللاوكونيون Laconian Helots نصف آدميتهم بسبب معاملة سادتهم لهم كقطيع . أما الشركاء الآخرون فهم فى كل جماعة قد تخصصوا فى أدوار الهولة . ومصداقا لذلك نجد الاسبرطى المكتمل هو « المارسى »[1] والانكشارى المتكامل هو الناسك ، والبدوى الكامل هو القنطروس[2] والاسكيمو المتكامل هو المرمان[3] . وإذا كان جماع نقطة الخلاف بين أثينا وأعدائها – كما صوره بركليس فى خطابه الجنائزى –

---

(١) مارس إله الحرب عند اليونانيين القدماء . (المترجم)

(٢) القنطروس كائن خرافى له رأس إنسان وجسم حصان . (المترجم)

(٣) المرمان : إنسان الماء (شيخ البحر) . (المترجم)

أن الأثينى إنسان صُنع على هيئة الإله فى حين أن الاسبرطى محارب فقط ؛ فإن وصف المراقبين للاسكيمو والبدو يتفق على توكيد أن هؤلاء الاخصائيين ، قد بلغ بهم حذقهم إلى حد أصبح معه القارب والحصان وحدتين عضويتين . فالقارب أصبح كإنسان عند الاسكيمو ، والحصان غدا إنسانا لدى البدوى .

وبالأحرى أنجز الاسكيمو والبدو والعثمانيون والاسبرطيون ما وفقوا إلى إنجازه ؛ بفضل طرحهم جانبا مسألة التباين الغير المحدود فى الطبيعة البشرية ، وافتراضهم وجود طبيعة حيوانية فى البشر عوضا عن طبيعتهم البشرية . وقادهم هذا الافتراض إلى طريق الانحلال . وإذا كان علماء الأحياء يقررون بأن الوقوف وانتفاء المستقبل فى عملية التطور ، يعتبر نهاية أنواع الحيوانات التى تغالت فى مواءمة نفسها مع البيئات ذات التخصص الرفيع ؛ فإن هذا تماما هو مصير الحضارات المتعطلة .

وتهيئ كلا المجتمعات البشرية الخيالية التى تدعى بالمدن الفاضلة Utopias والمجتمعات الواقعية التى تتولى الحشرات الاجتماعية[1] إنشاءها ؛ مشابهات لمثل هذا المصير :

فإذا عقدنا مقارنة بين نوعى المجتمعات ، نجد الخصائص البارزة التى طالعتنا فى جميع الحضارات المتعطلة ؛ أى الطائفية والتخصص ، قائمة فى حشد النمل وفى خلية النحل ؛ كما هى قائمة فى جمهورية أفلاطون أو فى العالم الجديد المثالى لألدوس هكسلى .

ولقد ارتفعت الحشرات الاجتماعية إلى مراكزها الاجتماعية الحالية ، ثم وقفت هناك ساكنة ملايين عديدة من السنين ، قبل أن يبدأ الإنسان العاقل فى الارتفاع فوق المستوى المتوسط لمجموعة الحيوانات الفقرية .

أما عن المدن الفاضلة ، فإن نظمها ثابتة فرضا . لأنها تتضمن دائما برامج للعمل تتخفى وراء قناع قوامه وصف أساسه الخيال . ويتمثل

(١) كالنمل والنحل مثلا . (المترجم)

رد الفعل فى جميع الأحوال تقريبا ، وهو الفعل الذى ترنو هذه البرامج إلى تحقيقه ، فى « تعليق » مجتمع قائم دخل طور انحلال عند مستوى معين ، عندئذ لا بد وأن ينتهى الحال بالمجتمع إلى الانحلال . إلا إن أمكن تعطيل حركة تدهوره بالوسائل المصطنعة . والواقع أن إيقاف حركة تدهور مجتمع هى أقصى ما يطمح إلى تحقيقه أصحاب المدن الفاضلة . فإنهم قلما يُقدمون على تخطيط قواعدها فى أى مجتمع ، إلا بعد أن يفقدوا الأمل فى تحقيق مزيد من التقدم .

وبالأحرى ترنو جميع المدن الفاضلة إلى كفالة توازن ثابت حصين تخضع فى سبيل تحقيقه الغايات الاجتماعية الأخرى ؛ بل وتضحى فى سبيله عند الاقتضاء . على أنه يستثنى من ذلك ، عمل نابه الذكر لعبقرية انجليزية ، منحت هذا الضرب من الأدب اسمه[1] .

ويصدق هذا الرأى على معنى المدينة الفاضلة فى الهلينية . وهى فكرة تصورتها أثينا فى المدارس الفلسفية التى قامت فى العصر الذى تلا مباشرة ، كارثة الحرب البلوبونيزية التى قادت إلى بث روح العداء العميق للديمقراطية الأثينية فى تلك المدارس الفلسفية ؛ مما ظهر أثره فى سيطرة تلك الروح السلبية على أسس المدينة الفاضلة الهلينية . ويرجع عداء الفلسفة للديمقراطية ، إلى أن الأخيرة قد فضت شركتها الزاهرة مع الثقافة الأثينية ، وأبرزت نزعة حربية جنونية جلبت الخراب على العالم الذى ازدهرت فيه الثقافة الأثينية ؛ وغطت تلك النزعة الحربية فشلها فى كسب الحرب ، بقتلها سقراط بعد محاكمة صورية :

فلا بدع والأمر كذلك ، أن يُصبح أول ما يُعنى به الفلاسفة الأثينيون بعد الحرب[2] ، إنكار جميع أسباب عظمة أثينا طوال القرنين اللذين سبقا

(١) يقصد المؤلف ، السير توماس مور وهو الذى صك تعبير « Utopia » علما على المكان المنشود للهناءة البشرية . انظر كتاب المدينة الفاضلة للمترجم . (المترجم)

(٢) حروب البلوبونيز . (المترجم)

الحرب . فآمنوا — من ثم — بأن إنقاذ هيلاس يكمُن فحسب فى تحالف الفلسفة الأثينية مع النظام الاجتماعى الاسبرطى . وابتغوا من المواءمة بين النظام الاسبرطى وآرائهم ، إدخال تحسينات عليها عن طريقين :

الأول : إرجاعها إلى طرفيها المنطقيين .

الثانى : فرض سيادة طائفة مثقفة (مثل الحماة عند أفلاطون) شبيهة بالفلاسفة اليونانيين أنفسهم ، على غرار الطائفة الحربية الاسبرطية ، التى ستدرّب وفقا للنظام العتيد على شغل المكان الثانى فى نظام المدينة الفاضلة .

وهكذا أثبت الفلاسفة الأثينيون فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولاءهم لآراء ساسة اسبرطة خلال القرن السادس قبل الميلاد .

وتصطبغ فكرة أفلاطون وأرسطو فى موضوع الطائفة[1] بهذا التعصب للسلالة الذى ما فتئ أحد خطايا مجتمعنا الغربى الفادحة فى العصور الحديثة : فإن غرور أفلاطون بـ « الأكذوبة النبيلة »[2] ، هو « ابتكار » رقيق لتبرير القول بوجود اختلاف عميق الجذور بين كائن بشرى وآخر ؛ اختلاف يماثل ما هو حاصل بين نوع من الحيوانات وآخر . وجعل أرسطو من هذه الفكرة أساس دفاعه عن الرق ، بما يقرره من أن الطبيعة قد خلعت على بعض الناس صفات خاصة تجعل منهم « أرقاء » . بيد أنه سلّم بأن فى دنيا الواقع كثيرين مسترقّين أحرى بهم أن يكونوا أحراراً ، بينما آخرون من الأحرار مكانهم الطبيعى الاسترقاق .

وليست سعادة الفرد هى الغاية ؛ سواء فى جمهورية أفلاطون أو فيما كتبه أرسطو[3] ، بل إن استقرار الجماعة هو جماع غايتهما . ويفرض أفلاطون حظراً على الشعراء لعل مصدره فكرة « المشرف الاسبرطى » . ويدافع عن الرقابة

---

(١) التى تأثروا فيه بالنظام الاسبرطى . (المترجم)

(٢) أى تفوق سلالة بشرية على أخرى . (المترجم)

(٣) جمهورية أفلاطون والقوانين لأرسطو والجزءان الأخيران من السياسات .

العامة على « الفكرة الخطرة » ، دفاعاً نجد ما يماثله فى روســيا الشيوعية ، وفى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان الشينتوية[١] .

ولقد دلل منهاج المجتمع التصورى على أنه أمل لارجاء فيه لإنقاذ هيلاس . إذ كشفت التجربة عن عُقمه ، قبل أن يحيد التاريخ اليونانى عن خط سيره . وذلك وقتما افتعلت على نطاق واسع ، الجماعات التى طبقت مبادئ المدينة الفاضلة . وقد بدأت بإقامة جماعة على رقعة من الأرض البور فى جزيرة كريت اعتنقت قوانين أفلاطون ، ثم تضاعف عددها بالفعل آلاف المرات متمثلة فى المدن التى أنشأها الإسكندر والملوك السلوقيون فى البلاد الشرقية والتى شيّدها الرومانيون فى الأقاليم الهمجية فى غضون الأربعة قرون التالية . وفى هذه المجتمعات المثالية فى الحياة العملية ، كان يخصص لليونانيين أو الإيطاليين الذين أتيحت لهم الفرصة لتسجيل أنفسهم كمستعمرين ، قدر كاف من قوة الأهالى الوطنيين العاملة تقوم بتأدية العمل القذر ، حتى ينصرف المستعمرون إلى تأدية رسالتهم الثقافية بنشرهم إشعاع الهلينية على الظلام الخارجى . ولعل المستعمرة الرومانية فى الغال ، قد عهدت إليها إدارة المنطقة بأسرها وسكانها الهمجيين .

وطفق العالم الهلينى إبان القرن الميلادى يتمتع بصيف هندى[٢] ، اعتبره معاصروه بل أخلافهم عمراً ذهبياً ؛ فأساءوا بذلك إليه ، وبدا كما لو أن أعظم آمال أفلاطون جسارة ، قد تحققت . واتسم العصر كذلك بتولى سلسلة من الملوك الفلاسفة عرشاً سيطر على العالم الهلينى بأسره ، وبشيوع السلام والوفاق بين ألف من المدن تعيش جنباً إلى جنب ، فى ظل هذه الرعاية الإمبراطورية الفلسفية .

---

(١) كتب هذا الفصل قبل الحرب الأخيرة التى قضت على الاتجاهات النازية والفاشية والشينتوية فى سياسات ألمانيا وإيطاليا واليابان على التوالى . (المترجم)

(٢) فصل دفء ينشى الهند فى أواخر الخريف وأوائل الشتاء . ويقصد المؤلف بهذا التعبير أن العالم الهلينى كان يتمتع بعصر رغيد . (المترجم)

بيد أن زوال الآثام لم يكن إلا وقتياً ؛ لأن الأحوال لم تكن فى الباطن على ما يرام . إذ ترتب عن الرقابة المستترة التى أوحتها طبيعة البيئة الاجتماعية والتى كان أثرها أشد مما لو فرضها أمر إمبراطورى ؛ ترتب عليها زوال الحيوية الثقافية والفنية . واستُخدم تنفيذاً لتلك الرقابة ، أسلوب طابعه روح الانتقام ، لاريب أنه يبث روح الحيرة فى نفس أفلاطون ، لوكان قد قيّض له أن يبعث حياً ، ليرى كيف تخرج آراؤه الخيالية على علاتها إلى حيز التنفيذ العملى .

فكان أن تلا رخاء القرن الثانى ــ الذى لم يوح به أحد والجدير بالتوقير ــ بؤس ظاهرته الفوضى والانفعال إبان القرن الثالث ، وقتما كرّ الفلاحون على أسيادهم ومزقوهم . وفى القرن الرابع ، مزّق الفلاحون قوائم الملكية تمزيقاً تاماً بعد صيرورة الطبقة التى كانت تتسنم الحكم يوماً ما ، أسيرة الأغلال فى كل مكان . فإن المعاونين الذين كانت تستخدمهم المدن الرومانية ، قد أصبحوا عاجزين ترهقهم ذلة ، ويستحيل أن يكونوا قد انحدروا فكرياً ممن عناهم أفلاطون بعبارته الرائعة «كلاب الحراسة الآدميين» .

وإذا ألقينا فى النهاية لمحة على بضعة من المجتمعات التصورية الحديثة ، سنجد نفس السمات الأفلاطونية . وهذا ما بينه المستر آلدوس هكسلى فى كتابه « الدنيا الجديدة الباسلة » ؛ وفيه التزم ناحية النقد اللاذع الذى يرمى إلى التعزير أكثر من الترغيب . إذ نجده يبدأ من نقطة افتراضية مبناها أن الاتجاه الصناعى يتيسر احتماله إن تيسر انفصال الطبقات « الطبيعية » انفصالا باتا . ويتم هذا بوساطة إحداث تطور مثير فى البيولوجيا ، على أن تعززه السيكلوجية الفنية . وينتج عن هذا مجتمع أساسه الطبقات المرتبة ترتيب الحروف الهجائية ، وهو فى أساسه تطبيق لفكرة أفلاطون أو عمل العثمانيين الفذ ، تطبيقاً متطرفاً . مع فارق أن الطبقات المتتابعة هجائياً التى ابتكرها هكسلى مشروطة بتحولها

فعلا إلى عدد ضخم من أنواع « الحيوانات » المختلفة ؛ على غرار الأنواع البشرية وذوات المخالب والأنياب وآكلة العشب التى تتعاون فى المجتمع البدوى . وتؤدى الطبقة الأخيرة فى مجتمع هكسلى الطبقى هذا أقذر الأعمال ، لكنها تؤديه فى شغف ولا ترغب عنه بديلا . هذا وتتم صياغة الطبقات فى معمل الاستيلاد .

ويصور المستر ويلز فى كتابه « الرجال الأوائل فى القمر » مجتمعا يعرف فيه « كل مواطن مكانه الخاص » ؛ فإنه يولد لمكان معين . ويحيله فى النهاية التدريب على النظام الدقيق والتعليم وإجراء عمليات جراحية ؛ إلى شخص صالح لمكانه تمام الصلاحية ، حتى إنه يفقد آراءه وأعضاءه الجثمانية التى يتيسر استخدامها فى أية غاية غير الغاية التى يراد تخصيص الشخص لها .

وهناك أيضاً وجهة نظر أخرى أنموذجية وتتسم بالطرافة ، بسطها صمويل بتلر فى كتابه ، مبناها أن أهالى Erewhon قد أدركوا قبل زيارة الكاتب ، أنهم قد أصبحوا أرقاء مخترعاتهم الآلية : فإن كيان الرجل الآلى ، قد أصبح ذاتية شبه بشرية على غرار الرجل القارب عند الاسكيمو والرجل الحصان لدى البدو . ولهذا عمدوا إلى فك ما كيناتهم ، وثبتوا مجتمعهم عند المستوى الذى بلغه قبل العصر الصناعى .

حاشية — البحار والسهب كأداتى نقل لغوى

لاحظنا فى مستهل بياننا عن البداوة ، أن السهب كالبحر لا « يحصد » : وهو وإن كان لا يتيح مكانا تخلد فيه البشرية المقيمة ؛ إلا أنه يهيئ تيسيرات للسفر والانتقال ، أعظم مما تهيئه الأراضى المزروعة .

وتصور هذه المشابهة بين البحر والسهب دورهما كأداتى نقل لغوى . فإنه من المعروف جيداً أن شعبا يجوب البحار ، قدير على نشر لغته الخاصة على طول شواطئ أى بحر أو محيط يتخذها داراً له .

فالبحارة اليونانيون القدماء هم الذين ألقوا باللغة اليونانية إلى التداول حول البحر الأبيض المتوسط بأسره . وإلى جرأة رجال البحر الملاويين ، يرد شيوع مجموعة اللغات الملاوية ؛ حتى مدغشقر من جانب ، وجزائر الفلبين من الجانب الآخر . وما تزال اللغـــة البولينيزية[١] تستخدم فى الحديث فى المحيط الهادى ، وتمتاز بتجانسها الغير العادى من فيجى إلى جزيرة ايستر ، ومن نيوزيلند إلى هاواى ؛ رغما عن انقضاء عدة أجيال منذ انقطاع القوارب البولينيزية عن عبور المسافات الشاسعة التى تفصل تلك الجزر بعضها عن البعض الآخر . كذلك يرد صيرورة اللغة الإنجليزية لغة عالمية ، إلى سيطرة بريطانيا على البحار .

ويشهد التوزيع الجغرافى لأربع لغات أو مجموعة من اللغات ما تزال حية : البربرية والعربية والتركية والأندو أوربية ؛ بانتشار اللغات حول شواطئ السهب المنزرعة ، بفضل حركة البدو وهم ملاحو السهب ؛ انتشار يماثل الانتشار اللغوى حول شواطئ البحار .

ويتحدث باللغات البربرية فى الوقت الحاضر بدو الصحراء ، وكذلك الشعوب الصحراوية المقيمة على شواطئ الصحراء الشمالية والجنوبية : وطبيعى أن يُفترض أن الفروع الشمالية والجنوبية لهذه العائلة من اللغات ، قد انتشرت فى مناطقها الحالية بفضل المتحدثين بالبربرية الذين عبروا الصحراء فى أزمان سابقة إلى المناطق المنزرعة على كلا الاتجاهين.

ويتحدث بالعربية بنفس الطريقة فى الوقت الحاضر ، لا على الشواطئ الشمالية للسهب العربى فى سوريا والعراق فحسب ، ولكن على شواطئه الجنوبية فى حضرموت واليمن وعلى شواطئه الغربية فى وادى النيل . ولقد حملت اللغة العربية إلى أبعد من ذلك غرباً من وادى النيل إلى منطقة البربر

---

(١) أى لغة البربر سكان شمال إفريقيا الأصليون . (المترجم)

حيث يتحدث بها الآن بعيداً فى الفيافى حتى ساحل شمال إفريقيا الأطلسى والشاطىء الشمالى لبحيرة تشاد .

وانتشرت اللغة التركية فى سواحل مختلفة من السهب الأوراسى . ويُتحدث بها الآن بلهجة أو بأخرى فى أرجاء كتلة ثابتة من أراضى آسيا الوسطى تمتد من ساحل بحر قزوين الشرقى إلى لوب نور Lob Nor ، ومن المنحدر الشمالى للهضبة الإيرانية إلى الوجه الغربى لجبال آلتاى .

ويقدّم هذا التوزيع لعائلة اللغات التركية ، مفتاح التوزيع الحالى للعائلة الأندو أوربية (كما يدل اسمها) ، أصبحت الآن تنقسم انقساماً شاذاً إلى جماعتين جغرافيتين منعزلتين تقيم الآن إحداها فى أوروبا والأخرى فى إيران والهند . وتبدى الخارطة اللغوية الأندو أوربية واضحة المعالم ، إن افترضنا أن لغات هذه العائلة ، قد نشرها البدو إبان سكناهم السهب الأوراسى ، أى قبل أن يتخذوا لهم مقاماً ثابتاً .

ولأوروبا وإيران كلبهما « شواطىء » على السهب الأوراسى . وهذا المحيط اللامائى ، هو الوسيط الطبيعى للاتصال بينهما : ويتمثل الاختلاف الوحيد بين هذه الحالة والحالات الثلاث التى سبق ذكرها آنفاً ، أن الجماعة اللغوية فى هذه الحالة ، قد فقدت سيطرتها على منطقة السهب التى تعترضها والتى انتشرت عبرها وقتاً ما .

الفصل العاشر

طبيعة ارتقاء الحضـــارات

(١) تتبع أثرين مشكلين

انتهى بنا البحث إلى نتيجة مبناها أن أشد التحديات استثارة ، ما هو في درجة متوسطة بين إفراط في الشدة ونقصان فيها :

لأن قصور التحدى قد يعجز تماماً عن استثارة الطرف المتحدَّى ؛ وعلى العكس يحطم إفراط التحدى روح الطرف المتحدَّى .

ولكن ما القول فى التحدى الذى فى مكنته أن يتكافأ تماماً مع الطرف المتحدَّى ؟

توحى النظرة القصيرة بأن ذلك التحدى هو أجلّ التحديات استثارة إلى أبعد حد يمكن تصوره . ويؤيد ذلك ما لاحظناه فى الحالات المميزة للبولونيزيين والاسكيمو والبدو والعثمانيين والإسبرطيين . إذ انبعثت عن تلك التحديات أعمال فذة . بيد أنه يناهض هذا القول ؛ ما لمسناه فى الفصل التالى عن خضوع هذه الأعمال الفذة لنقمة قتّالة تمثل فى تعطل تطورها :

وبالأحرى تدفعنا وجهة النظر الطويلة الأمد إلى التصريح بأن تلبية الاستجابة فى أسرع صورة ، لا ينهض بصفة عامة دليلا قاطعاً على مثالية التحدّى من ناحية استثارته فى النهاية أقوم استجابة .

لأن التحدى الأمثـــل ، ليس هو ذلك التحدى الذى يقتصر على استثارة الطرف المُتحدّى ليُنجز استجابة ناجحة بمفردها . ولكن ذلك التحدى الأمثل ، هو ما يشتمل على كمية الحركة التى تحمل الطرف المُتحدّى خطوة أبعد من استجابة ناجحة بمفردها ؛ تحمله من مرحلة

استكمال الاستجابة إلى مرحلة صراع جديد ؛ من مشكلة واحدة حلّت ، إلى مواجهة أخرى . أى من حالة الين إلى حالة اليانج كرة أخرى .

فإذا كان يقدّر لارتقاء الحضارات أن تتبع عملية تكوينها ، فلن تكفل ذلك وحدها الحركة المتناهية ؛ من الاضطراب إلى استعادة التوازن . لأنه لكى تتحول الحركة إلى إيقاع متكرر متواتر ، لا بد من توافر انطلاق حيوى[1] : الذى يحمل الطرف المتحدّى عبر عملية التوازن إلى مرحلة زيادة فى رجحان الميزان ، تعرّضه (أى الطرف المتحدّى) إلى تحد جديد يلهمه استجابة غضة ، على صورة مزيد من التوازن ينتهى بمزيد من رجحان الميزان .

وهكذا دواليك فى عملية ارتقاء ، يحتمل أن تظل إلى ما لا نهاية .

وهذا الانطلاق الذى يترتب عن سلسلة من عمليات رجحان الميزان ، يمكن تقصّيه فى سير الحضارة الهلينية ، من بدء تكوينها إلى أن بلغت ذروة ارتقائها فى القرن الخامس قبل الميلاد .

تمثّل التحدى الأول الذى جابه الحضارة الهلينية ، فى تحدى الاضطراب والمحنة الناتجين عن انهيار القيم الاجتماعية الذى ترتب بدوره عن تحلل المجتمع المينوى وهو سلف المجتمع الهلينى . تحلل من مظاهره هجرة المينويين ، وجنوح الآخيين والدوريين إلى البر .

فهل قُيّض لحضارة قديمة أن تدفن بقاياها تحت الحصباء التى أنزلها سيل البرابرة الطارئ نزول الهاطل ؟ وهل قدّر للأجزاء الفذة من الأرض السهلة فى المنظر الطبيعى الآخى ، أن تخضع للفلاة الوعرة التى تطنّ حولها ؟ هل يغدو زراع السهول المسالمون تحت رحمة رعاة الجبال وقطاع طرقها ؟ لقد جُوبه هذا التحدى بنجاح ؛ عندما استحالت هيلاس إلى عالم

---

(١) Elan Vital (باستعمال اصطلاح برجسون) . (المؤلف)

من المدن لا من القرى . عالم يستند على الزراعة لا على الرعى ، عالم يسوده النظام لا الفوضى .

بيد أن توفيق الحضارة الهلينية فى الاستجابة للتحدى الأول قد عرّضها إلى تحد ثان . فإن انتصار النظام الزراعى فى السهول سلمياً ، قد عمل على ازدياد كثافة السكان ؛ زيادة لم تتوقف عند ما بلغت الحد الأقصى لطاقة الزراعة على استيعابها ، وإعالة الوطن الهلينى بالتالى . فكان أن تولد عن نجاح الاستجابة للتحدى الأول ، تحد ثان يتفق مع آراء مالتس . وأمكنت الاستجابة لهذا التحدى بدرجة لا تقل عن الاستجابة للتحدى الأول .

واتخذت الاستجابة الهلينية لتحدى إفراط زيادة السكان ، لكل سلسلة من التجارب المتعاقبة . وطبّقت فى بدء الأمر وسيلة تتسم باليسر والوضوح . وظلت تداوم على تطبيقها إلى أن أخذ يسرى عليها قانون الغلة المتناقصة . فدفعها ذلك إلى اعتناق وسيلة أخرى أشد صعوبة وأقل وضوحاً ، طبّقتها مكان الوسيلة الأولى . وظلت تطبقها ، إلى أن اهتدى أخيراً إلى حل لمشكلة إفراط زيادة السكان .

تستند الطريقة الأولى على استخدام الأساليب الفنية والنظم التى ابتكرها سكان سهول هيلاس ، فى سياق فرضهم إرادتهم على جيرانهم سكان الجبال فى نطاق بلادهم ؛ كتوطئة لإلحاق مناطق جديدة بالهلينية خارج بلادها الأصلية . إذ أنشأ الرواد الهلينيون بفضل استخدامهم العدّة الحربية ممثلة فى الفيلق المدرع[1] ، والأداة السياسية وقوامها المدينة ؛ موطناً فسيح الأرجاء على الأسلوب اليونانى فى حرف الحذاء الإيطالى على حساب برابرة إيطالية والتشون Chônes . وأقاموا بيلوبونيز جديدة فى صقلية على حساب البرابرة السيكليين ،

---

(١) فيلق الجنود المدرعين وكان اليونانيون يستخدمونه فى حروبه . ويختلف عدد جنود الفيلق باختلاف المدن اليونانية التى استخدمته . (المترجم)

وشيّدوا بينتابوليس هلينية فى برقة على حساب البرابرة الليبيين ، وابتنوا تشالسيس جديدة على الشاطئ الشمالى لبحر إيجه على حساب برابرة تراقية .

بيد أن نجاح الاستجابة نفسه قد أبرز للمنتصرين مرة أخرى تحدياً جديداً . فإن ما حققوه هو فى حد ذاته تحدى لشعوب البحر الأبيض المتوسط غير الهلينية ، استثارهم بدورهم لصد توسع هيلاس ووقفه عند حده . تارة بمقاومة الاعتداء الهلينى باستخدام فنون وأسلحة هلينية مستعارة ، وطوراً بتنسيق قواتهم الخاصة على نطاق أعظم مما يستطيع الهلينيون أنفسهم القيام به . ومن ثم أوقف خلال القرن السادس قبل الميلاد ؛ التوسع الهلينى عند حده ، توسع كان قد بدأ فى القرن الثامن قبل الميلاد .

وعملت أثينا – التى غدت مدرسة هيلاس – إبان هذه الأزمة الطارئة على التاريخ الهلينى ؛ على تحقيق الكشف المرتجى ، مستخدمة الدراسة ثم التعليم ؛ لتحويل توسّع المجتمع الهلينى من عملية منبسطة إلى عملية ضيّقة الرقعة . وما يزال علينا أن نذكر فى موضع تال من هذا الفصل مغزى هذا التحويل . على أنه قد سبق وصف هذه الاستجابة الأثينية ، ولا يقتضى المقام إعادة وصفها مرة أخرى .

ولقد أدرك والت هويتمان Walt Whitman هذه الاستطالة الإيقاعية ، وقتما كتب عبارته « مشروط فى جوهر الأشياء ، أن يبرز من بين ثنايا أى استمتاع بالنجاح – أياً ما يكون – شيء يجعل المزيد من الصراع أمراً ضرورياً » .

وكتب وليم موريس معاصره الفيكتورى فى أسلوب أشد تشاؤماً « إننى أتأمل . . . كيف يقاتل الرجال ويخسرون الموقعة ، ورغماً عن هزيمتهم يحدث الشيء الذى قاتلوا من أجله ، وعندما يحدث ، يظهر أنه ليس بالشيء الذى قصدوه ، ويصبح على رجال آخرين أن يقاتلوا فى سبيل ما سعوا إليه تحت اسم آخر .

ولعل ارتقاء الحضارات يستبان من خلال « وثبة » تحملها من تحدى إلى تحد آخر مارة باستجابة . ولهذا الارتقاء مظاهره المختلفة الظاهرة والباطنة . ففي الكون الأكبر[١] ، يتبدى الارتقاء على هيئة تفوق متتابع على البيئة الخارجية . أما فى حالة الكون الأصغر[٢] ، يتبدى الارتقاء على هيئة تقرير المصير أو ترابط ذاتى . وإن فى حوزتنا بالنسبة لأى من هذين المظهرين قانون متاح ، لارتقاء الوثبة نفسها .

فلنفحص كل من المظهرين فى دوره من خلال وجهة النظر هذه :

- إذا تأملنا فى بدء الأمر ، الانتصار المتوالى على البيئة الخارجية ، سنجد مناسبة تقسيم البيئة الخارجية إلى :

أولا : بيئة بشرية ، تضم المجتمعات البشرية الأخرى التى تجد نفسها على اتصال بها .

ثانياً : بيئة مادية ، وتؤلفها طبيعة غير بشرية .

وطبيعى أن يتبدى أصـــلا فوز البيئة البشرية المتتابع على صورة امتداد جغرافى للمجتمع موضع البحث . على حين يتبدى فوز البيئة الغير البشرية (المادية) المتتابع على صورة تحسينات فى الأسلوب الفنى .

فلنبدأ أولا بالحالة الأولى ، أى الامتداد الجغرافى ، ولنشاهد إلى أى مدى يستحق اعتباره قاعدة مناسبة لارتقاء الحضارة ارتقاء حقيقيا .

ولعل قراءنا لن يأخذوا علينا توكيدنا — بدون صعوبة تذكر ومن غير إجهاد أنفسنا فى تصنيف شىء من البراهين الوفيرة المقنعة — أن التوسع الجغرافى أو « صبغ الخارطة باللون الأحمر »[٣] ؛ لا يقيم بأية حال من الأحوال قاعدة لارتقاء الحضارات ارتقاءاً حقيقياً . فإننا نتبين فى بعض

---

(١) Macrocosm

(٢) أى الإنسان Microcosm

(٣) يقصد المؤلف توسع الإمبراطورية البريطانية . (المترجم)

الأحيان اتفاق توسع جغرافى من جهة التاريخ مع الارتقاء النوعى ، وهو مظهر جزئى لفترة التوسع ليس إلا . وهذا هو حال التوسع الذى ذُكر فى موضع آخر .

إلا أنه غالبا ما يصحب التوسع الجغرافى ، انحدار المجتمع بشكل فعلى . ويتفق ذلك مع حدوث « عصر اضطرابات » أو قيام دولة عالمية ؛ وكلاهما يعتبران مرحلتى انحلال وتفكك . وليس السبب بعيـــداً عن الاهتداء إليه . إذ تُبرز عصور الاضطرابات ، النزعة الحربية التى تعنى انحراف الروح البشرية إلى مسالك التدمير المتبادل . والقاعدة أن يغدو أعظم الحربيين نجاحاً ، مؤسس دولة عالمية . ومن ثم يجيء التوسع الجغرافى ، نتيجة للنزعة الحربية . ويتم ذلك إبان الفترات التى يصدف فيها الرجال الأشداء الباسلون عن الصراع مع منافسيهم فى مجتمعهم نفسه ، وينصرفون إلى شن الهجمات على المجتمعات المجاورة .

وما برحت النزعة الحربية – كما سيظهر لنا فى موضع تال من هذه الدراسة – هى أكثر عوامل انحطاط الحضارات شيوعا فى غضون الأربعة أو الخمسة آلاف سنة التى شهدت تحلل عشرين حضارة أو ما يقاربها ، مما أمكن تسجيله إلى وقتنا الحاضر . وتقود النزعة الحربية إلى تدمير الحضارة ، لدفعها الدول المحلية التى تترابط فى نطاق المجتمع ، إلى الاصطدام بعضها ببعض فى منازعات مدمرة يقتل الأخ فيها أخاه .

عندئذ يستحيل النظام الاجتماعى بأسره فى هذه العملية الانتحارية وقودا لتغذية اللهب المفترس فى جوف مولوخ النحاسى(١) . ويتهيأ لفن الحرب بمفرده أن يتقدم على حساب فنون السلم المتنوعة . ولقد يكتسب مريدو تلك الطقوس المميتة خبرة فى استعمال أدوات الذبح ، قبل أن تأتى عليهم جميعاً . فإن تصادف توقفهم عن ممارسة ملهاتهم فى تدمير بعضهم بعضا ، فإنهم يوجهون

---

(١) مولوخ Moloch ، صنم كان يعبده الفينيقيون وتقدم له القرابين البشرية . (المترجم)

أسلحتهم خلال فترة من السنة ، إلى صدور الغرباء . هنا يصبحون أكفاء لسوق كل شيء أمامهم .

وفى الواقع ، لعل دراسة للتاريخ الهلينى ، توحي بخاتمة تناقض تماما الخاتمة التى صدفنا عنها . فلقد لاحظنا قبل الآن أن المجتمع الهلينى قد واجه فى إحدى مراحل تاريخه ، تحدى إفراط السكان باللجوء إلى التوسع الجغرافى ؛ إلا أن الدول الغير الهلينية المحيطة بالمجتمع الهلينى قد أوقفت هذا التوسع بعد انقضاء قرنين تقريباً (حوالى ٧٥٠ ــ ٥٥٠ ق . م) من الشروع فيه . وبالأحرى تحوّل المجتمع الهلينى إلى حالة دفاع تتجلى فى مهاجمة الفرس موطنه الشرق ، ومهاجمة القرطاجنيين أراضيه الغربية التى سبق له الاستيلاء عليها . وكانت هيلاس خلال هذه الفترة ــ كما شاهدها توكيديديس Thicydides [١] ، مكبوتة من جميع النواحى عبر فترة طويلة من الزمن ، وكما شاهدها هيرودوتس كذلك، تسودها اضطرابات أشد مما لقيته خلال الأجيال العشرين الماضية[٢] .

ويجد القارئ الحديث صعوبة فى إدراك مغزى العبارات الكئيبة التى وصف بها المؤرخان اليونانيان الكبيران عصراً بدا فى أعين أخلافهما أوج الحضارة الهلينية ؛ العصر الذى استكملت فيه العبقرية الهلينية تلك الأعمال الابتداعية فى كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية التى خلّدت الهلينية . ولقد كان الدافع لهيرودوتس وتوكيديديس إلى ماذكراه عن هذا العصر الخلاّق ؛ أنه عكس سابقه ، كان عصر انكماش لحركة التوسع الجغرافى . بيد أنه لا يوجد سبب للخلاف فى أن وثبة الحضارة الهلينية فى طريق الارتقاء خلال هذا القرن ، كانت أعظم مدى منها فى أى وقت سابق أو لاحق .

---

(١) سياسى أثينى قاد الحزب الأرستقراطى فى معارضته حكم بركليس . ولقد نفى عام ٤٤٤ ق . م . (المترجم)

(٢) Thucydides, Bk. I, ch. 17 : Herodotus, Bk. VI, Ch. 98

ولو كان قد قيّض لهذين المؤرخين عمر أطول من عمر البشر ، ليتاح لهما الاطـلاع على النتيجة التى تمخضت عنها الحرب الأثينية البلوبونيزية ؛ لتولاهما العجب إذ يلاحظان أن الانحلال الذى اتسمت به تلك الحرب ، قد تلته سوْرة جديدة من التوسع الجغرافى ، تمثلت فى فتوحات الإسكندر التى جاوزت فى مداها المادى توسع هيلاس البحرى فى عصرها المبكر . وفعلا اتسع نطاق الهلينية فى آسيا وفى وادى النيل فى غضون القرنين اللذين تليا عبور الاسكندر الدردنيل ، على حساب جميع الحضارات الأخرى التى اصطدمت بها . السورية والمصرية والبابلية والسندية . وواصلت توسعها بعد ذلك قرابة قرنين فى مواطن البرابرة فى أوربا وشمال إفريقا فى ظل الرعاية الرومانية . وأيا ما تكون الحال ؛ فلقد اتسم هذا العصر ، بانحدار الحضارة الهلينية خلاله فى طريق الانحلال بشكل محسوس :

وغالبا ما ينبئ تاريخ كل حضارة أمثلة من التوسع الجغرافى المصحوب بتدهور فى النوع . وسنختار مثالين فقط .

الأول : يتصل بالحضارة المينووية . فلقد بلغت الثقافة المينووية أوسع مداها الإشعاعى خلال المرحلة التى اصطلح علماء الآثار على تسميتها بالعصر المينووى المتأخر الثالث . ولم تبدأ هذه المرحلة إلا بعد تخريب كنوسوس[1] حوالى عام ١٩٢٥ ق . م . وبالأحرى ؛ فإنها لم تكن قد بدأت بعد حدوث النكبة التى أطاحت بالدولة المينووية العالمية (التى تتمثل فى تفوق مينوس البحرى) . وتركت مكانها للفراغ الذى استصفى فيه المجتمع المينووى . ولقد سُكّت دمغة الانحلال الرسمية على جميع منتجات الثقافة

---

(١) مدينة كريتية قديمة ، وينسب بناؤها إلى مينوس ملك كريت . وكانت المدينة مركز حضارة كريت التى يطلق عليها المؤلف اسم الحضارة المينووية نسبة إلى ذلك الملك . (المترجم)

المينوية المادية التى تنحدر من هذه المرحلة الثالثة للعصر المينووى المتأخر ؛ مصداقاً لما يتضح من أن هذه المنتجات قد بزّت المنتجات المينوية الأخرى فى انتشارها الجغرافى .

وغالباً ما يبدو كما لو أن الانحطاط الصناعى هو الثمن الذى اقتضاه التوسع الجغرافى فى الإنتاج .

الثانى : يتصل بالحضارة الصينية — نجد المشابهة مرة واضحة فى تاريخ المجتمع الصينى ، وهو سلف مجتمع الشرق الأقصى الحالى . إذ لم تتعد منطقة الحضارة الصينية خلال عصر الارتقاء ، أبعد من حوض النهر الأصفر : ولم يحدث أن اندمج فى العالم الصينى : حوض اليانجتسى صوب الجنوب ، والسهول وراء نهر البيهو ، صوب الناحية الأخرى ، إلا فى عصر الاضطرابات الصينى الذى اصطلح الصينيون على تسميته بـ « فترة الدول المتنابذة » . فى خلاله وسّع « تسين شى هوانج Ts'in she Huang مؤسس الدولة العالمية الصينية ؛ حدوده السياسية إلى الخط الذى ما يزال متاخماً للحائط العظيم . كما اندفعت أسرة « هان » — التى دخلت فى نطاق عمال الإمبراطور تسين — أبعد من ذلك تجاه الجنوب .

وبالأحرى ، عاصرت فترات التوسع الجغرافى والتحلل الاجتماعى فى التاريخ الصينى ، بعضها بعضاً .

وإذا ما ولينا وجهنا أخيراً شطر تاريخ حضارتنا الغربية الغير المكتمل ، وتأملنا فى نواحى توسعها على حساب حضارة الغرب الأقصى والحضارة السكندنافية العقيمتين ؛ وامتدادها من الراين إلى الفيستولا[1] على حساب البربرية الأوربية الشمالية ، ومن جبال الألب حتى جبال الكربات على حساب مقدمة البداوة الأوراسية المجرية ؛ وإذا تمعنا كذلك فى توسع حضارتنا البحرى التالى فى كل ركن من أركان حوض البحر الأبيض المتوسط من

---

(١) نهر فى بولندا . (المترجم)

مضيق جبل طارق حتى مصبي نهرى النيل والدون ، فى أعقاب حركة الغزو والتجارة الواسعة النطاق ولكن السريعة الزوال التى تعتبر كلمة « صليبية » أوفق عنوان مختصر لتلك الحركة ؛ لو فعلنا ذلك ، لاتضح لنا أن مظاهر التوسع الغربى هذه – مثل توسع هيلاس البحرى المبكر – هى جميعها أمثلة للامتداد الجغرافى الذى لم يصحبه كما لم يتبعه أى تعطل بصورة حقيقية فى نماء الارتقاء الحضارى .

بيد أنه عندما نستعرض هذه المرة ، التوسع فى القرون الأخيرة ، على نطاق عالمى ؛ لا يسعنا إلا التوقف وإبداء العجب . فإن السؤال الذى يعنينا هنا عناية خاصة ، سؤال يعجز أى إنسان فطن أن يجد له جوابا شافياً .

وسننتقل الآن إلى التقسيم التالى لموضوعنا ، ونتأمل فيما إذا كان إخضاع البيئة المادية بالتدريج – بفضل التحسينات الطارئة على الأساليب التكنولوجية – سيزودنا بقاعدة مناسبة للارتقاء الحضارى الحقيقى . فهل ثمة قرينة على وجود ترابط أكيد بين التحسينات فى الأساليب التكنولوجية وبين التقدم فى الارتقاء الاجتماعى ؟

يسلم علماء الآثار المحدثون جدلا بوجود هذا الترابط . ويدللون على ذلك ، بالتصنيف الذى ابتكروه . ومداره افتراض سلسلة من المراحل فى تقدم التكنولوجية المادية ، وتعتبر دلالة على تعاقب مناظر فصول ارتقاء الحضارة . ويمثل الارتقاء البشرى فى هـــذا المنهاج الفكرى ، بسلسلة من « العصور » تتميز بطابع تكنولوجيتها الخاصة : العصر الحجرى القديم ، العصر الحجرى الحديث ، عصر النحاس ، عصر البرونز ، عصر الحديد . ويمكن أن يضاف إلى تلك العصور ، عصر الآلة الذى نتميز نحن بالعيش فيه[1] .

وعلى الرغم من ذيوع صيت هذا التبويب ، ما يزال يستحسن دراسة

---

(١) Palaeolithic Age, The Neolithic Age, The Chalcolithic Age, The Copper Age, The Bronze Age, The Iron Age.

ادعائه تمثيل مراحل ارتقاء الحضارة ، بروح النقد . فنى استطاعتنا أن ندل — من غير إضرار بالفحص التجريبي — على بضعة بواعث تدفعنا إلى الشك فى طريقة التبويب هذه من أساسها .

إذ تثير هذه الطريقة فى المحل الأول ، ارتيابا مبعثه شيوعها ذاته ؛ لأنها تتفق مع تصورات مجتمع غدت تفتنه انتصاراته التكنولوجية الحديثة . كما أنها مثل واضح لاتجاه الدارس ليصبح عبدا لمواد معينة للدراسة ألقت بها الصدفة بين يديه . فإنه من قبيل الصدفة المحضة — من وجهة النظر العلمية — أن تظل أدوات إنسان ما قبل التاريخ التى صنعها لنفسه باقية ؛ فى حين فنيت أجهزته الروحية ، أى نظمه وتقاليده .

وفى الواقع يؤدّى الجهاز العقلى فى حياة البشر دورا أوسع نطاق مما يؤديه أى جهاز مادى ، طالما يظل استخدامه قائما فى الوجود . بيد أنه لما كان الإنسان لا يخلّف وراءه سوى جهازه المادى ، أى نفايته الظاهرة ، ولا يترك وراءه جهازه الروحى ؛ لا يسع عالم الآثار إلا معالجة البقايا البشرية ليستخلص منها معارفه عن التاريخ البشرى . وبالأحرى ؛ ينزع تفكير عالم الآثار ، إلى تصوير الإنسان المفكر فى دور ثانوى ليس إلا ، بالمقارنة بدور الإنسان العامل . فإذا عنينا بهذا الدليل وحده ، تبينت لنا حقيقة مبناها ؛ أنه بينما تظل الحضارة فى حالة سكون ، أو تجدّ فى طريق الانحلال ؛ ترتقى الأساليب التكنولوجية المادية أثناء ذلك الانحلال . كما تطالعنا كذلك حالات عكسية يظل فيها الأسلوب التكنولوجى المادى فى حالة سكون ؛ بينما تتحرك الحضارات ، سواء فى طريق التقدم أو التأخر ، وفقا لمقتضى الحال .

ومن قبيل المثل : تطور الأسلوب التكنولوجى المادى فى الحضارات المعطلة إلى مستوى عال : فإن البولونيزيين قد تفوقوا ملاحين ، والاسكيمو صيادى سمك ، والأسبارطيون جنوداً ، والبدو مروضى خيول ، والعثمانيون مروضى رجال . هذه جميعها حالات ظلت فيها الحضارات فى حالة سكون بينما ارتفع خلالها الأسلوب التكنولوجى المادى .

ويقدّم التباين بين العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا ، والعصر الحجرى الحديث الأدنى ؛ مثالا لارتقاء الأسلوب التكنولوجى المادى إبان انحدار الحضارة . ويعتبر هذا التباين ، الخلف المباشر لسلسلة الأساليب التكنولوجية المادية المتعاقبة . ولقد ظل مجتمع العصر الحجرى القديم الأعلى قانعاً بأدوات صنعت صناعة ساذجة ، لكنه أنتج أدوات تحمل طابع الجمال ؛ ولم يتوان عن كشف طائفة من الوسائل البسيطة أضفت على هذا الطابع تعبيراً تصويرياً . وإن الرسوم الماهرة بالقلم الفحم ، لتنبض بالحياة ، وما تزال باقية على حيطان الكهوف السكنية لإنسان العصرى الحجرى القديم . ولم يأل مجتمع العصر الحجرى الحديث الأدنى جهدا فى تزويد نفسه بأدوات دقيقة ، ويحتمل أنه استفاد من هذه الأدوات خلال صراعه فى سبيل البقاء ضد إنسان العصر الحجرى القديم حيث تضعضع الإنسان الرسام تاركا الإنسان الصانع سيد الميدان .

وصفوة القول ، يعتبر التغيّر الذى كان فاتحة تقدم مذهل فى الأساليب التكنولوجية ، ردّة لمقاييس الحضارة . إذ قد مات فن إنسان العصر الحجرى الأعلى بانقضاء هذا الإنسان .

والحال كذلك بالنسبة للحضارة المايانية . فإن ارتقاءها التكنولوجى ، كان منعدماً تماماً ؛ إذ لم يجاوز ارتقاؤها التكنولوجى أبعد من العصر الحجرى . على حين سارت الحضارتان المتفرعتان عنها : المكسيكية واليوكاتية ؛ شوطاً ملحوظاً بالنسبة لتشغيل المعادن المختلفة فى غضون الخمسمائة سنة التى سبقت الغزو الأسبانى . بيد أنه لا يشك فى أن المجتمع المايانى قد أنجز حضارة أرفع مما أنجزه المجتمعان اللذان ينتسبان إليه ، واللذان هما دونه حضارة بكثير .

ولقد قدّم بروكوبيس القيصرى Procopius Calsarea[1] — آخر

---

(١) نسبة إلى مدينة قيصرية . (المترجم)

المؤرخين اليونانيين الكبار — لتاريخه عن حروب الإمبراطور جوستنيان[1]، بزعم يقوم على أن موضوعه أعظم من أى موضوع سبق لأى من أسلافه المؤرخين معالجته ، لا لسبب إلا لأن أسلوب معاصره التكنولوجى الحربى[2] أسمى مما سبق استخدامه فى الحروب الماضيات . وفى الواقع ، إن جاز لنا عزل تاريخ الفن الحربى عن جزائل التاريخ الهلينى الأخرى ، لاستبان لنا تقدم متصل من أول التاريخ الهلينى إلى آخره ؛ سواء خلال فترة ارتقاء هذه الحضارة أو إبان انحدارها . بيد أنه ينكشف لنا كذلك أن كل خطوة فى طريق ارتقاء الأسلوب التكنولوجى الحربى ، قد استثارتها أحداث تعمل على تدمير الحضارة .

ونجد مصداقاً لهذا الرأى ؛ أن اختراع الفيلق الإسبرطى — وهو أول بادرة معروفة عن تطور الفن الحربى الهلينى — كان نتيجـة للحرب الإسبرطية الميسينية الثانية التى أوقفت الحضارة الهلينية فى إسبرطة عند وقفة فجة . وتمثلت علامة الارتقاء التالية ، فى تفارق نظام المشاة الهلينى إلى طرازين متباينتين إلى أقصى حد : الفيلق المقدونى والمدرعين الأثينيين .

فكان الفيلق المقدونى المسلح كل رجل من رجاله بحراب ذوات مقبضين طويلين ، عوضاً عن رماح الطعن ذوات المقبض الواحد القصير ؛ أفظع فى نتائجه الهجومية هولا ، من سلفه الإسبرطى . لكنه كان من الناحية الأخرى ، أثقل حملا وأشد قابلية للتصدع إن حدث أن اضطرب تشكيله . وكان يعجز عن الاشتراك فى القتال ، إلا إن أصبح جناحاه فى حراسة المدرعين ، وهى طراز جديد من المشاة الخفيفة كان تنزع من بين الصفوف ويدرب أفرادها على أعمال المناوشة .

وكان التطور الثانى حصيلة قرن من حرب الفناء ؛ امتد من

---

(١) الحروب التى كانت تنذير شؤم بانقضاء أجل المجتمع الهلينى . (المؤلف)

(٢) الإمبراطور جوستنيان . (المترجم)

نشوب الحرب الأثينية البلوبونيزية ، إلى الانتصار المقدونى على طيبة وأثينا فى موقعة تشايرونيا Chaeronea (٤٣١ – ٣٣٨ ق . م) . ولقد شاهدت هذه الموقعة ، الطور الأول لانحلال الحضارة الهلينية .

أما عن الرومانيين ؛ فقد أنجزوا علامة التحسن التالية . وقتما وفقوا فى مزج مزايا طريقة المشاة المدرعين وطريقة الفيلق ، فى خطط الكتائب الرومانية وتسليحها ، مع تجنب عيوب الطريقتين . وكانت الكتائب تسلّح بزوج من حراب الرماية مزودة بسيف للطعان . وكانت تنزل إلى معمعان الحرب فى نظام مكشوف على موجتين ، مع وجود ثالثة فى الاحتياطى مسلحة ومنظمة على نسق نظام الفيلق القديم . وكان هذا التطور حصيلة دورة حربية مدمّرة بدأت منذ نشوب حرب هانيبال (عام ٢٢٠ ق . م) وانتهت وقتما وضعت الحرب الرومانية المقدونية الثالثة أوزارها عام ١٦٨ ق . م . وكان مدار التطور الثالث والأخير ، استكمال نظام الفيلق ؛ وهى عملية بدأها ماريوس وأكملها قيصر ، وكانت حصيلة قرن من الثورات الرومانية والحروب الأهلية التى اختتمت بقيام الإمبراطورية الرومانية ؛ باعتبارها الدولة العالمية الهلينية .

ولا تعتبر حراشف جوستنيان مرحلة تالية فى السلسلة الأصيلة ، ارتقاء الأسلوب التكنولوجى الحربى الهلينى . إذ قد طُبقت هذه الحراشف من قبل الأجيال المنحلة الأخيرة فى المجتمع الهلينى اقتباسا عن الأداة الحربية لمعاصريهم وجيرانهم الإيرانيين الذين أطلعوا روما على بسالتهم لما هزموا كراسوس فى موقعة كارهاى Carahae عام ٥٥ ق . م .

وليس فن الحرب بالمثل هو الأسلوب التكنولوجى الوحيد القادر على كفالة ارتقائه ، بنسبة هى عكس نسبة ارتقاء الجهاز الاجتماعى بصفة عامة . فإن ثمة أسلوباً هو أبعد الأشياء من حيث طبيعته عن الفن الحربى ، ألا وهو الفن الزراعى – الذى يعتبر بأصله سيد فنون السلام – إذ يصاحب كل تقدم فيه ، انحدار فى الحضارة . وهذا ما سيتضح لنا إن عدنا أدراجنا إلى التاريخ الهلينى .

يبدو لنا للوهلة الأولى ، عدم اتفاق سير الأحداث مع القاعدة التى أوردناها . فإذا كان التطور الأول لأسلوب الحرب الهلينى ، قد تطلب تعطل ارتقاء نفس الجماعة التى اخترعته ، إلا أن الأمر يختلف – فى الظاهر – بالنسبة للزراعة التى أسفرت عن نتيجة أسعد حالا . فإن آتيكا عندما تزعمت – بفضل إرشاد صولون ، التحول من نظام الزراعة المشتركة إلى نظام التخصص الزراعى لغرض التصدير ؛ تلا هذا التقدم التكنولوجى ؛ تغلغل روح النشاط ، والارتقاء فى كل مظهر من مظاهر حياة آتيكا . بيد أنه ما إن يطالعنا الفصل التالى من قصة هذا التقدم الزراعى ، حتى يتبين أنه قد اتخذو جهة مختلفة وسيئة الطالع . فلقد تبلورت المرحلة التالية للتقدم التكنولوجى ، فى ازدياد مقياس العمليات الذى ترتب بدوره عن تنظيم الإنتاج الوفير القائم على جهد الأرقاء . ويظهر أن هذه الخطوة قد اتبعت فى الجماعات الهلينية المستعمرة فى صقلية ؛ ولعلها طبقت لأول مرة فى آجريجنتوم Agrigentum : لأن يونانيى صقلية قد وجدوا سوقاً نافقة لنبيذهم وزيتهم ، فى محيط البرابرة المجاورين لهم .

هنا جبت التقدم التكنولوجى ، زلة اجتماعية خطيرة . إذ كان استخدام الأرقاء فى الزراعة ، شراً اجتماعياً أخطر كثيراً من الاقتصار على استخدامهم فى الخدمة المنزلية . إذ كانت الطريقة الجديدة ، أسوأ من الناحية المعنوية والإحصائية ، وكانت مبهمة وجائرة ، وكانت على نطاق واسع ؛ وانتشرت فى نهاية الأمر من الجماعات اليونانية فى صقلية ، إلى المنطقة الواسعة فى إيطاليا التى خربتها حرب هانيبال ، وخلفتها مهجورة . ولقد لوحظت زيادة إنتاج الأرض ، وتضاعف أرباح الرأسمالى فى كل مكان تأصلت فيه هذه الطريقة . لكنها انحدرت بالأرض إلى الإمحال الاجتماعى . ذلك لأنه أينما انتشرت المزارع التى تقوم على الأرقاء ، أدت إلى إفقار الفلاح والمالك

وإقصائهما عن الأرض ، بنفس الأسلوب الذى تطرد به العملة الرديئة العملة الجيدة[١] .

وترتبت على ذلك نتيجة اجتماعية مبناها إفقار الريف وخلق بروليتاريا طفيلية حضرية فى المدن ، وبصفة خاصة فى روما نفسها . ولم توفق جهود أجيال المصلحين الرومانيين المتعاقبة ابتداء من جراكسى Gracchi[٢] ومن تلاه ، فى تخليص العالم الرومانى من هذه الورطة الاجتماعية التى زجهم فيها تطور التكنولوجية الزراعية فى نهاية ارتقائها .

ولبث نظام الزراعة القائم على الرق قائماً ، حتى انهار تلقائياً نتيجة لتصدع الاقتصاد النقدى الذى يستند النظام عليه فى اجتناء أرباحه . وكان هذا التصدع المالى ، جانباً من الإنقلاب الاجتماعى الذى حدث إبان القرن الثالث المسيحى . وكان هذا الانقلاب بلا ريب ؛ نتيجة من ناحية أخرى للعلة الزراعية التى كانت تفتت أنسجة الكيان الرومانى الاجتماعى طوال الأربعة قرون السابقة . وهكذا أفنى هذا السرطان الاجتماعى نفسه فى نهاية المطاف ، عن طريق قضائه على المجتمع الذى التصق به .

وثمة مثال آخر من نفس النوع شائع للغاية ؛ هو تطور الزراعة القائم على جهد الأرقاء فى الولايات التى تزرع قطناً فى الاتحاد الأمريكى ، نتيجة للتحسينات التكنولوجية لصناعة القطن فى إنجلترا . فإذ كانت الحرب الأهلية الأمريكية قد استأصلت السرطان فيما يتصل باستخدام الرقيق ؛ إلا أنها ما كانت لتنجح بأية حال من الأحوال فى القضاء على الشرور الاجتماعية التى ترتب على وجود جنس من الزنوج المحررين ، بين ظهرانى مجتمع أمريكى أوربى الأصل .

---

(١) منطوق قانون جريشام فى الاقتصاد السياسى . (المترجم)

(٢) الأخوان جراكسى امتازا فى التاريخ الرومانى بالإصلاحات الاقتصادية التى تهدف إلى رفع مستوى الجماهير . وفى مقدمة هذه الإصلاحات توزيع الأراضى الزراعية وخفض الضرائب . (المترجم)

ويبدو الافتقار إلى تناسق الارتباط بين التقدم التكنولوجية وارتقاء الحضارة ، واضح المعالم ؛ فى جميع الحالات التى تقدمت فيها الأساليب التكنولوجية بينما ظلت الحضارات ثابتة أو كابدت التأخر . ويبدو نفس الشيء واضحاً فى الحالات التى ندرسها فيما بعد ، وفيها لبثت الأساليب التكنولوجية ثابتة ، بينما أخذت الحضارات تتحرك إلى الأمام أو إلى الخلف .

مثال ذلك : أن الارتقاء البشرى قد خطا خطوة هائلة فى أوروبا ما بين العصر الحجرى القديم الأدنى والعصر الحجرى القديم الأعلى .

« صاحبت ثقافة العصر الأعلى ، نهاية الحقبة الجليدية الرابعة . ونجد مكان بقايا الإنسان النياندرتالى[1] ، بقايا عدة أنواع لا يمتّ أحد منها إلى الإنسان النياندرتالى ، إذ تقترب جميعها تقريباً من الإنسان الحديث . ولقد يبدو لنا من النظر إلى البقايا الحفرية لهذه الحقبة فى أوروبا ، أننا قد انتقلنا إلى العهد الحاضر (إلى المدى المتصل بالتكوين الجثمانى البشرى)[2] .

ويحتمل أن يكون هذا التحول فى شكل النوع الإنسانى فى منتصف العصر الحجرى القديم ؛ أعظم الأحداث أهمية التى وقعت فى سياق التاريخ البشرى حتى الآن . إذ استحال وقتئذ شبيه الإنسان إلى إنسان ، بينما الإنسان لا يزال منذ الفترة التى انقضت على تحوله من شبيه الإنسان إلى الإنسان ؛ يعجز عن إدراك مرتبة « فوق الإنسان » (Superman) . .

وتتيح لنا هذه المقارنة ؛ قياس التقدم الروحى الذى استُكمل وقتما احتجب نوع الإنسان النياندرتالى[3] ، وانبعث نوع الإنسان العاقل[4] . بيد أنه لم تصاحب هذه الثورة الروحية الجسيمة ، ثورة مماثلة فى الأسلوب التكنولوجى ؛

---

(١) Neanderthal Man

(٢) Carr-Saunders, A. M. : The Population Problem P. 6. 116-17

(٣) Homo Neanderthalensis

(٤) Homo Sapiens

ومن ثم نجد — وفقاً للتصنيف التكنولوجى — الفنانين المرهفى الحس الذين رسموا فى دورهم فى كهوف العصر الحجرى القديم الأعلى — الصور التى ما نزال نعجب بها ، يختلط الأمر بالنسبة إليهم مع « الحلقة المفقودة »[١] . على حين أن إنسان العصر الحجرى القديم العلوى[٢] ، هو — إن قيس بمقياس العقل والقامة كليهما وبكل سمة تتميز بها البشرية — ينفصل عن إنسان العصر الحجرى القديم السفلى[٣] ، بهوة تبلغ حداً من الاتساع كتلك التى تفصلنا عن الإنسان الميكانيكى[٤] .

وعلى نقيض هذه الحالة التى لبث فيها الأسلوب الفنى ثابتاً إبان ارتقاء المجتمع ، نجد حالات ظلت فيها الأساليب الفنية ثابتة إبان انحدار المجتمع .

يطالعنا فى هذا الشأن ، بقاء فن تشغيل الحديد[٥] ثابتاً — لا يتقدم ولا يتأخر — خلال النكسة الاجتماعية الكبرى التالية ؛ وقتما احتذت الحضارة الهلينية حذو سابقتها الحضارة المينووية المنهارة . ولقد ورث عالمنا الغربى بدون عائق تكنولوجية تشغيل الحديد عن العالم الرومانى ؛ كما انحدرت إليه تكنولوجية الحروف الهجائية اللاتينية ، وتكنولوجية الرياضيات اليونانية . لكنه حدث انهيار بالنسبة للناحية الاجتماعية : إذ تفتت الحضارة الهلينية ، فتلا ذلك فراغ ؛ انبثقت عنه فى النهاية الحضارة الغربية . وإن لم يترتب عن ذلك من الناحية الأخرى ، الحد من تدفق هذه الأساليب التكنولوجية الثلاثة .

---

(١) أى الرابطة التى تربط الإنسان العاقل بالقرد وفقا لنظرية داروين فى أصل الأنواع . (المترجم)

(٢) Homo Palaeolithicus Superior

(٣) Homo Palaeolithicus Inferior

(٤) Homo Mechanicus

(٥) جلب فن تشغيل الحديد أصلا إلى العالم الآخى إبان نكسة اجتماعية كبرى وقتما كان المجتمع الآخى آخذا فى التفكك .

(٢) الارتقاء صوب تقرير المصير

أخفق تاريخ التطور التكنولوجي كما فشل تاريخ التوسع الجغرافي ، في تزويدنا بقاعدة تفسر ارتقاء الحضارات . لكنه قد أبان في الواقع المبدأ الذي يحكم ارتقاء الأساليب التكنولوجية . وجماع وصف القاعدة التي تحكم هذا الارتقاء هي : « التبسيط المتتالي » .

مثال ذلك : أن المحرك البخاري الجسيم الحجم والمفرط في الثقل مع ما يستلزم من قضبان حديدية ، قد حل محله المحرك ذو الاحتراق الداخلي السهل المنال الذي يتيسر استخدامه على الطرق بسرعة قطار السكك الحديدية ، مع توافر حرية الحركة كالسائر على قدميه تقريبا . وحل اللاسلكي محل التلغراف السلكي . وحلت الحروف اللاتينية الأنيقة السهلة ، مكان حروف الكتابة المعقدة تعقيدا لا يعقل للمجتمعين المصري والصيني .

وانعكست نزعة التبسيط على اللغة ذاتها في نبذها الصرف واستخدام الكلمات المساعدة . وهذا ما توضحه مقارنة تواريخ لغات العائلة الأندو أوربية . فإن السانسكريتية — وهي أقدم الأمثلة الحية لهذه العائلة — تضم ثروة مذهلة من الإعراب ، إلى جانب فقر عجيب في الحروف . قارن ذلك بتوفيق اللغة الإنجليزية في التخلص من أساليبها الإعرابية تقريبا وتعويضها نفسها عن ذلك من الناحية الأخرى بتطوير حروف الجر والأفعال المساعدة . وتحتل اللغة اليونانية القديمة وسطا بين هذين الطرفين .

كذلك تناولت نزعة التبسيط في العالم الغربي ، الملابس . فتحول المرء من البذلة الهمجية المعقدة طراز عصر الملكة اليزابث الأولى ، إلى طراز الملابس السهل في الوقت الحاضر .

بل إن علم الفلك لم يسلم من التبسيط . فإن النظام الكوبرنيقي[1] الذي

---

(١) نسبة إلى كوبرنيقوس العالم الفلكي . (المترجم)

حل مكان النظام البطليموسى[١] ، قد زوّد علم الفلك باصطلاحات هندسية تمتاز إلى أبعـد حد وأوسع مدى بالسهولة واليسر فى تفسير حركات الأجرام السماوية .

وليس التبسيط بالاصطلاح الدقيق دقة تامة ، أو أنه على الأقل لا يفى وفاءاً مطلقاً فى وصف التغيرات السالفة الذكر . لأن التبسيط كلمة تحمل معنى سلبيا ، بما تشير به ضمنا من حذف وإزالة . فى حين أن ما حدث فى كل حالة لم ينصبّ على الإقلال ، ولكنه اتجه إلى زيادة الكفاية العملية ، أو اشتداد الغبطة المترتبة عن الشعور بالجمال أو الإدراك الأريب . وبالأحرى لم تكن النتيجة خسارة بل ربحا ، هو حصيلة عملية تبسيط ؛ بما تقود إليه من تحرر القوى التى ظلت أسيرة واسطة يعظم فيها أثر العنصر المادى . وبالتالى تطلق عملية التبسيط ، سراح تلك القوى ، لتعمل فى واسطة أشد أثيرية وأبلغ تأثيراً .

ولا تتضمن عملية التبسيط ؛ تبسيط الأداة فحسب ، ولكن يترتب عليها نقل الطاقة أو تحويل التأكيد من نوع من مجال الوجود أو الفعل الأقل ، إلى ما هو أعلا منه . ولعلنا إن وصفنا العملية بالتحول الأثيرى عوضا عن التبسيط ، نكون أكثر وضوحا .

ولقد وصف عالم من علماء الأنثروبولوجى[٢] المحدثين التطور فى مجال السيطرة البشرية على الطبيعة المادية ، وصفا يتسم باللفتة البارعة :

« إننا نبارح الأرض ، ونغدو بعيدين عن الحس ، وتضعف آثارنا : يظل الظرّان إلى الأبد ،النحاس طوال فترة حضارة الحديد ، لأجيال . ويظل الصلب فترة حياة . من يستطيع أن يخطط طريق لندن / بكين الهوائى السريع إن زال عصر الحركة ؟ أو تقول اليوم ما هو طريق الرسائل التى ترسل

---

(١) نسبة إلى العالم بطليموس . (المترجم)

(٢) Anthropology هو علم البحث فى الأصول البشرية . (المترجم)

وتتلقى عبر الأثير ؟ لكن حدود مملكة آيسنى[١] (Iceni) الضئيلة الزائلة ما تزال تجر أذيالها فى دفاعها عن الأراضى عبر الحد الجنوبى لآنجيليا الشرقية، من المستنقع المجفف إلى الغابة المطموسة[٢] » .

توحى تفسيراتنا ؛ بأن قاعدة الارتقاء التى لانبرح نبحث عنها والتى فشلنا فى العثور عليها خلال غزونا البيئة الخارجية — سواء أكانت مادية أو بشرية — تقع أكثر ما تقع فى نطاق يتسم بالتغير المتعاقب ؛ وفى تحول مشهد الفعل من هذا الميدان إلى ميدان آخر ، قد يجد فيه فعل التحدى والاستجابة بديلا لعملياته . ولا تنبعث التحديات فى هذا الميدان الآخر من الخارج ، لكنها تنشأ من الداخل . ولا تتخذ الاستجابات الظافرة شكل التغلب على عقبات خارجية أو قهر خصم خارجى ؛ لكنها تُظهر نفسها فى الترابط الذاتى أو تقرير المصير . وعندما نلاحظ أحد أفراد الجنس البشرى أو أحد المجتمعات يقوم باستجابات متعاقبة لتحديات متتالية ، وعندما نسائل أنفسنا فيما إذا كان هذا التسلسل الخاص يُعتبر مظهراً للارتقاء ؛ عندئذ نصل إلى رد عن سؤالنا ، بفضل ملاحظة :

أنه كلما تتابع التسلسل سبيله ، يميل الفعل — أو لا يميل — إلى الانتقال من الميدان الأول إلى الميدان الثانى ، من كلا الميدانين السالفى الذكر .

وتبرز هذه الحقيقة واضحة غاية الوضوح فى المحاولات التى تُبذل أثناء عرض التاريخ ، لوصف عمليات الارتقاء بنوع خاص ، باستخدام اصطلاحات الميدان الخارجى ؛ منذ الشروع فى الوصف حتى نهايته .

---

(١) اسم شعب بريطانى قديم كان يسكن ذلك الجزء من انجلترا حيث توجد الآن مقاطعات نورفولك وسافولك وكبريدج وهانتينجدون . ولقد تزعمت ملكتهم بواديسيا ثورة ضد الرومان عام ٦١ ميلادية . (المترجم)

(٢) Heral Gerald : The Ascent of Humanity. P.P. 277-8

ويطالعنا على سبيل المثال عرضان تاريخيان ، قام بكتابة كل منهما إنسان عبقرى : ادموند ديمولين ، و هـ . ج . ولز[١] :

استعرض المسيو ديمولين نظرية البيئة فى مقدمة كتابه فى عبارة محكمة الصياغة إحكاما رائعا :

« يوجد هناك على سطح الأرض تنوع فى السكان لا نهاية له . فما هو العامل الذى أوجد هذا التنوع ؟ . . . إن العامل الأول والحاسم فى تنوع الأجناس هو الطريق الذى تتبعه الشعوب . وهو الطريق الذى يخلق الجنس والأسلوب الاجتماعى كليهما » .

وبعدما يُنجز هذا البيان المشوّق غايته باستثارتنا لقراءة الكتاب الذى ضمّنه المؤلف نظريته ؛ نجده يعالجها على خير سبيل طالما يستخلص تفسيراته من حياة المجتمعات البدائية . ويمكن إيضاح طابع المجتمع فى مثل هذه الحالة بأقرب ما يكون إلى الكمال ، باستخدام اصطلاحات الاستجابات لتحديات واردة من البيئة الخارجية فقط . بيد أن هـــذا ليس بالطبع ، تفسيراً للارتقاء . لأن المجتمعات البدائية ، تبدو مجتمعات فى حالة ثابتة .

كذلك يوفّق المسيو ديمولين فى تفسير وضع المجتمعات المتعطلة . لكن القارئ يبدأ يقلق ؛ عندما يأخذ المؤلف فى تطبيق صيغته على الجماعات التى تحكم على أساس النظام القروى الأبوى . إذ يحس القارئ إحساساً صادقاً أثناء قراءته الفصول الأولى عن قرطاجنة والبندقية ، أنه يفقد شيئاً يعجز عن الإفصاح عن ماهيته . ولما ينشد المؤلف تفسير الفلسفة الفيثاغورية[٢] باستخدام موضوع تجارة النقل عبر الحذاء الإيطالى[٣] ، يغالب المرء

---

(١) M. Edmond Demolin : Comment la Route cree le. H. G. Wells : The Outline of History.

(٢) نسبة إلى فيثاغورس . (المترجم)

(٣) على اعتبار أن شبه جزيرة إيطاليا تشبه الحذاء فى شكلها . (المترجم)

إغراء الابتسام . فإذا وصل فى قراءته إلى فصل « طريق الهضبات — الأنموذجان الألبانى والهلينى » ، فإنه يثور على الفور . لأن المؤلف قد قرن البربرية الألبانية بالحضارة الهلينية ، لا لسبب إلا أن الألبانيين واليونانيين الأوائل تصادف وصولهم إلى مواطنهم باستخدام نفس المسلك !

وهكذا ، هبط الحديث البشرى العظيم الذى نعرفه باسم الهلينية ، عند المؤلف ، إلى نوع من المحصول الثانوى لظاهرة عرضية من ظواهر الهضبة البلقانية ! . وإن فى هبوط الكتاب فى هذا الفصل الغير الموفق إلى مستوى ينافى العقل ، من شأنه تفنيد حجته نفسها بنفسها . لأنه عندما تسير حضارة شوطاً بعيداً — مثلما انطلقت الحضارة الهلينية — فإن محاولة وصف ارتقائها وصفاً مطلقاً باستخدام اصطلاحات التحديات لاستجابات واردة من البيئة الخارجة ، شيء يثير السخرية حقاً .

ويبدو أن المستر ويلز قد فقد كذلك ثقته بحاسة اللمس ، إذ يعالج موضوعاً تام النضج عوضاً عن آخر فطرى . وعندما يستخدم المستر ويلز ملكات خياله فى تصور قصة حدثت فى زمن سحيق لأحد العصور الجيولوجية ، فإنه يصول ويجول فى ميدانه . وحقا فإن قصته التى تشرح الطريقة التى عاشت بها تلك « الجوزائيات الصغيرة »[1] — أسلاف الثدييات — وقتما هلكت الزواحف المفرطة النمو ، جديرة بأن توضع فى نفس مستوى قصة التوراة عن داوود وجالوت .

ويصل المستر ويلز — مثل المسيو ديمولين — إلى ما نتوقعه له وقتما يتكلم عن تطور تلك الجوزائيات الصغيرة ، إلى صائدى العصر الحجرى القديم أو إلى بدو أوراسيين . لكن مركزه يتصدع عندما يتعرض لحوليات[2] مجتمعنا الغربى ، لما يقتضيه الحال منه من مجهود ترتيب

---

(١) الجوزائيات Theriomorphs هى الكائنات التى تأخذ شكلا حيوانيا . (المترجم)

(٢) مدونات تاريخية تكتب حوليا أى سنويا . (المترجم)

– وفقاً للحجم – ذلك الجوزائى العالم الأثيرى بشكل لا نظير له » وليم إيوارت جلادستون » . فإن المستر ويلز يفشل لسبب بسيط مداره إخفاقه فى تحويل ركازه الروحى – كلما اتصل سياق روايته – من الناحية الكونية(١) إلى الإنسانية(٢) . ويتبدى هذا الفشل فى الحدود التى تنحصر فيها تلك المأثرة الذهنية البديعة ، التى يمثلها كتاب « مجمل التاريخ » .

ولقد يقاس إخفاق المستر ويلز بتوفيق شكسبير فى تفسير نفس المعضلة :

فإذا تولينا ترتيب الشخصيات البارزة فى الرواق الشكسبيرى فى نظام تصاعدى للأثيرية ؛ ووضعنا نصب أعيننا أن مدار الأسلوب التكنولوجى للمؤلف المسرحى ، هو الكشف عن الشخصيات ؛ سنلاحظ أنه إذا ما تحرك شكسبير من المستويات الأوطأ إلى الأعلى فى مجال العمل المتصل الدور الذى يقوم به ؛ ينقل باستمرار ميدان العملى الذى يجعل فيه بطل كل مأساة ، يؤدى دوره باذلا للناحية الإنسانية نصيبا أوفر من المسرح ؛ ودافعا الناحية الكونية إلى أبعد من ذلك إلى الوراء .

وفى استطاعتنا التحقق من هذه الواقعة إن تتبعنا السلسلة ابتداء من هنرى الخامس مارّين بماكبث إلى هملت . إذ تتبدى بدائية دور هنرى الخامس النسبية بجلاء تام تقريباً ، فى استجابته للتحديات التى تفد إليه من البيئة المحيطة به : فى علاقاته مع منادميه ومع أبيه ، وفى بث شجاعته الشخصية فى رفقائه فى صبيحة موقعة آجينكورت Agincourt(٣) ؛ وفى خطبته العنيفة مع الأميرة كيت Kate . وعندما ننتقل إلى ماكبث ، نجد تحوّل مسرح الفعل : لأن علاقات ما كبث بمالكولم أو بماكدوف ، أو حتى مع اللادى

---

(١) Macrocom   (٢) Microcosm

(٣) اسم قرية فى شمال فرنسا . وكانت مسرحا لموقعة حربية جرت فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٤١٥ بين هنرى الخامس ملك انجلترا وبين الفرنسيين . وانجلت الموقعة عن هزيمة الفرنسيين هزيمة ساحقة وفقدانهم عشرة آلاف قتيل غير الأسرى . (المترجم)

ماكبث ؛ تتساوى فى الأهمية مع علاقات البطل مع شخصه ذاته . وأخيراً فإننا إذ نصل إلى هاملت ؛ نشاهد شكسبير يدع الناحية الكونية تضمحل تقريباً ، إلى أن تصبح علاقات البطل مع قتلة أبيه ومع عشيقته المولية « أوفيليا » ومع ناصحه الأمين الحكيم هوراشيو ، مندمجة فى الصراع الداخلى الذى يُتم نفسه فى روح البطل نفسه . ولقد انتقل ميدان الفعل فى هاملت فى غالب الأمر من الناحية الكونية ، إلى الناحية الداخلية بالكامل ، ونجد فى هذا العمل الفذ من فن شكسبير ، كما فى بروميثيوس Prometheus[1] من تأليف آخيلوس Aeschylus أو فى مناجاة براونِنج الدرامية ، واحدا يحتكر فعلا المشهد بغية أن يخلّف أعظم مجال للفعل للقوى الروحية الطاغية التى تحتجزها فى داخلها هذه الشخصية .

وانتقال الفعل هذا الذى فطنا إليه فى تقديم شكسبير لأبطاله لما تولينا ترتيبهم وفقاً لنظام تصاعدى للارتقاء الروحانى ، يتيسر الإلمام به كذلك فى تواريخ الحضارات . لأنه عندما تتجمع بالمثل سلسلة من الاستجابات والتحديات فى ارتقاء ، سنجد — كلما مضى الارتقاء قُدُما — أن ميدان الفعل ينتقل فى جميع الأوقات ؛ من البيئة الخارجية ، إلى داخلية الكيان الاجتماعى للمجتمع ذاته :

مثال ذلك أننا قد لاحظنا قبل الآن ؛ أن من ضمن الوسائل التى استخدمها أجداد الغربيين فى صد الاجتياح السكندنافى وبالأحرى الانتصار على بيئتهم البشرية ؛ ابتداع النظام الإقطاعى أداة حربية واجتماعية فعّالة . بيد أن تمايز الطبقات اجتماعياً واقتصادياً وسياسيا فى المرحلة التالية للتاريخ الغربى — وهو ما تطلبه الإقطاع — قد أحدث شيئاً من الضغط والعناد ، أنتج بدوره التحدى التالى الذى بات يجابهه المجتمع النامى . إذ كانت المسيحية الغربية قد استراحت

---

(١) هو ابن أيابيتوس فى الأساطير اليونانية . ويقال إنه سرق جذوة نار من الأوليمب ومنحها البشر وعلمهم كيفية استخدامها . كما علمهم فنون الحضارة . (المترجم)

بالكاد من دحْر الفايكنج ، قبل أن تجابه واجبها التالى المتصل بمشكلة إحلال النظام الإقطاعى الطبقى ، بنظام علاقات جديدة بين الدول صاحبة السيادة ومواطنيها الأفراد . ويبدو تحوّل مشهد الفعل من الميدان الخارجى إلى الداخلى ، واضح المعالم بجلاء ، فى هذا المثال الخاص بتحديين متعاقبين .

وتتأتى ملاحظة نفس الاتجاه فى مسالك التاريخ الأخرى التى فحصناها قبل الآن فى مختلف المتون :

فلقد شاهدنا فى التاريخ الهلينى مثلا ؛ أن التحديات قد انبعثت جميعها من البيئة الخارجية : تحدى برابرة النهضة فى هيلاس نفسها ، والتحدى المالتسى Malthian[1] ، الذى ووجه بالتوسع عبر البحار والذى تضمن نتيجة له تحديات انبعثت من السكان الأصليين الهمج ، ومن الحضارة المنافسة للحضارة الهلينية : وتوّج تحديات الحضارات المنافسة ، بالهجمات المضادة التى شنّتها قرطاجنة وفارس إبان الربع الأول من القرن الخامس ق . م . ومن ثمت ، فهما يكن من الأمر ، أمكن التغلب على هذا التحدى الرهيب الصادر عن البيئة البشرية خلال القرون الأربعة التى تبدأ من عبور الإسكندر مضيق الدردنيل .

واتصل فوز المجتمع الهلينى على تحدى البيئة البشرية ، بفضل انتصارات روما . وغدا يستمتع بفضلها ، بفترة استجمام استمرت حوالى خمسة أو ستة قرون ، لم يجابه خلالها المجتمع الهلينى من البيئة الخارجية تحدياً ذا شأن : بيد أن هذا لا يعنى أن المجتمع الهلينى كان خلال تلك القرون ، متحرراً من التحديات جملة . فعلى العكس – كما سبق أن لاحظنا قبل الآن – تعتبر تلك الفترة فترة انحلال ؛ بمعنى أنها فترة جابهت الهلينية خلالها تحديات عجزت عن أن تستجيب لها بنجاح ؛ ولقد علمنا ماهية هذه التحديات .

---

(١) نسبة إلى الاقتصادى الإنجليزى مالتوس الذى أبان العالم فى رسالة له ، خطورة تزايد السكان بنسبة تفوق كثيرا ازدياد موارده الغذائية . لأنه بينا يتزايد السكان وفقا لمتوالية هندسية ، تتزايد الموارد وفقا لمتوالية حسابية . (المترجم)

فإذا تطلعنا الآن إليها ، ألفيناها جميعا تحديات داخلية ترتبت عن استجابة موفقة لتحد خارجي سابق . مثلها مثل التحدى الذى هيأه النظام الإقطاعى للمجتمع الغربى ؛ وهو تحدى ترتب عن التطور السابق للنظام الإقطاعى الذى يعتبر بدوره استجابة ناجحةاللضغط الخارجى للفايكنج .

فمثلا : استثار ضغط الفارسين والقرطاجنيين العسكرى ؛ المجتمع الهلينى ليبتدع دفاعاً عن النفس ؛ أداتين فعالتين اجتماعية وحربية ــ البحرية الأثينية ونظام الحكم السيراكوزى[1] . إلا أن البحرية ونظام الحكم المطلق أنتجا فى الجيل التالى فى داخلية كيان المجتمع الهلينى شدة وضغطاً . إذ ترتب عن البحرية الأثينية ، نشوب الحرب البلوبونيزية ؛ وعن نظام الحكم السيراكوزى تمرّد رعايا المجتمع الهلينى من الهمج ضده ، وانتقاض حلفائه عليه . فكانت هذه الفتن والحالة هذه أول صدع يصاب به المجتمع الهلينى .

وهكذا سرعان ما اتجهت الأسلحة التى تصوب نحو الخارج فى فتوحات الإسكندر وعائلة سيبيو Scipio[2] ، إلى الداخل إبان الحروب الأهلية التى نشبت بين الديادوتشى[3] المقدونيين المتنافسين .

والمثل يقال عن التسابق الاقتصادى بين المجتمعين الهلينى والسورى ، فى سبيل بسط السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط . فإنه قد عاد إلى الظهور داخل أحشاء المجتمع الهلينى ، بعد ما تداعى المنافس السورى[4] ؛ فعاد أشد من سابقه عنفاً وتدميراً فى صورة صراع بين الأرقاء المشتغلين بالزراعة ، وسادتهم الصقليين والرومانيين .

---

(١) سيراكوز عاصمة جزيرة صقلية ، وكان نظام الحكم فيها مطلقا ، ويلقب حاكمها ب « الطاغية » Tyrannis . (المترجم)

(٢) عائلة رومانية نبيلة تولى كثير من أفرادها المناصب الكبرى ومنها منصب القنصل الذى تولاه بابليوس سيبيو عام ٢١٨ ق . م . (المترجم)

(٣) حروب نشبت خلال أعوام ٣٢٣ – ٢٨١ ق . م بسبب مشكلات تقسيم إمبراطورية الإسكندر بين خلفائه أى Diadochi ، وهم صفوة قواد الإسكندر وأصدقائه . وكان أهمهم بطليموس وأنتيجولوس وأنتيبيتر . (المترجم)

(٤) أى قرطاجنة (المترجم)

كذلك عاد إلى الظهور بالمثل ، داخل كيان المجتمع الهليني ؛ الصراع الثقافي بين الهلينية والحضارات الشرقية : السورية والمصرية والبابلية والهندية ، في صورة أزمة في داخل النفوس الهلينية أو التي تطبعت بالهلينية . وهي أزمة تبدت في صورة انبعاث عبادة إيزيس ، وعبادة النجوم وعبادة ميترا ، واعتناق المسيحية ؛ فضلا عن حشد من الأديان المواسطة[١] .

« توقف الشرق والغرب عن القتال

على حدود صدري[٢] »

وفي مقدورنا أن نستشف في التاريخ الغربي ؛ اتجاهاً يطابق ما تقدم ، إلى المدى الذي بلغه تاريخه . إذ هيأت له البيئة البشرية في عصوره الأولى ، أعظم التحديات التي جابهته وضوحاً . تحديات بدأت بالعرب في أسبانيا ، ثم السكندنافيين ، وانتهت بالتحدي العثماني . واتسع منذ ذلك الحين ، التوسع الغربي على نطاق عالمي بمعنى الكلمة ، اتساع أتاح للمجتمع الغربي — بصفة مؤقتة — راحة البال التامة من تحديات المجتمعات البشرية المعادية[٣] .

ونجد المشابهة الوحيدة لتحد خارجي فعّال للمجتمع الغربي ، منذ فشل العثمانيين الثاني في الاستيلاء على فينا ؛ في تحدي البولشفية ، الذي ما انفك يجابه العالم الغربي منذ تنصيب لينين ومعاونيه عام ١٩١٧ . أنفسهم سادة على الإمبراطورية الروسية على أن البولشفية ، لما تهدد بعد سيادة الحضارة الغربية ، أبعد من حدود الاتحاد السوفيتي .

على أنه حتى إن حدث أن أتاح المد الشيوعي تحقيق آمال روسيا في

---

(١) أي الأديان التي يتركب كل منها من عناصر شتى . (المترجم)

(٢) Housman, A.E. : Ashrohshire Lad XXVIII

(٣) كتب الأستاذ توينبي هذه العبارة قبل تحدي اليابان الدول الغربية . ويذكر «المختصر» أنه لو كان الزمن قد تأخر بالأستاذ توينبي بضعة سنوات لأجرى استثناء لما كتبه بالنسبة لتحدي اليابان . وفي رأيي أن هزيمة اليابان في الحرب الأخيرة كانت هزيمة حربية وروحية معا ، الأمر الذي جعلها تنطوي تحت جناح الغرب . على أنه قد ظهر تحد رهيب للدول الغربية يتمثل في الصين التي تحولت إلى قوة شيوعية هائلة تناهض الغرب والمصالح الغربية . (المترجم)

الانتشار على سطح البسيطة بأسرها ، بفرض انتصار الشيوعية على الرأسمالية انتصارا عالمى الطابع ؛ لا يعنى هذا انتصار ثقافة أجنبية ، طالما أن الشيوعية – عكس الإسلام – تستمد أصولها من مصادر غربية باعتبارها يقينا؛ رد فعل ضد الرأسمالية الغربية التى تحاربها .

وفى الحقيقة ، يُبدى انتحال روسيا فى القرن العشرين هذه العقيدة الغربية الدخيلة عليها – بصرف النظر عما يحمله انتصارها من تعريض الثقافة الغربية للخطر – مدى ما بلغه نفوذها من حول واقتدار .

وثمة غموض عميق بالنسبة لطبيعة البولشفية التى بشّر بها لينين : فهل جاء يستكمل رسالة بطرس الأكبر أو ليدمّرها ؟

إن إعادة نقل عاصمة روسيا من معقل بطرس الغير المألوف[1] إلى موقع مركزى فى الداخل ، هو بمثابة إعلان لينين نفسه خليفة البطريرك الأكبر ، وخليفة قدماء المؤمنين وأصحاب النزعات السلافية . وهنا قد نستشعر بأن لينين بمثابة نبى لروسيا المقدسة ، بُعث ليبشر برد فعل الروح الروسية ضد الحضارة الغربية . لكن يُعترض على هذا الرأى ، أن لينين عندما أخذ يبحث عن عقيدة ، استعارها من ألمانى يهودى – كارل ماركس – متأثر بالحضارة الغربية . وإن كان لا ينكر أن العقيدة الماركسية ، تقترب من الإنكار التام لنظام المجتمع الغربى ، أكثر من اتجاه أية عقيدة غربية أخرى ، إلى هذا الإنكار ، الأمر الذى يجعل الماركسية ، أكثر العقائد الغربية مواءمة لأغراض نبى روسى فى القرن العشرين .

وفى الواقع ؛ فإن العناصر السلبية – لا الإيجابية – فى العقيدة الماركسية ، هى التى جعلتها موائمه للعقلية الروسية الثورية . وهذا ما يفسر كيف أنه فى

---

(١) يقصد المؤلف مدينة بطرسبرج (أى لينتجراد حاليا) على بحر البلطيق . ويعتبرها الأستاذ توينبى شاذة وغير مألوفة لوقوعها فى أقصى غرب الإمبراطورية الروسية على غير المألوف فى اتخاذ العواصم فى منطقة أقرب إلى وسط البلاد . (المترجم)

سنة ١٩١٧، تولى مذهب غربي غريب يناهض الرأسمالية ؛ خلع الجهاز الرأسمالى الغربي الذى لا يقل عنه غرابة ، والذى كان ما يزال قائماً فى روسيا فى ذلك الحين . وتعزز هذا التفسير ، عملية الانسلاخ التى يبدو أن هذه الفلسفة الماركسية ما انفكت تتعرض له فى الوسط الروسى ، حيث نشاهد الماركسية تتحول إلى بديل عاطفى وثقافى للمسيحية الأرثوذكسية . مع إحلال ماركس محل موسى ، ولينين مكان المسيح ؛ وقيام مجموعة أعمالهما بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلحادية ذات الطابع الحربى . على أن الظاهرات تأخذ طابعاً مختلفا ، إذ نحوّل اهتمامنا من العقيدة إلى الأعمال ، ونفحص ما أداه لينين وخلفاؤه للشعب الروسى فعلا .

وإذ نسائل أنفسنا عن مغزى مشروع ستالين للسنوات الخمس ؛ تحضرنا إجابة مدارها أنها مجهود لإدخال الأجهزة الميكانيكية على الزراعة والصناعة والمواصلات ؛ وتحويل أمة من الفلاحين إلى أمة من الميكانيكيين ، ونقل روسيا القديمة إلى أمريكا جديدة . وبكلمات أخر ؛ هى محاولة أخيرة ناحية التحول الغربى ، بلغت حداً من الطموح والتطرف والجور ، لم تعد معه رسالة بطرس الأكبر شيئاً مذكوراً : ويعمل حكام روسيا الحاليون فى نشاط شيطانى ليثبتو أن نفس الحضارة التى يشهّرون بها فى أنحاء العالم كله ، قد انتصرت فيها روسيا .

ولا شبهة فى أن حكام روسيا يحلمون بإقامة مجتمع جديد ؛ أمريكى فى معداته ، روسى فى روحه . وهـــذا لعمرى حلم عجيب لساسة ينزل عندهم التفسير المادى للتاريخ ، منزلة العقيدة . ولنتوقع طبقا للمبادئ الماركسية ، أن الفلاح الروسى إذا ما تعلم أن يحيا حياة الميكانيكى الأمريكى ؛ سيتعلم أن يفكر تفكير الميكانيكى ، ويحس إحساسه ، ويرغب فيما يرغب فيه .

وإذ نشهد التجاذب فى روسيا بين مبادئ لينين وطرائق فورد ، فلعلنا

نتطلع إلى مشاهدة تحقيق أمر غير مألوف ؛ ألا وهو توكيد تفوق الحضارة الغربية على الروسية[١] .

وتبدى سيرة غاندى نفس الغموض . فإن ترويجه اللاإرادى لنفس عملية التحوّل الغربى الكلية الوجود ، ما تزال تبعث على التهكم : فإن النبى الهندى ، يزيّن تقطيع خيوط القطن التى أوقعت الهند فى أحابيل العالم الغربى . وهو يبشّر قائلا « أغزلوا قطننا وانسجوه بأيديكم الهندية ولا ترتدوا منتجات الأنوال الآلية الغربية ، وأناشدكم أن لا تتوسلوا لإبعاد هذه المنتجات الأجنبية ، بإقامة أنوال هندية جديدة على النمط الغربى » :

ولم يتقبل مواطنو غاندى هذه الرسالة ، التى تعتبر رسالته الحقيقية . فإنهم وإن أحلّوه بينهم كقديس ،إلا أنهم يتبعون إرشاده ، طالما سلّم نفسه لقيادتهم على طول الاتجاه صوب الغرب . ومن ثم نجد غاندى اليوم ينشئ حركة سياسية ذات برنامج غربى مداره تحويل الهند إلى دولة مستقلة برلمانية ذات سيادة ، مع تطبيق جميع مظاهر الأداة السياسية الغربية المتصلة بالمؤتمرات والأصوات والمنصات والصحف والإعلان . ونجد أكثر مؤيدى النبى الهندى نفوذاً فى هذه الحملة ، أصحاب المصانع الهنود الذين بذلوا الكثير لإحباط رسالة النبى الحقيقية ، وهم أولئك الرجال الذين أقلموا الأسلوب الصناعى الآلى الهند نفسها[٢] .

---

(١) أصبحت الصناعة السوفييتية فعلا تطبق طريقة فورد فى الإنتاج تحت اسم «الاستخانوفية» . ثم امتد تطبيق هذه الطريقة إلى الزراعة وغيرها من مناحى الاقتصاد السوفييتى ، بل إنه شمل الأعمال الإدارية كذلك . ولقد استتبع هذا التطبيق ، ظهور « طبقة » جديدة من المثقفين تتمتع بأجر أضخم وتحظى بامتيازات أعظم مما يحصل عليه جمهرة السوفييت ، ولقد استفحل أمر هذه الطبقة بعد وفاة ستالين بالذات . (انظر رسالة المترجم عن الدستور السوفييتى) (المترجم)

(٢) نبه المستر تشرشل الأذهان إلى هذه الحقيقة فى خطابه عن الهند فى مجلس العموم فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٢ . ولقد هاجمت صحافة الهند الوطنية ملاحظاته هجوما شديدا .

(الملخص)

واستتبع انتصار الحضارة الغربية على بيئتها المادية ؛ حدوث تغيرات – مطابقة لما تقدم – للتحديات الخارجية ، تحولت بموجبها إلى تحديات داخلية .

فإن انتصارات ما يسمى « الثورة الصناعية » قد أبرزت فى المحيط الفنى حشداً ذا سمعة سيئة من المشكلات فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى . وهذا موضوع يبدو من التعقيد وذيوع الصيت ، بحيث لا نحتاج إلى التوسع فيه هنا .

فلنعد إلى أذهاننا الصورة التى تمّحى الآن سريعاً عن صورة الطريق قبل الانقلاب الصناعى . كان هذا الطريق العتيق يزدحم بطائفة من أنواع العربات البدائية ذات العجلات : عربات اليد ، والركشا[1] ، وعربات النقل التى تجرها الثيران والكلاب ، ومنها عربات السفر التى كانت متناثرة هنا وهناك ، تبشر بظهور أشياء أخرى فى المستقبل . ولما كان الطريق مزدحماً نوعاً ما ، كانت تحدث بعض الارتطامات التى لا يهتم أحد بها ، لقلة المصابين من الناس ، وقلما كانت حركة المرور تتعطل . فلم تتسم هذه الارتطامات بالخطورة . ولا يتأتى أن تصبح خطيرة ، نظراً للبطء الهائل لحركة المرور ، ولأن القوة التى تدفعها ضعيفة للغاية . ولم تتمثل « مشكلة المرور » على هذا الطريق والحالة هذه فى تلافى الارتطامات ؛ ولكن جماع المشكلة ، فى إنجاز الرحلة مع ما كانت عليه الطرق من سوء فى الأيام الخوالى . وبالأحرى ، لم يكن هناك أى ضرب من تنظيم حركة المرور ، ولم يحتج الأمر إلى وجود رجل بوليس على نقط تقاطع الشوارع ، أو إلى إقامة إشارات المرور .

وعلينا الآن أن نجيل الطرف فى طريق اليوم حيث تطنّ الحركة الميكانيكية وتهدر . حلّت فى هذا الطريق مشكلات السرعة والنقل ؛ كما تشهد بذلك اللوريات ذات المحرك ، التى تسحب رتلا من الناقلات التى تتحرك فى

---

(١) عجلة ركوب يجرها رجل واحد ، وهى شائعة فى جنوب شرق آسيا . (المترجم)

تثاقل وبطء ؛ بكمية حركة توازى حمولة فيل ، كما تشهد به سيارة السباق التى تروح تطنّ فى خفة النحلة أو الرصاصة :

بيد أن نفس الإثبات يبدى أن مشكلة الاصطدام ، قد أصبحت مشكلة المرور الأصيلة . وبالأحرى لم تعد المشكلة على الطريق الحالى مشكلة تكنولوجية ، ولكن مشكلة نفسانية . فلقد تحوّل تحدّى المسافة المادى القديم ، إلى تحدٍّ جديد للعلاقات البشرية بين السائقين الذين ، لما علموا طريقة « إفناء » عنصر المسافة ، وضعوا أنفسهم بالتبعية — إفناء بعضهم بعضاً — فى خطر راسخ .

ولهذا التغير فى طبيعة مشكلة المرور مغزى رمزى كما هو واقعى :

إذ يرمز هذا التغير ؛ إلى التغير العام الذى أخذ يلم بمجال الحياة الاجتماعية للعالم الغربى بأسره ، منذ انبعاث القوتين الاجتماعيتين المتسلطتين : التصنيع والديمقراطية .

لأنه بفضل التقدم الغير العادى ، الذى حققه مخترعو عصرنا الحاضر فى تسخير قوى الطبيعة المادية ، وفى تنظيم الأفعال المتطابقة للبشر ؛ أصبح كل شىء فى مجتمعنا — سواء للخير أو للشر — يتم بفضل « دافع » هائل : وهذا ما جعل النتائج المادية للأفعال والمسئولية الأدبية للفاعلين ؛ أشد وطأة بكثير ، مما كانت عليه عن ذى قبل . وقد تتمثل دائماً فى كل عصر من عصور كل مجتمع ، فى نتيجة معنوية ؛ نتيجة مدارها تحدى ينذر بالويل لمستقبل المجتمع . ومهما يكن من أمر ذلك ، فلا ريب أن التحدى الذى يجابه مجتمعنا الحاضر ذاته ، هو تحدى معنوى أكثر منه مادى .

« تتمثل نظرة المفكر فى العصر الحاضر تجاه ما يدعى بالتقدم الآلى ، فى شعورنا بوجود روح متغيّرة . فإن الإعجاب يلطّفه النقد ، ويذعن الرضى للشك ، ويتحول الشك إلى ذعر . وثمة شعور بالحيرة والخيبة ، كحال إنسان يمضى قدُماً فى طريق طويل ، ثم يستكشف أنه اتخذ مفترق

الطريق الخاطئ ، وتتعذر عليه العودة . فكيف يستمر ؟ وأين يجد نفسه أن اتبع هذا السبيل أو ذاك ؟ لعله يلتمس العذر لمفسر قديم للعلوم الميكانيكية التطبيقية ، إن تحرر نوعا ما من الوهم ، إذ يقف جانبا يراقب موكب الكشف والاختراع الجارف . موكب اعتاد أن يحصل منه على غبطة غير محدودة . ويتعذر أن نمنع أنفسنا عن التساؤل عن الوجهة التى يتخذها خط السير هذا ؟ ما هو هدفه بعد كل هذا ؟ ما هو تأثيره المحتمل على مستقبل الجنس البشرى ؟

وتوحى هذه الكلمات المؤثرة ، سؤالا ما انفك يجدّ ليعثر على تعبير فى قلوبنا جميعها : وهى كلمات تقال فى ثقة ، لأنها صدرت عن رئيس الجمعية البريطانية للتقدم العلمى ، فى خطبته الافتتاحية بمناسبة الاجتماع الواحد بعد المائة لهذه الهيئة التاريخية(١) . فهل يقدّر للطاقة الجديدة الدافعة للتصنيع وللديمقراطية ، أن تستخدم فى العمل الإنشائى الكبير المتصل بتنظيم العالم ذى الاتجاه الغربى فى مجتمع يشمل الكون بأسره ؟ أو أننا سائرون فى سبيل تحويل طاقتنا الجديدة إلى تدميرنا ؟

لقد جابه حكام مصر القديمة نفس المعضلة ذات مرة ، فى أسلوب لعله أكثر بساطة إلى حد ما . فإن الرواد المصريين عندما وفّقوا فى الاستجابة لأول تحد مادى جابههم ، أى وقتما اخضع ماء وتربة ونبات وادى النيل الأدنى لإرادة البشر — برز سؤال مداره : كيفية استخدام حاكم مصر والمصريين التنظيم البشرى البديع الجاهز بين يديه والمطابق لإرادته . كان ذلك تحديا معنويا : فهل يستخدم القوة المادية واليد العاملة التى تحت إمرته فى رفع شأن رعاياه ؟ هل يقودهم نحو العلا وإلى الأمام نحو مستوى الرفاهية الذى يلغه الملك فعلا ، هو وحفنة من نبلائه ؟ هل الدور الذى يتسم بالسخاء

---

(١) Sir Alfred Eurving, as reported in the Times, 1St. Sep. 1932

الذى قام به بروميثيوس[1] فى المأساة التى كتبها آشيلوس ، أو الجانب الطاغى من زيوس ؟

شيّد سيّد مصر وحاكمها ؛ الأهرامات التى خلدت هؤلاء الحكام المطلقين ، لا باعتبارهم آلهة خالدين أبد الدهر ، ولكن لأنهم قد أذلوا الفقراء . وانحدرت شهرتهم السيئة إلى القصص الشعبى المصرى ،حتى وجدت سبيلها فى صفحات هيرودوتس الخالدة . وعقابا لهم على سوء اختيارهم ، ألقى الموت يده الباردة على حياة هذه الحضارة النامية فى اللحظة التى تحول عندها التحدى الذى كان عامل الاستثارة فى ارتقائها ، من الميدان الخارجى إلى الداخلى .

ووقتما يتحول تحدى التصنيع فى عالمنا الحاضر — وهو تحدى يتماثل إلى حد ما مع ما حدث فى مصر القديمة — من مجال الأسلوب التكنولوجى إلى مجال الأخلاقيات ، نجد النتيجة ما تزال فى عالم الغيب . ما دام رد فعلنا تجاه الوضع الجديد ، لما يتحدد بعد .

ومهما يكن من أمر ؛ فقد بلغنا نهاية مناقشتنا فى الفصل الحالى . ونخلص منها إلى القول بأن سلسلة معلومة من الاستجابات الناجحة لتحديات متعاقبة ؛ تفسّر بأنها مظهر للارتقاء ، على شريطة أن يتجه الفعل — كلما تتابعت السلسلة — إلى التحوّل من ميدان البيئة الخارجية — مادية كانت أو بشرية — إلى الميدان الداخلى للشخصية النامية ، ونقصد بها الحضارة . وطالما تنمو الحضارة ويستمر ارتقاؤها ، يقود ذلك إلى تناقص الركون إلى التحديات التى تولّدها القوى الخارجية ، والتى تتطلب استجابات على ميدان معركة خارجى ؛ وأن يتزايد ركونها إلى التحديات التى تتيحها لذاتها هى نفسها فى

---

(١) بروميثيوس فى الأساطير اليونانية ، وهو ابن تيتان . وقد سعى إلى خداع زيوس الرب اليونانى الأعظم بتقديم قربان له النار ، التى سرقها بروميثيوس من السماء ثم أعطاها للإنسان . وينظر إليه فى الأساطير على أنه بطل الثقافة وأنه المعلم الأول للبشرية . أما آشيليوس (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) فإنه أحد سادة الدراما فى آتيكا . (المترجم)

ميدان المعركة الداخلى : ويعنى الارتقاء ، أن الشخصية النامية أو الحضارة ؛ تنزع لأن تصبح بيئتها الخاصة ، فضلا عن صيرورتها المتحدّى لنفسها وميدان عملها ذاتها .

وبكلمات أخرى ، فإن قاعدة الارتقاء هى التقدم تجاه تقرير المصير . على أن التقدم تجاه تقرير المصير ، صيغة ركيكة لوصف المعجزة التى بوساطتها ؛ تدخل الحياة ملكوتها :

الفصل الحادي عشر

تحلل الحضارات

(١) المجتمع والفرد

إذا كان النقاش قد انتهى بنا إلى إرساء الفكر على أن تقرير المصير هو قاعدة الارتقاء ، وإذا كان تقرير المصير يعني الترابط الذاتي ؛ فإننا آخذون فى تحليل العملية التى تنمو بفضلها الحضارات الآخذة فى الارتقاء فعلا . وهذا ما يتيسر ؛ إن استطعنا كشف الطريقة التى تتبعها تلك الحضارات ، لتترابط أجزاؤها تدريجياً بعضها ببعض . وظاهر بوجه عام ، أن مجتمعا يسير نحو الحضارة ؛ تترابط أجزاؤه بعضها ببعض ، بوساطة الأفراد الذين ينتمون إليه ، أو الذين ينتسب هو إليهم .

وفى قدرتنا التعبير عن العلاقة بين المجتمع والفرد تعبيراً يتسم بعدم الانحياز ، باستخدام أى من هاتين الصيغتين — رغماً عما يتصفان به من غموض وتناقض ، ينتهى بنا إلى القول بأن كلا الصيغتين غير ملائم :

الأولى : مدارها أن الفرد حقيقة واقعة ، وأنها خليقة بأن تُدرك بذاتها ، وما المجتمع إلا حشد من الذرات الفردية .

الثانية : مدارها أن المجتمع هو الحقيقة ، وأنه كلٌّ كاملٌ واضح . فى حين أن الفرد هو مجرد جزء من هذا الكل . ولا يتأتى لهذا الجزء أن يوجد أو يُفهم إن عاش على أية صفة أو فى أى وضع آخر .

وسيتبين لنا أن أى من هذين الرأيين لن يصمد للاختبار . وسيصبح علينا قبل أن نمضى قُدُماً فى بحثنا الجديد ؛ أن نتمعن فى العلاقة التى تحدد موقف المجتمعات والأفراد ، تجاه بعضهم بعضاً . وهذا هو بالطبع أحد المسائل الأصيلة لعلم الاجتماع .

تتمثل الصورة التقليدية للذرّة الفردية التصورية فى وصف هوميروس

للسيكلوبس(١) . وهو وصف اقتبسه أفلاطون تحقيقاً لغاية تماثل غايتنا :

إنهم لا يأبهون للنقاش ولا يخضعون لقانون
وعلى جبال عالية يسكنون فى كهوف غائرة
حيث لكل قانون يطبقه على زوجته وطفله
مثل حاكم لا يلقى بالا إلى جميع نظرائه(٢) .

ومما له دلالته ، أن هذه الطريقة القائمة على فكرة ذرّية الحياة ؛ لا ترجع إلى أى بشر عادى . إذ لم يعش أى إنسان عادى قط على غرار السيكلوبس . لأن الإنسان بأصله حيوان اجتماعى ، ولأن الحياة الاجتماعية شرط سابق لانبثاق الإنسان من المرحلة الشبيهة الإنسانية إلى المرحلة الإنسانية . ولولاها لعجز ذلك التطور بداهة أن يتخذ سبيله المعلوم .

إذن ، ما هى الصيغة الأخرى التى تُعامل الإنسان على أنه جزء مجرّد من كُلٍّ اجتماعى ؟

« ثمة جماعات مثل جماعات النحل والنمل ، وإن كان ينتفى من بين أعضائها استمرار العنصر الجوهرى ؛ إلا أن عمل الفرد ينصرف بأسره إلى الكل ، لا إلى الأعضاء أنفسهم . والموت حليف الفرد إن انفصل ، عن مجتمعه .

« وثمة مستعمرات مثل الشعاب المرجانية أو البوليبات Polyps المائية حيث يعيش عدد من الحيوانات ، معيشة لا يشك عند النظر إليها ، أنها تقوم على أساس فردى ، لكنها تتصل فى الواقع عضوياً بعضها ببعض ؛ بفضل اتصال عنصر الحياة فى واحدها ، بعنصر الحياة فى الأفراد الآخرين . . . فأيّهم الفرد الآن ؟

« هنا يتابع علم التشريح القصة ، ويبدى أن جمهرة الحيوانات — مما

(١) كائن خرافى بعين واحدة تقول الأساطير اليونانية أنه كان يعيش فى ليبيا منعزلا عن العالم . (المترجم)

(٢) Odyssey, Bk. IX, ll. 112-15 Quoted by Plato : Laws; Bk. II ; 640 b

فيها الإنسان وهو نمط الفردية الأولى[١] – قد شُيدت على عدد من الوحدات هى ما تدعى بالخلايا ، ويتمتع بعضها باستقلال كبير . ولن نلبث إلا قليلا حتى نجد مسألة تساويها فى علاقاتها العامة مع جمهرة الحيوانات بأسرها ؛ تفرض علينا – على غرار ما يحدث فى علاقات أفراد مستعمرة الشعاب المرجانية ، أو بصورة أفضل السنفوريات Siphonophora[٢] – بالمستعمرة بأسرها . وتتأكد لنا هذه النتيجة ، إذ نعلم بوجود عدد كبير من الحيوانات التى تعيش معيشة حرة – مثل البرزويات Protozoa[٣] . ويدخل فى ذلك النطاق ، أبسط الأشكال الحيوانية المعروفة بأسرها . ونجدها تتطابق فى جميع الأمور الأساسية مع الوحدات التى تكوّن الجسم الإنسانى ؛ خلا ما يتصل بوجودها المنفصل والمستقل .

« وبالأحرى . . . يكوّن العالم العضوى بأسره ، فرداً ضخماً واحداً يحوطه الغموض وتُسفر أجزاؤه المختلفة عن سوء توافقها . لكن تنعم تلك الأجزاء رغماً عن ذلك ، باستناد بعضها على البعض الآخر : فلو حدث أن نزعت جميع النباتات الخضراء أو جميع البكتريا ، فإنه يستحيل على بقية العالم أن تظل حية[٤]» .

هل تصدق هذه الملاحظات المتصلة بالطبيعة العضوية على الجنس البشرى؟ وهل الفرد البشرى ، وهو أبعد كثيراً عن أن يحقق لنفسه استقلالا كاستقلال السيكلوبس ، لا يعدو – وفقاً لتلك الملاحظات – إلا أن يكون بالفعل ، مجرد خلية فى الجسم الاجتماعى؟ أو أنه – مع التجاوز – خلية صغيرة فى جسم هائل لفرد واحد عظيم ، قوامه العالم العضوى بأسره ؟

---

(١) الأولى : أى الأولى فى طبقات العصر الحيوانى القديم . (المترجم)

(٢) السنفوريات : فصيلة حيوانية . (المترجم)

(٣) البرزويات : الحيوانات الأولية ، وهى أدنى تقسيمات المملكة الحيوانية التى يحتوى واحدها على خلية واحدة أو مجموعة من الخلايا لا تختلف فى التركيب عن بعضها بعضا . (المترجم)

(٤) Huxley, J. S. The Individual in the Animal Kingdom

تمثّل تقدمة كتاب هوبز Leviathan بالطريقة المشهورة ؛ الجنس البشرى الاجتماعى ؛ بكائن شُيِّد من حشد من الذرات البشرية المماثلة فى النوع Anaxagorean Homoeomerial (١) . وهكذا يرى هوبز أن للعقد الاجتماعى تأثيراً سحرياً يُحيل « السيكلوس »(٢) إلى مجرد خلية .

ولقد كتب هربرت سبنسر فى القرن التاسع عشر وأوسوالد سبنجلر فى القرن العشرين – فى يقين جاد – عن المجتمعات البشرية ، باعتبارها كائنات اجتماعية حيّة . وإذا اقتبسنا من سبنجلر :

« تتولد الحضارة « الثقافة » فى الوقت الذى تستيقظ عنده نفس قوية تنتشل نفسها من بين ثنايا الأحوال العقلية البدائية التى يتردّى فيها جنس بشرى ، فتجعله فى طفولة دائمة . عندئذ تتخذ هذه النفس شكلا من اللاصورية ، وكيانا محدوداً متغيرا منبثقا عن اللانهائية والإصرار . وتزدهر هذه النفس على أرض بلاد ذات حدود دقيقة تظل ملتصقة بها التصاق النبات » .

« وعلى العكس تنقضى الحضارة ، إن حققت هذه النفس وقتا ما جماع إمكانياتها ؛ على شكل سكان ولغات وعقائد وفنون ودول وعلوم . وسرعان ما ترتد الحضارة إلى الحياة العقلية البدائية التى انبعثت أصلا منها »(٣) .

ويطالعنا نقد صادق للنظرية المبينة فى الفقرة السالفة ؛ أورده كاتب إنجليزى فى مؤلف تصادف ظهوره فى نفس السنة التى ظهر فيها كتاب سبنجلر :

---

(١) Anaxogorean نسبة إلى الفيلسوف اليونانى Anaxagoras (٥٠٠ – ٤٢٨ ق . م .) الذى وضع أسس نظرية الذرة وآمن بالقوة المدركة اللانهائية الكون . (المترجم)

(٢) يمثل السيكلوبس هنا الإنسان الفرد الذى يعيش بعيدا عن أفراد جنسه مستقلا عنهم . (المترجم)

(٣) Spengler, O. : Der Untergang des Abendlandes, Val. I.15th 22nd, ed. p. 153.

« ما انفك المفكرون الاجتماعيون يحاولون المرة بعد المرة ، أن يوضّحوا وقائع المجتمع وقيمه ، باستخدام مصطلحات نظرية أو علم آخر ؛ عوضاً عن البحث عن طريقة ومصطلحات تليق بموضوعهم ، مع الثبات على استخدامها . ونراهم – قياساً على العلوم الطبيعية – يكدّون لتحليل المجتمع وتفسيره على أساس اعتباره تركيباً آلياً . وقياساً على علم الأحياء يصرّون على اعتبار المجتمع كائنا حيّا . وباستخدام قياس العلم الذهنى أو الفلسفة ، يصابرون على النظر إليه كإنسان . وعلى القياس الدينى ، أوشكوا أن يخلطوه بإله »(١) .

ولعل القياسين المتصلين بعلمى الأحياء والنفس ، أقل القياسات ضرراً وتضليلا ؛ إن طُبّقا على المجتمعات البدائية أو على الحضارات . المتعطلة لكن عدم صلاحيتهما للتعبير عن العلاقة التى تربط الحضارات النامية بأعضائها الأفراد ، أمر ظاهر واضح . ويعتبر الاتجاه نحو إيراد مثل هذه القياسات ؛ مثل من أمثلة اتجاه العقول التاريخية إلى اصطناع الأسطورة أو الإغراق فى الخيال ؛ ومن مظاهره نزعتها إلى تجسيم الجماعات أو النظم ، وتمييزها على هذا النسق . ومن قبيل المثال تجسيم كلمات كبريطانيا وفرنسا والكنيسة والصحافة وحلبة السباق وما إليها ؛ ومعاملتها – وهى أسماء مجردة – معاملة الأشخاص .

نخلص مما تقدم إلى ؛ القول بأن تمثيل المجتمع بشخصية أو كيان حىّ ، لن يهيئ لنا تعبيراً مناسبا ، يبين علاقة المجتمع بأعضائه الأفراد : فما هى إذا الطريقة المثلى لوصف العلاقة بين الجماعات البشرية والأفراد ؟

لعل مناط الحقيقة ، أن المجتمع البشرى هو فى ذاته نظام للعلاقات بين الكائنات البشرية . ولا تقتصر تلك الكائنات على مجرد كونها أفرادا ؛

---

(١) Cole, G. D.H. : Social Theory, p. 13.

فإنها كذلك حيوانات اجتماعية . بمعنى أنها تعجز عن البقاء ، على الإطلاق إن افتقرت إلى وجود هذه العلاقة بين بعضها بعضا . وبالتالى ؛ فإن المجتمع هو حصيلة العلاقات بين الأفراد . وتبرز هذه العلاقات من بين ثنايا تطابق أفعالهم الشخصية . ويوحّد هذا التطابق ، الميادين الشخصية فى نطاق أرض مشتركة ، وهذه الأرض المشتركة هى ما ندعوه بالمجتمع .

أن ارتضينا هذا التعريف ؛ انبعثت منه نتيجة هامة، تمتاز بالوضوح ، مدارها أن المجتمع هو ميدان الفعل . إلا أن مصدر الفعل بأسره مرجعه الأفراد الذين يتكوّن منهم المجتمع .

ويفرض برجسون Bergson هذه الحقيقة فرضا فى قوله :

« إننا لا نؤمن (بالعامل) « اللاشعورى » فى التاريخ . فإن تيارات الفكر الخفية الكبرى التى كثر الكلام عنها ، تتدفق فقط نتيجة لحقيقة مبناها أن جمهرة الناس قد جرفها واحد أو أكثر من عددها ذاته . . . ومن العبث الاعتقاد بأن التقدم الاجتماعى ؛ يأخذ مكانه بنفسه تدريجيا بفضل حالة المجتمع الروحية إبان فترة معينة من تاريخه . وإنه حقا قفزة إلى الأمام ، لا تتم إلا عندما يحزم المجتمع أمره للقيام بتجربة . وهذا يعنى أن المجتمع لا بد وأنه قد سمح لنفسه بالإيمان ، أو هيأ نفسه على الأقل ، لأن تصيبه رجّات . وهذه الرجّات يُحدثها دائما شخص ما »[1] .

إن هؤلاء الأفراد الذين يدفعون إلى السير فى عملية التقدم فى المجتمعات التى ينتسبون إليها ، هم أعظم من كونهم رجالا عاديين . فإن فى وسعهم إنجاز ما يظنه غيرهم معجزات . مثل هؤلاء الأفراد ، عباقرة بالمعنى الحرفى وليس بالمعنى المجازى فحسب .

وإذ يُمنح الإنسان صفة المواءمة المعنوية التى يفتقر إليها ليصبح حيواناً

---

(١) Bergson, H : Les Deux Sources de la Morale et la Religion p. p. 333 & 373

اجتماعياً ، قد تكون الطبيعة قد فعلت ما أمكنها فعله للنوع البشرى . لكن ؛ كما أن العباقرة قد وجدوا ليدفعوا حدود الذكاء البشرى وراء ظهرانيهم ؛ برزت كذلك نفوس أحست بأنها تُنسب إلى النفوس جميعها ؛ وعوضاً عن أن تبقى فى نطاق جماعتها ، وتحافظ محافظة مطلقة على تضامنها معها ، هذا التضامن الذى أقامته الطبيعة ؛ فإنها – تحت سطوة العشق الصوفى – وجهت كلامها إلى البشرية بوجه عام . ويعتبر تجلّى كل هذه النفوس ، بمثابة خلق نوع جديد ، قوامه فرد فذ(١) .

وقد يُطلق على الصفة النوعية المعينة لهذه النفوس القدسية التى تحطم الحلقة المفرغة للحياة الاجتماعية البدائية البشرية ، وتتابع عمل الابتداع ؛ اسم « الشخصية » . وجدير بالذكر أنه بفضل التطور الداخلى « للشخصية » ، أمكنت الكائنات البشرية ، أن تُنجز أعمال الابتداع فى ميدان الفعل الخارجى الذى يقوم عليه ارتقاء المجتمعات البشرية .

وفى رأى برجسون أن ذوى النزعات الصوفية هم بأصلهم العبقريات المبدعة ؛ كما يرى أن مناط فعل الإبداع ، يتجلى فى اللحظة القدسية التى تتم خلالها التجربة الصوفية . وفيما يلى تحليله :

« لا تتوقف نفس الصوفى العظيم أثناء عملية الانجذاب الصوفى ، إذ ليس ذلك خاتمة المطاف . ولقد تدعى حالة « الانجذاب » بأنها حالة سكون ، لكنها فى الواقع سكون قاطرة تقف فى محطة ، مع استمرار دوران محركها تحت ضغط البخار ؛ وهى تهتز أثناء وقوفها منتظرة اللحظة التى تثب فيها إلى الأمام . . . لقد أحس الصوفى العظيم بأن الحقيقة تتدفق عليه من نبعها كأنها قوة جارفة . وتنحو رغبته – بمعاونة الله له – إلى استكمال مشيئته تعالى فى تكييف الأنواع البشرية ، وفقاً لإرادته . . . ويتجه الصوفى العظيم نفس اتجاه وثبة الحياة . وتلك الوثبة نفسها هى التى باتصالها فى كليتها بأفراد

---

(١) المرجع السابق صفحة ٩٦ .

البشر المميزين ، الذين تتجه من ثمت إلى إضفاء طابع تلك الوثبة على الجنس البشرى بأسره . ثم — وهذا تناقض نجدهم على علم به — تحويل نوع من الأحياء — هو بالضرورة شيء مخلوق — إلى جهد إبداعى ؛ ليقيم حركة من شيء توقف »[1] .

هذا التناقض هو لغز العلاقة الاجتماعية الديناميكية التى تنشأ بين المخلوقات البشرية ، حين انبعاث الشخصيات ذات الإلهام الباطنى . وتلتزم الشخصية المبتدعة ، بتشكيل رفاقها البشر بتحويلهم إلى رفاقها المبدعين ؛ عن طريق إعادة تشكيلهم على صورتها . ويتطلب التبدّل الخلقى الذى اتخذ سبيله فى عالم الإنسان الباطنى ، تعديلا مطابقا فى عالم الكون ، قبل أن يغدو ، إما تاماً أو فى أمان . لكن الفرض السابق عن عالم الكون للشخصية المتشكلة ، هو كذلك عالم كون رفاقه البشر غير المتشكّلتين . وسيترتب على قصورهم الذاتى ، مقاومة جهده لتحويل عالم الكون ليتفق مع التغير الطارئ عليه . وسيتجه هذا القصور الذاتى ، إلى جعل الكون يتناسق مع أشخاصهم أنفسهم ؛ بوساطة المحافظة على حالته كما هى .

وتترتب على هذا الموقف مشكلة :

فإذا كانت العبقرية المبدعة تفشل فى أن تحدث فى محيطها التغير الذى حققته هى فى نفسها ، فإن عملها الإبداعى ينقلب عليها . لأنها تكون قد أحدثت بنفسها خللا فى ميدان فعلها . وإذا ما فقدت القدرة على الفعل ، ستفقد الإرادة على العيش ؛ حتى ولو لم يضطهدها رفاقها السابقون ، اضطهاداً يفضى إلى نهايتها . مثلما تعذّب عامة الحيوانات حتى الموت ، الأعضاء الشواذ من السرب ، أو القفير ، أو القطيع ، أو الشرذمة ؛ فى الحياة الاجتماعية للحيوانات أو الحشرات التى تعيش فى قطيع أو رعيل .

---

(١) ويلاحظ القارئ هنا مدى اقتراب فلسفة برجسون التاريخية من فلسفة كارليل التاريخية . (الملخص)

ومن الناحية الأخرى ، أن وفّق عبقريتنا فعلا فى التغلب على القصور الذاتى أو الخصـــومة الحادة لرفاقه السابقين ، وانتصر فى تحويل وسطه الاجتماعى إلى نظام جديد ينسجم مع تشكله هو ذاته ؛ فإنه يجعل الحياة بذلك لا تحتمل للرجال وللنساء العاديين . اللهم إلا إن نجحوا فى تكييف أنفسهم بدورهم ، وفقاً للوسط الاجتماعى الجديد الذى فرضته عليهم إرادة العبقرى القوية المبدعة .

وهذا هو مغزى القول الذى تنسبه الأناجيل للسيد المسيح :

« لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً » .

« فإنى جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والكنة ضد حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته »[1] .

فكيف تتأتى استعادة التوازن الاجتماعى عند ما يحدث أن تثبت وجودها قوة دفع العبقرية ، دفع يقود إلى اختلال النظام ؟

يكمُن أبسط الحلول فى قيام كل عضو فى المجتمع – مستقلا عن الآخر – بإحداث دفعات منتظمة فى قوتها وفى اتجاهها على السواء . وعندئذ يكفل الارتقاء ، من غير حدوث شُبهة ضغط أو احتكاك . وقلما يقال بعدم حدوث استجابات حقيقية كاملة تماماً ، تلبية لنداء عبقريات مبدعة . لأن التاريخ حافل بلا ريب بأمثلة عن الحقيقة القائلة بأنه عند ما تلوح فكرة دينية أو علمية ، فإنها تتخذ صورتها ، فى عقول عدة أشخاص ملهمين ، يستقل كل منهم عن الآخر ؛ وغالبا ما تنبعث الفكرة فى نفس الوقت . بيد أنه يلاحظ أن العقول الملهمة المستقلة عن بعضها بعضا والتى تنبعث فى وقت واحد – حتى بالنسبة للحالات الأكثر إثارة

---

(١) إنجيل متى ١٠ الآيات ٣٤ – ٣٦ .

للعجب – تعد على أصابع اليد الواحدة ، مقابل آلاف أو ملايين ممن لا يستجيبون إلى النداء .

ويبدو أن مناط الحقيقة ؛ أن التفرد الأصيل لأى فعل ابتداعى ونزعته الفردية ، لا يجابهه فعل معاكس . اللهم إلا إلى مدى ضئيل ، يتمثل فى الاتجاه نحو التجانس ، الذى يبرز من خلال الحقيقة القائلة بأن كل فرد هو مُبدع احتمالى ، وأن جميع هؤلاء الأفراد يعيشون فى نفس المجال . ومن ثم يجد المبدع نفسه عند ظهوره ، محاطاً بجمهرة خامدة عاطلة من الابتداع ، يجرفه تيارها ، حتى ولو كان سعيد الحظ بالاستمتاع برفقة نفوس تتآلف معه .

إن جميع أفعال الإبداع الاجتماعى ،هى نتيجة أعمال عباقرة أفراد ، أو أكثر ما يكون أقليات عبقرية . وتخلف وراءها فى كلتا الحالتين ، أكثرية أعضاء المجتمع الغالبة .

ومصداقاً لذلك ؛ إذا ما ألقينا نظرة على الهيئات الدينية الكبرى المنتشرة فى العالم فى الوقت الحاضر : المسيحية والإسلام والهندوكية ؛ سنجد أن الجمهرة العظمى من مريديها المنتسبين إليها – مهما يكن من أمر إعلائهم شأن العقائد التى يؤدون فرائضها – ما تزال تعيش فى نطاق ذهنى لا يبعد عن كونه من ناحية اتصاله بالدين وثنية مجردة .

والمثل يقال ؛ بالنسبة للمآثر التى حققتها حديثاً حضارتنا المادية . فإن معلوماتنا العلمية الغربية وأسلوبنا التكنولوجى لتحويلها إلى عملية حسابية ، أمر يحمل بين ثناياه خطورة أصيلة . لأن القوى الاجتماعية الجديدة للديمقراطية والاتجاه الصناعى ؛ قد انبثقت عن أقلية ضئيلة مبدعة . فى حين لا تزال جمهرة الإنسانية – فى جوهرها – فى نفس المستوى الثقافى والخلقى الذى كانت عليه ، قبل بدء انبعاث القوى الاجتماعية الجديدة الهائلة . وفى الواقع ؛ فإن مدار

الخطر الذى يتهدد « الملح الغربى » – المعترف به فى الأرض – بفقدان مذاقه ؛ يتمثل فى بقاء الجمهرة من الكيان الغربى الاجتماعى « غير مملحة » .

وتحمل الحقيقة المجردة القائلة بأن استطالات الحضارة هى من نتاج أفراد مبدعين أو أقليات مبدعة ؛ تحمل بين ثناياها مشكلة مدارها أن الأغلبية العاطلة من الإبداع ، ستترك متخلفة ، اللهم إلا إن استطاع الرواد تدبير بعض الوسائل لحمل رجال مؤخرة القافلة الكسالى على السير معهم قدماً أثناء تقدمهم المثير . ويقتضى منا هذا الاعتبار تكييف تعريف الاختلاف بين الحضارات والجماعات البدائية الذى سبق لنا استخلاصه :

ولقد علمنا فى قسم سابق من هذه الدراسة ، أن الجماعات البدائية – كما نعرفها – هى فى حالة ثابتة ، بينما أن الحضارات – باستثناء الحضارات المتعطلة – هى فى حركة ديناميكية . وحرى بنا الآن أن نقرر بأن الحضارات النامية ، تختلف عن الجماعات البدائية الثابتة ، بفضل الحركة الديناميكية للشخصيات الفردية المبدعة ، إبان تكوينها الاجتماعى : ويجب أن نضيف ، أن هذه الشخصيات المبدعة ، لم تصل – فى أقصى قوتها العددية – إلى أبعد من أقلية صغيرة :

ونجد الأكثرية العظمى من الأعضاء المشتركين فى كل حضارة نامية ، فى نفس الحالة الساكنة المتوقفة عن التقدم ؛ مثلها مثل أعضاء مجتمع بدائى ساكن . وأكثر من ذلك ، فإن الأكثرية العظمى للمشتركين فى حضارة نامية هم – باستثناء القشرة العلمية المبسوطة فوقهم – أناس لهم انفعالات تتفق مع البشرية البدائية . وهنا نعثر على عنصر الحقيقة ، فى القول بأن الطبيعة البشرية لا تتغير قط . فإن الشخصيات السامية من العباقرة والمتصوفين أو الرجال الكاملين – سمهم كما تشاء – لا يزيدون عن كونهم خميرة فى الكتلة البشرية العادية :

وعلينا الآن أن نتمعن فى كيفية استطاعة هذه الشخصيات الديناميكية

التى نجحت فى تحطيم ما يدعوه باجهوت « قرصة العادة » فى داخليّتها نفسها، كيف أمكنها بالفعل تعزيز انتصارها الفردى وحمايته من التحـــول إلى هزيمة اجتماعية ، بفضل قيامها بحطم « قُرصة العادة » فى وسطها الاجتماعى .

ويتطلب حل هذه المشكلة :

أولا — بذل جهـــد مضاعف ، يقوم به بعض الناس لابتكار اختراع جديد .

ثانياً — بذل جهد آخر يبذله بقيتهم لتطبيقه ، وتكييف أنفسهم وفقاً له .

ويتأتى تسمية المجتمع بحضارة ، بفضل توافر أفعال الإقدام إلى جانب قابلية التعليم . وفى الحقيقة فإن إمكان توافر الشرط الثانى أكثر صعوبة من توافر الأول . وليس العامل الذى لا غناء عنه والذى لم يخضع للجماعات الغير المتحضرة هو الشخصية السامية[1] . وأحرى بأن يتمثل العامل المفقود ، فى الفرصة المتاحة لأفراد لهم هذا الطابع ؛ لأظهر تساميهم ، وميل الأفراد الآخرين من الجهة الأخرى إلى اتباع خطاهم »[2] .

ويبدو أن لمشكلة كفالة اقتفاء الأكثرية العاطلة من الابتداع ؛ أثر الأقلية المبدعة اقتفاء فعلياً ، حلين :

الأول : عملى .

والآخر : تصورى .

فالحل الأول — عن طريق التدريب .

والثانى — بوساطة التصوف .

وتغرس الطريقة الأولى فضيلة قوامها العادات الغير الشخصية : وتغرى

---

(١) ويبدو عدم وجود سبب يدعو إلى حيازة الطبيعة على طائفة من هذه الأوهام المباركة فى جميع الأمكنة والأوقات . (المؤلف)

(٢) برجسون : المرجع السابق صفحة ١٣١ .

الثانية بمحاكاة شخصية أخرى ، بل تذهب إلى أبعد من ذلك فتغريها بتحقيق اتحاد روحى ، اتحاد بربطها بها ربطاً تاماً تقريباً[1] .

ولا ريب أن الاستثارة المباشرة لطاقة الابتداع من نفس إلى نفس ، هى الطريقة المثلى . ولكن إن اعتُمد عليها اعتماد مطلقاً ، فإن هذا هو قصد التمام . ولا يتأتى من الناحية العملية — على نطاق اجتماعى — حل مشكلة إدخال من هب ودب من العاطلين عن الابتداع ، فى صف واحد مع الرواد المبتدعين من غير الإتيان بموهبة المحاكاة المجردة ، إلى مجال الحركة . والمحاكاة المجردة ، هى أقل المواهب العظيمة للطبيعة البشرية ، وتحتوى على تدريب أكثر مما تحتوى على إلهام .

ويعتبر إتيان المحاكاة إلى مجال الحركة ، أمراً لا غناء عنه فى سبيل إدراك الغاية التى نحن بصددها . لأن المحاكاة هى — على أية حال — أحد مواهب الإنسان البدائى العادية . ولقد لاحظنا قبل الآن ، أن المحاكاة هى ظاهرة نوعية للحياة الاجتماعية ؛ فى المجتمعات البدائية وفى الحضارات على السواء . لكنها تعمل بأسلوبين مختلفين فى هذين النوعين من المجتمع :

ففى المجتمعات البدائية ؛ توجّه المحاكاة إلى الجيل الأسنّ من الأعضاء الأحياء ، وإلى الأموات الذين تتجسد فيهم « قرصة العادة » . على حين توجّه نفس الموهبة ، إلى الشخصيات المبدعة التى تشق أرضاً جديدة . إن الموهبة هى ذاتها فى الحالين ، لكن الاختلاف هو فى الاتجاه .

هل فى مكنة هذه الصيغة المستعادة للتثقيف البدائى الاجتماعى — هذا الميل المتكلّف والآلى فى الغالب نحو اليمين أو اليسار — أن تحلّ حقاً محل الصلة الشخصية الوثيقة ، التى أثبت أفلاطون أنها الوسيلة الوحيدة لنقل فلسفة من فرد إلى آخر ؟

---

(١) المرجع السابق : صفحات ٩٨ — ٩٩ .

قوام الإجابة ؛ أن استخدام الطريقة الأفلاطونية استخداماً مطلقاً ، لم ينبن عليه فى الواقع نمط إخضاع جمهرة البشرية للأفراد . إذ ما برحت الطريقة المثلى للإلهام الفردى المباشر ؛ تتطلب دائماً ، تعزيزها الفينةبعد الأخرى ، باستخدام الطريقة العملية القائمة على التثقيف الاجتماعى العام . وذلك عمل شائع فى البشرية البـــدائية . ويتأتى الانتفاع به فى خدمة قضية التقدم الاجتماعى ؛ وقتما يتسلم الزمام قادة جدد ، يصدرون أوامر للسير جديدة ؛

ولقد تقود المحاكاة إلى حيازة « الذخيرة » الاجتماعية وقوامها : النزعات الفطرية ، أو الانفعالات ؛ أو الآراء التى لم تنبعث عن القائمين عليها ،والتى لم يكن ليتأتى امتلاكهم لها ، لو لم يتلاقوا مع مالكيها الأصليين ؛ ويحاكوهم ؛ وإنها فى الواقع طريق قصير .

وسنجد فى نقطة تالية من هذه الدراسة ، أن هذا الطريق القصير — وإن كان يحتمل أن يكون سبيلا يقود إلى الهدف الأساسى لا مناص من اتباعه — إلا أنه كذلك واسطةغامضة ، لا تقل فى حتميتها عن السبيل السابق ؛ فى تعريض الحضارة النامية إلى خطر الانهيار .

على أن مناقشة ذلك الخطر هنا عمل سابق لأوانه » .

٢ — الاعتزال والعودة

الأفـــراد

١ — عرض عام :

درسنا فى القسم الأخير ؛ السبيل الذى اتبعته الشخصيات المبدعة فى اتخاذها طرق التصوّف ، وهو أعلى مستوياتها الروحية . وشاهدنا أنهم قد اجتازوا فى بدء الأمر ، الفعل إلى الانجذاب . ثم خلّفوا حالة الانجذاب بعد ذلك ، إلى الفعل على مستوى جديد أعلى .

وباستخدامنا مثل هذا التعبير ؛ نصف حركة الابتداع ، بوساطة استعمال اصطلاحات التجربة النفسية للشخصية . وباستعمال مصطلحات علاقات الشخصية الخارجية مع المجتمع الذى ينتمى إليها ، نتمكن من وصف ازدواجية الحركة ذاتها ، إن أطلقنا عليها اسم « الاعتزال والعودة » .

ويتيح الاعتزال للشخصية ، تحقيق الطاقات فى ذات داخليتها . وهى طاقات تظل هاجعة إن لم يُفكّ إسارها — فترة ما — من الأحابيل والشباك الاجتماعية التى تتردى فيها الشخصية . ولقد يكون الاعتزال فعلا اختيارياً قامت به الشخصية من تلقاء نفسها ، أو تفرضه عليها ظروف أقوى من إرادة تلك الشخصية . والاعتزال فى أية حالة ؛ فرصة — وربما شرط ضرورى — ليتجلّى الناسك . وتعنى كلمة الناسك حرفياً فى الأصل اليونانى « ذلك الذى يعتزل القوم » .

لكن التجلّى باتخاذ طريق الاعتزال ؛ يصبح بلا غاية ، بل ويغدو لا معنى له . اللهم إلا إن أصبح توطئة لعودة الشخصية المتجلّية إلى الوسط الاجتماعى الذى وفدت منه أصلا . ويتضمن هذا الوسط ، البيئة الأصلية للحيوان الاجتماعى البشرى[١] ، ولن يستطيع الإنسان التغرّب عن هذه البيئة دواماً ، إلا إن أنكر صفته البشرية ؛ فيغدو مصداقاً لعبارة أرسطو إما وحشاً أو إلهاً » .

وبالأحرى ، فإن العودة ، هى جوهر الحركة برمّها ، كما أنها علتها النهائية .

وهذا واضح فى القصة السورية عن صعود موسى جبل سيناء منفرداً .

إن موسى قد صعد الجبل بغية التحدث مع ياهوى Yahweh أو تلبية لندائه . ولقد اقتصر النداء على موسى وحده دون بقية بنى إسرائيل ، الذين أُمروا بالبقاء بعيداً . على أن جماع غاية « ياهوى » برمّها من ندائه موسى ليصعد

---

(١) أى الإنسان .

الجبل ، هو إعادته إلى السطح ثانية حاملا قانوناً جديداً . فُرض على موسى إبلاغه بقية الشعب التى كان أفرادها عاجزين عن مشاركة موسى الصعود وتلقى الرسالة بأنفسهم :

« وذهب موسى إلى الرب ، وناداه الرب من الجبل قائلا : إنك ستقول إلى بيت يعقوب وتخبر أبناء إسرائيل . . . وأعطى موسى بعدما انتهى من رسالته إليه على جبل سيناء ، لوحى الشهادة مكتوبين بأصبع الرب »[1].

وبالمثل : نجد التوكيد بشأن العودة قوياً بالنسبة لتجربة النبوة والبعثة النبوية ، مصداقاً لما يذكره عنها الفيلسوف العربى ابن خلدون فى القرن الرابع عشر المسيحى :

« . . . إن للنفس استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات فى لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل . . . ثم تعود النفس إلى البشرية بعدما تستقبل عن طريق الملائكة الرسالة التى يوكل إليها إبلاغها إلى البشر »[2] .

ويخيل إلينا إزاء هذا التفسير الفلسفى للمذهب الإسلامى عن النبوة ، أننا نلقف ترديداً لعبارة مشهورة فى الفلسفة الهلينية « ابتسامة أفلاطون للكهف » .

فإن أفلاطون فى هذه العبارة ، يمثل الجمهرة البشرية ؛ بمساجين فى كهف يقفون مولين ظهورهم للضوء ومحدقين فى أطياف تطرحها على مرآة الحقائق التى تنتقل وراءها . ويسلم المسجونون جدلا بأن الأطياف التى يرونها

---

(١) اعتمد العلامة توينبى فى كتابة هذا القسم على المصادر اليهودية والمسيحية وحدها. (المترجم)

Evodus XIX, sandXXXI, 18, see of k XIX, Kassinrei

(٢) نقلت هذه العبارة عن الأصل الوارد بمقدمة ابن خلدون صفحة ٨٤ طبعة بيروت سنة ١٨٨٦ . (المترجم)

على حائط الكهف الخلفى ، هى الحقائق القصوى . طالما أن هذه هى الأشياء الوحيدة التى تيسّر لهم رؤيتها .

ثم يتخيل أفلاطون بعد ذلك سجيناً أطلق سراحه وحده على غير انتظار ، وأجبر على أن يدور ليواجه الضياء وأن يسير خارجاً نحو الخلاء . إن النتيجة الأولى لإعادة توجيه الرؤية هذه ، انبهار السجين المحرر وارتباكه . لكن هذا لن يطول أمداً طويلا ، إذ لا يلبث هذا السجين إلا قليلا ثم يُؤتىَ فعلا موهبة الرؤيا ، فتكشف له عيناه بالتدريج طبيعة دنيا الحقيقة . فإن أعيد إلى السجن بعد ذلك ، ينتابه نفس الشعور بالحيرة والانبهار ، شعور ناتج هذه المرة عن العتمة ، ويماثل ما حدث له لما تعرّض لضوء الشمس . وكما انتابه شعور الأسف لتعريضه لأشعة الشمس ، ينتابه هذا الشعور هذه المرة لإعادة تعريضه للعتمة . كما أنه يتعرض كذلك لخطر شعور العداء الذى يستقبله به زملاؤه فى الكهف عند عودته ، لأنهم لم تقع أبصارهم على ضياء الشمس .

« سيسخرون منه بالتأكيد ، وسيقال عنه إن النتيجة الوحيدة لفراره ، عودته فاقد النظر . وتفسير ذلك من الناحيـــة المعنوية : أن محاولة الصعود إلى أعلى عبث ؛ أما عن الفضولى الذى يرنو إلى التحرز لبلوغ هذه الأجواء العليا ، فإن سنحت لنا فرصة القبض عليه وقتله ، سنغتنمها بكل تأكيد » .

ولعل قراء شعر روبرت براونج يذكرون بهذه المناسبة رؤياه عن عازر Lazarius[1] . فهو يتخيل عازر الذى نهض من بين الأموات بعد أربعة أيام من موته ، لابد أنه قد عاد إلى « الكهف » مختلفاً تماماً عما كان عليه وقتما غادره . ويضمّن وصفاً لعازر البيثانى Lazarius of Bethany هذا نفسه

---

(١) عازر هو الرجل الذى أحياه السيد المسيح عليه السلام بعد موته كما تقرر الأناجيل . (المترجم)

بعد انقضاء أربعين سنة من تجربته الفذة ، فى رسالة ألفها ما يدعى كارشيش Karshish وهو طبيب رحالة عربى تخيله براونتج يكتب تقارير دورية يرسلها إلى رب عمله . وعلى ما رواه كارشيش ، فإن أهالى قرية بيثانى يحتارون فى أمر عازر المسكين ، وأصبحوا ينظرون إليه باعتباره أبله القرية . على أن كارشيش قد « استمع إلى قصة عازر لكنه غير متأكد منها » .

وبالأحرى أخفق عازر — وفقاً للشخصية التى ابتدعها براونتج — فى أن يعود عودة ذات تأثير ، على أية صورة من الصور . لأنه لم يتحول إلى نبى أو إلى شهيد . بل قد غدا يعانى العودة فى الصورة التى تحدّث عنها أفلاطون ، مع اختلاف فى المصير ؛ فقد أصبح وجوده يقابل بالتسامح مع تجاهل شخصه .

وصوّر أفلاطون نفسه محنة العودة فى ألوان غير جذابة إلى درجة تجعلنا نعجب لما نجده يفرضها فى فظاظة على فلاسفته المنتخبين[١] . بيد أنه إذا كان توافر عنصر الفلسفة ضرورياً فى النظام الأفلاطونى ؛ فإنه لا يقل عن ذلك ضرورة ، أن يبقوا فلاســفة فقط . فإن مغزى استنارتهم والغاية منها ، أن يصبحوا ملوكاً فلاسفة . ولا شبهة فى أن السبيل الذى استنه أفلاطون لهم ، يماثل مع السبيل الذى وطأه فلاسفة المسيحية بعد ذلك .

على أنه بينما يماثل طريق الفلسفة الهلينية مع طريق الفلاسفة المسيحيين ، إلا أنه يوجد تماثل فى الروح عند الفريقين .

إذ نجد أفلاطون يسلّم بأن لامناص من التعارض بين مصلحة الفيلسوف المتحرر المستنير ورغبته الشخصيتين ؛ ومصلحة جمهرة أتباعه من الناس الذين ما يزالون « يجلسون فى الظلام وفى ظل الموت مقيدين تقييداً شديداً بالبؤس والحديد »[٢] . ومهما يكن من أمر ميول المسجونين ، فإن الفيلسوف لن يستطيع — وفقاً لما يعرضه أفلاطون — أن يسد احتياجات البشرية من

---

(١) انظر نظام جمهورية أفلاطون فى مؤلَّف المترجم « المدينة الفاضلة » . (المترجم)
(٢) سفر الأمثال .

غير التضحية بسعادته الشخصية وكماله الذاتى ؛ وذلك لأنه عندما يبلغ الاستنارة ، خير للفيلسوف نفسه أن يظل خارج الكهف عائشاً فى الضياء سعيداً على الدوام :

وحقاً ؛ فإن مدار العقيدة الأساسية فى الفلسفة الهلينية ، أن أفضل حالات الحياة هى حالة التأمل ؛ ويعبر عنها بكلمة يونانية أصبحت تعنى كلمة « نظرية » ، وهى كلمة أصبحت تستخدم عادة نقيضاً لكلمة « الفعل » . ويضع فيثاغورس حياة التأمل فوق حياة الفعل . ويسرى هذا المذهب فى التقاليد الفلسفية الهلينية ، حتى المدرسة الأفلاطونية الحديثة التى لبثت قائمة حتى آخر العهد بالمجتمع الهلينى إبان تحلله .

ويميل أفلاطون إلى الاعتقاد بأن فلاسفته سيوافقون على المساهمة فى العمل فى سبيل هناءة العالم ، مسيرين بشعور الواجب وحده . لكنهم لم يفعلوا ذلك ، فى حقيقة الأمر . وقد يكون رفضهم ، جانبا من تفسير مشكلة سبب الانهيار الذى كابدته الحضارة الهلينية ، فى الجيل الذى كان لايزال متأثراً بآراء أفلاطون .

كما أن سبب « الامتناع الشديد » الذى أبداه الفلاسفة الهلينيون ، واضح كذلك . فإن تقييد حريتهم معنوياً ، كان نتيجة لخطأ فى الاعتقاد . فإنهم باعتقادهم بأن « الانجذاب » — وليست العودة — هى المطمح الأوحد للأوديسية الروحية التى أقلعوا عليها ؛ لم يروا شيئاً سوى تضحية على مذبح الواجب فى الطريق الأليم من الانجذاب إلى العودة ؛ التى هى فى حقيقة الأمر الغاية ، وذروة الحركة التى ارتبطوا فيها .

ولقد افتقرت تجربة الفلاسفة الهلينيين الصوفية إلى الحب . والحب هو فضيلة المسيحيين الرئيسية ، التى تُلهم الصوفية المسيحية ، العبور مباشرة من أعالى العشاء الربانى إلى دسكرة[٤] ناقصى الاعتبار مادياً ومعنوياً ، فى عالم الحقيقة والواقع :

---

(٢) الدسكرة : الحى القذر . (المترجم)

وليست حركة الاعتزال والعودة هذه ، وقفاً على الحياة البشرية وحدها. وتتأتى ملاحظتها فقط فى علاقات أفراد البشر ، بعضهم ببعض . إذ تتسم به الحياة بصفة عامة . وتتبدى للإنسان فى حياة النباتات ، عندما تصبح للحياة النباتية أهميــة لديه ، بفضل ممارسة الزراعة . والزراعة ظاهرة قادت المخيلة البشرية ؛ إلى التعبير عن أمانى البشر ومخاوفهم ، باستخدام المصطلحات الزراعية .

ومصداقاً لذلك ؛ يُعبّر عن الدورة السنوية لاعتزال القمح وعودته ؛ بمصطلحات تشبيهية ، استخدمت فى الشعائر وفى القصص . كما تشهد بذلك أسطورة اغتصاب كورى Korê واستعادتها ، أو برسيفونى[١] ، أو موت ديونيسوس وبعثه ، أو آدونيس ، أو أوزيريس . . . أو ما شابه ذلك من الأسماء التى كانت تطلق فى البلاد المختلفة على روح الحنطة العالمية ؛ أو رب السنة الذى كانت طقوسه وأسطورته تنتشر فى كل مكان يمارس الزراعة . وكانت خصائصه تتشابه ، وتقوم بأداء الدور نفسه فى المأساة الحزينة ، تحت أسماء مختلفة .

وبالمثل ، عثرت المخيلة البشرية فى حياة النبات ؛ على ما يمثل الحياة البشرية فى مجال اعتزال وعودة . وكان ذلك بالنسبة لمشكلة الموت ؛ وهى مشكلة تشقى بها عقول البشر منذ اللحظة التى شرعت فيها الشخصيات الكبرى فى الحضارات النامية ، فى تحرير أنفسها من جمهرة البشرية .

ولكن قد يقول قائل : كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ؟ « يا غبى . الذى تزرعه لا يحيا إن لم يمت . والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى

---

(١) هى فى الأساطير اليونانية ابنة زيوس من ديمتر . خطفها بلوتو ملك العالم السفلى واتخذها زوجة له . فعمدت أمها على سبيل الانتقام إلى منع النبات من النمو ، فتعرض البشر للجوع . عندئذ تدخل زيوس لدى بلوتو فأطلق سراح بيرسيفونى ، ثم اتفق أخيرا على أن تعيش ثلثى العام (أو نصفه) مع أمها وبقية العام مع زوجها بلوتو . (المترجم)

سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى . ولكن الله يعطيها جسماً ، كما أراد ، ولكل واحد من البذور جسمه . هكذا أيضاً قيامة الأموات . يزرع فى فساد ، ويقام فى عدم فساد . يزرع فى هوان ، ويقام فى مجد . يزرع فى ضعف ، ويقام فى قوة . يزرع جسما حيوانياً،ويقام جسما روحانياً . يوجد جسم حيوانى ويوجد جسم روحانى . هذا مكتوب أيضاً . صار آدم الإنسان الأول نفساً حية ، وآدم الآخر روحاً محيياً . الإنسان الأول من الأرض ، ترابى . الإنسان الثانى ، الرب من السماء[1] »

تعرض هذه الفقرة من الرسالة الإنجيلية الأولى التى وجهها بولس إلى أهالى كورنثيا ؛ أربعة أفكار متلاحقة ، هى فى نفس الوقت كعلامة التصعيد الموسيقية Crescendo .

الفكرة الأولى : إننا نشهد لوناً من البعث ؛ إذ نعاين عودة الحنطة فى الربيع ، عقب انسحابها فى الخريف .

الفكرة الثانية : أن بعث الحنطة ، توكيد لبعث الموتى من البشر . ويعتبر هذا توكيداً لمبدأ كان يُدَرَّس فى الطقوس الهلينية الخفية ، قبل ظهور بولس بزمن طويل .

الفكرة الثالثة : جواز بعث البشر . ويتيسر حدوثه بفضل نوع من التشكيل الذى تتعرض له فطرتها ؛ بوساطة فعل الله خلال فترة الترقب التى تقع بين موت البشر وعودتهم إلى الحياة . ويؤكد هذا التشكيل لموتى البشر ، تشكيل البذور الظاهر إلى زهور وفاكهة . وهذا التغيّر فى الفطرة البشرية ، هو تغيّر فى اتجاه أعظم ، فى نواحى الاحتمال والجمال والقوة الروحانية .

الفكرة الرابعة : تعتبر هذه الفقرة آخرها وأكثرها تسامياً . فإنه فى

(١) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (إصحاح ١٥ آيات ٣٥ — ٣٨ و ٤٢ — ٥٠ و ٤٧ — (الترجمة العربية) . (المترجم)

الرأى المتصل بفكرة الرجل الأول والرجل الثانى[١] ؛ يتغاضى عن مشكلة الموت ، ويسمو مؤقتاً الاهتمام ببعث الفرد البشرى . أما عند حلول « الإنسان الثانى » وهو « الرب من السماء » ؛ فإن بولس يهتف لخلق نوع جديد قوامه فرد واحد قد ترنو رسالته إلى رفع بقية البشرية إلى المستوى القدسى ، بفضل الإلهام الذى استمده من الله .

وهكذا يتبين من آراء بولس ، أنه يتيسر إدراك « خطة » الاعتزال نفسها والتشكل ؛ اللذين يمهدان إلى عودة يحيطها المجد والقوة ؛ فى التجربة الروحية للتصوف ، وفى الحياة المادية لدنيا النبات ، وفى تأملات البشر عن الموت والخلود ، وفى خلق نوع أعلى من نوع أدنى . وظاهر أن هذا منهج مجاله الكون ؛ وقد أتاح صورة من الصور الأسطورية الأصيلة ، التى تعتبر شكلا بدئياً فهم حقائق الكون والتعبير عنها .

وثمة أسلوب « للخطة » أسطورى الاتجاه يخالف ما تقدم ؛ ويبدو فى قصة اللقيط . ومبناها ؛ وليد ذو نسب ملكى ، ينبذ إبان طفولته ، يلفظه فى بعض الأحيان أباه أو جده[٢] الذى يتلقى تحذيراً فى منامه . أو بوساطة نبوءة عن طفل يقدر له أن يأخذ مكانه . وينبذه فى بعض الأحيان مغتصب أزاح أبا الوليد عن مكانه الشرعى ، ويخشى أن يكبر الوليد ويأخذ الثأر منه[٣]. وفى بعض الأحيان تضع الوليد أيد رحيمة تهتم بنجاته من خطط شريرة سفاحة تدبر ضده[٤] . وتنقذ حياة الطفل المنبوذ فى المرحلة التالية من القصة بأعجوبة ؛ وفى الفصل الثالث من القصة بعد أن يصبح فى

---

(١) الرجل الأول عند المؤلف هو الذى يخلق من التراب والثانى هو الروح بعد تحررها من ترابيتها . (المترجم)

(٢) كما فى قصتى أوديبوس وبرسوس Ecdipus and Perseus . (المؤلف)

(٣) كما فى قصة رومولوس Romulus . (المؤلف)

(٤) كما فى أقاصيص جاسون وأوريستيس Jason وزيوس وحورس وموسى وقورش . (المؤلف)

مرحلة الرجولة ويصبح فى قالب البطولة بفضل المصاعب التى يكابدها ، يعود قوياً يحوطه المجد ويدخل مملكته .

ونشاهد فى قصة المسيح ، تكرار « خطة » الاعتزال والعودة دواماً : فإن المسيح هو الوليد ذو النسب الملكى — وريث داود أو ابن الله نفسه — الذى يُطرح بعيداً فى طفولته . إنه يفد من السماء ليولد على الأرض ، وإنه يولد فى بيت لحم نفس مدينة داود . لكنه لا يجد مكاناً فى النزل ، ويولد من ثم فى المذود ، مثلما ولد موسى فى قاربه ، وبرسوس فى خزانته . وترعى المسيح فى الإسطبل حيوانات صديقة ، مثلما سهرت الذئبة على رومولوس ، وحرس الكلب قورش . ويتلقى كذلك خدمات الرعاة ، ويتبناه والد من أصل وضيع ، على غرار ما تم لرومولوس وقورش وأوديبوس . ثم ينقذه من مؤامرة هيرود الدموية ، حمله خلسة إلى مصر ، مثلما أُنقذ موسى من مؤامرة فرعون الدموية ، بإخفائه فى نبات البردى ؛ وكما وضع جاسون بعيداً عن متناول الملك بلياس Pelias بإخفائه فى معقل جبل بليون Pelion . ويغـــدو المسيح فى نهاية القصة — كما يعود الأبطال الآخرون — ليدخل مملكته ؛ مملكة يهوذا . وعنـــدما يدخل أورشليم ، تهتف له الجماهير باعتباره ابن داود . وأخيراً يدخل السماء فى صعوده .

وتتطابق قصة عيسى فى هذا جميعه ، مع النمط المألوف لرواية الوليد اللقيط . على أن الخطة الكامنة فى الأناجيل للاعتزال والعودة ،تعرض نفسها كذلك فى أشكال أخرى :

فهى موجودة فى كل تجربة من التجارب الروحية المتتابعة ، التى تبدت فيها ربوبية المسيح تدريجياً . فإذا ما أحس المسيح برسالته حين عمّده يوحنا ، ينسحب إلى الفلاة ويظل فيها أربعين يوماً ؛ يعود بعدها من تجربته هناك بقوة الروح القدس . وعندما يتحقق المسيح بأن رسالته ستقوده إلى

موته ، ينسحب ثانية إلى « الجبل العالى منفرداً » ؛ والجبل هو مشهد « تجلّيه » . ويعود من هذه التجربة مسلما أمره إلى الله ، وعاقدا النية على الموت . ومرة أخرى بعدما يعانى على الصليب سكرات الموت البطىء وهو سمة الإنسان الفانى ، يهبط إلى القبر ليقوم خالداً وقت البعث . وهذا القيام ، أى صعوده ؛ يعنى « انسحابه من الأرض إلى السماء ليعود مرة أخرى مكللا بالمجد ليحاكم الحى والميت ، والتى مملكته لا نهاية لها » .

ولهذه المعاودات الرقيقة المتصلة بخطة الاعتزال والعودة فى قصة المسيح ، ما يماثلها كذلك :

فإن فرار موسى إلى مدين ، يماثل انسحاب المسيح إلى البيداء . وإن تجلّى المسيح على جبل عال منفرداً ؛ يعيد إلى الذهن ، تجلّى موسى على جبل سيناء .

ولقد تنبأت الطقوس الهلينية الخفية بموت كائن إلهى وبعثه .

وتكهنت الأسطورة الزرادشتية ، بالشخصية الرائعة التى يقدّر لها الظهور والسيطرة على المشهد ، عند حلول الكارثة التى تعمل إلى إنهاء النظام الأرضى الحالى ؛ تكهنت به على صورة مخلص .

كما تنبأت به الأسطورة اليهودية فى صورتى « مسيح » و « ابن الإنسان » .

بيد أن ثمة طابعاً للأسطورة المسيحية ، ظاهر أن لا نظير له فيما سبق من الأساطير . ألا وهو تفسير مجىء المُخلص فى المستقبل أو المسيح ، بأنه عودة شخصية تاريخية إلى الأرض ، سبق لها أن عاشت عليها على غرار كائن بشرى .

ومن بين ثنايا وميض المشاهدة العقلية هذه ، يترجم الماضى الأبدى لأسطورة اللقيط ، والحاضر الأزلى للطقوس الزراعية ؛ يترجم هذا كله إلى هدف مسعى البشرية .

ويظهر أن وميض المشاهدة العقلية الذى صُورت فيها الفكرة المسيحية

عن « القدوم الثانى » ، لابد وأنه كان استجابة لتحد يتصل بالزمان والمكان . أما عن قول الناقد بأنه لا توجد فى الأشياء أكثر مما يوجد فى أصولها ؛ فإن افتراضه الخاطئ هذا ، يحطّ من قدر هذه العقيدة المسيحية . ويقوم هذا النقد على أن العقيدة المسيحية قد تولّدت فى محيط « خيبة » الجماعة المسيحية الأولى ، عندما أدركت أن « سيدها » قد قدم فعلا ، ثم رحل دون انتظار للنتيجة . لأن الموت قد فُرض عليه ، وسلب الموت أتباعه — إلى المدى الذى يمكن إدراكه — أمانيهم . فإذا كان عليهم أن يجمعوا شتات همّتهم المفقودة ليحملوا رسالة ؛ فلا مناص من أن ينتزعوا وخزة الفشل من سيرة سيدهم ، بفضل تحويلها من الماضى . إلى المستقبل . ويتطلب ذلك أن يُبشّروا ، بأن سيدهم سيعود ثانية إلى المجد والسلطان(١) .

ولقد تأثرت جماعات أخرى بسيرة المسيح ، فاعتنقت عقيدة « القدوم الثانى » .

ففى أسطورة « القدوم الثانى » لآرثر مثلا ، واسى البريطانيون أنفسهم لإخفاق آرثر التاريخى فى الانتصار على غزاة البرابرة الإنجليز ، بالاعتقاد بعودته مرة أخرى .

وعزّى ألمان العصور الوسطى أنفسهم عن إخفاقهم فى الاحتفاظ بزعامتهم على المسيحية الغربية ، بالاعتقاد بعودة الإمبراطور فردريك بارباروسا (١١٥٢ — ٩٠ ميلادية) مرة أخرى ، وفى هذا يقول أحد المؤرخين(٢) :

« إلى الجنوب الغربى من السهل الأخضر الذى يكتنف صخرة سالزبرج ، تتجهم كتلة الأونترسبرج Untersberg الهائلة على الطريق التى تطوى مضيقاً

---

(١) تختلف سيرة السيد المسيح عليه السلام فى المصادر المسيحية عن سيرته فى المصادر الإسلامية اختلافا أساسيا . كما يعرض الأستاذ المؤلف هنا تحليله لشخصيته عليه السلام على صورة تخالف ما هو وارد فى المصادر المسيحية التقليدية . (المترجم)

(٢) Bryce, games : The Holy Roman Empire, Ch. XI, ad fin.

طويلا إلى خور وبحيرة برختسجادين Berchtesgaden . وهناك بعيداً إلى أعلى بين القنن الجيرية الوعرة فى نقطة نادراً ما تبلغها قدم بشرية ، يدل فلاحو الوادى المسافر على فتحة سوداء لكهف يقولون بأن هناك يرقد باربا روسا وفرسانه فى سبات فتّان ، ينتظرون الساعة التى تنقطع فيها الغربان السوداء عن التحليق حول القمة ، وتزهر شجرة الكمثرى فى الوادى ؛ لينزل مع أتباعه المجاهدين ليعيدوا إلى ألمانيا العصر الذهبى للسلام والقوة والوحدة » .

ولما فقدت جماعة الشيعة فى العالم الإسلامى معركتها وأصبحت طائفة مضطهدة ، احتضنت فكرة أن الإمام الثانى عشر[1] (الوارث الثانى عشر المنحدر من على زوج ابنة النبى) لم يمت ، لكنه اختفى فى كهف حيث يستمر فى تزويد شعبه بالإرشاد الروحى والزمنى ، وأنه سيعود مرة أخرى باعتباره المهدى المنتظر . وتكون على يديه نهاية عصر الطغيان الطويل الأمد[2] .

وإذا ما عدنا أدراجنا إلى عقيدة « القدوم الثانى » فى عرضها المسيحى التقليدى ؛ سنجد أنها بالفعل إشارة أسطورية باستخدام التصور الحسّى ، إلى العودة الروحية التى يعيد فيها سيّد الحواريين المهزوم ، توكيد مقامه فى قلوب الحواريين ، وقيّما قويت عزائمهم على إنجاز رسالة سيدهم الجريئة التى

---

(١) الإمام محمد المهدى صاحب الزمان وهو ابن الإمام الحادى عشر ، حسن العسكرى . والإمام المهدى ، لم يمت كما يقول الأستاذ توينبى ولكنه – وفقا لاعتقادات الشيعة الاثنى عشرية – قد اختفى وهو طفل فى السادسة وعين نائبا عنه نقيبا وتوالى النقباء حتى بلغت عدتهم أربعة . وهذه هى الغيبة الصغرى للإمام . ثم أعلن النقيب الرابع أن الإمام سيغيب غيبته الكبرى وأنه سيظهر آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا ونورا بعد أن ملئت ظلما وفجورا . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ توينبى مذهب الشيعة الاثنا عشرية . أما الشيعة الإسماعيلية فإن إمامهم قائم وهو الآن أغا خان الرابع . وقد افترقت الطائفتان بعد وفاة الإمام جعفر الصادق ، إذ رأى فريق أن ابنه الثانى موسى الكاظم ، أحق بالإمامة ، وهؤلاء هم الاثنا عشرية . أما الفريق الآخر فرأى أن الإمامة تنتقل إلى ابن إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق ، وهؤلاء هم الإسماعيلية . (المترجم)

وضعها على عاتقهم مرة أخرى . وذلك على الرغم من غياب صورة السيد المادية .

هذا ؛ ويُصور انبعاث شجاعة الحواريين وإيمانهم الإبداعيين بعد فترة الخيبة والقنوط ، فى هيئة أفعال أسطورية ، وفى صورة نزول الروح القدس يوم عيد العنصرة .

وإذ تمكنا من تفهّم المعنى الحقيقى المراد بالاعتزال والعودة ؛ نصبح والحالة هذه ، فى مركز أنسب للقيام باستعراض تجريبى لمجال فعل المبدأ فى المحيط البشرى ؛ عن طريق تفاعل الشخصيات المبدعة والأقليات المبدعة ؛ مع رفاقها البشر .

وتطالعنا أمثلة تاريخية مشهورة لمجال فعل « الاعتزال والعودة » ، فى كثير من مراحل الحياة المختلفة . وسنجابهها فى حياة المتصوفة والقديسين والساسة والعسكريين والمؤرخين والفلاسفة والشعراء . كما سنجابهها فى تاريخ الأمم والدول والأديان .

ولقد عبّر والتر باجهوت عن الحقيقة التى تسعى إلى إماطة اللثام عنها ؛ عندما كتب :

« كانت جميع الأمم الكبرى تستعد سراً وعلى انفراد . . ولقد تألفت فى ظروف أبعد ما تكون كثيراً عن عوامل الارتباك »[1] .

وسنمر سراعاً بعرض لأمثلة مختلفة بادئين بالأفراد المُبدعين :

٢ – القديس بولس :

ولد بولس الطرسوسى يهودياً فى جيل كان هجوم الهلينية خلاله على المجتمع السورى ، يمثّل تحدياً لا يتأتى تفاديه .

عمل بولس فى المرحلة الأولى من سيرته على اضطهاد أتباع المسيح من اليهود الذين كانوا فى نظر اليهود المتعصبين ، يحدثون خرقاً فى صفوف الجماعة اليهودية .

Bagehot. Physics and Politics, 10th ed, p. 214 (١)

وحوّل بولس أوجه نشاطه فى الجزء التالى من سيرته إلى اتجاه مخالف تمام المخالفة ؛ قوامه التبشير بناموس جديد « حيث لا يوجد يونانى أو يهودى ، ختان وعدم ختان ، برابرة أو أسقوذيين ، رابطة أو تحرر »[١] . وكان يبشّر بهذه الروح المسالمة باسم الطائفة التى سبق له اضطهادها .

ويعتبر هذا الفصل الأخير ، فصل الإبداع فى سيرة بولس . أما الأول فقد كان بداية زائفة .

وتقع بين الفصلين هوة كبرى . فإن بولس بعد استنارته المفاجئة وهو على طريق دمشق ؛ لم يحادث « اللحم والدم »[٢] ، ولكنه توجّه إلى جزيرة العرب . ولم يزر أورشليم إلا بعـــد انقضاء ثلاثة أعوام ؛ وهناك قابل الحواريين الأصليين . فجعل هدفه متابعة النشاط العملى[٣] .

٣ — القديس بنديكت :

عاصرت حياة بنديكت النورسى[٤] (حوالى ٤٨٠ — ٥٤٣ ميلادية) العصر الذى جابه خلاله المجتمع الهلينى فترة « سكرات الموت » . وأرسل فى طفولته من وطنه الأمبرى[٥] إلى روما ليحصّل العلوم العقلية التقليدية للطبقة العليا . لكنه ثار على حياة العاصمة ، وانسحب إلى البيداء فى هذه السن المبكرة . وظل يعيش فى وحدة مطلقة طوال ثلاثة أعوام .

وتمثلت نقطة التحول فى حياته ، فى عودته إلى الحياة الاجتماعية وقتما بلغ مرحلة الرجولة ، لما أن ارتضى رئاسة جماعة رهبنة فى وادى سوبياكو Subiaco وبعدها فى مونت كاسينو Monte Cassino . وتميزت هذه المرحلة الأخيرة فى حياته بالابتداع . إذ ابتكر القديس بنديكت نوعاً جديداً من التعليم

---

(١) « رابطة » أى عبودية — « تحرر » أى حرية . (المترجم)

(٢) أى الناس .

(٣) Gallatians i 15—18

(٤) نسبة إلى نورسا . (المترجم)

(٥) نسبة إلى أومبريا فى وسط إيطاليا . (المترجم)

مكان نظام بطل استعماله ، كان هو نفسه قد نبذه إبان طفولته . وتفرعت عن جماعة البندكتيين فى مونت كاسينو بفضل هذا الاتجاه الثقافى الجديد ، عديد من الأديرة تزايدت وتضاعفت بمرور الأيام ، حتى بلغت التعاليم البندكتية أقصى جهات الغرب . وتعتبر هذه التعاليم فى الواقع ، إحدى القواعد الأساسية لكيان النظام الاجتماعى الجديد ، الذى شُيِّد فى النهاية فى المسيحية الغربية ، على أطلال النظام الهلينى القديم .

أول ما يطالعنا من المظاهر الهامة للتعاليم البندكتية ؛ الحض على العمل اليدوى ، ومعنى ذلك أولا وأخيراً ، العمل الزراعى فى الحقول . فكأن الحركة البندكتية تتجه بالنسبة للمستوى الاقتصادى إلى إحياء الزراعة . وكانت تلك الحركة ، أول محاولة ناجحة لإحياء الزراعة فى إيطاليا ، منذ أن حطمت حرب هانيبال الاقتصاد الريفى الإيطالى .

واستطاعت التعاليم البندكتية فعلا ، أن تحقق ما عجزت القوانين عن تحقيقه فى أيام الأخوين جراكوس[1] . لأنها نفذت لا باعتبارها أعمالا تصدر عن الدولة — أى من أعلى إلى أدنى — ولكن باعتبارها أعمالا تصدر عن الشعب ، أى من أدنى إلى أعلى . وتحقق ذلك الهدف بفضل استثارة الحافز الفردى ، بوساطة استغلال حماسه الدينى .

وبالإضافة إلى تحويل مجرى حياة إيطاليا الاقتصادية ، استطاع النظام البندكتى خلال القرون الوسطى بهذه الوثبة الروحية ، أن يدفع أتباعه الرواد إلى تنظيف الأرض من الغابات فى مناطق أوروبا ما وراء الألب ، وتجفيف المستنقعات ، وإنشاء الحقول والمراعى ؛ التى أقامها بعد ذلك فى أمريكا الشمالية ، رجال الأجمات من الفرنسيين والبريطانيين .

٤ — سانت جريجورى الكبير :

كان جريجورى يشغل منصب المحافظ فى مدينة روما ، عند ما ألقى

---

(١) Imperial allements, Oracchan Laws

نفسه بعد حوالى ثلاثين سنة من وفاة بندكت ، يجابه إنجاز عمل مستحيل . إذ كانت مدينة روما عام ٥٧٣ ميلادية تجابه محنة تشابه كثيراً نفس المحنة التى جابهت فيينا عام ١٩٢٠ ميلادية : مدينة كبيرة وصلت إلى ماهى عليه بفضل بقائها عدة قرون عاصمة إمبراطورية عظيمة ، ثم وجدت نفسها فجأة بعد ذلك فى عزلة عن أقاليمها السابقة . مجردة من وظائفها التاريخية ، وتُركت لحالها تعتمد على مواردها الخاصة .

وكان نطاق نفوذ روما وقتما تولى جريجورى ولايته ، قد انحصر تقريباً فى المساحة التى كانت تشغلها قبل ذلك بتسعة قرون مضت . أى قبل بدء كفاح الرومانيين مع الساميتيين Samnites ، للسيطرة على إيطاليا . مع فارق أنه بينما كانت تلك المساحة تعول سكان مدينة محلية صغيرة ، أصبح عليها أن تعول عاصمة طفيلية ضخمة .

ولا شبهة فى أن عجز النظام القديم عن علاج الأحوال التى طرأت ؛ كان فى ذهن القطب الرومانى الذى كان يشغل منصب المحافظ فى ذلك الوقت. ولقد كان لمحنة روما الأليمة اعتبارها عند جريجورى ، عندما انسحب تماماً من الحياة المدنية : بعد ذلك بسنتين .

لبث انسحاب جريجورى — كانسحاب بولس — ثلاثة أعوام . اعتزم فى نهايتها أن يباشر بشخصه ، المهمة التى أُمر فيما بعد بإجرائها ؛ وهى الخاصة بتحويل الإنجليز الوثنيين إلى مسيحيين . لكن البابا استدعاه إلى روما .

وهنا وفى غيرها من الوظائف الكنسية التى شغلها ومنها العرش البابوى نفسه (٥٩٠ — ٦٠٤ ميلادية) ؛ أنجز جريجورى ثلاث مهام عظيمة :

الأولى : إعادة تنظيم إدارة أملاك الكنيسة الرومانية فى إيطاليا وخارجها .

الثانية : المفاوضة لعقد تسوية بين السلطات الإمبراطورية فى إيطاليا ، والغزاة اللومبارديين .

الثالثة : وضع أسس إمبراطورية رومانية جديدة لتحل محل الإمبراطورية القديمة التي غدت أطلالا . إمبراطورية تشيّد بفضل حماس الهيئات التبشيرية لا باستخدام القوة الحربية . والتي أدت في النهاية إلى غزو عوالم جديدة لم تطأها قط قدم عسكرية رومانية ولم يحلم بها القياصرة وآل سيبيو[١] .

٥ ـ البوذا [٢] :

ولد سيد هارثا جوتاما بوذا في العالم الهندي ، إبان عصر اضطراباته . وعاش ليرى المدينة كابيلافاستو Capilavastu التي ينتسب إليها ، تنهب وعشيرته الساكيانيين يذبحون .

ويبدو أن الجمهوريات الأرستقراطية الصغيرة في العالم الهندي المبكر ، والتي كان مجتمع ساكيا جزءاً منها ، أخذت تنهار إبان جيل جوتاما لتقوم مقامها ملكيات أوتوقراطية على نطاق واسع . ولقد ولد جوتاما من مجتمع ساكيا الأرستقراطي ، في الوقت الذي كان النظام الأرستقراطي يجابه تحدى قوى اجتماعية جديدة . وتمثل دفع جوتاما الشخصي لهذا التحدي ، في هجرانه العالم الذي أصبح لا يرحب بالأرستقراطيين من عينة أسرته .

وظل جوتاما طيلة سبعة أعوام ، ينشد الاستنارة عن طريق الإفراط المتزايد في الزهد . ولم ينفذ الضياء إليه ، إلا بعد اتخاذه الخطوة الأولى في طريق العودة إلى العالم، بالتوقف عن الصوم . ولما حقق مرتبة الاستنارة لنفسه ، أمضى بقية عمره في إضفائها على رفاقه البشر .

---

(١) Scipios عائلة رومانية قديمة تقلد كثير من أفرادها مناصب رئيسية في روما القديمة وفي مقدمتهم سيبيو الإفريقي الذي استولى على قرطاجنة وهزم هانيبال . (المترجم)

(٢) تعني كلمة « بوذا » الإنسان المستنير . وأساس التعاليم البوذية فكرة مدارها أن السعادة والخلاص ينبعثان من الإنسان نفسه . وأن جميع المظاهر موقوتة . وتعتبر الحياة أس النقائص والحزن . ويعني البوذا بالخلاص : بلوغ حالة « النرفانا » ، أي حالة الاستنارة الخالدة أو الغبطة الكاملة . (المترجم)

ولكفالة إشعاع الاستنارة على رفاقه على صورة فعّالة ، سمح لجماعة من مريديه أن يتجمعوا حوله ، فأصبح والحالة هذه ، مركز تآخى المريدين ورئيسهم .

٦ ــ محمد[١]

ولد محمد فى نطاق البروليتاريا العربية الخارجية[٢] للإمبراطورية الرومانية فى عصر كانت العلاقات بين الإمبراطورية وبلاد العرب قادمة على أزمة . فى دوران القرنين السادس والسابع الميلاديين ، بلغ اقتحام التأثيرات الثقافية الواردة من الإمبراطورية لشبه الجزيرة العربية ، درجة الإشباع . فكان لا مناص من أن يترتب على ذلك انبعاث رد فعل شبه الجزيرة العربية على هيئة تولد طاقة مضادة تصد تلك التأثيرات الثقافية الدخيلة على بلاد العرب .

وكان على الرسالة المحمدية[٣] أن تقرر الشكل الذى يتخذه رد الفعل للتحرر من التأثيرات الهلينية . وكانت حركة الاعتزال والعودة[٤] بمثابة تمهيد لكل من الارتحالين الجديدين اللذين يتسمان بالدقة البالغة ، واللذين استند عليهما تاريخ حياة محمد بأسره .

وثمة مظهران فى التاريخ الاجتماعى للإمبراطورية الرومانيـــة فى عهد الرسالة المحمدية ، يضفيان تأثيراً عميقاً على عقل كل باحث فى الشؤون

---

(١) صلى الله عليه وسلم .

(٢) يقصد الأستاذ توينبى باصطلاح البروليتاريا الخارجية : العناصر الخارجة عن نطاق الدولة ، والتى تقيم فيما وراء حدودها ، ولا تخضع لسلطانها ، وتناجزها . فكان العرب يعتبرون ــ وفقا لهـــذا الاصطلاح ــ بروليتاريا خارجية ، بالنسبة للإمبراطوريتين الرومانية والفارسية . (المترجم)

(٣) عاش الرسول العربى الكريم بين عامى ٥٧٠ ــ ٦٣٢ ميلادية . (المؤلف)

(٤) حركة الاعتزال والعودة هنا فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، تتمثل فى انسحابه انسحابا جزئيا زهاء خمسة عشر عاما فى العمل فى التجارة وعودته إلى بيئته العربية . (المترجم)

العربية . ويجمع المظهرين انتفاء وجودهما فى الجزيرة العربية بوضوح تام قبل البعثة المحمدية :

الأول — انتفاء عنصر الوحدانية فى الفكرة الدينية .

الثانى — انتفاء القانون والنظام وهما دعامة كل حكومة .

ولقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته فى كفالة هذين المظهرين فى البيئة الاجتماعية العربية . وتم ذلك فعلا بفضل نظام الإسلام الشامل الذى ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً فى صورة عربية . فغدت للإسـلام بفضل ذلك ، قوة دافعة جبارة ، لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة ، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة ، واستولى على العالم السورى بأسره من سواحل الأطلسى إلى شواطئ السهب الأوراسى .

واستغرق هذا العمل الذى يبدو أن محمداً قد بدأه فى السنة الأربعين من عمره (حوالى ٦٠٩ ميلادية) ، مرحلتين :

الأولى — انصب اهتمامه خلالها على رسالته الدينية ؛ ولقد لبث قبل ذلك خمسة عشر عاماً يشتغل بتجارة القوافل بين الواحات العربية والموانى الصحراوية السورية للإمبراطورية الرومانية ، على طول مشارف السهب العربي الشمالى . ثم عاد فى سن الأربعين إلى إبلاغ رسالته الدينية .

واختتمت المرحلة الأولى بهجرته من واحة مكة مسقط رأسه إلى يثرب الواحة المنافسة لها[١] .

الثانية — وفيها غطت الشؤون[٢] السياسية على الرسالة الدينية بل حجبتها . والواقع يتخذ المسلمون من الهجرة مبدأ لتأريخ العصر الإسلامى .

---

(١) التى عرفت بعد ذلك باسم المدينة ، أى مدينة النبى . (المؤلف)

(٢) هذا الغطاء ظاهرى صرف . ففى المدينة تكونت الجماعة الإسلامية أى الأمة الإسلامية ، لأول مرة ، وفى المدينة بدأت سيرتها . (المترجم)

لأنهم يعتبرونها حدثاً حاسماً فى الإسلام . فإن محمداً قد غادر مكة هارباً مُطارداً ، ثم عاد إليها بعد سبع سنوات (٦٢٢ ــ ٩ ميلادية) ، لا باعتباره منفياً نال عفواً شاملا ، ولكنه عاد إلى مكة سيد نصف الجزيرة العربية .

٧ ــ ماكيافيللى

كان ماكيافيللى (١٤٦٩ ــ ١٥٢٧ ميلادية) مواطناً لفلورنسا . وكان فى الخامسة والعشرين ، وقتما عبر شارل الثامن ملك فرنسا الألب بجيش فرنسى اجتاح إيطاليا عام ١٤٩٤ .

ومن ثم انتمى ماكيافيللى إلى جيل ، بلغ بالكاد سناً تتيح له الاطلاع على أحوال إيطاليا فى عصر مناعتها من « الغزوات البربرية » . كذلك عاش ماكيافيللى فترة كافية ، هيأت له رؤية شبه الجزيرة الإيطالية ميداناً تختبر فيه قوتها ؛ جمهرة دول ما وراء الألب ، أو ما وراء البحار . تلك الدول التى وجدت ــ الفينة بعد الأخرى ــ فى اختطاف المدن الإيطالية من بعضها بعضاً ، جائزة أو رمزاً لانتصاراتها .

ويمثل هجوم الدول الغير الإيطالية على إيطاليا ؛ التحدى الذى التزم جيل ماكيافيللى بمجابهته ، والمحنة التى كان عليهم العيش فى ظلها . بيد أن المحنة كانت أشد مما يستطيع إيطاليو هذا الجيل مجابهته . إذ لم يسبق لهم أو لأجدادهم معاناة مثلها ، فى غضــون الجانب الأعظم من فترة القرنين ونصف قرن الماضية .

وأودعت الطبيعة فى ماكيافيللى ، كفاية سياسية بالغة حد الكمال . إذ امتاز بإقباله العجيب على استخدام مواهبه . ولقد جعلته المصادفة مواطناً لفلورنسا ، إحدى المدن الرئيسية فى شبه الجزيرة . وأهلته كفايته ليشغل عام ١٤٩٨ منصب سكرتير فى الحكومة ، بعد انقضاء أربعة أعوام من الغزو الفرنسى ؛ وكان وقتئذ فى التاسعة والعشرين . ومكنته مناصبه الرسمية من دراسة الدول « البربرية » الجديدة عن كثب .

وأصبح ماكيافيللى – على ما يُعتقد – بعد انقضاء أربعة عشر عاماً من هذه التجارب ، أكفأ الإيطاليين وقتذاك ، للمساهمة فى المهمة العاجلة الخاصة بمساعدة إيطاليا على الاهتداء إلى طريق « خلاصها » السياسى . إلا أن تحولا مفاجئاً فى عجلة شئون فلورنسا الداخلية ، قد ألقى به بعيداً عن ميدان نشاطه العملى . ففى سنة ١٥١٢ ، جرّد من منصب سكرتارية الدولة ، وكابد فى السنة التالية : السجن والتعذيب . وكان سعيد الحظ بالخروج حياً مرة أخرى . وكان عليه أن يدفع ثمناً لإطلاق سراحه من السجن ، إقامة دائمة بمزرعته بريف فلورنسا .

وتمثّل فى انهيار منهاج حياته التام ، تحـــدى رهيب لشخصه . إلا أن ماكيافيللى كان لحسن طالعه : من القوة بحيث استجاب للتحدى استجابة ناجحة مثمرة .

ففى كتاب بعث به إلى صديق وزميل قديم عقب لجوئه إلى الريف بقليل ، وصف بالتفصيل فى جزء منه ، يفيض بالدعابة ، طريقة الحياة التى اختطها لنفسه . فإنه يستيقظ مبكراً مع الشمس ، ويكرّس نفسه خلال ساعات النهار للالتزامات الاجتماعية والرياضية الكئيبة التى تتفق مع طريقة الحياة التى فُرضت عليه . بيد أن ذلك ليس نهاية يومه :

« عندما يأتى المساء ، أعود إلى المنزل وأتجه إلى مكتبى . وأخلع عند الباب ملابسى الريفية الملطخة بالطين ، وأرتدى لباس البلاط . فإذا تم تغيير ملابسى على تلك الصورة اللائقة ، أكون قد دخلت قصراً من القصور الريفية لرجال من الأيام الخوالى . وهناك يستقبلنى مضيفىّ بكل مظاهر التعطف ؛ وأنعم بذلك الطعام الذى هو وحده غذائى الحقيقى والذى ولدت له » .

فى هذه الساعات من الدراسة الأكاديمية والتأمل ، أمكن لمكيافيللى تصور كتاب الأمير وكتابته . ويكشف الفصل الأخير من رسالته المشهورة ، وعنوانه

« الترغيب فى تحرير إيطاليا من البرابرة » ، عن النية التى كانت تراود ذهن ماكيافيللى عند تناوله قلمه ليكتب . لقد كان يسائل نفسه المرة بعد المرة عن المشكلة الحيوية التى كانت تجابه السياسة الإيطالية المعاصرة ، على أمل أنه ربما — حتى فى حالته تلك — يوفق إلى حل تلك المشكلة ، بفضل تحويل الطاقات التى حرمت من منفذ عملى يقودها إلى فكرة إبداعية .

وإذا كان كتاب الأمير قد أخفق فى الحقيقة فى تحقيق هدف مؤلفه المباشر ، إلا أن هذا لا يعنى أن كتاب « الأمير » كان خسراناً على طول الخط . لأن هدف ماكيافيللى الرئيسى ، لم ينحصر فى استخدام الوسائل العلمية لمتابعة السياسات العملية . لأن انكباب ماكيافيللى على العمل وقتما ولج بخياله فى بيته الريفى القصى ، قصور العصر الماضى الريفية أمسية بعد أخرى ، قد هيأ له العودة إلى العالم على مستوى أكثر روحانية ؛ وكان تأثير هذه الروحانية على العالم ، أعظم بكثير جداً مما قد يتاح لسكرتير دولة فلورنسا أن يحققه لو كان قد انغمس فى دقائق السياسات العملية .

وعندما ارتفع ماكيافيللى فوق المدار الروحى ، وفق خلال ساعات التطهر السحرية هذه ؛ إلى تحويل طاقاته العملية ، إلى سلسلة من الأعمال الثقافية الرائعة : الأمير ، محادثات عن ليفى ، فن الحرب ، تاريخ فلورنسا .
وكانت تلك الأعمال بذور فلسفتنا السياسية الغربية .

٨ — دانتى :

هيأ تاريخ فلورنسا قبل ظهور ماكيافيللى بمائتى عام ؛ مثالا آخر شبيهاً له شبهاً عجيباً . لأن دانتى لم ينجز أروع أعماله ، إلا بعدما أجبر على الانسحاب عن مسقط رأسه .

وفى فلورنسا ، أحب دانتى بياتريس ؛ لكنها قضت نحبها وهى أمامه ، وما تزال فى عصمة رجل آخر . وفى فلورنسا اندمج فى شؤون السياسة ، لكنه نفى إلى مكان لم يعد منه أبداً .

لكن دانتي وإن خسر موطنه ، إلا أنه فاز بالعالم كله وطناً له . لأن العبقرى الذى أُمتحِن فى مبادئه السياسية بعدما أُمتحِن فى حبه ، أنجز فى منفاه « عمل العمر » فى كتابه « الكوميديا الإلهية » Divina Commedia :

(٣) الاعتزال والعودة

(الأقليات المبدعة)

١ ــ أثينا فى الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الهلينى :

يعتبر سلوك الأثينيين إبان الأزمة التى أبرزها للمجتمع الهلينى التحدى المالتسى[1] فى القرن الثامن قبل الميلاد ، مثالا شائعاً للاعتزال والعودة ؛ طالعنا فى ارتباطات أخرى .

بدا رد فعل أثينا فى بداية الأمر ، على مشكلة إفراط ازدياد السكان ؛ أى فى صورة سلبية فى الظاهر . لأنها لم تستجب للتحدى ، مثلما فعل كثير من جيرانها : بإقامة المستعمرات فيما وراء البحار ، أو ــ مثل الاسبرطيين ــ بالاستيلاء على أراضى المدن اليونانية المتاخمة وتحويل سكانها إلى أرقاء .

واستمرت أثينا تقوم خلال هذا العصر بدور سلبى فى ظاهره ، ما دام جيرانها يصدفون عن التدخل فى شؤونها . فلما أن حاول كلومينيس الأول Cleomenes ملك اسبرطة أن يُخضعها للزعامة اللاسيدامونية Lacedaemonian[2] ، انبعثت أول بادرة لطاقة أثينا الماردة الكامنة ، فى صورة رد فعل عنيف أبرزته تجاه هــذه المحاولة . وأن أثينا بإظهارها رد الفعل

(١) يقصد المؤلف بهذا الاصطلاح سريان قانون مالتس على بلاد اليونان . ومؤداه تزايد السكان بسرعة تفوق تزايد الإنتاج . فالسكان يتزايدون بنسبة متوالية هندسية (١ ــ ٢ ــ ٤ ــ ٨ ــ ١٦ . . . الخ) بينما تتزايد الموارد على أساس متوالية حسابية (١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ ــ ٥ ــ ٦ . . . الخ) الأمر الذى يسبب الفقر والمجاعة . (المترجم)

(١) نسبة إلى Lacedaemon وهى الإقليم الذى كانت مدينة إسبرطه عاصمته ، مثلما كانت أثينا عاصمة آتيكا . (المترجم)

القوى ضد لاسيدامون ، مع عزوفها فى نفس الوقت عن المشاركة فى حركة الاستعمار ؛ قد عزلت نفسها متعمدة — إلى حد ما — نيفا ومائتى سنة عن بقية العالم الهلينى .

بيد أن أثينا لم تركن للخمول طوال هذين القرنين . فإنها على العكس ، اغتنمت فرصة هذا الاعتزال الطويل الأمد ، لتركز جهودها لحل المشكلة الهلينية العامة ؛ بوساطة ابتكار حل طريف لمشكلاتها الخاصة . حل أثينى أثبتت الحوادث تفوق صلاحيته فى كل وقت ، عندما أخذ الحل القائم على إنشاء المستعمرات والحل الاسبرطى ، يجودان بحصيلة تتناقص تناقصاً مستمراً . ولم تعد أثينا فى نهاية الأمر إلى ميدان مشاركة العالم الهلينى ، إلا وقتما أعادت تكييف نظمها التقليدية ، لتتناسب مع أسلوب حياتها الجديد . وتمت العودة فى عصرها الزاهر . على أنها لما عادت ، عادت يصحبها دافع لا نظير له فى التاريخ الهلينى .

فلقد أعلنت أثينا عن عودتها بأسلوب مثير ، مبناه طلبها الإمبراطورية الفارسية للنزال . فإن أثينا ، وليست إسبرطة التى ترددت ؛ هى التى استجابت عام ٤٩٩ ق . م . لنداء اليونانيين الأسيويين الثائرين .

واحتفظت أثينا بزعامتها منذ هذا التاريخ وما بعده ، طوال حرب الخمسين سنة بين هيلاس والإمبراطورية السورية العالمية . وكان دور أثينا فى التاريخ الهلينى ، طوال قرنين من مستهل القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ، يناقض تماماً الدور الذى طفقت تؤديه قبل ذلك ، طوال فترة تعادل هـــذه المدة تقريباً . وكانت أثينا خلال الفترة الثانية ، فى معمعان التطاحن السياسى للمدن الهلينية .

ولم تتخل أثينا — رغماً عنها — عن صفة الدولة الهلينية الكبيرة ، وعن أعبائها . إلى أن ألفت نفسها متخلفة تخلفاً ميئوساً منه ، عن الجبابرة الذين انبثقوا عن مغامرة الإسكندر فى الشرق .

ولم يكن انسحاب أثينا بعد غلبة المقدونيين لها عام ٢٦٢ ق . م ؛ نهاية مشاركتها الفعالة فى التاريخ الهليني . فإنها جعلت من نفسها فى كل ميدان آخر ، قبل تخلفها فى السباق الحربى والسياسى بأمد طويل ؛ « معلمة هيلاس » وتم ذالك ، بإضفائها على الثقافة الهلينية ، طابعاً آتيكياً خالداً ما تزال تحتفظ به فى أعين الأجيال التالية .

٢ — إيطاليا فى الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الغربى :

لاحظنا وقت كلامنا عن ماكيافيللى ؛ أن إيطاليا قد نجحت فى عزل نفسها عن أوروبا ما وراء الألب النصف الهمجية والإقطاعية المضطربة ، خــلال فترة تنيف على القرنين ، تقع بين تدمير هوهنستوفين (Hohenstanfan)[1] فى منتصف القرن الثالث عشر ؛ والغزو الفرنسى فى نهاية القرن الخامس عشر .

ولم تكن المآثر الكبرى للعبقرية الإيطالية فى غضون هذين القرنين ونصف القرن من الانعزال ؛ ذات طابع انتشارى ، لكنها ظهرت على صورة محدودة غزيرة ؛ ليست مادية لكنها روحانية . وتمثلت تلك الصورة فى البناء والنحت والتصوير ، وفى الأدب والثقافة . وحقق الإيطاليون فى هذه الميادين أعمالا خلاقة ، تحمل بين ثناياها مشابهة لمآثر اليونانيين خلال نفس الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

وحقاً التمس الإيطاليون الوحى من العبقرية اليونانية القديمة ، بفضل بعثهم إلى الحياة روح الثقافة الهلينية المندرسة . وتطلعوا إلى المأثرة اليونانية ، كشىء مطلق يُحتذى قياساً ؛ مأثورا يحاكى ، لكنه لا يُعلى

---

(١) Hohenstaufen بيت من الأمراء الألمان . كان أعضاؤه أباطرة أو ملوكا ألمانا خلال الفترة ١١٣٨ — ١٢٥٤ ، وأول ملوكه فردريك فون بوربن الذى مات فى نهاية القرن الحادى عشر . (المترجم)

عليه . وأقمنا نحن على أثر خطواتهم ، نظاماً للتثقيف المأثور[1] لم يتخل عن مكانه أمام مطالب الأساليب الفنية الحديثة ، إلا مؤخراً .

وصفوة القول ، استغل الإيطاليون بشق الأنفس المناعة التى استخلصوها من السيطرة الأجنبية . ومكنتهم تلك العزلة المضطربة ، من أن يبتدعوا داخل شبه جزيرتهم ، عالما إيطالياً ارتفعت الحضارة الغربية فى نطاقه إلى مستوى النضوج المبكر ، إلى مقام أصبح معه الاختلاف فى الدرجة ، يتساوى مع الاختلاف فى النوع .

ولقد أحس الإيطاليون فى نهاية القرن الخامس عشر ، أنهم أسمى كثيراً من الشعوب الغربية الأخرى ، بحيث أنهم عادوا إلى استخدام اصطلاح « البرابرة » ليصفوا به الشعوب التى تقع فيما وراء الألب وعلى طول البحر التيرانى . ولكن لم يلبث هؤلاء البرابرة المحدثون إلا قليلا ، حتى شرعوا يدللون فى تصرفاتهم على أنهم أعظم حكمة سياسية وعسكرية من الإيطاليين أبناء المعرفة .

وكلما تألقت الثقافة الإيطالية الجديدة خارج شبه الجزيرة فى جميع الاتجاهات ، كلما عجل انتشارها بالارتقاء الثقافى للشعوب التى حولها . سيما ما يتصل بالعناصر الثقافية ذات الصفة الجماعية ، مثل التنظيم السياسى والأسلوب الفنى الحربى . وفى تلك العناصر الجماعية ؛ يلمس الناس دائماً ، سرعة تأثير الإشعاع . وعندما امتلك البرابرة زمام هذه الفنون الإيطالية ؛ أمكنهم أن يطبقوها على نطاق أوسع مدى ، مما طبقته المدن الإيطالية .

ويمكن تفسير توفيق « البرابرة » فى إنجاز قدر من التنظيم ألفاه الإيطاليون بعيداً عن متناولهم ؛ إلى حقيقة مبناها أن « البرابرة »

---

(١) يقصد هنا اتخاذ الدراسات اللاتينية اليونانية أساسا للتعليم فى غرب أوروبا .
(المترجم)

يطبقون الدروس التى تعلموها من الإيطاليين على أحوال أيسر كثيراً من الأحوال التى اكتنفت الإيطاليين . إذ كان الساسة الإيطاليون مقيدين ؛ بينما يمتاز ساسة « البرابرة » بحرية العمل ، بفضل تطبيق مبدأ « التوازن الدولى » ؛ وهو أحد القوانين التى ابتكرها الفكر الإيطالى .

والتوازن الدولى ؛ عبارة عن نظام للحركة السياسية ، يبرز إلى الميدان ، وقتما يتكوّن المجتمع من عدد من الدول المحلية المستقلة عن بعضها . وكان المجتمع الإيطالى الذى ميز نفسه عن بقية المسيحية الغربية ، قد تكوّن فى نفس الوقت على هذا النحو .

وتيسر تنفيذ حركة انتشال إيطاليا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بفضل وجود ذلك الحشد من المدن التى سعى كل منها أن يحقق لنفسه حق تقرير المصير ، فى صورة موضعية . وبالأحرى ؛ يعتبر إنشاء عالم إيطالى منفصل ، وترابط أجزاء هذا العالم بعضها ببعض داخل نطاق كثرة من الدول ؛ يعتبر هذا أهم أحداث العصر .

ويسرى فعل مبدأ توازن القوى فى مثل هذا العالم بطريقة عامة ؛ مؤداها الاحتفاظ بحد معين بالنسبة لمظاهر القوة السياسية القياسية فى ذلك العصر — المساحة والسكان والثروة — تلتزم به الدولة . فإذا تجاوزته تعرضت تعرضاً آلياً فى غالب الأحيان ، إلى دفع الدول الأخرى لها ، للبقاء فى مكانها . ويبلغ هذا الضغط أقصى مداه ، فى مركز مجموعة الدول المعنية بأمر التوازن ، ويصل إلى أضعف حالاته عند السطح .

ومن ثم ؛ فإذا قامت دولة عند المركز بأية حركة ترمى إلى تعظيم شأنها ؛ لن تقف الأخرى إزاء تلك الحركة ساكنة ، بل تراقبها فى حسد وتعدّ عليها خطواتها فى دقة . ويتطور الحال حتى تصبح مسألة الاستيلاء على مساحة قليلة من الأميال المربعة ، موضوع منازعات عاتية . وعلى العكس تخفّ حدة المنافسة على السطح ؛ وإن من شأن بذل جهود صغيرة ، تحقيق جهود كبيرة .

ومصداقاً لذلك فى مكنة الولايات المتحدة أن تمتد فى سهولة ويسر من الأطلسى إلى الهادى ، كما تستطيع روسيا أن تتسع من البلطيق إلى الهادى . على حين أن جميع جهود فرنسا أو ألمانيا ، لن تكفى لكفالة الاستحواز على الألزاس أو بوسن Posen .

فما هى نظرة روسيا والولايات المتحدة فى الوقت الحاضر إلى دول أوروبا الغربية القديمة المزدحمة ، تلك الدول التى اصطبغت بالصبغة الإيطالية فيما مضى ؛ فإن فرنسا مثلا قد اصطبغت بصبغة سياسية إيطالية بفضل لويس الخامس عشر ، وأسبانيا بفضل فرديناند الأراجونى ، وإنجلترا بفضل آل تيودور الأوائل ؟

إن نظرة روسيا والولايات المتحدة إلى تلك الدول ، هى كنظرة تلك الدول منذ أربعمائة سنة إلى المدن الإيطالية .

وإذا قارنا الانسحاب الأثينى بالانسحاب الإيطالى ؛ لبدت لنا مشابهة قوية بين الانسحاب الأثينى خلال القرون الثامنة والسابعة والسادسة قبل الميلاد ، والانسحاب الإيطالى إبان القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادية . إذ كان الانسحاب فى كلتا الحالتين تاماً على المستوى السياسى ؛ ويتسم بالثبات . وكرّست الأقلية المنعزلة انعزالا ذاتياً ، قواها فى كلتا الحالتين ، للاهتداء إلى مشكلة تواجه المجتمع بأسره . ولما اكتمل الوقت وتحقق عمل الخلق ، تمت عودة الأقلية المبدعة فى كلا الحالين ، إلى الجماعة التى كانت قد فارقتها بصفة موقوتة . وأخذت تلك الأقلية ، تضفى طابعها على الكيان الاجتماعى للجماعة بأسره .

وبالإضافة إلى ذلك ، تماثلت كثير من المشكلات التى قامت أثينا وإيطاليا بحلها فى غضون فترة انسحابهما :

فلقد كان وضع لومباردى وتوسكانى فى المسيحية الغربية ، كوضع آتيكا فى هيلاس . إذ كانتا بمثابة معمل اجتماعى منعزل ، أجريت فيه

بنجاح ، تجربة تحويل مجتمع محلى زراعى يتمتع بالاستكفاء الذاتى ، إلى مجتمع صناعى وتجارى ذى طابع دولى يستند على العالم الخارجى .

وبالنسبة لإيطاليا كما بالنسبة لأثينا ، كانت ثمة عملية إعادة تكييف النظم ، لجعلها متفقة مع طراز الحياة الجديد :

أولا : عمدت أثينا إلى تعديل نظمها بعد غلبة الطابع الصناعى والتجارى على حياتها . فتحولت – على المستوى السياسى – من نظام أرستقراطى يقوم على المنبت ، إلى نظام بورجوازى يستند على الملكية .

ثانياً : أما بالنسبة لإيطاليا ؛ فإنه لما غلب الطابع الصناعى والتجارى كذلك على المدن فيها مثل ميلانو وبولونيا وفلورنسا ومسينا ؛ عادلت عن نظام الإقطاع السائد فى المسيحية الغربية ، إلى نظام جديد يقوم على العلاقات المباشرة بين المواطنين الأفراد والحكومات المحلية صاحبة السيادة ، التى تستقر سيادتها فى المواطنين أنفسهم . ولقد نقلت إيطاليا هذه الابتكارات الاقتصادية والسياسية المميزة ؛ إلى أوربا ما وراء الألب . كما نقلت إليها بدائع العبقرية الإيطالية الشبيهة بالأطياف[1] منذ ختام القرن الخامس عشر وما تلاه .

بيد أن خطوط سير التاريخين الغربى والهلينى ، تتباين بعد ذلك فى نقطة واحدة أساسية ؛ مدارها مكان المدن الإيطالية فى المسيحية الغربية ، وموضع أثينا من هيلاس . إذ كانت أثينا مدينة ترجع إلى عالم من المدن ؛ بينما لم يكن طراز المدينة الذى صيغ العالم الإيطالى على غراره فى غضون القرون الوسطى ، هو أساس الترابط الاجتماعى للمسيحية الغربية ؛ بل كان الإقطاع هو محوره الأصلى . ولقد كان الجانب الأعظم من المسيحية الغربية ما يزال منظما على أساس إقطاعى عند ختام القرن الخامس عشر ، وقتما أعيد استيعاب المدن الإيطالية داخل الكيان الرئيسى للمجتمع الغربى .

---

(١) لا تدرك باللمس ولا وزن لها . (المترجم)

ولقد برزت عن سعى أوروبا ما وراء الألب لتطبيق الابتكارات الاجتماعية الجديدة التى قدمتها لها إيطاليا ، مشكلة كان يتأتى حلها من الوجهة النظرية باستخدام إحدى هاتين الوسيلتين :

الأولى : أن تقطع صلتها بماضيها الإقطاعى ، وتُعيد الترابط بين مختلف أجزائها ، على أساس نظام المدينة السائد فى إيطاليا فى ذلك الوقت .

الثانية : أن تحوّر الابتكارات الإيطالية بطريقة تجعلها صالحة للعمل : وذلك باللجوء إلى تطبيق النظام الإقطاعى وما يناظره فى المرتبة : نظام الدولة الملكية .

وإنه وإن أمكن لنظام المدينـــة تحقيق قدر جوهرى من النجاح فى سويسرا وفرانكونيا[١] والأراضى المنخفضة[٢] وفى السهل الألمانى الشمالى حيث كانت مدن عصبة الهانسا هى المراكز الرئيسية التى تسيطر على المسالك البرية والبحرية ، إلا أنه عجز عن أن يصبح أساس الحل الذى طبّق فيما وراء الألب بصفة عامة .

وهذا يقودنا إلى فصل آخر من التاريخ الغربى ، وإلى مظهر آخر يشابه ما تقدم فى أهميته ونفعه لقاعدة « الاعتزال والعودة » .

٣ ــ انجلترا فى الفصل الثالث من تقدم المجتمع الغربى :

انحصرت المشكلة التى واجهها المجتمع الغربى فى كيفية التحوّل من أسلوب للحياة زراعى الاتجاه ، أرستقراطى النزعة ؛ إلى طريقة للحياة أساسها الصناعة ، ديمقراطية الطابع . مع العدول عن تطبيق نظام المدينة .

شغل هذا التحدى ، أذهان سويسرا وهولندا وانجلترا . وانجلى التفكير أخيراً عن حل انجليزى الطابع . ولقد أضفت البيئة الجغرافية على هذه البلاد

---

(١) اسم قديم لإحدى القبائل الجرمانية (المترجم)

(٢) هولندا (المترجم)

الثلاثة نوعاً من الميزة ، يتمثل فى انسحابها من حياة أوروبا العامة . وهى عزلة ترتد إلى الجبال بالنسبة لسويسرا ، وإلى السدود بالنسبة لهولندا ، وإلى المانش[1] بالنسبة لانجلترا .

فأمكن السويسريون التغلب بنجاح على أزمة عالم المدينة - تلك الأزمة التى طرأت على حياة أوروبا السياسية فى أواخر القرون الوسطى - بفضل إقامة شكل من الحكومة الاتحادية . واحتفظوا باستقلالهم ضد آل هابسبرج أولا ، ثم ضد دولة بورجونديا .

وشيّد الهولنديون استقلالهم ضد أسبانيا ، وتجمعوا فى اتحاد يضم سبعة أقاليم .

وشُفى الإنجليز من طموحهم لاستعادة ممتلكاتهم فى القارة ، بسبب إخفاقهم النهائى فى حرب المائة عام . كما أنهم - مثل الهولنديين - صدوا فى عصر اليزابث الأولى - تعدّى أسبانيا الكاثوليكية . واعتنقوا دون أية مناقشة منذ ذلك التاريخ حتى حرب ١٩١٤ - ١٨ ، مبدأ تفادى تعقيدات القارة ؛ وجعلوه هدفاً من الأهداف الأساسية والدائمة لسياسة بريطانيا الخارجية .

بيد أن هذه الأقليات الخاصة الثلاث لم تتماثل بالنسبة لوضع سياستها المشتركة عن الانعزال ، موضع التنفيذ . فإن الجبال السويسرية والسدود الهولندية ، كانت أضعف من بحر المانش تجاه الغزو الخارجى . فنجد الهولنديين لم يفيقوا أبدا من صدمة حروبهم مع لويس الرابع عشر . وابتلعت وقتاً ما إمبراطورية نابليون هولندا وسويسرا .

وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ عجز السويسريون والهولنديون عن العثور على حل للمشكلة التى تاقوا إلى حلها ؛ وهى الاهتداء إلى طريقة للحياة تقوم على

(١) يفصل بحر المانش إنجلترا عن بقية القارة الأوروبية ، فصلا له أثره فى سياسة انجلترا ، وجعل لهذه البلاد طابعا خاصا يميزها عن بقية أوروبا . (المترجم)

أساس صناعي ديمقراطي ، بدون تطبيق نظام المدينة . ويرد عجزهم إلى أن سويسرا وهولندا لم تكونا دولتين قوميتين تحكمان حكماً مركزياً ، لكنهما مجرد مجموعتين من المقاطعات والمدن المتحدة اتحاداً واهناً . ومن ثم وقع على كاهل انجلترا — وعلى المملكة المتحدة الإنجليزية الاسكتلندية بعد اتحاد عام ١٧٠٧ — القيام بدور قيادة المسيحية الغربية فى الفصل الثالث من تاريخها ، وهو الدور الذى قامت به إيطاليا فى فصله الثانى .

وجدير بالملاحظة ، أن إيطاليا نفسها ، كانت قد شرعت فعلا فى الاهتداء إلى معالم الطريق الخاص باجتياز حدود المدن . ومصداقاً لذلك هبط بفضل أعمال الغزو عدد المدن المستقلة عند نهاية فترة الانعزال ، من حوالى السبعين أو الثمانين مدينة ، إلى ثمانية أو عشرة اتحادات مدن .

بيد أن النتيجة كانت قاصرة لسببين :

الأول : كانت الوحدات السياسية الإيطالية الجديدة أضعف من أن تتماسك تجاه غزوات البرابرة ، رغماً عن ضخامتها ؛ بالقياس لما كانت عليه المدن فيما سلف .

الثانى : اتسم شكل الحكم الذى طبقته هذه الوحدات الكبيرة ، بالطغيان ؛ وضاعت فى غمار عملية التوحيد المزية السياسية لنظام المدينة .

وهذا النظام الاستبدادى الإيطالى ؛ هو نفسه الذى ألفى الجو مهيئاً لتطبيقه فى الوحدات السياسية الكبيرة عبر الألب ، بعد وصولها إليها . فطبقته هابسبرج فى اسبانيا ، وأسرتا فالوا وبوربون فى فرنسا . وأخذت به مرة أخرى أسرة هابسبرج فى النمسا . ثم اعتنقته فى النهاية أسرة هوهنزلرن فى بروسيا .

بيد أن هذا الأسلوب الدافع للتقدم ، قد أثبت عقمه . إذ كان عسيراً على البلاد الواقعة وراء الألب ، أن تُبارى ما أنجزته إيطاليا فى الميدان الاقتصادى المتصل بالارتقاء من الزراعة إلى التجارة والصناعة . وهو ما لم تنجزه إيطاليا فى ظل المد الإيطالى ؛ إلا بفضل تحقيق نوع ما من الديمقراطية السياسية ،

ولقد كانت استطالة الملكية الأوتوقراطية فى انجلترا – عكس فرنسا واسبانيا – تحديا استثارا ستجابة فعّالة . وكان قوام الاستجابة الإنجليزية ، تنسّم حياة جديدة ، واستجلاب وظائف جديدة إلى الدستور التقليدى للكيان السياسى لبلاد ما وراء الألب . – هذا الكيان الذى يعتبر تراثاً إنجليزياً كما هو فرنسى واسبانى ؛ انحدر من ماضى المسيحية الغربية المشترك . إذ كان من النظم المألوفة للبلاد الواقعة وراء الألب ، عقد اجتماعات دورية أو مؤتمر بين الملك وطبقات الأمة ، تحقيقاً لغاية مزدوجة مدارها : التنفيس عن النفس ؛ بإبداء الشكاوى ، والموافقة على حصول الملك من طبقات الأمة على قدر من المال لتأدية عمل نبيل ، يهدف إلى إنصاف أصحاب الشكاوى الحقة .

ولقد اكتشفت الممالك الواقعة وراء الألب فى غضون تطور هذا النظام تدريجياً ؛ كيفية التغلب على صعوباتها المادية الخاصة ، كمشكلة السكان الغير الخاضعين للإدارة المركزية ، ومشكلة وعورة أنحاء البلاد ؛ بفضل ابتكار الحيلة القانونية التى تقوم عليها فكرة « النيابة البرلمانية » . وبمقتضاه أصبح لكل فرد له مصلحة فى العمل الذى يتولاه البرلمان ، أن يشترك بشخصه فى إجراءاته . وهذا ما يتأتى تطبيقه تطبيقاً كاملا فى المدينة ، لكن يتعذر تنفيذه فى هذه الممالك الإقطاعية الضخمة ، الأمر الذى دفع إلى نشوء النيابة بطريق الوكالة . وأصبح على الوكيل واجب الرحيل إلى مكانى انعقاد جلسات البرلمان .

وأثبت هذا النظام الإقطاعى القائم على التمثيل النيابى والجمعية الاستشارية ، صلاحيته التامة للغاية الأصلية لقيامه ، باعتباره حلقة اتصال بين الملك ورعاياه . إلا أن النظام لم يكن جديراً بالاضطلاع بمهام الملك نفسه ، والحلول محله باعتبار الملك قطب الرحى فى السلطة السياسية . وهذا ما اضطلع به النظام البرلمانى الإنجليزى بنجاح إبان القرن السابع عشر .

فما هو سبب إمساك إنجلترا بزمام تحد ، عجزت أية مملكة أخرى من الممالك

الواقعة وراء الألب ، عن أن تكون أهلا لمواجهته ، مثلما فعلت إنجلترا ؟

يكمُن الرد على هذا السؤال ، فى حقيقة مبناها أن إنجلترا قد سبقت جيرانها بكثير ، فى أن تكوّن لنفسها ذاتية وطنية مستقلة استقلالا حقيقياً ، متميزة عن الكيان الإقطاعى ؛ بفضل تمتعها بحدود معينة تعييناً دقيقاً ، ولأنها أصغر ممالك القارة الإقطاعية . كما أنه فى ظل حكام أقوياء كوليم الفاتح وهنرى الأول والثانى وادوارد الأول والثالث ، تماسكت إنجلترا فى وحدة وطنية ، قبل أن تحقق فرنسا أو ألمانيا ما يماثلها بزمن طويل . وفعلا لم يحظ بمثل هذا السلطان المتزمّت ، حاكم دولة أخرى خلال الفصل الثانى من تاريخ المسيحية الغربية .

بيـــد أن استفحال سلطان النظام الملكى ، يسرّ للحكومة البرلمانية الحد من قوته خلال الفصل الثالث من تاريخ المسيحية الغربية . وليس فى قولنا هذا تناقض مطلق .

وثمة عامل آخر عاون على إبراز النتيجة السالفة الذكر ، ألا وهو عظم شأن لندن . إذ لم يوجد فى أية مملكة أخرى تقع وراء الألب ، مدينة حجبت بمفردها جميع المدن الأخرى تماماً ، كما فعلت لندن . ففى نهاية القرن السابع عشر ــ وقتما لم يكن سكان انجلترا شيئاً مذكوراً بالقياس إلى تعداد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وكانوا أقل عدداً من سكان أسبانيا أو إيطاليا ؛ كانت لندن أضخم مدن أوروبا من كافة الوجوه . وحقاً يستطيع المرء أن يؤكد أن انجلترا قد نجحت فى حل مشكلة المواءمة بين نظام المدينة الإيطالى والحياة العامة على نطاق قومى . ويرد ذلك إلى أن انجلترا ــ أكثر من أية أمة أخرى تقع وراء الألب ــ قد استكملت بالفعل ، شيئاً من التماسك والإحساس الذاتى بأنها دولة مدينة واسعة الأرجاء ، بفضل صغر حجمها وتعيين تخومها ، وملوكها الأقوياء ، وسيطرة مدينتها الكبرى الوحيدة .

على أنه حتى مع تجاوزنا التام عن هذه الملابسات الملائمة ؛ فإن ما حققه ...

الإنجليز من صب الخمر الجديدة[1] فى زجاجات ما وراء الألب[2] ، مع مراعاة عدم انفجار هذه الزجاجات ؛ يعتبر هذا نصراً دستورياً يرقى إلى مرتبة العمل الفذ الرائع . ولقد قام الإنجليز – ويعتبرون أقلية مبدعة فى المجتمع الغربى – بنقل المبادئ البرلمانية عبر البرزخ الذى يفصل ؛ بين مجرد نقد الحكومة ؛ وبين قيامها بمهمتها . وهى مأثرة دستورية إنجليزية فريدة .

ولقد أمكن الأقلية الإنجليزية تحقيق ذلك ، إبان المرحلة الأولى لانسحابها من أحابيل القارة . وهى فترة تشمل عصر البزابيث والجانب الأعظم من القرن السابع عشر .

ولما استجاب الإنجليز لتحدى لويس الرابع عشر ، وعادوا إلى ميدان القارة عودة جزئية وموقوتة تحت زعامة مارلبورو Marlborough الممتازة ؛ أخذت شعوب القارة ترقب ما يقوم به سكان الجزيرة البريطانيين . ومن ثم انطلق عصر التشبه بالانجليز[3] ، كما يحلو للفرنسيين تسميته فى بعض الأحيان . ولقد مدح مونتسكيو ما حققه الإنجليز ، وإن أساء فهمه . وتمثلت محاكاة القارة للانجليز ، فى اعتناق عقيدة الملكية الدستورية التى كانت إحدى فتائل البارود التى أشعلت الثورة الفرنسية . ومن المسائل المعروفة ، أنه لما انقضى القرن التاسع عشر إلى العشرين ، استولى على شعوب العالم طموح كساء عريها السياسى بأوراق التين البرلمانية[4] .

ولا شبهة فى تطابق تقديس النظم الإنجليزية الذى ذاع فى نهاية الفصل

---

(١) أى الكفاية الادارية الإيطالية . (المترجم)

(٢) أى نظم القرون الوسطى البرلمانية فى تلك البلاد . والاستعارة مستقاة من قول السيد المسيح عليه السلام وارد فى إنجيل متى « بل يجعلون خمرا جديدة فى زقاق جديدة فتحفظ جميعاً » . (المترجم)

(٣) Anglomanie

(٤) هذا التشبيه مستق من قصة آدم وحواء فى التوراة . فإن حواء بعد ارتكاب المعصية كست عورتها بأوراق التين . (المترجم)

الثالث الأخير من التاريخ الأوربى ، مع تقديس الثقافة الإيطالية إبان النهاية الأخيرة للطور الثانى ، عند دوران القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وتصور مدى تقديس الثقافة الإيطالية جلاء ، حقيقة مؤداها أن ثلاثة أرباع مسرحيات شكسبير التصورية ، تقوم على أقاصيص إيطالية . وحقاً فإن شكسبير يلمّح إلى هذه النزعة نحو التأثر بإيطاليا ، ويعرّض بها فى الوقت نفسه . وهى النزعة التى تصورها الأقاصيص التى اختارها . فإن دوق يورك العجوز الجليل ، يدفع إلى القول بأن الملك الصغير الطائش يقوده إلى الضلال !

ثبتت من الأساليب فى إيطاليا الفخورة
التى ما تزال طرائقها ، أمتنا المقلّدة المتراخية
تعرج وراء تقليدها تقليداً أعمى[1]

ولقد أتاح الابتكار الإنجليزى السياسى المتمثل فى الحكومة البرلمانية ، وضعاً اجتماعياً يناسب الابتكار الإنجليزى التالى الخاص بالاتجاه الصناعى . فإن « الديمقراطية » بمعنى نظام حكومى تصبح فيه السلطة التنفيذية مسئولة أمام برلمان يمثل الشعب ، والاتجاه الصناعى بمعنى أنه نظام يتضمن الإنتاج الآلى بأيدى تتجمع فى المصانع ، هما النظامان المسيطران فى عصرنا . ولقد قدّر لها أن يسودا العالم ، بما يتيحانه من خبرة الحلول التى أمكن للمجتمع الغربى العثور عليها ، لمشكلة تحوير مأثرة ثقافة المدينة الإيطالية السياسية والاقتصادية ، من المدينة إلى مجال الدولة الملكية . ولقد تحقق كلا هذين الحلين فى إنجلترا ، إبان العصر الذى أطلق عليه ساستها فى العصر التالى « العزلة الباهرة » .

---

(١) Shakespeare : Richard the Second, Act I, Sc. II 21—3

(٢) تشوسر Chaucer شاعر انجليزى ولد عام ١٣٤٠ وتوفى عام ١٤٠٠ ميلادية . وقد تأثر بالأعمال الأدبية الفرنسية والإيطالية والأولى بصفة خاصة . وقد خلف ثروة كبيرة من القصص والدواوين الشعرية . (المترجم)

٤ – ما هو دور روسيا فى تاريخنا الغربى ؟

هل يتأتى فى التاريخ المعاصر للمجتمع الكبير الذى اتسعت داخله المسيحية الغربية ، أن تميز مرة أخرى أعراضاً لتلك النزعة الخاصة بأحد العصور ؛ وهى نزعة تميل إلى رجحانها داخل نطاق العصر التالى ؟

وهل ثمة ما ينبى عن أن قسماً من مجتمع كامل ، يتولى بمفرده حل مشكلة المستقبل ، فى حين تظل بقية المجتمع منهمكة فى تعقيدات الماضى ؟

وهل يعنى هذا كله ، أن عملية الارتقاء ما برحت متصلة ؟

نميز فى عصرنا هذا نوعين جديدين من التحدى ما برحنا نتعرض لهما ، وكلاهما ناجم عن فوز الديمقراطية والاتجاه الصناعى . ونخص بالذكر ؛ النظام الاقتصادى القائم على الصناعة ، الذى يعنى التخصص فى إنتاج سلع عظيمة التكاليف وتتطلب قدراً كبيراً من الحذق لتصديرها إلى الأسواق العالمية . وهذا يتطلب بدوره ، توفير قسط من الأمن الدولى ؛ باعتباره إطار هذا النظام الاقتصادى الصناعى .

وعلى أية حال ؛ يفرض الاتجاه الصناعى والديمقراطية كلاهما على البشرية بصفة عامة ؛ قسطاً من ضبط النفس والتسامح المتبادل والتعاون فى الشؤون العامة ، أعظم مما يستطيع الإنسان الاجتماعى الإتيان به . لأن هذين النظامين الحديثين ، قد بثّا فى جميع الأفعال البشرية الاجتماعية ، قوة دافعة لم يسبق لها مثيل . ومن المعروف بصفة عامة – مثلا – أن الأوضاع الاجتماعية التى نجد أنفسنا فى خضمها ، تجعل استمرار حضارتنا متوقفاً على عامل التخلى عن فكرة الحرب كطريقة لتسوية اختلافاتنا . . على أننا نعنى هنا بملاحظة فيما إذا كان هذان التحديان سيسفران عن أمثلة طريفة لاعتزال تتبعه رجعة .

إن الحكم على فصل من التاريخ وهو ما يزال فى مراحل بدايته كما هو ظاهر ، يعتبر حكماً مبتسراً . لكن عسانا أن نجازف بإمعان النظر فيما لدينا

هذا من تفسير لوضع المسيحية الأرثوذكسية الروسية . فلقد استبان لنا قبل الآن ، أن حركة روسيا الشيوعية – تحت قناعها الغربى – تعتبر محاولة غيورة للانفلات من التأثير الغربى الذى فرضه بطرس الأكبر على روسيا منذ قرنين مضيا . ورأينا هذا القناع فى نفس الوقت ، يتقطع فى حماس رغماً عن أنفه . وخلصنا من ذلك إلى القول بأن روسيا المتأثرة بالآراء الغربية ، قد اعتنقت كارهة الحركة الثورية الغربية تعبيراً عن مناهضتها للاتجاه العربى : بيد أن هذه الحركة قد غدت تمكّن للاتجاه الغربى فى روسيا ، أعظم مما يتيحه تطبيق أية عقيدة اجتماعية غربية أخرى .

ولقد حاولنا التعبير عن النتيجة الأخيرة للعلاقة الاجتماعية بين روسيا والغرب ؛ فى صيغة مبناها أن العلاقة التى كانت ذات مرة عبارة عن اتصال خارجى بين مجتمعين منفصلين ، قد تحولت إلى تجربة داخلية لمجتمع كبير ، اندمجت فيه روسيا .

فهل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك ؛ فنقول بأن روسيا وقد أصبحت الآن مندمجة فى المجتمع الكبير ، ما تزال تسعى فى نفس الوقت إلى الانسحاب من حياتها المألوفة لكى تقوم بدور أقلية مبدعة تجد لإيجاد حل ما للمشكلات الجارية للمجتمع الكبير ؟

وهكذا أصبح مفهوماً – وهذا ما يؤمن به كثير من المعجبين بالتجربة الروسية الحالية – أن روسيا ستتخذ عودتها إلى المجتمع الكبير ، لتؤدى دور الخلق فيه » .

الفصل الثانى عشر

التمايز عن طريق الارتقاء

استكملنا الآن بحثنا، عن الوسيلة التى استخدمتها الحضارة فى ارتقائها. ويبدو من بين ثنايا المراحل المختلفة التى تولينا بحثها؛ وحدة الوسيلة، وتماثلها.

إذ يتحقق الارتقاء وقتما يُجيب فرد أو أقلية أو مجتمع بأسره، عن تحد؛ بإبراز استجابة، لا تقتصر فحسب على الإجابة على التحدى، بل إنها تعرّض المستجيب إلى تحد جديد، يقتضى من جانبه استجابة أخرى.

بيد أنه رغما عن احتمال تجانس عملية الارتقاء؛ لا تماثل الحالة الشعورية للأطراف المختلفة التى تتعرض للتحدى. وينكشف اختلاف الحالة الشعورية، إبان مواجهة سلسلة مُفردة من التحديات المشتركة؛ إذا ما قارنا الحالات الشعورية لطائفة مختلفة من الجماعات التى يترابط بها وحده، مجتمع من المجتمعات:

إن بعضها ينتهى به الحال إلى التسليم والإذعان.

بينما يبتكر البعض الآخر استجابة ناجحة، عن طريق قيامه بحركة خلاّقه للاعتزال والعودة.

وثمة آخرون لا يستسلمون ولا يوفقون. لكنهم يتحايلون على البقاء حتى يرشدهم العضو الظافر إلى الطريق الجديد الذى يسلكونه طيعين، فى أعقاب الروّاد.

وبالأحرى؛ يُبرز التحدى الواحد بعد الآخر، تمايزا فى داخل نطاق المجتمع. وكلما طال أمد سلسلة التحدّيات، كلما ازدادت قوة

هـذا التمايز وضوحاً . وفضلا عن ذلك ؛ إذا أتاحت عملية الارتقاء ظهور التمايز داخل نطاق مجتمع فرد آخـذ فى النمو حيث تتماثل التحديات بالنسبة للجميع ؛ فأحرى بنفس العملية عندئذ ، أن تميّز بصورة قوية ، مجتمعاً فى طريق الارتقاء عن آخر . حيث التحديات نفسها ، تختلف فى طبيعتها .

وتبدى لنا فى محيط الفن ، صورة واضحة المعالم . فإنه من المسلم به ، أن كل حضارة تُوجد لنفسها طابعا فنياً يكون علما عليها . وليس أدل على أهمية عامل الطابع الفنى ؛ من أنه إذا كنا نسعى إلى التحقق من تخوم أية حضارة بعينها – سواء فى المكان أو الزمان – فإن الاختبار القائم على تذوّق الجمال ، هو أسلم وسائل الاختبار وأسماها .

مثال ذلك ؛ يوحى استعراض الأساليب الفنية التى شاعت بمصر ، حقيقة مبناها أن فن عصر ما قبل الأسرات ، لم يكن قد اتخذ بعد الطابع المصرى المأثور عنه . فى حين أن الفن القبطى ، قد طرح عنه السمات المصرية المألوفة . وعلى أساس هذا الدليل ، يتأتى تعيين عمر الحضارة المصرية ؛ بين مبتداها ومنتهاها .

ونستطيع باستخدام نفس الاختبار ؛ تعيين التاريخ الذى انبعثت عنده الحضارة الهلينية ، من تحت قشرة المجتمع المينووى . وكذلك تحديد تاريخ انحلال الحضارة الهلينية ، لتدع سبيل الظهور للمجتمع المسيحى الأرثوذكسى : وتساعدنا الأدوات الحجرية المينووية بالمثل على حصر الامتداد المكانى للحضارة المينووية فى مراحل تاريخها المختلفة .

فإن سلّم بأن لكل حضارة أسلوباً فنياً خاصاً ؛ يقتضى الأمر البحث فى احتمال ظهور الوحدانية النوعية – وهى جوهر الأسلوب – فى هذا المجال الفرد ؛ دون أن يشمل كافة الأجزاء ، والأعضاء والنظم وأوجه نشاط كل حضارة على حدة . وفى مكنتنا – دون أن نطرق أبحاثاً بعيدة المرمى فى هذا الاتجاه –

أن نؤكّد هذه الحقيقة المعترف بها تماماً . ومبناها ؛ أن الحضارات المختلفة ، تُضفى على ضروب معينة لأوجه النشاط ، درجات شتى من الأهمية .

فإن الحضارة الهلينية مثلا : تنزع بشكل ظاهر إلى حياة يغلب عليها طابع الجمال بوجه عام . وهذه حقيقة تفسّرها الصفة اليونانية Kalos التى تعبّر عما يتّصل بالإحساس بالجمال . فإنها تستخدم أيضاً بدون تميز ، للتعبير كذلك عما هو حسن من الناحية المعنوية .

ومن الناحية الأخرى ، فإن الحضارة السندية وكذلك الحضارة الهندية المتفرعة عنها ، تُبدى كذلك نزعة ظاهرة تتسم بغلبة الروح الدينية عليها .

فإذا أقبلنا على حضارتنا الغربية ، لا نجد أدنى صعوبة فى استبانة وجهتنا أو مكاننا . أنها تتسم بالولع بالآلات . ويعنى ذلك :

أولا : تركيز الاهتمام والجهد والكفاية على تطبيق استكشافات علم الطبيعة على الأغراض المادية ؛ عن طريق استخدام العمل الميكانيكى المنظم ، فى تشييد المحركات المادية مثل السيارات وساعات اليد والقنابل .

ثانياً : تشييد المحركات الاجتماعية ؛ مثل الدساتير البرلمانية وأنظمة الدولة الخاصة بالتأمين وجداول مواقيت التعبئة العامة .

وما يزال هيامنا بهذه الميكانيكيات ، مستمراً فترة أطول مما نظن عادة . ولقد كانت الطبقة الخاصة المثقفة فى الحضارات الأخرى ؛ تنعى على الإنسان الغربى ، غلبة الروح المادية عليه ، وذلك قبل انبعاث ما أصبح يعرف بعصر الآلة . ومصداقاً لذلك كانت الأميرة البيزنطية « آنّا كومنينا Anna Commena » — التى استحالت إلى مؤرخة — تجد الحضارة الغربية خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، تحمل نفس هذا الطابع المادى . ويعتبر هذا ؛ رد الفعل الذى خلفته فى نفسها البدعة الآلية لقوس الصليبيين ، الذى كان أحـــد مستحدثات الغرب فى عصرها ؛ وهو أحد مخترعات

التدمير المبكرة[1] . وقد تلاه بعد انقضاء عدة قرون ؛ ابتكار آلة الساعة التي تعتبر خيرة مآثر الإنسان الغربي فى العصور الوسطى ، ويتجلى فيها ولعه بالميكانيكا فى فنون السلم التي لا تجذبه إلا بمقدار .

ولقد تابع بعض الكتاب الغربيين المحدثين – وبصفة خاصة سبنجلر Spengler ، موضوع « خصائص الحضارات » المختلفة ، إلى نقطة يعبر عندها الوصف المقترن بالرصانة ، إلى الوهم الموسوم بالتعنت .

ولعلنا قد أوردنا ما يكفى لتقرير الحقيقة القائلة بأن تمايزا من نوع ما ، يتخذ مكانه فعلا . الأمر الذى يعرضنا إلى خطر فقدان إحساسنا بالقياس النسبي ؛ لو فرض وانفلتت عنا حقيقة لا تقل من ناحية التوكيد عن الحقيقة السالفة الذكر ، بل إنها لأبلغ فى معناها عن تلك الحقيقة . ومدار هذه الحقيقة الجديدة ، أن التنوع الذى يتبدى فى الحياة والنظم البشرية ، هو ظاهرة سطحية تحجب خلفها وحدة كامنة ، دون أن تضيرها .

لقد سبق أن قارنا حضاراتنا بمتسلقى الصخور على جانب الجبل . وإذ نعرض هذا التشبيه ، فإن زمرة المتسلقين – رغماً عن كونهم بالتأكيد أفراداً ينفصل بعضهم عن البعض الآخر – يشتركون جميعاً فى عمل متماثل . لأنهم يحاولون تسلق سطح المنحدر ذاته ، من نقطة البداية نفسها ؛ على طنف يقع أسفل، تجاه نفس الهدف على طنف يقع أعلى . وبالأحرى فإن أساس الوحدة الكامنة، واضح هنا . ويظهر مرة أخرى إن نوعنا تشبيهنا ،وفكرنا فى

---

(١) هو ما يعرف عند الإنجليز بـ cross-bow أو الأربالست Arbalest . وقد استخدم بصفة خاصة أثناء حروب القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . وكان هذا القوس يصنع من الخشب والصلب ، ملتصق بقائمة تشابه دعامة البندقية . وكان وتر القوس يسحب بوساطة رافعة مثبتة فى حز . وكان المسمار « القلاووظ » يتكون من جذع قصير بدين مجنح يرافقه سن معدنى ، ويوضع فى أخدود فى أعلى . وبفضل استخدام محرك (زناد) كان يمكن إطلاق الوتر . (المترجم)

ارتقاءات الحضارات باستخدام مثل « لزارع » ، فإن البذور التى تُبذر ينفصل بعضها عن البعض الآخر ، ولكل بذرة مصيرها الخاص ، وإن كانت تشترك جميعها فى النوع ، كما يتولى بذرها باذر واحد بأمل جنى محصول واحد[١] » .

---

(١) يشير الأستاذ المؤلف إلى قول السيد المسيح وارد فى الإصحاح الرابع من إنجيل مرقص ، آيات ٣ – ٩ وهى : « اسمعوا هوذا الزارع قد خرج ليزرع . وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته . وسقط آخر على مكان محجر حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالا إذ لم يكن له عمق أرض ، ولكن لما أشرقت الشمس احترق . وإذا لم يكن له أصل جف . وسقط آخر فى الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يعط ثمرا . وسقط آخر فى الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو » . (المترجم)

الباب الرابع

انهيار الحضارات



الفصل الثالث عشر

طبيعة المشكلة

إن مشكلة انهيار الحضارات ، أشد وضوحاً من مشكلة ارتقائها . وبالفعل تكاد أن تماثل فى وضوحها مع مشكلة تكوينها ؛ ويقتضى الأمر تفسير تكوين الحضارات . ويرد ذلك إلى حقيقة مجردة مبناها أن هذا « النوع »[1] قد برز إلى الوجود فعلا ؛ وأن فى قدرتنا بالتالى سرد ثمانية وعشرين ممثلا له ، مع تضمين هذا العدد من الحضارات ، الخمس المتعطلة ، والتغاضى عن الحضارات العقيمة .

وعسانا الآن أن نمضى قدُماً فى ملاحظة أن من بين الحضارات ، ثمة ثمان عشرة حضارة ماتت فعلا ووووريت التراب . أما العشر الباقية فهى :

حضارة المجتمع الغربى — الكيان الرئيسى لحضارة المسيحية الأرثوذكسية — وغصينها فى روسيا — حضارة المجتمع الإسلامى — حضارة المجتمع الهندى — الكيان الرئيسى من مجتمع الشرق الأقصى فى الصين — غصينه فى اليابان . ثم الحضارات الثلاث المتعطلة للبولونيزيين والاسكيمو والبدو .

ويبدى استقصاؤنا عن كثب ؛ هذه الحضارات الباقية على قيد الحياة ؛ أن مجتمعى البدو والبولونيزيين ، هما الآن فى سكرة الموت . وأن سبعا من الثمان الباقية هى جميعها — بدرجات مختلفة — تحت تهديد : إما الإبادة أو الاندماج فى المجتمع الثامن ، أى الحضارة الغربية . وثمة — فضلا عن ذلك — ما لا يقل عن ست من هذه الحضارات السبع[2] تحمل فعلا أمارات الانهيار ، والانحدار صوب التحلل .

---

(١) أى الحضارة . (المترجم)

(٢) الاستثناء هو حضارة الاسكيمو التى تعطل نموها إبان طفولتها . (المترجم)

فى طليعة العلامات الظاهرة للتحلل — كما لاحظناها من قبل — ظاهرة فى المرحلة الأخيرة ، لكنها تُنبى عن الانحلال والسقوط . وتتمثل تلك الظاهرة فى حصول الحضارة المنحلة على وسيلة تُمهل عملية انحلالها ، وسيلة مدارها خضوعها لتوحيد سياسى إجبارى فى دولة عالمية . ويطالع الباحث فى هذا الصدد ، المثال التقليدى عن الإمبراطورية الرومانية ؛ التى جمعت فى نطاقها المجتمع الهلينى عنوة واقتداراً ، إبان الفصل قبل الأخير من تاريخه :

فإذا تطلعنا الآن إلى الحضارات القائمة — خلا الحضارة الغربية — ألفينا ما يلى :

١ — أن الكيان الرئيسى للمسيحية الأرثوذكسية قد اجتاز فعلا مرحلة الدولة العالمية فى شكل الإمبراطورية العثمانية .

٢ — أن غصين المسيحية الأرثوذكسية فى روسيا ، قد شارك فى دولة عالمية حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، عقب التوحيد السياسى بين موسكو ونوفوجورود .

٣ — أن الحضارة الهندية كانت لها دولتها العالمية فى الإمبراطورية المغولية وخليفتها «السلطان البريطانى» .

٤ — كان للكيان الرئيسى من حضارة الشرق الأقصى ، دولته العالمية متمثلة فى الإمبراطورية المغولية ، وفى إمبراطورية المانشو عند إحيائها على أيديهم .

٥ — وتمثلت الدولة العالمية فى غصين حضارة الشرق الأقصى فى اليابان فى حكم أسرة توكوجاوا .

٦ — أما بالنسبة للمجتمع الإسلامى : فقد يتيسر لنا تمييز نذير أيدلوجى لدولة عالمية تتمثل فى حركة الجامعة الإسلامية[١] .

---

(١) تطورت الأمور منذ أن كتب الأستاذ توينبى هذه العبارة . والواقع أن حركة الجامعة الإسلامية كانت قوية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وأخذت تضعف بعد الحرب =

وبالأحرى ؛ فإذا تقبلنا ظاهرة الدولة العالمية كدلالة على انحلال الحضارة ، يوحي لنا ذلك بأن الحضارات الست الغير الغربية والتي ما تزال تعيش حتى الآن ، قد تصدّعت داخلياً قبل أن تتحلل بفعل هجوم الحضارة الغربية عليها من الخارج . وسنجد في مرحلة تالية من هذه الدراسة مبرراً للاعتقاد بأن انهيار حضارة من الحضارات وزوال مكانها بالتالي من سجل الارتقاء ، يسبق فعلا عملية اقتحام حضارة أخرى لها اقتحاماً ظافراً . بيد أنه تكفينا في الوقت الحاضر ، ملاحظة أن كل حضارة باقية في الوقت الحاضر ، تنهار فعلا وأنها في طريق التحلل ؛ خلا الحضارة الغربية .

فما هو الحال بالنسبة للحضارة الغربية ؟

واضح أنها لما تصل بعد مرحلة الدولة العالمية . لكن قد استبان لنا في فصل سابق ، أن ظاهرة الدولة العالمية لا تعتبر أولى مراحل عملية التحلل ؛ كما أنها لا تعتبر بالمثل المرحلة الأخيرة . إذ يتلوها ما أطلقنا عليه اصطلاح « الفراغ » . ويسبقها ما دعوناه بعصر الاضطرابات ، الذي يبدو أنه يستغرق عادة بضعة قرون . وإذ كنا نسمح لأنفسنا في عصرنا أن نحكم على عصرنا نفسه باستخدام قاعدة ذاتية مستمدة من شعورنا نفسه ، فإن خبرة القضاة يحتمل أن يعلنوا بأن « عصر اضطرابات » الحضارة الغربية قد أناخ بلا مراء بكلكله على الغربيين . ولكن لندع هـــذا السؤال معلقاً في الوقت الحاضر .

عرّفنا قبل الآن طبيعة انهيار الحضارات ؛ بأنها تتضمن إخفاق محاولة جريئة للصعو دمن مستوى البشرية البدائية ، إلى قمة نوع للحياة يسمو على البشرية .

= العالمية الأولى ثم انتهت تماما بعد الحرب العالمية الثانية . وتعتبر هذه الحركة رد فعل ضد اندفاع الدول الغربية لاستعمار الدول الإسلامية . فلما تقلص ظل الاستعمار أو كاد ، أخذت الدول التي غالبية سكانها مسلمون تتجه اتجاها قوميا بحتا . وإن كانت قوة الإسلام الفائقة في التقريب بين الشعوب الإسلامية وتعاطف أفرادها وتوادهم ، مما لا نظير لها في أتباع الديانات الأخرى .
(المترجم)

وقدمنا وصفاً للطوارئ في هذا المسعى الكبير باستخدام مختلف التشبيهات . فقارناها — مثلا — بمتسلقين يسارعون إلى حتفهم بأنفسهم . أو يركضون إلى حياة مهينة هي والموت سواء بسواء — فوق الحافة التي بدأوا أخيراً في مسيرهم منها ، قبل استكمالهم اجتياز « أول المنحدر » ليصلوا إلى استراحة جديدة على الحافة فوق . كما وصفنا كذلك طبيعة انهيار الحضارات باصطلاحات غير مادية ، فاعتبرنا الانهيار خسارة في الطاقة المبدعة التي تضمها بين جنباتها ، نفوس المبدعين أو الأقليات المبدعة . وهي خسارة تجردهم من قدرتهم السحرية على التأثير على نفوس الجماهير العاطلة من الابتداع . فالواقع أنه حينما ينتفي الإبداع ، تنتفي المحاكاة[1] . فإن الزمّار الذي يفقد مهارته ، يعجز بلا ريب عن إغراء أرجل الجمع بالاستجابة إلى الرقص ، فإن حاول — عندما تسيطر عليه سورة غضبه وذعره — أن يحيل نفسه إلى أحد زبانية القهر أو ملاحظ أرقاء ، وأن يقهر — باستخدام القوة البدنية — جمهوراً غدا هو عاجزاً عن قيادته باستخدام فتنته الجذابة ؛ فإنه كلما واصل إصراره وتعنته ، كلما هُزم في تحقيق غايته ذاتها . فإذا كان التابعون قد تخاذلوا واضطرب نظام خطواتهم — لما انقطع عن إسماعهم الموسيقى العلوية — فأحرى بلمسة السوط التي تلسعهم ، أن تدفعهم إلى ثورة عارمة .

وحقاً ؛ ينبئنا تاريخ أي مجتمع من المجتمعات ، أنه عندما تتحلل أقلية مبدعة فتغدو أقلية مسيطرة تسعى إلى الاحتفاظ بمركز لم تعد جديرة به ، باستخدام القوة ؛ يُحدث ذلك التغيّر في طابع العنصر الحاكم ، انشقاقاً في بروليتاريا أصبحت لا تعجب بحكامها فلا تحاكيهم بالتلقي ، ومن ثم تثور ضد استعبادهم إياها . وشاهدنا كذلك أن هذه البروليتاريا تنقسم منذ البداية — عندما تمكّن لنفسها — قسمين مميزين :

---

(١) لأن جماهير الأفراد العاديين تسعى إلى محاكاة الأفراد المبدعين الأمر الذي يقود إلى ارتقاء تلك الجماهير بفضل محاكاتها الأفراد المبتدعين . (المترجم)

الأولى : بروليتاريا داخلية عنيدة ذليلة ؛

الثانى : بروليتاريا خارجية وراء الحدود تقاوم الاندماج فى عنف ؛

وصفوة القول ، يتأتى إيجاز طبيعة انهيار الحضارات فى ثلاث نقط :

الأولى : قصور الطاقة الإبداعية فى الأقلية ؛

الثانية : عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها الإبداعية ؛

الثالثة : فقدان الوحدة الاجتماعية فى المجتمع بصفة عامة نتيجة لما تقدم .

وعلى أساس هذه الصورة الذهنية لطبيعة الانهيار هذا ، عسانا الآن نتابع بحثنا فى عوامل انهيار الحضارات . وهو بحث سيشغل بقية هذا الجزء من دراستنا .

الفصل الرابع عشر

حـــلول حتمية

ماالذى يسبب انهيار الحضارات ؟

أحرى بنا أن نستعرض طائفة من حلول المشكلة التى تحلق عاليا ، بحثا عن دليلها ؛ وتعتمد فى إثباتها :

إما على مذاهب لا يمكن التثبت من صحتها ؛

أو على أشياء أخرى تخرج عن نطاق التاريخ البشرى .

وإن فى طليعة علل البشر المزمنة ، ما يعمدون إليه من إرجاع فشلهم الشخصى إلى قوة بعيدة عن سلطانهم . وتجذب هذه المداورة العقلية ؛ العقول المرهفة الحس ، فى أوقات الانحدار والسقوط . ولقد دأبت مدارس الفلسفة المختلفة خلال انحدار الحضارة الهلينية وسقوطها ، على تفسير الانحلال الاجتماعى الذى كانوا يتوجعون له ولا يملكون حياله دفعا . لاعتقادهم بأنه نتيجة حتمية لا مناص عنها ، لإغارة شاملة جامعة يشنها « تشيّخ كونى »[١] :

تلك هى جمّاع فلسفة لوكريتوس Lucretius خلال الجيل الأخير من عصر الاضطرابات الهلينى . وقد ردّ نفس النغم أحد آباء الكنيسة الغربية « سانت سيبريان St. Cyprian فى مؤلف تغلب عليه روح الجدل ، حينما أخذت الدولة الهلينية تتحلل بعد انحلال الحضارة الهلينية بثلاثة قرون . إذ نجده يقول :

---

(١) تشيخ : بدء دور الشيخوخة .   (المترجم)

« خليق بك أن تدرك أن العصر الحاضر قد بلغ الشيخوخة . إذ أصبح يفتقر إلى قوة الاحتمال التي كانت تصلب عوده . كما أنه خلو من الحيوية والخشونة التي كانت تزوده بالقوة . . إن ثمة قلة فى أمطار الشتاء التي تغذّى بذور الأرض ، وضعفاً فى حرارة الصيف التي تُنضج المحاصيل . . هذا هو الحكم الذى صدر على العالم ؛ هذا هو قانون الرب : كل ما هو كائن يجب أن يموت ، وكل من يدرك سن البلوغ يجب أن يشيخ »(١) .

بيد أن علم الطبيعة الحديث قد أطاح بأساس هذه النظرية ، من ناحية اتصالها بأية حضارة من الحضارات القائمة فى الوقت الحاضر . حقيقة تخيّل علماء الطبيعة المحدثين ؛ توقف ساعة الكون عن الدوران – فى مستقبل بعيد لا يستطاع تصوّره – نتيجة لتحوّل المادة تحولا حتمياً إلى إشعاع . لكن هذا المستقبل – وفقاً لما ذكرناه – بعيد بعداً لا يمكن تصوره .

وفى هذا يكتب السير جيمس جينز ما يلى :

« قياساً على النظر إلى مستقبل الجنس البشرى نظرة كئيبة غاية الكآبة ؛ لنفترض أنه لن يتوقع له البقاء على وجه الأرض أكثر من ألفى مليون سنة ، وتلك الفترة تعادل تقريباً عمر الأرض السابق . وبالتالى لو قدّر للأرض أن تعيش سبعين سنة ؛ فإن البشرية وإن كانت تعيش فى بيت عمره سبعون سنة ، إلا أن عمرها يقدّر بثلاثة أيام فحسب . . . إننا كائنات قليلة التجربة تماماً ، ما تزال تقف فى مستهل لمعان فجر الحضارة . . . ولا مناص لجلال الصباح أن يذوى إلى الضياء اليومى العادى . . . وسيترك هذا مكانه فى عصر بعيد بُعداً قصياً إلى غبشة السماء منذراً بالليل النهائى الخالد . لكننا نحن أطفال الفجر لا يتطلب الأمر منا إلا توجيه القليل من التفكير صوب المغيب البعيد القصى »(٢) .

ومهما يكن من أمر تفسير الغربيين المحدثين لانهيار الحضارات على أساس

(١) انظر Cf. : De Rerum Natura, Bk. 11, II. 1144—74

(٢) Jeans, Sir I : Eos. or the Wider A shects of Cosmogony 12-13, 83-4

مبدأ الجبر قضاءاً وقدراً ؛ فإنهم لا يسعون إلى ربط مصائر هذه النظم البشرية بمصير الكون المادى فى مجموعه . وهم عوضاً عن ذلك ، يلجأون إلى تطبيق قانون للشيخوخة والموت قصير المدى . ونجدهم فى سبيل إثبات صحته يدّعون الولاية على كافة ملكوت الحياة على هذا الكوكب .

ومن قبيل ذلك يعلن سبنجلر — وهو الذى تنحو طريقته إلى استخدام نوع من المجاز يشرع منه فى المناقشة معتقداً أنه قانون يقوم على ظواهر مرئية — بأن كل حضارة تمر من خلال نفس تتابع الأجيال الذى يمر به الكائن البشرى . لكن بلاغته تجاه هذا المبحث ، لا ترقى فى أية ناحية إلى منزلة الدليل . فإن المجتمعات — كما سبق أن لاحظنا — ليست كائنات حية وفقاً لأى معنى . فإنها — باستخدام الاصطلاحات الموضوعية — تعتبر الأساس المشترك بين الميادين الخاصة لنشاط عدد من أفراد الكائنات البشرية ، التى وإن كانوا هم أنفسهم كائنات حية ؛ إلا أنهم يعجزون عن استحضار شيطان على مثال صورتهم نفسها من بين تقاطع نفس أشباحهم ، ثم يتولون النفخ فى هذا الكائن الأثيرى لتحل فيه نسمة من حياتهم ذاتها .

إن الطاقات الخاصة بجميع الكائنات البشرية التى تكوّن ما يدعى بـ « أعضاء المجتمع » ؛ هى قوى حيوية يؤدّى فعلها ، تاريخ ذلك المجتمع بما فى ذلك فترة بقائه . وبالأحرى فإن التصريح بطريق الجزم بأن لكل مجتمع فترة بقاء مقدّرة ، أمر يماثل فى طيشه التصريح بأن كل رواية مسرحية قمينة بأن تحتوى عدداً معيناً من الفصول ؟

ولقد تلفظ النظرية القائلة بأن انهيار الحضارة يحدث وقتما تقترب الحضارة من نهايتها البيولوجية ؛ لأن الحضارة هى كيان من نوع لا يخضع لقوانين البيولوجيا . لكن ثمة نظرية توحى بأنه لسبب غير واضح ، ينحط — فى

---

(١) Aetas Pacrentum, Prior avis,tulit Nos uequiores, mox daleros Progeniem vitiosiorem

وارد فى : Horace ; Cldes, Bk. III, clde vi last Stenza

صورة مبهمة — النوع البيولوجى للأفراد الذين تكوّن علاقاتهم المتبادلة ؛ حضارة ، بعد انقضاء عدد معين أو غير معين من الأجيال . وأنه فى حقيقة الأمر ؛ أن تجربة الحضارة تعيق على — طول المدى — التوريث الإحيائى ، إعاقة لا تمكن معالجتها ، ولا مناص من وجودها .

« آباء منحلّون ، بذرة منحلة »

« ستلد قريباً سلالة من الطبقة الرابعة »

ويقتضى ذلك وضع عربة النقل أمام الحصان . ويعنى التغاضى عن تأثير الانحلال الاجتماعى ؛ إساءة فهم تأثير الانحلال الاجتماعى ، فى سبيل معرفة سبب حدوثه . فإن أعضاء المجتمع الآخذ فى الانحلال وإن بدوا إبان أوقات التحلل الاجتماعى ، كما لو أنهم يتضاءلون إلى أقزام أو يتصلبون مشلولين ، عكس ما يبدو عليه آباؤهم من بنيان جليل وحيوية سامية خلال عصر الارتقاء الاجتماعى ؛ إلا أن هذا يدل على فساد الرأى القائل بنسبة المرض إلى عامل الانحطاط . لأن التراث البيولوجى للآبيجونيين[1] ، هو نفسه تراث الروّاد ، وأن مآثر الرواد وكدهم ، كان فى متناول سلالتهم .

والحال ؛ فإن الداء الذى يحتجز أبناء الاضمحلال ، ليس شللا ناجما عن ملكاتهم الطبيعية ، ولكنه انهيار يصيب تراثهم الاجتماعى يصدهم عن الاهتـــداء إلى مجال لملكاتهم الطليقة ، فى فعل اجتماعى إبداعى مثمر .

إن هذا الافتراض الواهى القائل بأن الانحطاط العنصرى هو علة الانهيار الاجتماعى ؛ تؤيده فى بعض الأوقات ما تسفر عنه ملاحظة

---

(١) الأبيجونيون Epigoni فى الأساطير اليونانية هم سلالة الأبطال السبعة الذين فنوا أمام طيبة . وبعد مرور عشرة أعوام من موتهم اجتاح الأبيجونيون طيبة انتقاما لآبائهم ، ثم ساووها بالأرض . (المترجم)

وجود ما أطلقنا عليه اصطلاح « الهجرات » ، يحدث إبان الفراغ الذي يتخلل بين الانحلال النهائي لمجتمع مضمحل ، وانبعاث مجتمع جديد وليد ينتسب إلى الأول عن طريق التبنّي . ويتعرض سكان بلاد المجتمعين المتعاقبين لتخلل « دم جديد » . ويفترض وفقاً لمنطق العبارة القائلة « ومن ثم فلهذا السبب Posthoc propteirhoc » ؛ أن النمو الجديد للطاقة المبدعة التي تُبديها الحضارة الوليدة في غضون ارتقائها ، هو منحة هذا « الدم الجديد » من المصدر الأصيل للجنس الهمجي البدائي . وينبني على ذلك من الناحية الأخرى ، أن فقدان الطاقة المبدعة إبان حياة الحضارة السابقة ، لابد وأن يُعزى إلى شيء من فقر الدم ، أو التسمم الدموي العنصري الذي لن يشفيه سوى إعادة سكب دم صحي جديد .

ويُذكر تعزيزاً لوجهة النظر هذه ؛ حالة في صميم الموضوع ، تُقتبس من تاريخ إيطاليا . إذ يُشار إلى أن سكان إيطاليا قد أظهروا طاقة مبدعة سامية ، إبان الأربعة قرون الأخيرة قبل الميلاد . كما أبدوها مرة ثانية ، في فترة تقارب الستة قرون من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين . وأنه يفصل الفترتين ، عصر تقرب مدته من الألف سنة ، اشتمل على التدهور وتضعضع القوى ودور النقاهة : حتى لقد بدا في وقت من الأوقات ، كما لو أن الطاقة الفعّالة قد تسللت من الإيطاليين كلية .

ويذكر علماء السلالة تدليلا على فكرتهم ؛ أنه لا يستطاع تفسير هذه للتقلبات المذهلة في التاريخ الإيطالي ، لولا ما تم من سكب دم الغزاة الجديدة من القوط واللومبارديين في عروق الإيطاليين خلال الفترة الواقعة بين هذين العصرين الحافلين بالمآثر الإيطالية . واستولد اكسير الحياة هذا في حينه وبعد انقضاء قرون من الحضانة ، عنصر الاحياء أو النهضة الإيطالية . ثم يقررون بعد ذلك بأن افتقار إيطاليا من

الناحية الأخرى ، إلى الدم الغض ؛ قاد إلى ذبولها وإلى انحطاطها فى ظل الإمبراطورية الرومانية ، بعد زوال الطاقة الجبارة التى ظلت كامنة فيها فى غضون أيام الجمهورية . ثم يؤكدون بأن هذه الطاقة التي بزغت إلى مجال الفعل مع قيام الجمهورية ، كانت حصيلة سكب دم همجي غض ، وفد إليها مبكراً مع فترة الهجرات التى سبقت ميلاد الحضارة الهلينية .

ولهذا التفسير العنصرى لتاريخ إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادى ما يبرره ظاهرياً . إن فرض وقنعنا بالتزام نقطة الزمن تلك . إذ يتبين لنا أنه عقب فترة إضافية من الانحلال فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . كانت إيطاليا خلال القرن التاسع عشر مسرحاً لبعث آخر بلغ من قوة طابعه الروائى ؛ أن أصبح اصطلاح Risorgimento يطبق الآن على علاته بدون تحديد ؛ على هذه النسخة المكررة ، لتجربة إيطاليا خلال القرون الوسطى .

هنا نتساءل عن ماهية سكب الدم الخالص الهمجي الذى سبق هذا التفجر الأخير للطاقة الإيطالية :

الرد الطبيعي انتفاء ذلك . إذ يبدو أن المؤرخين يجمعون على أن اجتياح فرنسا الثورية النابليونية لإيطاليا وحكمها إياها ، هو العامل الرئيسي فى انبعاث إيطاليا إبان القرن التاسع عشر .

ولا يحتاج الأمر إلى كبير عناء للعثور على تفسير غير عنصرى لنهضة إيطاليا السابقة ، فى مستهل الألف الثانية من العصر المسيحى . وكذلك لتفسير انحدارها الذى تبدى فى غضون القرنين الأخيرين قبل الميلاد .

إذ كان هذا الانحدار بلا ريب ، جزاءاً وفاقاً للروح العسكرية الرومانية التى جلبت على رأس إيطاليا ، جميع رتل المساوئ الاجتماعية التى تتابعت إثر حرب هانيبال :

ويستطاع – بتأكيد مماثل – رد أصول البرء الاجتماعى فى إيطاليا إبان فترة الفراغ التى أعقبت الهلينية ، إلى ظهور الشخصيات المبدعة التى تنتسب جميعها إلى الجنس الإيطالى القح . ونخص بالذكر سان بندكت والبابا جريجورى الكبير ؛ فانهما بالإضافة إلى اعتبارهما أبوى إيطاليا التى وفقت إلى استعادة شبابها إبان العصور الوسطى ، هما كذلك أبوا الحضارة الغربية الجديدة التى ساهم فيها إيطاليو القرون الوسطى بنصيب موفور .

وإذ نستعرض تاريخ المقاطعات الإيطالية التى اجتاحتها غزاة اللومبارديين ذوو « الدماء الخالصة » ، نجد أن المقاطعات التى لم يطأها اللومبارديون ذوو الدماء النقية ؛ قد ساهمت بأعمال مميزة فى النهضة الإيطالية ، أعظم كثيراً مما قامت به مدن أخرى عرفت بأنها مراكز السلطة اللومباردية : بافيا ، بينيفينتو Benevento ، سبوليتو Spoleto . فإذا رغبنا فى صقل تفسير عنصرى للتاريخ الإيطالى – والحالة هذه – لاستطعنا أن نقدم الدليل بسهولة على أن الدم اللومباردى صبغة ، أكثر منه إكسير حياة .

وفى مكنتنا أن نجرد أصحاب المذهب العنصرى من معقلهم الوحيد فى التاريخ الإيطالى ، بوساطة عرض تفسير غير عنصرى لقيام الجمهورية الإيطالية . إذ يتأتى ردها إلى التحدى الذى أبرزه الاستعمار اليونانى الأتروري . فهل كان على شعوب شبه الجزيرة الإيطالية الأصيلة أن يسلموا أمرهم إلى ذلك الاختيار بين الإبادة والخضوع ؛ أو الاندماج الذى فرضه اليونانيون على أبناء عمومتهم فى صقلية ، كما فرضه الأتروري على أهالى أيومبريا Umbia الأصليين ؟ أو كان عليهم أن يذودوا عن كيانهم ضد المتطفلين عليهم عن طريق اعتناق الحضارة الهلينية باختيارهم ووفقا لشروطهم[1] ، وبهذا يرقون إلى مستوى الكفاية اليونانى والأتروسكانى ؟

(١) كما فعلت اليابان لما أخذت بالحضارة الأوربية . (المؤلف)

قرر الرومانيون التزام الاستجابة الأخيرة : وما أن اعتنقوا هذا الرأى ، حتى أصبحوا منتشى مجدهم العتيد .

لقد تخلصنا حتى الآن من ثلاثة تفسيرات قائمة على مبدأ حتمية انحطاط الحضارات :

الأول : يرد الانحطاط إلى استهلاك طاقة العمل فى الكون ، أو تشيخ الأرض .

الثانى : يقرر بأن الحضارة باعتبارها كائنا حيا ، لها فترة حياة تحدد مداها القوانين الطبيعية المتعلقة بطبيعتها .

الثالث : يعلل انحطاط الحضارات بتلف يصيب نوع الأفراد المشتركين فى الحضارة نتيجة توالى تسلسلهم من أسلاف متحضرين .

وما يزال علينا أن نبحث نظرية أخرى ، يشار إليها عامة تحت عنوان « نظرية أكوار التاريخ » .

وكان ابتكار هذه النظرية الخاصة بالأكوار فى التاريخ البشرى ، نتيجة طبيعية للكشف الفلكى المثير الذى يبدو أنه قديم فى المجتمع البابلى فى تاريخ يقع بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد ؛ ومبناه :

أولا : أن الدورات الثلاث الذائعة والمعروفة — اليوم والليل ، والشهر القمرى ، والسنة الشمسية ، ليست هى فحسب المثل الوحيدة للتواتر الدورى فى حركات الأجسام العلوية .

ثانياً : أن ثمة كذلك اتساقاً للتحركات الكوكبية يشمل كافة الكواكب فضلا عن الأرض والشمس والقمر .

ثالثاً : أن « موسيقى الأجرام السماوية » التى وضعها توافق هذا الكورس العلوى ، تُذعن لدورة كاملة — الوتر نحو الوتر — فى دورة شاسعة جعلت من السنة الشمسية قزماً لا يؤبه له .

وانبثت على تلك النظرية ، نتيجة مؤداها أن ولادة النبات وموته سنوياً — وواضح مدى سيطرة الدورة الشمسية عليه — له ما يطابقه تماماً فى تواتر ميلاد جميع الأشياء وموتها ، وفقاً لدورة الكون الزمنية .

ولقد استهوى تفسير التاريخ البشرى باستخدام المصطلحات الدورية ، أفلاطون بشكل ظاهر[1] . كما نشاهد نفس العقيدة تعود إلى الظهور فى عبارات من أشهر عبارات فرجيل الواردة فى الأنشودة الرابعة :

إن العمر الأخير الذى تنبأت نبوءة الكومائية قد أقبل

ولد مرة أخرى نظام العصور الجديد

إن العذراء والعصر الذهبى يعودان فعلا

ويرسل جنس جديد بالفعل من السماء العليا

سيكون هناك تيفيس[2] أخرى وآرجو تحملان جماعة مختارة من الأبطال

سيعاد نشوب الحروب القديمة وسيرسل آشيل العظيم مرة أخرى إلى طروادة[3] .

لقد استخدم فرجيل النظرية الدورية ، لزخرفة أنشودة التفاؤل ، مستوحاة من حالة السلام التى حققها أغسطس للعالم الهلينى . ولكن هل يعتبر قوله « سيعاد نشوب الحروب القديمة » مما يدعو إلى التهنئة ؟ لقد أعلن كثير من الأفراد الذين تمتعوا بحياة هانئة وناجحة فى حدود الاعتدال — وهم مقتنعون بما يقولون — صدوفهم عن تكرار حياتهم تلك من جديد .

فهل التاريخ أجدر بصفة عامة أن يكون « إعادة أحداث » منه إيراد السير ؟

---

(١) Timaeus, 21E—236, and Politicus, 269C—273E

(٢) Argo, Tiphs مدينتان كانتا فى البلوبونيز فى عصر هوميروس . (المترجم)

(٣) فيما يلى النص اللاتينى : Ultima Cumaei venit iam carminis aetas ; Magnus ab integro saeclorum nascitur ordo, I am redit et virgo, redeunt Saturnia regna I am nova progeniez caelo demittitur alto. Alter erit tum Tiphys et altera quae vehat Argo Delectos heroas ; erunt etiam altera bellar At que oterum ad Troiam magnus mittetur A chilles.

هذا السؤال الذى لا يجابهه فرجيل ، قد أجاب عليه شيللى فى الترنيمة الأخيرة من قصيدته « هيلاس » التى تبدأ بداية تذكرنا بفرجيل، وتنتهى بنغمة هى علم على شيللى وحده :

« يبدأ عصر العالم العظيم من جديد

تعود الأيام الذهبية

إن الأرض كالحية تجدد نفسها

تغدو حشائش شتائها باردة . . .

تبتسم السماء ، وتتلألأ العقائد والإمبراطوريات

مثل حطام حلم منحل . . .

تشق آرجو البحر الطام متشامخة

مفعمة بجائزة تالية

وتنشد أورفوس أخرى ثانية

وتحب وتبكى وتموت

ويهجر عوليس جديد مرة أخرى

كاليبسو ، راحلا إلى شاطئ بلاده

حبذا أن تكف عن كتابة طروادة

إن كان لا مناص من بقاء قائمة الموت

ولا أن يخلط حنق « لايان » بالغبطة

التى تنزغ على الأحرار

رغما عن إعادة تشييد ، أو هول أشد خبثاً

فإن ألغاز الموت لم تعرفها طيبة . . .

ليتك تتوقف . هل قدّر للكراهية والموت أن يعودا ؟

توقف ! هل قدّر على الرجال أن يقتلوا ويموتوا ؟

توقف ! لا تفرغ الإبريق حتى الثمالة :

من النبوءة المرة !
إن العالم قد مل الماضى
ليته يموت أو يستريح فى نهاية المطاف » .

وإذا كان قانون الكون هو حقيقة مغزى العبارة اللاذعة « كلما يزداد تغيّراً ، كلما ظل كما هو » ؛ فليس عجباً أن يُهيمن الطابع البوذى على الشاعر فتجعله يصيح طالباً التحرر من عجلة الوجود[١] . وقد تكون عجلة الوجود شيئاً له جماله أن اقتصرت مهمتها على إرشاد النجوم فى مسارها . إلا أنها تصبح مثل طاحونة السعى[٢] التى لا تطيقها أقدامنا البشرية .

هل يدفعنا العقل إلى الاعتقاد بحركة دورية التاريخ البشرى[٣] ؟

ألم ندفع أنفسنا فى سياق هذه الدراسة إلى الاعتقاد بهذا الافتراض ؟

وإلا ، ما هو مغزى تلك الحركات التى سبق لنا بيانها : الين واليانج ، التحدى والاستجابة ، الاعتزال والعودة ، التبنى والانتساب ؟

أليست هى أساليب مختلفة تدور جميعها حول الموضوع الرث القائل بأن التاريخ يعيد نفسه ؟

إننا نسلّم بالتأكيد ، بأن ثمة عامل تكرار فى حركة جميع هذه القوى التى تحيك نسيج التاريخ البشرى . غير أن الوشيعة[٤] التى تمرق إلى الوراء وإلى الأمام عــبر منسج الزمن ذهاباً وجيئة فى حركة متصلة ؛ تبرز إلى

---

(١) تؤمن الديانتان البوذية والبرهمية على السواء ، بأن الأرواح تنتقل من جسد إلى آخر سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو حشرة ، أو نبات . ويتوقف ذلك على أعمال الإنسان فى الدنيا . فإن ساءت أعماله حلت روحه فى حيوان خبيث . وتظل الروح تنتقل من جسد إلى آخر فى سلسلة لا تنقطع . ولن يقيض للشخص الانفصال عن تناسخ الأرواح ، إلا أن استوعب « الحقيقة » بفضل قيامه بأعمال عقلية وبدنية شتى . وهنا يبلغ حالة النرفانا أى الطمأنينة الكاملة » . (المترجم)

(٢) طاحونة السعى أداة يديرها المسجونون عقاباً لهم . (المترجم)

(٣) مع استبعاد أى تأثير للنجوم مزعوم استبعاداً تاماً . (المؤلف)

(٤) الوشيعة هى الماكوك . (المترجم)

الوجود خلال هذا الزمن « طنفسة »[١] تحتوى على صورة تتكامل ، وليست مجرد تكرار لا نهائى لنفس النمط .

هذا ما قد طفقنا نشاهده المرة بعد الأخرى .

ويهيئ لنا استخدام مجاز العجلة فى حد ذاته ، تفسيراً للتواتر الذى يتلاقى مع الارتقاء . ومن المسلم به أن حركة العجلة ، حركة تكرارية بالنسبة لمحور العجلة[٢] ذاته . غير أن العجلة قد صُنعت وأُعدت ، لتوائم محورها بغية إضفاء الحركة على العربة التى تعتبر العجلة مجرد جزء منها . وإنه وإن كانت العربة — وهى المبرر لوجود العجلة — تتحرك تحت تأثير حركة العجلة الدائرية حول محورها ، إلا أن ذلك لا يلزم العربة نفسها أن ترحل فى طريق دائرى مثلها مثل الدوّازة[٣] .

ولعل هذا التجانس فى الحركتين المتباينتين — حركة رئيسية لا يأتيها الباطل ، نشأت على أجنحة حركة متكررة أقل شأناً — هو جوهر ما نقصده بكلمة « الإيقاع » . وفى وسعنا أن نميّز سير القوى هذا ، لا فى السحب المركّب وفى الآلات الحديثة فحسب ، ولكن كذلك فى الإيقاع العضوى للحياة .

لقد جعل تعاقب الفصول السنوى — الذى يجلب معه ارتداد النبات وعودته سنوياً — تطور المملكة النباتية أمراً ميسوراً . كذلك يسّرت دورة الميلاد والتوالد والموت ، موضوع تطور جميع الحيوانات العليا ، هذا التطور الذى قاد إلى ظهور الإنسان . ولا يخفى أن تعاقب حركة الساقين ينيح للسائر أن يطوى الأرض طياً ، وتهيئ عمليات الضخ التى تمارسها الرئتان والقلب ، الحياة للحيوان . كما تعاون الأقدار الموسيقية[٤] والفواصل والموشحات

---

(١) قماش مزركش برسوم للتعليق . (المترجم)

(٢) محور العجلة هو ما يعرف بالدنجل . (المترجم)

(٣) لعبة من أفراس خشبية تدور . (المترجم)

(٤) الأقدار : جمع قدر وهى الكلمة التى وضعها مجمع اللغة العربية لكلمة Bar وتعنى هنا قسماً من عبارة موسيقية . (المترجم)

الشعرية ؛ الملحن والشاعر على التعبير عن منهاجهما . بل إن السنة الكوكبية نفسها — التى لعلها هى أصل الفلسفة الدورية نفسها — لا يمكن أن تظل مخططة بعد الآن تجاه الحركة النهائية الشاملة . حركة تعتبر تحوّلا تاماً للكون الكوكبي الذى يبدو فيه نظام عالمنا الشمسى ضئيلا غاية الضآلة ، ولا يعدو شذرة من تراب تحت أعظم منظار مكبّر يتوافر الآن للفلكي الغربي . وأصبحت « موسيقى الأجرام السماوية » المتكررة ، لا تزيد عن كونها مسايرة موسيقية مساعدة ، مثلها مثل موسيقى فصيلة من آلة البرق الموسيقية Afberti Bass[١] . وهذه الأجرام السماوية كائنة فى عالم من عناقيد النجوم يتسع اتساعاً مستمراً . وتتراجع تلك النجوم عن بعضها بعضاً فى سرعة لا تصدق . على حين أن نسبية نظام المجال الزمنى ؛ تهيئ للموقع بعد الموقع من مواقع الترتيب النجمى الواسع ، موقفاً دراميأ لى مسرحية من المسرحيات ؛ القائمون بأدوارها شخصيات حيّة . ويتميز هذا الموقف بالتفرد التاريخى الذى لا يأتيه الباطل .

نخلص من هذا إلى القول ؛ بأن استقراء الحركات المتكررة فى تحليلنا عملية الحضارة ، لا يتضمن أن يكون لها نفس النظام الدورى كما هو الحاصل . وعكس ذلك ؛ إن أمكن أن نحصل بطريقة مشروعه من استقراء دورية هذه التحركات الفرعية ، على أى استدلال قد يقودنا إلى معرفة أن الحركة الرئيسية التى تحملها من الأول إلى الآخر ، ليست حركة تكرر نفسها ؛ ولكنها حركة تسير قُدُماً . ذلك لأن البشرية ليست إكسيون Ixion[٢] قدّر له أن يظل مرتبطاً إلى عجلته أبد الآبدين . كما أن البشرية ليست

---

(١) اصطلاح موسيقى للسايرات الموسيقية التى كانت معروفة فى دساتين الأرغن والبيان خلال القرن الثامن عشر . (المترجم)

(٢) كان إكسيون Ixion فى الأساطير اليونانية من تساليا . ولقد لعنه الناس لقتله زوج أمه . لكن زيوس الإله الأكبر حمله إليه فى الأوليمب . على أن إكسيون قد أساء كرم زيوس فحاول استمالة زوجه ، فعاقبه بربطه فى عجلة تدور أبد الآبدين . (المترجم)

مثل سيسوفوس Sisyphus[1] الذى حكم عليه بأن يدحرج صخرته إلى قمة الجبل نفسه ثم يشاهدها وهو عاجز ، تعود إلى أسفل مرة أخرى .

إن هذا القول هو بلا مراء رسالة تشجيع لنا نحن أطفال الحضارة الغربية ، فى انسياقنا وحدنا فى الوقت الحاضر . ولا شىء يشد أزرنا سوى حضارات طاعنة فى السن . ولعل ملاك الموت سيضع يده الباردة على حضارتنا كذلك . بيد أنه لا يحدق بنا فى الوقت الحاضر أى نوع من العدم العاتى . فإن الحضارات الميتة لم تمت قضاءاً وقدراً أو فى « مسير الطبيعة » ; وبالتالى لا يقدّر لحضارتنا القائمـــة مقدماً ، تقديراً متزمتاً بأنها ستلحق بالحظارات الأخرى . فإنه على الرغم من أن ست عشرة حضارة لعلها قد انقرضت قبل الآن وفقاً لعلمنا ، وأن تسعا أخرى قد تكون الآن على شفا الموت ، فإن الحضارة الغربية — وهى السادسة والعشرون — ليست مُكرهة على تسليم زمام مصيرها إلى تحكيم الإحصاءات العمياء . فإن قبس الطاقة المبدعة الإلهى ما يزال حياً فينا ، وإن قُيضت لنا نعمة إضرامها ناراً ، فإن النجوم فى مسالكها تعجز عن هزيمة جهودنا لبلوغ هدف جدّها :

---

(١) هو فى الأساطير اليونانية ملك كورنث . وتذكر أنه شجع الملاحة والتجارة . لكنه كان يحيا حياة شريرة ، عوقب من أجلها فى نهاية الأمر . فحكم عليه أن يدحرج حجرا ضخما إلى أن يبلغ قمة أحد التلول لكنه قبل أن يبلغه يعود الحجر إلى نقطة البداية .
(المترجم)

الفصل الخامس عشر

فقدان السيطرة على البيئة

(١) البيئة المادية

إن كنا قد أثبتنا بالقدر الذى يرضينا أن انهيارات الحضارات لا تتسبب عن تأثير قوى الكون الخارجة عن نطاق الإرادة البشرية ، فإنه ما يزال علينا إيجاد علة هذه النكبات الواقعة .

وسنبحث فى بدء الأمر احتمال أن يرجع هذا الانهيار إلى شىء من فقدان السيطرة على بيئة المجتمع . وإذ نسعى إلى حل هذه المشكلة ، سنستخدم التمييز الذى سبق لنا استخدامه — بين نوعين من البيئـة ، الطبيعية والبشرية .

فهل تنهار الحضارات بفعل فقدان سيطرتها على بيئاتها المادية ؟

يتأتى قياس درجة سيطرة مجتمع من المجتمعات على بيئته المادية — كما سبق بيانه — بوساطة دراسة أسلوبه التكنولوجى . ولقد سبق لنا — أثناء دراسة مشكلة الارتقاء — إثبات أنه إن أخذنا نحن على أنفسنا تخطيط مجموعتين من المنحنيات — مجموعة تمثل الحضارات وتمثل الأخرى تقلبات الأساليب التكنولوجية — تسفر النتيجة عن فشل المجموعتين فى التطابق ، بل وتنافر إحداهما عن الأخرى .

فلقد مرت بنا حالات لأسلوب تكنولوجى يتقدم ، بينما تظل الحضارات واقفة أو تنحدر ؛ وحالات أخرى لأسلوب تكنولوجى يظل واقفاً بينما تتصل حركة الحضارات سواء إلى الأمام أو إلى الوراء وفقاً للحالة . وهكذا مضينا بالفعل شوطاً بعيداً فى إثبات أن فقدان السيطرة على البيئة المادية ، ليس هو قاعدة انهيارات الحضارات .

واستكمالا لإثباتنا ، علينا - مع ذلك - أن نبدى أنه فى الحالات التى يتفق فيها حدوث انهيار حضارة من الحضارات مع انحطاط المستوى التكنولوجى ، لا يعتبر هذا الانحطاط علة انهيار الحضارة . وحقيقة الأمر ، ما برح انحطاط الأسلوب التكنولوجى نتيجة انهيار الحضارة ، أو ظاهرة من ظواهره ؛ لا سبباً له .

إذ يحدث فى بعض الأحيان وقتما تتدهور الحضارة ، أن يأخذ أسلوب تكنولوجى معين كان يتسم خلال مرحلة ارتقاء الحضارة بقابليته للتطبيق وإدراره الربح ، فى مواجهة عقبات اجتماعية تضعف من قابليته للتطبيق ، وينتهى الحال بإنتاجه إلى التناقص . فإن ظهر قصوره للعيان ، يُترك تطبيقه عن عمد . وهنا يبدو كما لو أن عاملى السبب والنتيجة قد انحرفا انحرافاً كاملا . لأن التخلى عن الأسلوب فى مثل هذه الظروف ، مرده العجز فنياً عن استخدامه ، وهذا العجز هو علة انهيار الحضارة .

وتطالعنا فى هذا الشأن حالة ماثلة للعيان مدارها التخلى عن استخدام الطرق الرومانية فى أوروبا الغربية . وواضح أن إجراء التخلى لا يعتبر سبباً لانهيار الإمبراطورية الرومانية ، ولكنه جاء نتيجة لها . فلقد هُجرت الطرق ، لا بسبب قصور المهارة الفنية ، ولكن لأن المجتمع الذى احتاج إليها وشيّدها للوفاء بأغراضه الحربية والتجارية ، قد تمزق إرباً .

كذلك لا يتأتى رد تدهور الحضارة الهلينية وسقوطها ، إلى تدهور فى الأسلوب التكنولوجى ، بمجرد اتساع نطاق رؤيتنا للأسلوب التكنولوجى لتشييد الطرق ، ليشمل الجهاز الفنى للحالة الاقتصادية :

« يجب التخلى تماماً عن التفسير الاقتصادى لانحطاط العالم القديم . . . فإن التجريد الاقتصادى للحياة القديمة ، لم يكن سبب ما ندعوه بانحطاط العالم القديم . إذ يعزى هذا إلى ظاهرة أكثر شمولا ، تمثلت فى فشل الإدارة وخراب الطبقة المتوسطة »[1] .

---

(١) Rostontzeff, M. : The social and Economic History of the Roman Empire p.p. 302—5 and 482—3

وللاستغناء عن الطرق الرومانية ، نظير يعاصرها إلى حد ما يتمثل فى الإستغناء الجزئى عن نظام الرى فى دلتا حوض الدجلة والفرات الغرينية ، وهو نظام أقدم كثيراً من الطرق الرومانية . إذ حدث فى القرن السابع الميلادى ، أن أهمل أمر استصلاح مشروعات الرى الهندسية فى قسم كبير جنوب غرب العراق . وهى مشروعات تعطلت عن العمل إثر فيضان لعله لم يحدث من الضرر الخطير أكثر مما أحدثه الكثير من الفيضانات التى ألمت بالعراق على مدار أربعة آلاف سنة : فكان أن تطرق الفساد إلى نظام الرى العراق بأسره إبان القرن الثالث عشر[1] .

فما هو السبب الذى جعل سكان العراق يواصلون التخلى عن نظام دأب أجدادهم على الاحتفاظ به بنجاح طوال بضعة آلاف سنة ، وهو نظام اعتمدت عليه الطاقة الإنتاجية للزراعة ولكفالة معيشة حشد من السكان ؟

لم تكن هذه الهفوة فى الواقع فى الميدان التكنولوجى هى العلة ، ولكنها نتيجة انحطاط فى السكان والرخاء . انحطاط يعزى إلى العوامل الاجتماعية . ولقد كانت الحضارة السورية فى غضون كلا القرنين السابع الميلادى ثم القرن الثالث عشر ، فى أدنى حالات التدهور فى العراق . وكانت حالة الاضطراب التى ترتبت على ذلك ، فى أعلى درجاتها . بحيث افتقر كل فرد إلى كل من وسائل استثمار المال ، والباعث على استخدام النشاط فى صيانة النهر وفى أعمال الرى . ولقد تمثلت الأسباب الحقيقية للقصور التكنولوجى فى الحرب الرومانية الفارسية خلال أعوام ٦٠٣ — ٢٨ ، وما تلاها بعد ذلك من اجتياح العرب المسلمين الأوائل للعراق . أما غزو المغول العراق عام ١٢٥٨ ، فقد كان الضربة القاضية التى وجهت للمجتمع السورى :

---

(١) الواقع أن العراق كان مزدهرا فى عهد الخلافة العباسية سواء فى النواحى الاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية حتى غدت بغداد قبلة العالم المتحضر فى ذاك الوقت . ولم يتحطم الاقتصاد العراقى إلا بعد الغزو المغولى . هذا ولم يغير استيلاء العرب على العراق وغيره من حالة الأرض والسكان . (المترجم)

وننتهى إلى نفس النتيجة عندما نتتبع رتلا من البحث ، يوحيه كشف عجيب فى سيلان يقوم على الملاحظة التجريبية . فإن المنطقة التى تحتوى على الآثار المهدمة للحضارة السندية فى سيلان فى الوقت الحاضر ؛ تتطابق ، لا مع المنطقة المصابة بالجدب فحسب ؛ ولكن كذلك مع المنطقة التى تتوطن بها الملاريا . وتبدو من النظرة الأولى ، غرابة الرأى القائل بأن تلك المنطقة التى تمرّد مأخذها المائى ؛ أصبحت قاصرة تماما عن أن تنى مياهها باحتياجات زراعة المحاصيل ، وباتت لا تكفى إلا لتغذية بعوض الملاريا[١] ؛ أن تكون موطنا لحضارة سابقة . إلا أنه لا يتأتى بحال من الأحوال أن تسود الملاريا المنطقة ، وقتما شيّد رواد المجتمع الهندى نظام الرى العجيب : وواقع الحال ؛ أن الملاريا هى نتيجة خراب نظام الرى ، فهى من ثم تالية لإنشائه . ولقد أصبح هذا القسم من سيلان موطنا للملاريا ، لأن انهيار نظام الرى قد حوّل المجارى المائية الصناعية إلى سلاسل من المستنقعات الآسنة ، وأهلكت السمك الذى كان يعيش فى المجارى المائية فينظفها من يرقات البعوض .

ولكن ؛ لم أُهمل نظام الرى الهندى ؟

ثُلمت تلك الشطآن[٢] ؛ وتهشّمت تلك القنوات إبان حرب متصلة مدمرة . إذ تعمّد الغزاة تخريب منشئات الرى على اعتبار أن ذلك أقصر سبيل لإحراز النصر . وتقاعس الشعب الذى أنهكته الحرب من جهة عن استصلاح ما أتلفته الحروب المتتالية ، سيا وقد تأكد من حلول النكبة به مرات أخرى .

نخلص من هذا إلى القول بتضاؤل عامل الأسلوب التكنولوجى فى هذه الحالة كذلك ، وصيرورتها علاقة عرضية ، تتبع سلسلة من السبب والنتيجة . وهى سلسلة ما يزال علينا واجب إرجاعها إلى أصولها الاجتماعية .

(١) The Lands of the Eastin Calithate

(٢) الأصل كلمة Bund وهى هندية تعنى شاطئ . (المترجم)

ولهذا الفصل من تاريخ الحضارة الهندية فى سيلان ، نظير يقاربه فى تاريخ الحضارة الهلينية . إذ يتبين لنا أن طائفة من المناطق التى عاشت فيها تلك الحضارة المندرسة أزهر مراحل حياتها ، والتى أنجبت أبدع طاقاتها الحيوية ؛ قد تحولت منذ ذلك الحين إلى مستنقعات تنشر الملاريا ، لم تستصلح إلا منذ عهد قريب . فإن مستنقعات كوبايك Copaic Marsh [1] مثلا ، تولت تجفيفها شركة بريطانية منذ عام ١٨٨٧ ميلادية بعدما لبثت مستنقعاً وبائياً طوال فترة ألفى سنة على الأقل ، وكانت فى سالف عصرها حقولا تُطعم مواطنى أورتشومينوس الأغنياء[2]. وكانت مستنقعات بومبتين Pompline [3] — التى جففت وأعيد إسكانها فى عهد موسولينى بعد فترة من الخراب — تضم فيما مضى حشداً من المدن الفولسكانية والمستعمرات اللاتينية .

ولقد قيل بحق إن « فقدان التغلب » (وتلك عبارة البروفسور جيلبرت موراى) الذى كان كامناً فى قلب الانهيار الأثينى ، يعزى إلى انتشار الملاريا فى الأوطان الهلينية . بيد أن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن عهد الملاريا لم يبدأ فى أية منطقة من هذه المناطق — كما رأينا بالنسبة لسيلان — إلا بعد أن اجتازت الحضارة الحاكمة فترة ذروتها . ولقد خلص أحد الثقات المحدثين[4] الذى تخصص فى موضوع الملاريا فى التاريخ اليونانى ، من دراسته ؛ إلى تقرير أن الملاريا اليونانية لم تتوطن إلا بعد الحرب البلوبونيزية ؛ ولم يستشر المرض فى لاتيوم Latium إلا بعد حرب هانيبال . ومن السخف الذى

---

(١) نسبة إلى كوبايس Copaïo أرتوبوليلياس Topalias . وقد أصبح مستنقعا وبائيا مساحته ١٣٥ ميلا مربعا ويقع فى مقاطعة بوئوتيا باليونان . وفى عام ١٨٨٧ أمكن تجفيفه فأصبح منذ هذا التاريخ أرضا زراعية تنتج القطن والحبوب . (المترجم)

(٢) حملت هذا الاسم فى اليونان القديمة مدينتان : واحدة فى بوئوتيا والأخرى فى أركاديا . (المترجم)

(٣) فى إيطاليا .

(٤) Jones, W. H.S. : Malaria and Greek History

لا يحتاج إلى بيان : القول بأن يونانيي العصر التالى للإسكندر وروماني عصر سيبيوس Scipias والقياصرة ؛ حرمهم قصورهم الفنى من مواصلة الصراع مع مشكلات مياه مستنقعات كوبايك وبومبتين . وهى المشكلات التى استطاع أجدادهم حلها ، رغما عن قصور وسائلهم التكنولوجية نسبياً .

ويتأتى تفسير المفارقة ، لا على المستوى الثقافى ، ولكن على المستوى الاجتماعى . فلقد كان لحرب هانيبال ؛ ولحركة السلب والنهب والحروب الأهلية التى نشبت إبان القرنين التاليين لتلك الحرب ، تأثير انحلالى عميق على الحياة الاجتماعية الإيطالية . فكان أن تقوضت فى بدء الأمر دعائم الثقافة والاقتصاد الزراعيين ، وانتهى الأمر بهما أخيراً أن جرفهما تأثير عدد من القوى الضارة ، احتشد بعضها إثر البعض الآخر :

١ — تخريب حرب هانيبال

٢ — تجنيد الفلاحين للخدمة العسكرية تجنيداً دائماً .

٣ — الثورة الزراعية التى أحلت المزارع الكبيرة القائمة على عمل الأرقاء ، مكان المزارع الصغيرة التى يملكها فلاحون يرتزقون بعملهم فيها .

٤ — هجرة واسعة النطاق من الريف إلى المدن الطفيلية .

فإلى هذا المزيج من الشرور الاجتماعية فى إيطاليا ؛ يرد انسحاب الإنسان ، وتقدم البعوض فى غضون القرون السبعة بين جيل هانيبال وجيل سانت بنديكت .

أما عن اليونان ؛ فإن مزيجا من الشرور يماثل ما تقدم ويرجع العهد به إلى الحرب البلوبونيزية ، قد أسفر فى عصر بوليبيوس Polybius (٢٠٦ — ١٢٨ ق . م) عن هبوط فى عدد السكان ، أفدح مما حدث بعد ذلك فى إيطاليا . ويحمل بوليبيوس فى عبارة مشهورة ، شيوع عادة تقييد حجم الأسرة بوساطة ممارسة الإجهاض أو وأد الأطفال ، مسئولية انهيار اليونان الاجتماعى والسياسى فى عهده .

وهكذا يتضح لنا فعلا ، قصور تفسير تحول سهل كوبايك وكذلك يومبتين من صومعة غلال إلى مرتع للبعوض ، بعجز الفن الهندسى .

ونصل إلى نتائج مشابهة أن انتقلنا من الهندسة التطبيقية ، إلى فنون العمارة والنحت والتصوير والخط والأدب .

فما هو مثلا سبب إبطال استخدام الأسلوب المعمارى الهابنى خلال القرنين الرابع والسابع الميلاديين ؟

ولم هجر الأتراك العثمانيون حروف الكتابة العربية عام ١٩٢٨ ؟

ولم نبذت تقريبا كافة المجتمعات الغير الأوربية أسلوبها التقليدى فى اللباس وفى الفنون ؟

توطئة للرد على تلك الأسئلة ، عسانا كذلك نؤتى بالمشكلة تحت أنظارنا ، وبالتساؤل عن الأسباب التى دفعت جانبا من جيلنا الناشئ إلى التخلى عن أساليبنا التقليدية فى الموسيقى والرقص والتصوير والنحت .

فهل يتأتى بالنسبة لحالتنا ، تفسير أسباب ضياع أسلوبنا التكنولوجى ؟

هل نسينا قواعد الإيقاع والوزن والمنظور والتناسق ، التى كشفها الإيطاليون وغيرهم من الأقليات المبدعة فى الفصلين الثانى والثالث من تاريخنا ؟

واضح أن هذا لم يحدث . إذ ليست النزعة السائدة للتخلى عن تقاليدنا الفنية ، نتيجة القصور التكنولوجى . فما هى إلا تعمّد هجران أسلوب بات يفقد إعجاب الجيل الصاعد ، لأن هذا الجيل أصبح يتوقف عن بث الأحاسيس بالجمال ، وفقاً للنظم الغربية فى نفوس أفراده . لقد طرحنا متعمدين بعيداً عن نفوسنا ، مآثر الأساتذة العظام الذين كانوا بمثابة الأرواح لأجدادنا . وبينما كنا ملفوفين فى إعجاب الغبطة الذاتية للفراغ الروحى الذى خلّفناه نحن بأيدينا ، فراغ يتمثل فى ترحيبنا بروح إفريقيا الاستوائية فى الموسيقى والرقص ، وفى إبرام محالفة غير مقدسة ؛ بين فن النحت ،

وروح بيزنطية كاذبة يبدو أثرها فى التصوير والنقش البارز . وقد دخلت تلك التأثيرات الفنية فى بيت ألفته خالياً ومزيناً .

إن مظاهر هذا الانحدار لا تمت فى جوهرها إلى الفن ، ولكنها روحانية الطابع . لأننا بطرحنا وراء ظهرانينا تقاليدنا الفنية الغربية وخفض مواهبنا إلى حالة من الوهن والجدب ، بتنا نُقبل على فن داهومى وبنين Benin[١] البدائى الدخيل ، كما لو أنه « مَنٌ » سقط من السماء على البيداء[٢] . إننا نعترف أمام جميع الناس بتزييفنا تراث آبائنا . إذ يبدو أن تخلّينا عن أسلوبنا التكنولوجى التقليدى ، نتيجة نوع من الانهيار الروحانى فى حضارتنا الغربية ؛ وواضح أن علة هذا الانهيار لا يمكن العثور عليها فى ظاهرة تعتبر هى إحدى نتائجها .

يتيسر وفقاً لهذه الأسس ، تفسير إحلال الأتراك حديثاً الحروف اللاتينية محل الحروف العربية . فلقد اتجه مصطفى كمال أتاتورك وزملاؤه اتجاهاً غربياً محضاً داخل نطاق عالمهم الإسلامى . وفقدوا إيمانهم بتقاليد حضارتهم ، مما حدا بهم إلى نبذ الواسطة الأدبية لهذه الحضارة .

وثمة تفسير مشابه لاستغناء حضارات ماتت عن حروف كتابتها التقليدية ، قبل ذلك . مثال ذلك الكتابة الهيروغليفية فى مصر والمسمارية فى بابل .

وثمة حركة فى الصين واليابان لإلغاء الحروف الصينية فى الكتابة فى البلدين[٣] .

---

(١) داهومى قطر فى إفريقيا الغربية الفرنسية . وقد أعلن استقلاله أخيراً ، وبينين قطر فى إفريقيا الغربية البريطانية وهو جزء من جنوب نيجيريا . (المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف إلى نزول المن والسلوى على بنى إسرائيل أثناء تيههم فى بيداء سيناء . (المترجم)

(٣) ظهرت فى الصين الشعبية دعوة إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف الصينية فى الكتابة . بيد أنه اعترض على ذلك بخشية جهل الجيل القادم قراءة المؤلفات الصينية المأثورة . ولم تخرج الفكرة إلى حيز التفكير الجدى فى اليابان حتى وقت مغادرتى إياها (٤ ديسمبر ١٩٥٧) (المترجم)

ويطالعنا مثال طريف لإحلال أسلوب فني محل آخر ، هو هجران أسلوب العمارة الهليني واعتناق الأسلوب البيزنطي المستجد . فكأن المهندسين المعاريين لمجتمع كان يعاني سكرات الموت ، ينبذون والحالة هذه طريقة مبسطة نسبياً ، أساسها استخدام العارضة القائمة على العمود ، ويُقبلون على تطبيق أسلوب البناء أصعب عبارة عن تتويج البناء على شكل قبة مستديرة . ومن ثم لم يكن ثمة مجال للقول بقصور الكفاية التكنولوجية . إذ لا يصدق أن المهندسين المعاريين الأيونيين الذين وفّقوا إلى حل مشكلات تشييد كنيسة أيا صوفيا للإمبراطور جوستنيان ، عجزوا عن بناء معبد يوناني قديم لو اتفق ذلك مع إرادة الحاكم ومع رغبتهم . فالواقع أن جوستنيان ومهندسيه قد اعتنقوا نمطاً جديداً للبناء بدافع من كراهيتهم للنمط القديم ، لارتباطه ببقايا ماض ميت فاسد .

وصفوة القول ؛ يعتبر الاستغناء عن نمط فن تقليدي ، دليلا على تصدع الحضارة التي ترتبط بهذا النمط منذ أمد ، وأنها غدت تسير في طريق الانحلال . كما أن إهمال استخدام أسلوب فني مقرر ، يعتبر نتيجة للانهيار ، لا سببا له :

(٢) البيئة البشرية

تبين لنا من بين ثنايا بحثنا السابق في هذا الموضوع ، من ناحية ارتباطه بارتقاء الحضارات ، إمكان قياس درجة السيطرة على البيئة البشرية التي في حوذة حضارة معينة خلال مرحلة من تاريخها . ويتيسر ذلك باستخدام مصطلحات التوسع الجغرافي إلى حد ما . كذلك تبين لنا — من دراسة الأمثلة — أنه يصحب التوسع الجغرافي في غالب الأحيان ، تحلل اجتماعي :

فإن كانت الحال كذلك ، يبدو أمراً بعيد الاحتمال إلى أعظم حد ، العثور

على علة هذا الانهيار والانحلال الذاتيين ، فى نزعة تخالف التوسع الجغرافى تماماً . ونعنى بها نزعة الاتجاه نحو تضييق نطاق السيطرة على البيئة البشرية ، على أن المتفق عليه فى الغالب ، أن الحضارات – مثلها مثل المجتمعات البدائية – تفقد كيانها نتيجة هجمات ظافرة تشنها عليها قوى خارجة عنها .

ويطالعنا فى هذا الشأن المثال البارز التقليدى الذى بسطه إدوارد جيبون فى كتاب تاريخ انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . وتتكشف الحقيقة فى جملة واحدة أجمل فيها جيبون قصته التى يسردها « لقد وصفت انتصار البربرية والدين » . ويعرض جيبون المجتمع الهلينى الذى تجسّد فى الإمبراطورية الرومانية التى بلغت ذروة مجدها فى عصر الأنطونيين ، كما لو أنه قد دمرته مهاجمة عدوين غريبين عليه ، أغارا عليه فى ميدانين مختلفين .

الأول : يتمثل فى برابرة أوربا الشماليين الذين تدفقوا من الشقة الحرام فيما وراء الدانوب والراين .

الثانى : يتجلى فى الكنيسة التى انبثقت من الولايات الشرقية التى خضعت للإمبراطورية ، وإن لم تندمج فيها قط .

ولم يدر فى خلد جيبون قط ، أن عصر الأنطونيين لم يكن صيف التاريخ الهلينى ، ولكن صيفه الهندى[1] . وإن عنوان الكتاب نفسه « انحلال الإمبراطورية الرومانية وانهيارها » لينم عن مدى وهم المؤلف . لأن المؤلف الذى يحمل كتابه هذا العنوان ويبدأ نقطة بحثه من القرن الثانى الميلادى ، لا شك أنه يقترب من القصة الحقيقية التى هى الحضارة الهلينية التى تعتبر « ميدان الدراسة التاريخية الواضح » ، وليست

---

(١) الصيف الهندى فصل دافئ يغشى الهند فى أواخر الخريف أو أوائل الشتاء . ويقصد المؤلف أن عصر الأنطونيين يعتبر نذيرا بانهيار الإمبراطورية ، ولم يكن ذروة مجدها كما يعتقد جيبون . (المترجم)

الإمبراطورية الرومانية التى هى دلالة ضخمة على تحلل الحضارة فى زمن متقدم كثيراً .

فإذا ما أُخذت القصة كلها فى الاعتبار ، نجد أن انحلال الإمبراطورية السريع بعد العصر الأنطونى ، لم يكن بالأمر المستغرب . إذ يبدو الأمر على العكس غريبا ، إن كان قد قُيِّض للإمبراطورية الرومانية البقاء . لأن هذه الإمبراطورية كان مقدراً لها الهلاك قبل تشييدها[1] . إنها هلكت لأن تشييد هذه الدولة العالمية لم يكن إلا صحوة الموت أجّلت دمار المجتمع الهلينى المحتوم ، ولكنها لم توقف هلاكه إلى الأبد .

ولو كان جيبون قد كرّس نفسه لإيراد هذه القصة الطويلة من بدايتها ، لتبين له أن « انتصار البرابرة والدين » ؛ لم يكن حبكة الرواية ، لكنه خاتمتها فحسب . فإن هذا الانتصار ليس علّة الانهيار ، لكنه مسايرة حتمية للاضمحلال الذى يقدّر أن تنتهى إليـــه عملية التحلل . ولتبين له فضلا عن ذلك ، أن الكنيسة والبرابرة المنتصرين ، لم يكونوا — مع ذلك — أجانب . لكنهم يقينا أبناء العائلة الهلينية ، أُبعدوا عن الأقلية الحاكمة فى غضون عصر الاضطرابات الذى تخلل انهيار عصر بركليس ، والانتعاش فى عصر أغسطس .

وفى الواقع لو أن جيبون قد أرجع استقصاءه إلى بداية المأساة ، لاعتنق رأيا مخالفا لما تقدم . إذ لقاده استقصاؤه إلى تشبيه المجتمع الهلينى بمنتحر حاول — بعد أن استحال عليه إنقاذ حياته — أن يتفادى النتائج القاتلة لاعتدائه على نفسه ، والذى تلقى فى نهاية الأمر ضربة قاتلة من أبنائه الدخلاء الذين أُسيئت معاملتهم ، وقبّما ترك الانتعاش الأوغسطى مكانه قبل ذلك ، لنكسة حدثت فى القرن الثالث . ومن ثم كان يتضح

---

(١) ثمة حالة فذة تتمثل فى الإمبراطورية المصرية التى لبثت قائمة عدة قرون بعد انقضاء الوقت المقدر لها وفقا لكل قياس . وقد سبقت مناقشة ذلك . (المؤلف)

لجيبون أن المريض يموت تحت تأثير الجروح القديمة التى أحدثها بنفسه .

ولا يركز المؤرخ المحقق لأسباب الموت فى ظل هذه الظروف ، التفاته على الخاتمة . لكنه يتجه إلى أن يعيّن تعييناً تاماً ، الوقت الذى ألق المنتحر فيه يديه العنيفتين على شخصه وكيفية ذلك . وهو فى تنقيبه عن تاريخ ؛ يحتمل أن يضع أصبعه على نشوب الحرب البلوبونيزية عام ٤٣١ ق . م . فإنها كارثة اجتماعية نعتها توكيديديس على لسان إحدى شخصيات إحدى رواياته الدرامية بأنها « بداية شرور مستطيرة لهيلاس » . ولعله فى تقريره عن الطريقة التى استخدمها أعضاء المجتمع الهلينى فى اقتراف جريمتهم التدميرية فى حق أنفسهم ، يعلّق أهمية مماثلة على آفتين توأمين تتمثلان فى الحرب بين المدن الهلينية من جهة ، والحرب بين الطبقات من الجهة الأخرى . ولعل هذا المؤلف إذ يتابع خطوات توكيديديس ، يطرح جانباً العقاب الرهيب الذى أنزله الأثينيون على المالطيين ، وحروب الأحزاب فى كورسيرا[1] التى لا تقل عن ذلك رهبة ؛ باعتبارها أمثلة لقبح صيت هذه الشرور .

على أية حال ؛ سيؤكد هذا المؤرخ بأن الضربة القاضية قد وجهت إلى الامبراطورية الرومانية قبل الوقت الذى دار فى خلد جيبون بستمائة سنة ، وأن اليد التى وجهتها كانت يد الضحية نفسها .

وينطبق نفس الرأى على حالات طائفة أخرى من الحضارات أصبحت ميتة بكل تأكيد أو تبدو فى حالة احتضار ، إن وسّعنا الآن نطاق بحثنا ليشملها .

فبالنسبة لانحلال المجتمع السومرى وسقوطه — مثلا — يمثّل عصر حمورابى الذهبى[2] مرحلة « صيف هندى » متأخرة عن مثيلتها فى عصر الأنطونيين ،

---

(١) الاسم القديم لجزيرة كورفو . (المترجم)

(٢) كما يسمى فى تاريخ كمبردج القديم . (المؤلف)

إذ يعتبر حورابى ، دقلديانوس التاريخ السومرى ، أكثر من تراجان هذا التاريخ . ومن ثم لن نوحّد قتلة الحضارة السومرية مع برابرة ما وراء الحدود الذين انقضّوا على « مملكة الجهات الأربع » فى القرن الثامن قبل الميلاد . وسيتجه بحثنا عن الضربات المميتة ، فى الأحداث التى حدثت قبل ذلك بحوالى التسعمائة سنة : الحرب الطبقية بين أوروكاجينا[١] وطبقة الكهنة المحليين من ناحية ، والروح الحربية للمخرّب لوجالزاجيسى[٢] . وهكذا تعتبر هــذه النكبات القديمة ، هى البداية الأصلية لعصر الاضطرابات السومرى .

ويمثل انتصار « البربرية والدين »[٣] فى انحلال المجتمع الصينى وسقوطه ، بتشييد دول البدو الأوراسيين التى خلفت الدولة الصينية العالمية فى حوض النهر الأصفر حوالى عام ٣٠٠ ق . م وباجتياح الشكل الماهايانى[٤] من البوذية العالم الصينى فى نفس الوقت : وكان هذا الضرب من البوذية هو أحد أديان البروليتاريا الداخلية الصينية فى الأقاليم الشمالية الغربية . بيد أن هذه الانتصارات كانت على غرار انتصارات « البربرية والدين » فى الامبراطورية الرومانية ؛ أى انتصارات بروليتاريا داخلية ، وبروليتاريا خارجية لمجتمع يحتضر . ولا تكوّن هذه الانتصارات سوى الفصل الأخير من القصة الكاملة . إذ كانت الدولة العالمية الصينية تمثّل صحوة اجتماعية بعد عصر الاضطرابات ، تمزّق خلاله الكيان الاجتماعى الصينى إرباً ، بفعل الحرب الأهلية بين عدد معين من الدول سبق للمجتمع الصينى ربط مصيره بها . ويعتبر عام ٤٧٩ ق . م ، التاريخ الحاسم فى التقاليد الصينية ؛ إذ قد اتفق

---

(١) Wukagina from Lagash

(٢) Wukagina's destroyer lugahzaggisi

(٣) وفقا لرأى جيبون السالف الذكر عن سقوط الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٤) بوذية ماهايانا هى ذلك النوع من البوذية الذى انتشر فى الصين واليابان وغيرها من أقطار شمال شرق آسيا . (المترجم)

على أنه بداية ما تدعوه التقاليد الصينية « فترة الدول المتنابذة » . ويتطابق هذا العام مع عام ٤٣١ ق . م . الهلينى . ولكن لعل هذا التاريخ المتعارف عليه ، يتأخر عن الحدث الحقيقى بحوالى المائتين والخمسين سنة . ولقد اعتبرت التقاليد الصينية قد هذا التاريخ بداية عصر الاضطرابات الصينى ، لأنه بالمثــل التاريخ المتفق عليه لوفاة كونفوشيوس .

أما بالنسبة للمجتمع السورى الذى استمتع : « صيفه الهندى » فى ظل الخلافة العباسية فى بغداد ، والذى شاهد « انتصار البربرية والدين » متمثلا فى غزوات البدو والأتراك ، وفى تحولهم إلى الإسلام دين البلاد المغزوة . فأحرى بنا أن نسترجع نقطة سبقت لنا إقامتها فى موضع سابق من هذه الدراسة ، ومؤداها أن عملية التحلل والسقوط السورية ، قد أرجأتها مداخلة هلينية استمرت فترة ألف سنة . وأن الخلافة العباسية لم تعمل سوى التقاط خيط التاريخ السورى ، من حيث اضطرت الإمبراطورية الأخيمينية إلى التخلى عنه إبان القرن الرابع قبل الميلاد . ومن ثم علينا أن ندفع بحثنا الى الوراء ، إلى عصر الاضطرابات السورى الذى تلا عصر الســلام الذى فرضته الإمبراطورية الأخيمينية(١) والذى افتتحه قورش .

إذاً ما الذى قاد إلى انهيار حضارة أثبتت عبقريتها خلال عصر ارتقائها القصير السالف الذكر ، وأظهرت حيويتها فى ثلاثة استكشافات ضخمة تجلت فى : الوحدانية ، والحروف الهجائية ، والمحيط الأطلسى ؟

لعله يبدو للوهلة الأولى كما لو أننا قد عثرنا هنا أخيراً ، على مثال أصيل لحضارة صرعتها صدمة قوة بشرية خارجية . ألم تدمر القوة الحربية الأشورية الحضارة السورية ، إبان القرون التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد ؟

ويتضح بالتالى — وهذا ما يظهره البحث عن كثب — أنه عندما

---

(١) Pax Achaemenia

انقضت العسكرية الأشورية انقضاض الذئب على قطيع الغنم ، لم يكن العالم السورى قطيعاً واحداً يحرسه راع واحد . إذ فشلت محاولة هدفت خلال القرن العاشر لكى تتوحد سياسياً تحت قيادة اليهود : المواطن العبرية والفينيقية والآرامية والحيثية التى تقع فى عرض الطريق بين العالمين البابلى والمصرى . وكان نشوب الحرب الأهلية بين المقاطعات السورية : فرصة اغتنمها الأشوريون .

من ذلك يتبين أن انهيار الحضارة السورية ، أحرى بأن يؤرخ من انحلال دولة سليمان بعد موت مؤسسها عام ٩٣٧ ق . م . ، لا أن تؤرخ من عبور آشور ناصر بال الفرات لأول مرة عام ٨٧٦ ق . م .

وكثيراً ما يقال كذلك ، أن الأتراك العثمانيين ، قد دمّروا الحضارة المسيحية الأرثوذكسية إبّان تجسّدها السياسى البيزنطى[١] . ويضاف عادة أن الأتراك المسلمين ، قد وجّهوا الضربة القاضية إلى مجتمع كان قد أضرّ به غزو المسيحية الغربية ضرراً مميتاً . تلك الغزوة التى تنكّرت فى زى الورع تحت اسم « الحرب الصليبية الرابعة » التى جرّدت بيزنطه من إمبراطورها طوال فترة تنيف على النصف قرن (١٢٥٤ — ٦١) . بيد أن هذا التعدّى اللاتينى — مثل خلفه التركى — قد انبثق عن أصل كان غريباً عن المجتمع الذى كان هو ضحيته . وإذا ارتضينا أن نخلّف تحليلنا هنا ، علينا أن نُعيد البحث فى قرار يتصل بجريمة قتل ؛ وردت فى قائمة حالات موت انتهينا من تشخيصها وحكمنا بشكل راسخ أنها حالات انتحار .

على أننا نرى أن نقطة التحوّل القتّالة فى تاريخ المسيحية الأرثوذكسية ، لا تكمُن فى العدوان التركى إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وليست هى العدوان اللاتينى خلال القرن الثالث عشر ؛ بل إنها لا تتمثل فى موجة

---

(١) تلك الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى كانت مصائبها العضال موضع خاتمة طويلة أوردها جيبون فى مؤلفه . (المؤلف)

الغزو المبكرة التي شنها الغزاة الأتراك السلاجقة على قلب الأناضول إبان القرن الحادى عشر . أن نقطة التحول تتجلى – فى رأينا – فى حدث داخلى بحت ، نعتبره تقدمة جميع الأحداث السالفة الذكر . هذا الحدث هو الحرب البيزنطية البلغارية (٩٧٧ – ١٠١٩ ميلادية) . إذ استمر هذا النزاع الأهلى بين قوتى العالم المسيحى الأرثوذكسى الكبيرتين ، حتى أسفر عن زوال الكيان السياسى لأحد المتنازعين ، ومكابدة الآخر جراحاً لم يبرأ منها قط .

ولم يكن فى فتح الباديشاه العثمانى محمد الثانى القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، نهاية الحضارة المسيحية الأرثوذكسية . فإن من المتناقضات العجيبة ، أن يزود الفاتح الدخيل ، المجتمع الذى غزاه ، بدولته العالمية . إذ أنه على الرغم من أن كنيسة أياصوفيا المسيحية قد أصبحت مسجداً إسلامياً ، فإن الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ، قد استمرت تحيا الفترة المقدرة لحياتها ، على غرار الحضارة الهندية التى عاشت فى ظل دولة عالمية تركية الأصل أقامها السلطان المغولى « أكبر » بعد الغزو التركى للقسطنطينية بمائة عام . كما أنها عاشت بعد ذلك فى ظل الحكم البريطانى[١] ، وليس هو دخيلا على الهند بأكثر من الحكم المغولى عليها .

وبمرور الوقت ، تطرق انحلال مثير إلى ذلك الجزء من الإمبراطورية العثمانية التركية ، واتخذت إمارات الشرود سبيلها إلى داخل هذا الكيان الذى يتطابق مع مجال المجتمع المسيحى الأرثوذكسى . ومصداقاً لذلك ، طفق اليونانيون والمصريون والألبانيون يجيشون بالحركة قبل نهاية القرن الثامن عشر .

فلماذا لم يترتب عن هذه الحركات « انتصار البربرية والدين » ؛ على غرار ما وجدناه قبل الآن فى ثنايا النهاية الأخيرة للمجتمع الهلينى ، وللمجتمع الصينى ، وغيرهما من المجتمعات ؟

---

(١) The British Raj

مناط الإجابة أن المسيحية الغربية فى سيرها القوى فى طريق توسعها الذى لا يدفع ؛ كانت تطأ بقوة ، أعقاب هؤلاء الورثة العقيمين لبرابرة المجتمع المسيحى الأرثوذكسى . ومن ثم تمثلت فى انتصار الاتجاه الغربى — وليس انتصار البربرية والدين — العملية التى تحكمت فى الواقع فى تعطل الإمبراطورية العثمانية . وعوضاً عن أن تتخذ الدول التى تخلفت عن الإمبراطورية العثمانية شكلها الطبيعى كإيالات بربرية على نمط « عصر البطولة » ؛ صاغها الضغط الغربى — بالسرعة التى انبعثت بها — إلى دول قومية تقلد الدول الأعضاء فى مجتمع الدول الغربية . وكان المجتمع الغربى فى ذلك الوقت بالذات ، يجرى إعادة تنظيم نفسه على أساس قومى .

على أن فقدان الشخصية — من وجهة نظر أخرى — سيغدو أكثر استكمالا وليس أقل من ذلك . لأن المجتمع الذى يزول عن طريق اندماجه فى مجتمع آخر ، يحتفظ بشىء من عنصر الاستمرار فى تركيبه المادى . وذلك على حساب تفريطه التام فى فرصة قد تسنح له لإقامة مجتمع منبثق ، عساه أن يمثله فى الجيل التالى . مثلما يعتبر مجتمعنا ممثلا أصدق تمثيل للمجتمع الهلينى ، والمجتمع الهندى ممثلا للمجتمع السندى ، ومجتمع الشرق الأقصى ممثلا للمجتمع الصينى .

إن المثال الذى دار بخلدنا عن عملية الانقراض بطريقة الاندماج ، قد تجلى فى اندماج كيان المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الرئيسى ، فى الكيان الاجتماعى لحضارتنا الغربية . لكن فى مُكنتنا أن نُدرك للوهلة الأولى ، أن الحضارات القائمة الأخرى ، توشك بأسرها أن تسلك نفس الطريق : هذا هو التاريخ السائر لغصين المسيحية الأرثوذكسية فى روسيا ، وللمجتمعين الإسلامى والهندى ، ولفرعى[1] مجتمع الشرق الأقصى . ويصدق كذلك على الجماعات المتعطلة الباقية الثلاث : الاسكيمو ، البدو ، البولونيزيين ؛

---

(١) أى فرع الصين ، وفرع اليابان . (المترجم)

وجميعها فى مرحلة اندماج بالحضارة الغربية . طالما لن يحطمها الإشعاع الاجتماعى للحضارة الغربية تحطيما تاماً .

وفى مكنتنا أن ندرك أيضاً أن عدداً من الحضارات المنقرضة فى الوقت الحاضر ، قد فقدت ذاتيتها وفقاً للأسلوب نفسه . فإن مرحلة الاتجاه الغربى التى أخذت فى مداهمة المسيحية الأرثوذكسية منذ نهاية القرن السابع عشر ، قد داهمت المجتمعين المكسيكى والأنديانى فى العالم الجديد قبل ذلك بحوالى القرنين . ويبدو أن مرحلة الاتجاه الغربى ، قد استكملت حلقاتها فى كلتا الحالتين افتراضاً .

ولقد سبق للمجتمع السورى أن أدمج المجتمع البابلى فى ذاتيته ، خلال القرن الأخير قبل الميلاد . كما استوعبت ذاتية المجتمع السورى ، المجتمع المصرى بعد ذلك ببضعة قرون . ولعل هذا الاستيعاب السورى للمجتمع المصرى — وهو أطول الحضارات المعروفة حتى الآن عمراً وأشدها تماسكاً واتحاداً — أخطر ظاهرة للاندماج الاجتماعى عرفت حتى الآن .

والآن ، إن تطلعنا إلى الحضارات القائمة والتى تسير فى سبيل الاندماج بالحضارة الغربية ؛ نجد العملية تمضى قُدُماً فى خطوات مختلفة وعلى مسطحات متباينة وفقاً لما يظهر مما يلى :

(أ) بالنسبة للسطح الاقتصادى — نجد شبكة العلاقات التى نشرتها حركة التصنيع الغربى الحديثة فى جميع أرجاء العالم المعمور ، قد أمسكت بتلابيب هذه المجتمعات كافة . وفى هذا يقول الشاعر :

إن متفلسفيها قد شاهدوا

الضوء الكهربائى القادم من الغرب ، فوفدوا يتعبدون[١]

(ب) بالنسبة للمستوى السياسى — ما فتئ أبناء هذه الحضارات المشرفة

---

(١) Bridges, R. : The Testament of Beauty, Book I, II, 694—6

على الموت — كما هو ظاهر — تسعى إلى قبولها فى جماعة النظم السياسية الغربية بمختلف الوسائل .

(حـ) بالنسبة للمستوى الثقافى — لا يشابه الاتجاه هنا ما رأيناه بالنسبة للمستويين السالفى الذكر من جهة اطراد حدوثهما ، وفقاً لمـا يبدو من العرض التالى :

أولا : بالنسبة للكيان الأصلى للمسيحية الأرثوذكسية ، أى اليونانيون والصربيون والرومانيون والبلغاريون ، وهم الرعية السابقة للإمبراطورية العثمانية[١] ، فظاهر أنهم يرحبون ترحيباً قلبياً بسريان الطابع الغربى على منحاهم الثقافى وعلى اتجاهيهما الثقافى والاقتصادى كذلك[٢] .

ولقد احتذا حذوهم الأتراك سادتهم السابقين .

ثانياً : بالنسبة للعرب والفرس والهنود والصينيين واليابانيين ، فإنهم عكس الحالات السالفة الذكر التى يبدو أنها أمثلة استثنائية — يتقبلون الثقافة الغربية مع إبداء طائفة من التحفظات الذهنية والأدبية التى تتسم بالوعى والإدراك . هذا إن فرض تقبلهم إياها[٣] .

ثالثاً : بالنسبة للروس — فإنه قد سبقت فى موضع سابق مناقشة المظهر المبهم لاستجابتهم على تحدى الغرب لهم .

---

(١) وهم ما يطلق عليهم المؤلف اسم « القطيع البشرى » كما ذكر فى موضع سابق . (المترجم)

(٢) كتب العلامة توينبى هذه السطور قبل تغلب النظام الشيوعى على بلاد يوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وغيرها . وما تبع هـذا من اتجاهها سياسياً واقتصادياً وثقافياً نحو الاتحاد السوفيتى . (المترجم)

(٣) تنزو الثقافة الغربية اليابان . ويقبل اليابانيون بعد هزيمتهم الأخيرة على أساليب الغرب وأنماطه إقبالا أذهلنى وقتما كنت فى اليابان (١٩٥٥/١٩٥٧) . ومن ثم أخذ الطابع اليابانى فى المأكل والملبس والمسكن والرياضة والموسيقى . الخ يختفى لتحل مكانه ضروب الثقافة الغربية سيما الأمريكية . أما الصين فقد غلب النظام الشيوعى عليها منذ أواخر عام ١٩٤٩ . (المترجم)

ولقد يدلل هذا الاستعراض السالف الذكر على أن اتجاه العالم نحو توحيده داخل إطار غربي مماثل الأوضاع على المستويات : الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ما يزال سابقاً لأوانه ، وإن أوحت النظرة الأولى أن نجاح ذلك التوحيد نهائياً ، أمر مضمون .

هذا من جهة ؛ ومن الجهة الأخرى تطالعنا حالات أربع للمجتمعات المكسيكية والأنديانية والبابلية والمصرية ، تكفى لإقامة الدليل على صحة القول بأن خسران الذاتية بسبب الاندماج ، يماثل تماماً خسرانها عن طريق بديل له هو « التحلل » . وهو الذى قاد إلى نهاية المجتمعات الهلينية والهندية والصينية والمينووية .

وما علينا الآن ، إلا أن نُعيد توجيه التفاتنا إلى ما هو قبل كل شيء هدف الفصل الحاضر . ونتأمل فيما إذا كانت المصائر التى لاقتها هذه المجتمعات أو التى ما برحت تلاقيها الآن — أى التوحيد والاندماج فى مجتمع مجاور — هى الأسباب الحقيقية لانهيارها . أو فيما إذا كان الانهيار — كما ألفيناه فى المجموعة الأخرى التى فحصناها فيما سبق — قد حدث بالفعل ، قبل أن تبدأ عملية التوحيد والاندماج عملها . فإذا انتهينا إلى الاستنتاج الأخير ، نكون قد استكملنا بحثنا الحاضر ، وبتنا فى مركز يتيح لنا تقرير أن فقدان السيطرة على بيئة مجتمع ما — سواء أكانت البيئة اجتماعية أو بشرية — ليس هو العامل الأول فى انهيار الحضارات ، الذى نبحث عنه .

فلقد علمنا مثلا أن الكيان الرئيسى للمسيحية الأرثوذكسية ، لم يفقد ذاتيته بفعل الاستيعاب ، حتى انتهت دولته العالمية إلى فترة فراغ . كما علمنا أن الانهيار الفعلى قد بدأ مع الحرب الرومانية البلغارية التى نشبت قبل حدوث أية إمارة ظاهرة من إمارات الاتجاه نحو التأثر بالغرب .

فإذا تطلعنا إلى المجتمع المصرى ، نجد الفاصلة بين انهياره واستيعابه

المجتمع السورى له ، أطول من المألوف فى المجتمعات الأخرى بكثير جداً . فإن ثمة ما يبرر تعيين موضع هذا الانهيار فى مكان قصى إلى الوراء خلال فترة الانتقال من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة ، أى حوالى عام ٢٤٢٤ قبل الميلاد ، وقتما حلت خطايا بناة الأهرام على خلفائهم ، فتهدمت القمة الثقيلة لبناء « الدولة القديمة » السيامى .

ولم تكن الفاصلة بين الانهيار وبداية عملية التوحيد فى مجتمع الشرق الأقصى طويلة المدى مثلما بلغت فى التاريخ المصرى(١) . لأن انهيار مجتمع الشرق الأقصى ، قد يتعادل فى الزمن مع اضمحلال أسرة « تانج » إبان الربع الأخير من القرن التاسع الميلادى . ولقد تلا بداية عصر الاضطرابات الذى أعقب هذا الاضمحلال ، انبعاث إمبراطوريات شيدها البرابرة ، وتعتبر مظهراً مجسماً لدولة عالمية ؛ وكانت الإمبراطورية المغولية(٢) التى أقامها قوبلاى خان ، أولاها . إلا أنها تعتبر أقل توفيقاً فى نتيجتها مما أتاحته إمبراطوريات مماثلة من ناحية أصولها البدوية ، للمجتمع الهندى بفضل السلطان أكبر ، وللمجتمع المسيحى الأرثوذكسى بفضل محمد الفاتح . فإن الصينيين مسيرين بالمبدأ القائل « إننى أخشى اليونانيين حتى ولو جاءونى بمنافع(٣) » قد طردوا المغول مثلما طرد المصريون الهكسوس . على أنه كان على المانشو(٤) أن يأتوا ويذهبوا ، قبل أن يتهيأ المجال للاتجاه نحو الأساليب الغربية(٥) .

ولقد حلّت صدمة الحضارة الغربية فى روسيا واليابان فى مرحلة مبكرة

---

(١) وإن كان أطول مدى نوعاً ما ، مما هى فى تاريخ المسيحية الأرثوذكسية . (المؤلف)

(٢) Pax Mangolla

(٣) Timeo Danaos et dona ferentes

(٤) سكان منشوريا — المقاطعة الواقعة فى أقصى شمال الصين . (المترجم)

(٥) كتب الأستاذ توينبى هذه العبارة قبل سيطرة النظام الشيوعى على الصين وما تلا ذلك من مناهضته للاتجاه الغربى اللهم إلا ما يتصل بحركة التصنيع . (المترجم)

إبان انحطاط الحضارتين اللتين تنتسب إليهما هاتان الدولتان الكبيرتان اللتان تنتهجان اليوم نهجاً غربياً . فإن الانحلال كان قد أصاب روسيا القيصرية واليابان الشوجونية[١] . لأن روسيا القيصرية التي حولها بطرس الأكبر إلى دولة قومية عضو في المجتمع الغربي ، واليابان التي تحوّلت من شوجونية توكوجاوا إلى دولة قومية عضو في جماعة الأمم الغربية وقتما استرد ساسة اليابان للإمبراطور ميجي سلطانه المسلوب ؛ كانت الدولتان قد بلغتا فعلا مرحلة الدولة العالمية قبل الاتجاه صوب التأثر بالغرب بثلاثمئة عام بالنسبة لليابان ، ومائتي عام بالنسبة لروسيا . على أنه في هاتين الحالتين ، لا يوجد سوى دليل ضئيل على أن ما حققه بطرس الأكبر وساسة اليابان ، جدير باعتباره انهياراً حضارياً . فإن المآثر التي تحققت بفضلهم – هي نقيض ما تشهد به جميع المظاهر – قد بلغت درجة من النجاح ، بحيث أن كثيرين من المراقبين قد يميلون إلى النظر إليها كشاهد على أن المجتمعات التي تتعمد إقحام نفسها عن طريق هذا الانسلاخ[٢] الأصيل ، والتي تتخذ من هذا الطريق منفذاً تسلكه ولو في الوقت الحاضر ؛ هي يقيناً ما تزال في وثبة الارتقاء الكاملة ، إلا إن صادفها سوء الطالع[٣].

على أية حال ؛ تتعارض الاستجابة الروسية واليابانية ، تعارضاً حاداً

---

(١) نسبة إلى Shogmate وهي نظام عسكري شاع في اليابان فترة طويلة . وبمقتضاه كانت أسرة تحكم البلاد حكماً مطلقاً مع ترك السلطة الإسمية للإمبراطور « الميكادو » . وآخر العائلات عائلة توكوجاوا . ويشبه بذلك النظام نظام السلاطين الذي ساد العالم الإسلامي في العصر العباسي الأخير . (المترجم)

(٢) الانسلاخ Metamorphosis ، أي التحول من حالة إلى أخرى . (المترجم)

(٣) مثلما صادف اليابان لما هزمت في الحرب الأخيرة هزيمة لا تقتصر على الميدان الحربي بل جاوزتها إلى النواحي الروحية والثقافية . على أن الأمة اليابانية أثبتت حيويتها الفائقة في ازدهار اقتصادياتها وتقدمها الثقافي وفقاً للمنحى التفكيري الغربي . حتى باتت خيراً مما كانت عليه قبل الحرب . (المترجم)

مع ما لمسناه من قصور العثمانيين والهندوس والصينيين والأزتيكيين(١) والانكيين(٢) ، فى مجابهتهم تحديا مماثلا للتحدى الذى استجابت له روسيا واليابان . فإن الروس واليابانيين – عوضا عن خضوعهم قسرا لعملية الاتجاه الثقافى الغربى على أيدى جيرانهم البولونيين والسويديين والألمان أو الأمريكيين (بالنسبة لليابانيين) – قد تولوا هم أنفسهم إنجاز عملية انسلاخهم الاجتماعى : فتمكنوا بذلك من دخول جماعة الأمم الغربية على قدم المساواة مع الدول العظمى . فجنبوا بلادهم السيطرة الاستعمارية أو الارتباط بالغرب فى علاقات دولية ذليلة .

وجدير بالملاحظة أن الروس واليابانيين قد عانوا خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر – أى قبل عصر بطرس الأكبر بمائة سنة وقبل استعادة الإمبراطور ميجى سلطانه بقرنين ونصف قرن – محاولة غربية للسيطرة عليهم وفقاً لما اتبعه الغرب فى أماكن أخرى ، إلا أنهم وفقوا فى صدها . واتخذ الضغط الغربى فى حالة الروس شكلا فجا تمثل فى الغزو الحربى المنظم الذى قاد إلى احتلال قوات جارة روسيا الغربية – مملكة بولونيا وليتوانيا المتحدة – موسكو احتلالا موقوتا بحجة مساندة أحد أدعياء العرش الروسى « ديمترى المزيف » : واتخذ الضغط الغربى فى الحالة اليابانية شكلا أكثر تساميا مبناه قيام البعثات التبشيرية الكاثوليكية الاسبانية والبرتغالية ، بتحويل بضعة مئات الألوف من النفوس اليابانية إلى الكاثوليكية . ولو عاشت هذه الأقلية المسيحية المتحمسة ، لكان من المحتمل أن تسعى على مر الأيام إلى فرض سيادتها على اليابان بمساعدة الأسطول الاسبانى المستند على جزائر الفلبين .

---

(١) الأزتيك – قبيلة كانت تسكن المكسيك وقت الفتح الأسبانى عام ١٥١٩ ميلادية . ولقد انهارت مقاومتها أمام الاسبانيين وانتهت الحضارة الأزتيكية منذ ذلك الحين . (المترجم)

(٢) نسبة إلى إنكا Inca وهو لقب كان يطلق على حكام بيرو حتى الفتح الأسبانى تحت قيادة بيزارو عام ١٥٢١ . (المترجم)

على أن الروس قد دفعوا بالبولنديين خارج بلادهم . كما طرد اليابانيون « الخطر الأبيض »[1] بإقصائهم جميع البعثات التبشيرية والتجار الغربيين المقيمين فى اليابان ، وبحريمهم على الغربيين أن يطأوا الأرض اليابانية باستثناء بضعة تجار من الهولنديين سمح لهم بالإقامة فى ظل شروط مهينة ، وأخيرا باستئصال الجماعة الكاثوليكية اليابانية بوساطة اضطهادها اضطهاداً جائراً .

ولقد ظن الروس واليابانيون بعد أن تخلصوا من « مسألتهم الغربية » ، أنه لم يبق لهم سوى الانسحاب إلى « مكامنهم » والعيش قريرى العين . بيد أنه لما أظهرت الأحداث عقم تلك السياسة ، طفقوا يقومون باستجابات أصيلة إيجابية سبقت لنا وصفها .

بيد أن ثمة دلائل لا تخطئ ، عن أنه قبل أن تبحر أول سفينة برتغالية إلى ناجازاكى ، وقبل أن تبحر أول سفينة إنجليزية إلى أركانجل[2] ، كانت حضارة الشرق الأقصى فى اليابان ، وحضارة المسيحية الأرثوذكسية فى روسيا ، قد انهارتا بالفعل :

إذ لا يعتبر « عصر الاضطرابات » فى التاريخ الروسى[3] ، هو دورة الاضطراب خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر . وهو التعبير الذى صكه الروس أنفسهم ، للدلالة على هذا النوع من الاضطرابات . إذ كانت الدورة مجرد فعل إضافى بين مرحلتى الدولة العالمية الروسية الأولى والثانية ، تتطابق مع دورة الاضطرابات التى

---

(١) يشير المؤلف باصطلاح « الخطر الأبيض » الذى أحس به اليابانيون فى القرن السادس عشر إلى الخطر الأصفر الذى أدركه اليابانيون منذ انتصار اليابان نفسها على روسيا القيصرية عام ١٩٠٤. (المترجم)

(٢) أركانجل ميناء روسية على المحيط المتجمد الشمالى . ويعتبر هذا أول نذير بالتدخل الغربى فى الشئون الروسية سبق الغزو البولونى لموسكو . (المؤلف)

(٣) بالمعنى الذى يستخدم فيه هذا الاصطلاح فى هذه الدراسة . (المؤلف)

حدثت فى العالم الأثينى خلال القرن الثالث بين عصر الأنطونيين وجلوس دقلديانوس على العرش .

أما الفصل من التاريخ الروسى الذى يتطابق مع ذلك الفصل من التاريخ الهلينى الذى يقع بين الحرب البلوبونيزية والسلام الذى فرضته إمبراطورية أغسطس[1] ، والذى يمثّل فعلا عصر الاضطرابات الروسى بمفهومنا ، فإنه يقع فى نطاق فترة الكارثة التى تقدمت تشييد الدولة الروسية العالمية ، بفضل توحيد موسكو ونفوجورود عام ١٤٧٨ ميلادية .

والمثل يقال عن عصر الاضطرابات فى التاريخ اليابانى . إذ تمثله فترتا فوضى الإقطاع فى كاماكورا وآشيكاجا اللتان سبقتا التوحيد والمهادنة النظاميين ، اللذين قاما بتنفيذهما نوبوناجا Nobonage وهيديوشى Hideyoshi وإياسو eyasu . ويمتد الزمن الذى استغرقته كلتا الفترتين – وفقاً للمؤرخات المعتمدة – من ١١٨٤ إلى ١٥٩٧ ميلادية :

فإذا كان الزمنان السالفا الذكر ، عصر الاضطرابات الروسى واليابانى ؛ يصبح علينا أن نبحث فيما إذ كان عصر الاضطرابات فى كلتا الحالتين ، قد عجّل به فعل موجب للانتحار ، أو نتيجة فعل خصم خارجى :

أولا : بالنسبة للحالة الروسية – ثمة تفسير شائع للانهيار يسلّم به المؤرخ المعاصر للعصور الوسطى الغربية ، مداره أن الانهيار يرد إلى عدوان المغول البدو المنحدرين من السهل الأوراسى : بيد أنه قد سبق لنا رفض حالات أخرى مماثلة[2] ، مثل الحجة القائلة بأن البدو الأوراسيين هم أس المصائب التى ألمّت بتلك الحالات : أليس من الجائز كذلك أن يكون المجتمع المسيحى الأرثوذكسى فى روسيا قد جلب بنفسه فعلا عامل انهياره ، قبل أن يعبر المغول نهر الفولجا عام ١٢٣٨ ؟

---

(١) Pax Augusta

(٢) مثل حالة الفرع الأقدم : المجتمع المسيحى الأرثوذكسى . (المؤلف)

إن انقسام إمارة كييف الروسية البدائية إلى حشد من الدول المتنازعة التى خلفتها إبان القرن الثانى عشر الميلادى ، شاهد صدق على صحة هذه الفكرة .

ثانياً : بالنسبة لليابان — يبدو الوضع أكثر وضوحاً : إذ لا يمكن رد حالة الانهيار هنا إلى عدوان المغول الذى صدّه اليابانيون عن شواطئهم بنجاح عام ١٢٨١ ميلادية . فإذا رغبنا فى استقصاء عامل هذا النصر الماراثونى Marathonic[1] ، نجد أن جانبا من النصر يرجع بلا شك إلى موقع اليابان الجغرافى ، بحسبانها جزيرة . إلا أن الجانب الأكبر منه يرجع إلى الخبرة فى القتال التى اكتسبها اليابانيون أثناء عراكهم مع بعضهم بعضا ، إبان عصر الاضطرابات الذى شملهم أكثر من مائة عام .

وكما حدث فى حالتى روسيا واليابان ، اتفق فى تاريخ المجتمعات الهندية والبابلية والأنديانية ، حدوث عملية استيعاب حضارة دخيلة لكل هذه المجتمعات . وذلك وقتما كانت المجتمعات الآخذة فى الانحلال ، فى مرحلة الدولة العالمية . وحرى بالذكر ، أن عملية الاستيعاب ، قد اتخذت صورة كارثة فى حالات المجتمعات الهندية والبابلية والأنديانية . إذ عانت غزواً عسكرياً دخيلا :

فأولا : سبق الغزو البريطانى فى التاريخ الهندى ، غزو مسلم تركى يرتد إلى زمن أبعد كثيراً من عصر « المغول العظام » . إذ يرجع إلى أعوام ١١٩١ — ١٢٠٤ ميلادية . ويرد هذا الغزو الأجنبى مثلما ترد الغزوتان التاليتان له (مغولية وبريطانية) — حسب المتعارف عليه — إلى حقيقة مبناها أن المجتمع الهندى ، كان بالفعل فى حالة فوضى أزمنت .

ثانياً : استوعب المجتمع السورى ، المجتمع البابلى عقب غزو قورش

---

(٥) يشبه المؤلف هنا المعركة البحرية التى انتصر فيها اليابانيون على المغول بمعركة ماراثون التى انتصر فيها اليونانيون على الفرس انتصاراً مبيناً . (المترجم)

الفارسي إمبراطورية نبوخذ نصر التي أصبحت دولته العالمية . وتركت الثقافة البابلية منذ ذلك الحين وما بعده ، الطريق للمجتمع السورى الذى تعتبر الإمبراطورية الأخيمينية دولته العالمية . على أن عامل الانهيار البابلى يكمن فى استفحال الروح العسكرية السورية :

ثالثاً : يبدو بالنسبة للمجتمع الأنديانى ، صدق القول بأن الغزاة الإسبان قد حطموا إمبراطورية الأنكا : ومن الجائز أنه لو لم تجد شعوب العالم الغربى طريقها عبر الأطلسى ، لبقيت إمبراطورية الانكا بضعة قرون أخرى . بيد أن تدميرها لا يتماثل مع مسألة انهيار الحضارة الأنديانية . فإن معرفتنا بالتاريخ الانديانى تتيح لنا إدراك أن الانهيار قد اتخذ سبيله قبل تدمير إمبراطورية الانكا ، وأن نهضة أهالى الانكا حربياً وسياسياً طوال القرن الذى سبق الغزو الإسبانى – وهو أبعد من أن يتطابق مع النهضة الثقافية للحضارة الأنديانية – كان بالفعل حدثاً فى انحلالها .

رابعاً : سقطت الحضارة المكسيكية أمام الغزاة الإسبان فى مرحلة سبقت مرحلة حطم إمبراطورية الانكا : وتم ذلك وقتما عجزت إمبراطورية الأزتيك عن الصمود أمام غزاتها . وإن كان قد تبين أنه قدّر لها أن تصبح الدولة العالمية لمجتمعها .

وفى وسعنا أن نعبّر عن الاختلاف بالقول[1] بأنه قد تم غزو المجتمع الأنديانى فى عصره الأنطونى ، بينما تم غزو المجتمع المكسيكى فى عصر سيبيو ، لكن « عصر السيبيوين » عبارة تستخدم فى عصر اضطرابات . ومن ثم يعتبر – وفقاً للتعريف – عقبي انهيار سابق .

خامساً : أما عن العالم الإسلامى – فقد أصبح للاتجاه الغربى اليد الطولى قبل أن تلوح فى الأفق نذر أية دولة إسلامية عالمية . وتبذل الدول أعضاء العالم الإسلامى – فارس والعراق والسعودية ومصر وسوريا ولبنان وبقيهم –

---

(١) يستخدم الأستاذ توينبى اصطلاحات عند كلامه عن حالة المجتمين الأنديانى والمكسيكى ، اصطلاحات سبق له استخدامها عن كلامه عن التاريخ الإيطالى . (المترجم)

خير جهودها لتحقيق عمل لا ترتاح إليه نوعاً ما ، يتصل بعلاقاتها السيئة مع جماعة الأمم الغربية . إن حركة الجامعة الإسلامية ، يبدو أنها قد أصبحت حركة عقيمة .

وقد يستعرض عدد آخر من الحضارات ، بما فى ذلك البعض الذى نما إلى مرتبة النضوج . وتستعرض كذلك الحضارات المتعطلة بل وحتى الحضارات العقيمة . أما بالنسبة للحضارات التى بلغت كمال نموها ، فإن بعضها كالحيثية والمينووية والمايانية ، ما يزال الباحثون الحديثون عاجزين عن حل رموز تواريخها حلا كاملا . وبالتالى ، فإن استخلاص نتائج من تلك التواريخ يعتبر من سبق الحوادث . أما عن الحضارات المتعطلة ، فإن استعراضها لن يثمر أية ثمرة للبحث الحالى . لأنها بحكم تعريفها ، حضارات استكملت تكوينها ، لكنها لم تستمر فى طريق الارتقاء . أما الحضارات العقيمة ، فإنها أدعى أن تكون بطبيعتها غامضة :

(٣) — حكم سلبي

لعلنا نكون قد استخلصنا من البحث المتقدم نتيجة صادقة مبناها عدم الاهتداء إلى سبب انهيارات الحضارات فيما أسميناه « فقدان السيطرة على البيئة البشرية » ، على أساس طغيان قوى بشرية دخيلة على حياة أى مجتمع نتقصى سبب انهياره :

ولقد تبين فى جميع الحالات التى استعرضناها ، أن أقصى ما يلحقه عدو أجنبي ، لا يعدو توجيه ضربة قاضية إلى مجتمع ينتحر ، يلفظ أنفاسه الأخيرة :

فإن اتخذ العدوان شكل هجوم عنيف فى مرحلة من مراحل حضارة ، لن يقود العدوان على الفريق المعتدى عليه إلى تدميره ؛ لكن يستثير بصفة قاطعة ، طاقاته الكامنة . وتطالعنا حالة العدوان الفارسى على المجتمع الهلينى فى مستهل القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ استثار فيه أسمى

مظاهر العبقرية . والمثل يقال عن هجمات الاسكندنافيين والمجريين خلال القرن التاسع الميلادى ، إذ استثارت المجتمع الغربى إلى تحقيق تلك المآثر التى تتسم بالإقدام والحنكة السياسية ، اللتين أسفرا عن تشييد مملكتى انجلترا وفرنسا ، وقيام السكسونيين بإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ؛ واستثارت إغارات الهوهاستوفين Hohenstaufens ، المدن فى إيطاليا الشمالية ؛ واستثارت هجمات أسبانيا ، الانجليز والهولنديين . واستثارت هجمات المسلمين خلال القرن الثامن الميلادى ، المجتمع الهندى الناشئ .

يتضح لنا من إيراد الأمثلة السالفة الذكر ، أنها حالات كان فيها الفريق المعتدى عليه ما يزال فى مرحلة النمو . وأنه يستثنى منها المرحلة التى تلفظ فيها الحضارة أنفاسها الأخيرة . كما أن فى مكنتنا أن نسرد عدداً من الحالات لا تقل عدداً عن الحالات السابقة ، هيأ فيها العدوان الأجنبى استثارة موقوتة لمجتمع قد انهار بالفعل ؛ ويتم ذلك بوساطة توجيه نفسه توجيها فظا .

ويطالعنا هنا المثال التقليدى عن تكرار رد فعل المجتمع المصرى لهذا الضرب من الاستثارة . إذ أُستثير رد الفعل المصرى هذا المرة بعد المرة ، طوال فترة ألفى سنة . ويُعتبر تجاوز المجتمع المصرى الفعلى مرحلة دولته العالمية ودخوله مرحلة الفراغ ، بداية هذه الخاتمة الطويلة لهذا المجتمع ؛ وكان يتوقع أن تتطور الخاتمة إلى انحلال سريع . بيد أنه أُستثير إبان هذه المرحلة الأخيرة ، عندما طُرد الغزاة الهكسوس . ثم أُستثير بعد ذلك بزمن طويل ليصدّ هجمات غزاة البحر المتتالية ، ثم غزوات الأشوريين والفرس . . . وأخيرا بعد ذلك كله ؛ استثير المجتمع المصرى ، استثارة انبنت عليها مقاومته العنيدة الناجحة ، لمحاولة البطالسة صبغته بالصبغة الهلينية ؛

وثمة طائفة من الحالات المشابهة للحالة المصرية ، تتصل بردود الفعل ضد الضربات والضغوط الخارجية ؛ وردت فى تاريخ حضارة الشرق

الأقصى فى الصين . إذ يعيد قيام أسرة مينج Ming بطرد المغول ، إلى الذهن طرد مؤسسى « الدولة الجديدة الطيبيين »[١] الغزاة الهكسوس . ولمقاومة المجتمع المصرى عملية اصطباغه بالصبغة الهلينية ، ما يماثلها فى حركة الصين المناهضة للغرب التى تجلّت فى ثورة البوكسر[٢] عام ١٩٠٠ ، وفى محاولتها خلال عامى ١٩٢٥ و ١٩٢٧ أن تقاتل معركتها الخاسرة حتى نهايتها المرّة ، بوساطة استعارتها أسلحة من روسيا الشيوعية[٣] .

ولعل هذه التفسيرات التى يسهل إردافها بأخرى كثيرة ؛ ما يكفى لتأييد نظريتنا القائلة باعتبار التأثير العادى للضربات والضغوط من الخارج ، عامل استثارة لا عامل تدمير . فإن قُبلت هذه النظرية ، فإنها تؤكّد النتيجة التى انتهينا إليها ومبناها أن فقدان السيطرة على البيئة البشرية ، ليس هو علّة انهيار الحضارات »[٤] .

---

(١) نسبة إلى طيبة (الأقصر الحالية) . والدولة الجديدة هى التى بدأت بالأسرة الثامنة عشرة التى أسسها أحمس الأول محرر مصر من الهكسوس . (المترجم)

(٢) البوكسر : اسم أطلقه الأوربيون على أعضاء جماعة سرية فى الصين . تألفت عام ١٨٩٦ على أسس دينية سياسية فى مقاطعة شانتونج بالصين . وجماع مبادئها معارضة النفوذ الأجنبى . ولقد اشتدت كراهية أعضاء الجماعة للأجانب عقب مطالبة الدول الغربية بالحصول على مزيد من الامتيازات والأراضى من الصين . فانطلقوا فى ثورة عارمة يقتلون الأجانب . وصمموا على محو النفوذ الأجنبى من الصين ، فأخذوا يقتلون أعضاء الإرساليات الأجنبية ويحطمون أملاكها وينهبونها ويذبحون الصينيين المسيحيين باعتبارهم قد تأثروا بالأفكار الأجنبية . وقتل فى الثورة مستشار مفوضية اليابان ووزير ألمانيا المفوض . وجدير بالذكر أن قوات الحكومة كانت تناصر الثورة . عندئذ تدخلت القوات الأوروبية وانضمت إليها قوات أمريكية ويابانية لسحق الثورة . فنشب قتال عنيف فى كثير من مدن الصين ، انتهى بالقضاء على الثوار ، واضطرت حكومة الصين إلى دفع تعويضات طائلة للدول الغربية واليابان .

(المترجم)

(٣) واصلت الصين حركتها التحررية ضد الغرب حتى أمكنها التخلص نهائياً من النفوذ الأجنبى . (المترجم)

ملاحظة المختصر :

(٤) قد يميل بعض القراء إلى الاعتقاد بأن الأستاذ المؤلف قد أرجع فى الفصل السابق أكثر من نتيجة للمناقشة التى باشرها فى تاريخه بالنسبة لانهيارات الحضارات ؛ إلى أزمنة مبكرة بشكل لا يمكن استساغته . فإن حدث ذلك ، يكون مصدر ذلك الاعتقاد سوء الفهم المترتب عن =

= معنى اصطلاح « انهيار » . فإننا حينما نتكلم عن شخص يعانى انهيار فى صحته ، نقصد بذلك أنه إن لم يتدارك الانهيار بالشفاء المعقب ، تنتهى حياة الشخص الناشطة . وحقاً فإننا نستخدم اصطلاح « الانهيار » فى المناقشة العادية ليعنى إلى أعظم حد ، ما يعنيه الأستاذ توينبى إذ يكتب عن « الانحلال » . لكن الانهيار ، لا يعنى تماماً فى هذه الدراسة أن المقصود به نهاية مرحلة الارتقاء . والواقع أن إيراد المجانسات من الحيـــاة العضوية ، عمل يتسم دائماً بالخطورة عند مناقشة المجتمعات . لكن القارئ قد يذكر أن عملية الارتقاء تنتهى فى حياة الكائن العضوى مبكراً نسبياً . ويكمُن الاختلاف بين كائن حى ومجتمع – وفقاً لـــا أظهره المؤلف بعد كد وعناء فى الفصل الذى سبق الفصل الذى نكتب نتيجته – فى أن فترة حياة الكائن الحى ، تعينها طبيعته ذاتها . إن أيام سنواتنا هى ثلاثة عشرينات من الأعوام وعشرة أعوام ، فى حين لا يشير التاريخ إلى أية حدود لفترة الحياة الممكنة لمجتمع . لكن المجتمع يموت دائماً بسبب الانتحار أو القتل ، وإنه ليموت دائماً بفضل العامل الأول ، وفقاً لما أظهره هذا الفصل . وبالمثل فإن نهاية فترة الارتقاء التى هى حادث طبيعى فى تاريخ الكائن الحى ، هى حادث غير طبيعى سواء بسبب الجرم أو الزلل – فى تاريخ المجتمع . وقد استخدم المستر توينبى اصطلاح « الانهيار » للدلالة على هذا الجرم أو الزلل ؛ تحقيقاً لأغراض هذه الدراسة[1] . وسيتبين أنه عندما يستخدم الاصطلاح بهذا المعنى ، فإن طائفة من أهم الأعمال المثمرة النيرة والمشهورة فى تاريخ حضارة ما ، قد جاءت فى أعقاب الانهيار – أو بالفعل – نتيجة له .

سياق الاستدلال

البـاب الأول

المقـــــــدمة

الفصل الأول : وحدة الدراسة التاريخية

إن وحدات الدراسة التاريخية الواضحة المعالم ، ليست هى الأمم أو العصور ، لكنها « المجتمعات » : ويبدى فحص التاريخ الإنجليزى فصلا فصلا ، عدم قابليته للفهم كشيء فى حد ذاته ؛ لكنه لا يفهم إلا جزءاً من كل أكبر . ويشغل هذا الكل أجزاءاً (من قبيل المثال : إنجلترا وفرنسا وهولندا) ؛ تخضع لعوامل مثيرة مطابقة ، أو تحديات : لكن تختلف طرائق رد فعلها عليها ؛ وتفسيراً لهذا الرأى أورد المؤلف مثالا من التاريخ الهلينى :

أما « الكل » أو « المجتمع » الذى تنتمى إليه إنجلترا ، فقد اصطلح على تسميته بالمسيحية الغربية . ولقد حدد امتداده المكانى فى أوقات مختلفة ، كما عينت أصوله الزمانية . فوجد أنه يرجع إلى زمن أبعد ، لكنه ليس أقدم كثيراً من تميز أجزائه بعضها عن بعض : ويكشف ارتياد أصوله عن وجود مجتمع آخر ، غدا الآن ميتاً ، هو المجتمع اليونانى الرومانى ، أو الهلينى ، الذى يتصل به المجتمع الغربى بصلة البنوة :

وواضح كذلك أن ثمة عدداً من المجتمعات القائمة الأخرى هى المجتمعات : المسيحية الأرثوذكسية — الإسلامية — الهندية — الشرقية القصوى : يضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية فى هذه المرحلة ، مثل اليهود والبارسيين .

الفصل الثانى : الدراسة المقارنة للحضارات

يهدف هذا الفصل إلى التحقق من شخصية جميع المجتمعات – أو بالأحرى الحضارات – وتعيينها وتسميتها .

ومناط طريقة البحث الأولى ، تناول الحضارات القائمة التى تحققت شخصيتها بالفعل ، وفحص أرومتها والنظر فيما إذا كان فى وسعنا العثور – على حضارات أندرست فى الوقت الحاضر ، تتصل بها الحضارات القائمة بصلة البنوة ، على غرار ما وجد من انتساب المسيحية الغربية إلى الحضارة الهلينية :

ومجمل إمارات هذه البنوة :

(ا) دولة عالمية (مثل الإمبراطورية الرومانية) .

(ب) فترة فراغ تظهر فيها :

١ – عقيدة دينية

٢ – هجرات البرابرة خلال عصر بطولة .

ويعتبر ظهور العقيدة الدينية والهجرات ، نتيجتين على التوالى للبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية لحضارة تموت :

وبالسير على هدى هذه القرائن ، نجد :

إن المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، يتصل بصلة البنوة – مثل المجتمع الغربى – إلى المجتمع الهلينى :

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامى إلى أصوله ، نجد أنه ذاته حصيلة اندماج مجتمعين كان فى الأصل متميزين هما الإيرانى والعربى : وباقتفاء أثر هذين المجتمعين نجد خلف ألف سنة من « المداخلة الهلينية » مجتمعا مندرسا ، يدعى المجتمع السورى .

ونجد وراء مجتمع الشرق الأقصى ، مجتمعا صينياً :

وتعتبر المجتمعات المتحجرة بقايا واحد أو أكثر من المجتمعات البائدة .

ونجد المجتمع المينووى وراء المجتمع الهلينى : بيد أننا نلاحظ أن المجتمع الهلينى — عكس المجتمعات التى تتصل بصلة البنوة إلى مجتمعات أخرى — لم يعتنق عقيدة دينية كشفتها البروليتاريا الداخلية للمجتمع المينووى ؛ ومن ثم لعل المجتمع الهلينى ، لا ينحدر تماماً عن المجتمع المينووى .

وراء المجتمع السندى ، نجد المجتمع السورى .

وبالإضافة إلى المجتمع السندى ، نجد مجتمعين آخرين هما الحيثى والبابلى ، يعتبران عقبين للمجتمع السورى .

ليس للمجتمع المصرى سالف ينتسب هو إليه ، كما أن ليس له خليفة .

فى وسعنا أن نحقق فى العالم الجديد ذاتية أربعة مجتمعات : الأنديانى والياكوتى والمكسيكى والمايانى .

ومن ثم يصبح مجموع ما لدينا تسعة عشر نوعاً للحضارات . ولو قسمنا المجتمع المسيحى الأرثوذكسى إلى : أرثوذكسى بيزنطى (فى الأناضول والبلقان) وأرثوذكسى روسى ، وقسّمنا مجتمع الشرق الأقصى إلى صينى ويابانى — كورى ، يصبح لدينا واحد وعشرون مجتمعاً .

الفصل الثالث : قابلية الحضارات للمقارنة

١ — الحضارات والمجتمعات البدائية :

تشترك الحضارات على أية حال فى نقطة واحدة ؛ مدارها أنها نوع آخر غير نوع المجتمعات البدائية . وهذه المجتمعات أكثر عدداً بكثير من الحضارات ، لكنها — أفراداً أصغر من أفراد الحضارات بكثيراً :

٢ — خطأ فكرة وحدة الحضارة :

ناقش المؤلف الفكرة التى وصفها بالضلال القائلة بأن ثمة حضارة واحدة

هى الحضارة الغربية ، ولفظها . كما ناقش نظرية استطارة الحضارة القائلة بأن مصر هى أصل جميع الحضارات ، ولم يقبلها .

٣ ـ الدفاع عن فكرة قابلية الحضارات للمقارنة :

تعتبر الحضارات نسبياً ، ظاهرة حديثة للغاية فى التاريخ البشرى . فإن أقدمها لم ينشأ أبعد من ستة آلاف سنة مضت . ولذلك روى معاملتها باعتبار أنها تنتمى لنوع واحد يعاصر بعضه بعضاً ـ من الناحية الفلسفية ـ ويقرر المؤلف إن القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه ، لا يحول دون الإجراء المقترح ، وهو القاضى بأن الحضارات متعاصرة .

وقد وصف المؤلف هذا القول بأنه نصف الحقيقة .

٤ ـ التاريخ والعلم والمصنف الخيالى :

هذه هى وسائل ثلاث مختلفة لتقديم موضوعات الفكر وبحثها : ومن بينها ظواهر الحياة البشرية . ويفحص المؤلف الاختلافات بين هذه الأساليب الفنية الثلاثة ويناقش استعمالات العلم والمصنف الخيالى ، فى عرض مبحث التاريخ .

الباب الثالث

بدايات الحضارات

الفصل الرابع : المشكلة وكيف لا تحل

١ ـ استعراض المشكلة :

من بين مجتمعاتنا الحضارية الواحد والعشرين ، ثمة خمسة عشر تتصل بصلة النبوة بحضارات سابقة ، لكن ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة من الحياة البدائية . والمجتمعات البدائية هى فى حالة سكون فى الوقت

الحاضر ، لكن من الواضح أنها لا يمكن أن تكون في الأصل إلا في حالة تقدم ديناميكي . فإن الحياة الاجتماعية أقدم من الجنس البشرى نفسه ، إذ توجد فى محيط الحشرات والحيوانات . ولا بد أن شبيه الإنسان قد برز إلى مستوى الإنسان ، فى ظل حماية المجتمعات البدائية : وهذا تقدم يعتبر أعظم من أى تقدم حققته حضارة من الحضارات : ومع ذلك ، فإن المجتمعات البدائية – كما نعرفها – هى حالة سكون . ومناط المشكلة هو : لماذا وكيف تحطمت « قرصة العادة » البدائية هذه ؟

٢ – الجنس :

إن العامل الذى نبحث عنه ، يجب أن ينحصر إما فى صفة خاصة فى الكائنات البشرية التى بدأت عملية التحضّر ، أو طائفة من مظاهر بيئتها وقت بداية الحضارة ؛ أو فى شىء من التفاعل بين الجنس والبيئة .

ولقد بحث المؤلف أول هذين الرأيين المتصل بوجود جنس متفوق تفوقاً فطرياً كالجنس النوردى مثلا ، وأثبت بطلانه .

٣ – البيئـة :

بحث المؤلف الرأى القائل بأن أنواعاً من البيئات توفر الأسباب السهلة والميسّرة للحياة ، وتتيح مفتاح أصل الحضارات : وقد أثبت بطلان هذا الرأى :

الفصل الخامس : التحدى والاستجابة

١ – المفتاح الأسطورى :

يعزى ضلال الرأيين اللذين سبق بحثهما ونبذهما ، إلى تطبيقهما منهاج العلوم المادية أى علمى الحياة والجيولوجيا ، على مشكلة ؛ هى فى الواقع معنوية : ويوحى استعراض للأساطير الكبرى التى أودعها الجنس البشرى حكمته ؛

باحتمال أن الإنسان قد حقق الحضارة ــ لا نتيجة لمواهب بيولوجية عليا أو بيئة جغرافية ــ ولكن استجابة لتحدى موقف ذى صعوبة خاصة ، استثاره الإنسان لبذل جهد لم يقم به من قبل .

٢ ــ تطبيق الأسطورة على المشكلة :

كان السهب الأفرامى (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل فجر الحضارة ، أرض رعى عامرة بالمياه . وطالع الجفاف الطويل الأمد والمتتالى هذه المراعى ، فجابه سكانها بتحد استجابوا له بطرائق مختلفة :

تمسك البعض بأرضهم وغيّروا عاداتهم ، فابتكروا نمط الحياة البدوية .

ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ، متتبعين أثر المراعى المرتدّة . ومن ثم احتفظوا بطريقة حياتهم البدائية التى ما يزالون يعيشونها حتى الآن .

وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ، فجابهوا بذلك التحدى الذى تمثله . وعملوا على تجفيفها ، فكان أن أقاموا الحضارة المصرية .

وانبعثت الحضارة السومرية بنفس الطريقة ومن نفس الأسباب ، فى دلتا الدجلة والفرات .

وانبعثت الحضارة الصينية فى وادى النهر الأصفر . ولا تعرف طبيعة التحدى الذى برز إلى الوجود ، لكن يبدو من الاستقراء أن الظروف كانت أبعد من أن تُوصف بالسهولة .

وانبعثت الحضارة المايانية من تحدى غابة استوائية . وانبعثت الأنديانية من تحدى هضبة كئيبة .

وانبعثت الحضارة المينووية من تحدى البحر . وكان مؤسسوها لاجئين من شواطئ إفريقيا التى أصيبت بالجفاف . فامتطوا البحر واستقروا فى كريت وغيرها من جزائر بحر إيجه . ولم يأتوا فى بدء عهدهم من البر الأقرب فى آسيا وأوروبا .

أما بالنسبة لحالات الحضارة التى تنتسب لغيرها ؛ فلا بد أن التحدى الذى أبرزها إلى الوجود ، قد جاء فى الأصل – لا من العوامل الجغرافية – ولكن من البيئة البشرية ، أى من الأقليات المسيطرة للمجتمعات التى تتصل بها بصلة الجنس .

وتعريف الأقلية المسيطرة ، أنها طبقة حاكمة تعطّلت وظيفتها القيادية ، فانقلبت إلى طاغية . وتستجيب البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للحضارة المنهارة ، لهذا التحدى عن طريق الانفصال عنها . ومن ثم تضع أسس حضارة جديدة .

الفصل السادس : فضائل المشقة

يكمن تفسير بدايات الحضارات – وفقاً لما ورد فى الفصل السابق – فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة – أكثر من السهلة – هى التى تولد هذه الأعمال الجيدة .

ويقرب المؤلف هذا الفرض إلى حيز الوقائع ، بفضل التفسيرات التى يحصل عليها من المواقع التى سبق أن ازدهرت الحضارة فى ربوعها ؛ لكنها أخفقت بعد ذلك . ثم كان أن انكفأت الأرض إلى حالتها الأصلية :

إن ما كان وقتا ما مشهدا للحضارة المايانية ، هو فى الوقت الحاضر ، غابة استوائية .

وازدهرت الحضارة السندية فى سيلان فى النصف الغير الممطر من الجزيرة ؛ لكنه أصبح الآن قاحلا تماما . وإن ظلت آثار نظار الرى السندى تشهد على ازدهار الحضارة هناك .

وتقوم أطلال بصرى وتدمر فى واحات صغيرة فى الصحراء العربية .

وتدل التماثيل القائمة فى جزيرة ايستر – وهى من أقصى الأماكن بعداً فى المحيط الهادى – على أنها كانت مركزاً لحضارة بولونيزية .

وتعتبر إنجلترا الجديدة التى قام مستعمروها الأوربيون بدور غالب فى تاريخ أمريكا الشمالية ، من أكثر أجزاء القارة كآبة وجدبا .

وقامت المدن اللاتينية فى مقاطعة كامبانا الرومانية ـ وكانت حتى وقت قريب مباءة للملاريا ـ بدور عظيم فى قيام سلطان روما . عكس الدور الضئيل الذى قامت به كابوا التى تتمتع بمركز ممتاز .

كذلك يورد المؤلف صورا مستخلصة من المؤرخ اليونانى هيرودوتس ومن الأوديسية ومن سفر الخروج .

ولقد لبث أهالى نياسالند ـ حيث الحياة ميسرة ـ متوحشين بدائيين حتى وفد إليهم غزاة من أوربا البعيدة القاسية المناخ .

الفصل السابع : تحدى البيئة

١ ـ حافز البلاد الشاقة :

يورد المؤلف سلسلة من أزواج البيئات المتجاورة . ونجد البيئة المبتدعة فى كل حالة ، المنطقة « الأشد وعورة » . ولها كذلك سجل أشد ضياءاً ؛ كمنشئ لشكل أو آخر من أشكال الحضارة .

ويطالعنا فى هذا الشأن :

وادى النهر الأصفر ووادى اليانجتسى ـ آتيكا وبوتيا ـ بيزنطة وكالشيدون ـ إسرائيل ؛ فينيقية وفلسطين ـ براندنبرج وأرض الراين ـ اسكتلندا وإنجلترا ـ الجماعات المختلفة للمستعمرين الأوربيين فى أمريكا الشمالية .

٢ ـ حافز الأرض الجديدة :

نجد أن الأرض « البكر » تبرز استجابات أشد حيوية من الأرض التى سبق اقتحامها بالفعل ، وشغلها مقيمون متحضرون،فيسروا المعيشة فيها .

ومن ثم ؛ إذا ما تناولنا كل الحضارات التى تتصل بصلة البنوة بحضارات

أخرى ؛ نجد أنها قد أبرزت أعجب تجلياتها فى أماكن خارجة عن المنطقة التى شغلتها الحضارة المنشئة . ويتبدى بصورة خاصة تفوق الاستجابة التى تستثيرها أرض جديدة ، إن كان الوصول إلى الأرض الجديدة يتطلب عبور البحر .

ويورد المؤلف أسباب ذلك كما يورد أسباب ظاهرة ارتقاء الدراما فى الموطن الأصلى ، والملاحم الشعرية فى المناطق المستوطنة عبر البحار .

٣ — حافز الضربات :

يورد المؤلف أمثلة مختلفة من التاريخ الهلينى والغربى لتفسير المراد بالقول بأن الهزيمة الساحقة الفجائية ، كفيلة باستثارة الجانب المهزوم ، لترتيب نظام داره ، والاستعداد لتحقيق استجابة منتصرة

٤ — حافز الضغوط :

تبدى الأمثلة المختلفة أن الشعوب التى تشغل مواقع حدود وتتعرض لعدوان متصل ، تبدى استطالة أشـــد إشراقاً من جيرانها أصحاب الموقع المحمية .

ومصداقاً لذلك ، كان العثمانيون الوقعين تحت ضغط حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فى موضع أفضل من القرمانيين القاطنين شرقهم . وكان للنمسا حياة جارية أفضل من حياة بافاريا ، بفضل تعرض النمسا باستمرار لعدوان الأتراك العثمانيين .

ويبحث المؤلف من وجهة النظر هذه موقف الجماعات المختلفة فى بريطانيا ومصائرهم خلال الفترة الواقعـــة بين سقوط روما والفتح النورمندى .

٥ — حافز النقم :

ما برحت طوائف وشعوب تعانى طوال قرون ، صنوفاً مختلفة من

النقم أنزلتها بها طوائف وشعوب كانت لها السيادة عليها . وتستجيب – بصفة عامة – الشعوب والطوائف التى أصابتها النقم ، لتحدّى الحرمان من المشاركة فى فرص ومزايا معيّنة ، بإبراز طاقة استثنائية ، وإظهار أهلية غير عادية فى الاتجاهات المفتوحة أمامها . ومثلها فى هذا الشأن ، مثل الأعمى الذى تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

وكان الرق ؛ أثقل تلك النقم . بيد أنه انبعث خلال القرنين السابقين للميلاد ، من حشود الأرقاء الذين استجلبوا إلى إيطاليا من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، طبقة من المعتوقين أحرزوا نفوذاً يعمل له حساب . ومن عالم الرق هذا ، ظهرت كذلك العقائد الدينية الجديدة للبروليتاريا الداخلية . وكانت المسيحية من بينها .

ويبحث المؤلف ؛ من نفس وجهة النظر ، مصائر الجماعات المختلفة للشعوب المسيحية ، التى أخضعها العثمانيون لحكمهم . وبصفة خاصة ؛ الفناريون . ويستخدم المؤلف هذا المثال هو ومثال اليهود ، للبرهنة على أن السمات التى توصف بأنها جنسية ؛ لا تمتّ فى الواقع إلى الجنس بحال ؛ لكن مرجعها التجارب التاريخية التى تمر به الجماعات موضع البحث .

الفصل الثامن : الوسط الذهبي

١ – كاف وكثير جداً :

هل فى إمكاننا أن نقرر بكل بساطة أنه ؛ كلما اشتدت صرامة التحدّى ، كلما ارتقى مستوى الاستجابة ؟

أو ، هل ثمة تحد ، أشد من أن يستثير استجابة ؟

بالتأكيد ؛ إن بعض التحديات التى دحرت فريقاً أو أكثر لمن واجههم ، قد استثارت فى النهاية ، استجابة منتصرة : مثال ذلك : أن التحدى الذى مثّله امتداد نطاق الحضارة الهلينية ، كان قوياً للغاية على مقدرة استجابة

الكلت ؛ بينما استجاب له بنجاح خلفاؤهم التيوتون . واستثارت « المداخلة الهلينية » فى العالم السورى ، سلسلة من الاستجابات السورية الفاشلة — الزرادشتية ، اليهودية (حركة المكابين) ، النسطورية ، المينوفيستية ، لكن نجحت الاستجابة ؛ ممثلة فى ظهور الإسلام .

٢ — المقارنات فى ثلاثة حدود :

وعلى أية حال ؛ فإنه لا يتأتى التدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرف فى صرامتها . بمعنى أن التحدى الأقصى ، لن يبرز دائماً الاستجابة المثلى . ومصداقاً لذلك ، استجاب مهاجرو الفايكنج من النرويج استجابة رائعة لتحدى بيئة أيسلندا الصارمة ، لكنها انهارت أمام تحدى بيئة جرينلند . وكانت بيئة « ماساشوستس » ، تحدياً صارماً للمستعمرين الأوربيين ، أقسى من بيئة « دكسى » التى استثارت استجابة طيبة . لكن لابرادور التى أبرزت تحدياً أشد قسوة من تحدى ماساشوستس ، لم يستطع المستعمرون الأوربيون الاستجابة لها .

ويتلو ذلك أمثلة أخرى : فإن حافز الضربات قد يتطرف فى صرامته ، سيا إن طال أمده ، مثل تأثير الحرب الهانيبالية على إيطاليا . ويستثير الصينيين تحد اجتماعى ، قوامه هجرتهم إلى الملايو . لكنهم ينهزمون أمام تحد اجتماعى أشد صرامة يقابلهم فى بلد سكانه من البيض مثل كاليفورنيا .

ويستعرض المؤلف فى النهاية درجات مختلفة من التحدى الذى تبرزه الحضارات ، لجيرانها البرابرة .

٣ — حضارتان عقيمتان :

هذا القسم استمرار لمناقشة المثال الأخير الوارد فى القسم السابق .

كان ثمة جماعتان من البرابرة يقطنون خلال الفصل الأول من تاريخ المسيحية الغربية على حدودها ؛ بلغت استثارتهم درجة جعلتهم يشرعون فى إخراج حضارتين منافستين لحضارتهم الخاصة . إلا أنهما مع ذلك ، قد ذبلتا

فى البرعمة . هاتان الحضارتان هما حضارة الغرب الأقصى التى اعتنقها مسيحيو الكلت (فى إيرلندا وإيونا) ، وحضارة الفايكنج الاسكندنافيين .

ويبحث المؤلف هاتين الحالتين ودرس الاحتمالات التى قد تنجم لو تغلبت على المسيحية الغربية ، هاتان الحضارتان المنافستان لها ، لو لم تستوعبهما الحضارة المسيحية التى شعّت من روما ومن أرض الراين .

٤ ــ ضغط الإسلام على عالمى المسيحية :

كان تأثير ضغط الإسلام على المسيحية الغربية طيباً فى مجموعه . فإن الثقافة الغربية خلال القرون الوسطى ، تدين بالكثير إلى الأندلس المسلمة . إلا أن الضغط الإسلامى على المسيحية البيزنطية ، كان متناهياً فى شدته واستثار نزعة ساحقة لإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية تحت حكم ليو السورى .

كذلك يتكلم المؤلف عن حالة الحبشة التى يعتبرها « مجتمعاً مسيحياً متحجراً » قائماً فى رباط محاط بالعالم الإسلامى .

البـاب الثالث

استطالات الحضـــارات

الفصل التاسع : الحضارات المتعطلة

١ ــ البولونيزيون والاسكيمو والبدو :

قد يبدو أنه ما دامت الحضارة قد ظهرت للوجود ، فإن ارتقاءها يصبح مؤكداً . لكن الأمر ليس كذلك ، وفقاً لما يبديه سجل طائفة من الحضارات التى حققت لها وجوداً لكنها أخفقت فى اتصال نموها .

وتمثل مصير هذه الحضارات المتعطلة ، فى مواجهتها تحد على خط الحد

بين درجة من الشدة تستثير استجابة ناجحة ، وبين درجة أعظم شدة تجرّ إلى الهزيمة .

وتطالعنا ثلاث حالات انبعث فيها التحدى من هذا النوع من البيئة المادية .

وكانت النتيجة فى كل حالة ، عملا فذاً حققه المستجيبون الذين استهلكوا كافة طاقاتهم للاستجابة للتحدى ، بحيث لم يعد لديهم ما يؤهلهم لمزيد من الارتقاء .

فإن البولونيزيين قد حققوا عملا فذا قوامه الانتقال بين جزائر المحيط الهادى ؛ إلا أن المحيط قد هزمهم فى النهاية . فكان أن انكفأوا إلى حياتهم البدائية على جزائرهم العديدة المنعزلة .

وحقق الاسكيمو دورة سنوية حاذقة تخصصت فى الحياة على شواطئ المحيط المنجمد .

وأنجز البدو كرعاة دورة سنوية مماثلة على السهب شبه الصحراوى .

وثمة نقاط كثيرة مشتركة بين المحيط بجزائره والصحراء بواحاتها . ويحلل المؤلف تطور البداوة خلال فترات الجفاف . ويلاحظ أن الصيادين يتطورون إلى زراعيين قبل أن يتخذوا الخطوة التالية المتصلة بصيرورتهم بدوا . ويعتبر قابيل وهابيل أنموذجين للزارع والبدوى . وتعزى دائماً اقتحامات البدو لمناطق الحضارات ؛ إما إلى ازدياد قسوة الجفاف فتدفع البدو عن السهب ؛ أو إلى انهيار حضارة من الحضارات ، فيخلف الانهيار فراغاً يجذب إليه البدوى ويجعله مشتركا فى مرحلة « هجرات » .

٢ ــ العثمانيون :

تمثل التحدى الذى كان النظام العثمانى استجابة له ، فى نقل جماعة بدوية إلى بيئة تضم جماعات مستقرة كان عليها أن تحكمها .

وحل العثمانيون مشكلتهم بمعاملتهم رعاياهم الجدد على أنهم قطعان .

وأسراب بشرية وابتكروا مكافئاً بشرياً لكلاب أغنام البدوى فى شكل رقيق « ملكى » يشغل وظائف المديرين والجنود .

ويورد المؤلف أمثلة أخرى للإمبراطوريات البدوية المماثلة ، كالمماليك مثلا . إلا أن النظام العثمانى قد فاق النظم الأخرى فى كفايته وزمن بقائه . . على أنه كابد تلك الصلابة القتالة التى هى سمة البداوة .

٣ — الاسبرطيون :

كانت استجابة الاسبرطيين لتحدى إفراط السكان التى ألمت بالعالم الهلينى ، عبارة عن إبراز عمل قد يشابه فى كثير من النواحى العمل الذى أظهره العثمانيون . مع فارق أنه فى الحالة الاسبرطية كانت الطبقة العسكرية هى الأرستقراطية الاسبرطية نفسها . لكنهم كانوا كذلك « أرقاء » استعبدهم الواجب الذى فرضوه على أنفسهم ؛ ومداره إخضاع شعب من مواطنى اليونان إخضاعاً دائماً .

٤ — خصائص عامة :

للاسكيمو والبدو والعثمانيين والاسبرطيين خاصيتان مشتركتان : التخصص والطبقية .

فبالنسبة للاسكيمو والبدو ، يقوم الكلاب والرنة والجياد والماشية ، مقام الطبقات المسترقة عند العثمانيين .

ويحط التخصص فى جميع هذه المجتمعات من شأن الكائنات البشرية ، فينزلها إلى مرتبة : الإنسان القارب ، والإنسان الحصان ، والإنسان المحارب . إلا أن التخصص يرفع الأدوات التى يستخدمها إلى مرتبة شبيهة بمرتبة الإنسان الكامل . والإنسان الكامل ، كان غاية بركليس التى أفصح عنها فى خطاب الرثاء الذى ألقاه . والإنسان الكامل هذا ، هو الذى فى وسعه تحقيق الارتقاء الحضارى .

وتشابه هذه الجماعات المتعطلة مجتمعات النحل والنمل التى ما برحت فى

حالة سكون قبل فجر الحياة البشرية على الأرض . وتشابه كذلك المجتمعات التي ترسمها « المدن الفاضلة » .

ويعلو ذلك كله ، مناقشة موضوع « المدن الفاضلة » : ومن رأى المؤلف أن المدن الفاضلة بصفة عامة ، نتاج الحضارات فى مرحلة تحللها وهى محاولات ترنو إلى السعى لوقف الانهيار ؛ عن طريق وقف تطور المجتمع عند الحد الذى هو فيه وقت رسم البرنامج .

الفصل العاشر : طبيعة ارتقاءات الحضارات

١ – الدروب الخداعة :

يحدث الارتقاء وقتما تصبح الاستجابة لتحد معين ، لا ناجحة فى نفسها فحسب ، لكنها تستثير تحدياً إضافياً ، يقابل باستجابة ناجحة .

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يقاس وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

إن ثمة نوعين من مثل هذه السيطرة المتزايدة :

سيطرة متزايدة على البيئة البشرية التى تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة .

وسيطرة متزايدة على البيئة المادية ، تعبر عن نفسها بتحسينات فى الأسلوب التكنولوجى المادى .

ويورد المؤلف أمثلة لبيان أى من هاتين الظاهرتين – سواء التوسع السياسى والحربى أو تحسين الأسلوب الفنى – لا يعتبر قاعدة مناسبة لقياس الارتقاء الحقيقى . فإن التوسع الحربى التكنولوجى عادة هو نتيجة نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة للتدهور . ولا تبدى التحسينات التكنولوجية سواء أكانت زراعية أو صناعية ، سوى ارتباطاً قليلا أو لا شىء البتة بينها وبين الارتقاء

الصحيح : وحقاً فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفنى وقلما يكون التحضر الفعلى فى مرحلة انحطاط . والعكس بالعكس :

٢ ـ التقدم صوب تقرير المصير :

يظهر المؤلف أن قوام التقدم الحقيقى ، عملية يعرّفها بكلمة « التسامى » ويعنى بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسامى » على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها لتستجيب للتحديات التى تغدو منذ الآن وصاعداً داخلية أكثر منها خارجية ، روحانية أعظم منها مادية .

ويفسر المؤلف هذا التسامى بأمثلة من التاريخين الهلينى والغربى الحديث .

الفصل الحادى عشر : تحليل الارتقاء

١ ـ المجتمع والفرد :

ثمة وجهتا نظر تقليديان شائعان تتصلان بعلاقة المجتمع بالفرد :

تجعل إحداهما من المجتمع مجرد حشد من ذرات هى الأفراد :

وتعتبر الأخرى المجتمع كائناً حياً ، وما الأفراد إلا أجزاء منه ؛ لا يُدركون إلا أعضاءً أو « خلايا » فى المجتمع الذى ينتسبون إليه .

ويبدى المؤلف عدم رضائه عن كلا الرأيين . وعنده أن المجتمع عبارة عن نظام للعلاقات بين الأفراد . ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها الحقيقى إلا بتفاعلها مع رفاقها . وهنا يكون المجتمع ميداناً للعمل لعدد من الكائنات البشرية :

بيد أن الأفراد هم « مصدر الفعل » . ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء ، تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم من جزءين :

تحقيق إلهامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .

وهداية المجتمع الذى ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا :

ويتأتى – من الناحية النظرية – حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر :

إما بتعريض الجمع للتجربة الواقعية التى حولت الأفراد المبدعين ؛

وإما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى ، الهداية بفضل المحاكاة .

ويعتبر الطريق الأخير – من الناحية العملية – هو مجال الاختيار الوحيد المفتوح فى حالة الجميع ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشرى . وأن المحاكاة هى « طريق مختصر » ، لكنه طريق فى وسع عامة الناس جميعاً سلوكه فى إثر زعمائهم .

٢ – الانسحاب والعودة :

قد يمكن وصف فعل الفرد المبدع بأنه حركة مزدوجة قوامها الانسحاب والعودة :

الانسحاب بغية الاستنارة .

والعودة ، رجاء إثارة رفقائه .

ويوضح المؤلف رأيه من مثال أفلاطون عن « الكهف » ، وقياس القديس بولس عن البذرة ، ومن قصة الإنجيل ، ومن غيرها من المصادر .

ثم يوضح المؤلف فى الفعل العملى فى حياة الرواد العظام : القديس بولس – القديس بندكت – القديس جريجورى الكبير – البوذا – الرسول محمد – ماكيافيللى – دانتى .

٣ – الانسحاب والعودة : الأقليات المبدعة :

إن الانسحاب الذى تعقبه عودة ؛ هو كذلك سمة شبه المجتمعات التى تؤلف الأجزاء الأساسية فى المجتمعات بمعناها الأصيل . وتتقدم الفترة التى تبذل فيها مثل

هذه المجتمعات الشبيهة ، مشاركتها فى ارتقاء المجتمعات التى تنتمى إليها ؛ فترة ترتد فيها بجلاء عن الحياة العامة لمجتمعها .

ومن قبيل المثال : أثينا فى الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الهلينى ؛ وإيطاليا فى الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الغربى ، وانجلترا فى فصله الثالث .

ويقرر المؤلف احتمال قيام روسيا بتأدية دور مماثل فى الفصل الرابع من ارتقاء المجتمع الغربى .

الفصل الثانى عشر : التمايز من خلال الارتقاء

يتضمن الارتقاء بجلاء — وفقاً لوضعه فى الفصل السابق — تمايزا بين أجزاء مجتمع فى مرحلة النمو . فإن بعض الأجزاء ستبرز استجابة ناجحة فى كل مرحلة . وسينجح بعضها فى تتبع خطاها بفضل المحاكات ، وسيفشل بعضها فى تحقيق الاصالة أو المحاكاة على السواء . ومن ثم تهاوى .

وسيكون ثمة كذلك تمايز متزايد بين تواريخ المجتمعات ، وواضح أن للمجتمعات المختلفة سمات غالبة مختلفة . إذ يتفوق بعضها فى الفن والبعض فى الدين ، والآخر فى الابتكارات الصناعية ؛ بيد أنه لن تغفل المشابهة الجوهرية فى غايات الحضارات ؛ فإن لكل حبة مصيرها ، لكن جميع البذور من نوع واحد ، يبذرها « باذر » واحد ، على أمل اجتناء نفس المحصول ؟

الباب الرابع

انهيارات الحضارات

الفصل الثالث عشر : طبيعة المشكلة

من الواحد والعشرين حضارة (ومن ضمنها الحضارات المتعطلة الواردة فى القائمة) ؛ تحققنا من وفاة ست عشرة منها ، وأن تسعا من العشر الباقية – أى ما خلا الحضارة الغربية – يبدو عليها مظاهر الانهيار بالفعل .

ويمكن إجمال طبيعة الانهيار ؛ فى ثلاث نقط :

إخفاق الطاقة الإبداعية فى الأقلية المبدعة . وتتحول هذه الأقلية منذ الآن فصاعدا إلى مجرد أقلية مسيطرة .

وردّ الأغلبية على تحكم الأقلية بسحبها ولاءها والعدول عن محاكاتها ؛

ويتلو ذلك ضياع الوحدة الاجتماعية فى المجتمع فى مجموعه .

وسيكون علينا كشف عوامل مثل هذه الانهيارات .

الفصل الرابع عشر : حلول حتمية

تصرّ بعض المذاهب الفكرية على نسبة انهيارات الحضارات إلى عوامل خارج نطاق سلطة البشر .

١ – نادى الكتاب الوثنيون والمسيحيون على السواء إبان انحطاط الحضارة الهلينية بأن اضمحلال مجتمعهم ، مرده « تهافت كونى » ؛ على أن علماء الطبيعة المحدثين قد أبعدوا عصر « التهافت الكونى » إلى مستقبل قصى ، لا يسهل تصوره . وهذا يعنى انتفاء تأثيره كلية على حضارات سواء فى الحاضر أو فى الماضى .

٢ – اعتنق سبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات هي كائنات لها صفات التحول الطبيعي من الشباب والنضوج إلى الاضمحلال ، مثلها في ذلك مثل المخلوقات الحية .

لكن المجتمع ليس كائناً من هذا النوع .

٣ – نادى آخرون بوجود شيء حتمي من شأنه تعويق سير الوراثة ، الأمر الذي يؤثر تأثيراً سيئاً على الحضارة وعلى الطبيعة البشرية ، وإنه بعد انقضاء فترة من التحضر لا يتيسر انعاش الجنس إلا بفضل سكب « دم جديد همجي » .

ويناقش المؤلف هذا الرأي ويدحضه .

٤ – تتبنى نظرية أكوار التاريخ كما أبداها أفلاطون في كتابه « تيمايوس » وكما وردت في الأنشودة الرابعة لفرجيل وفي غيرها . ولقد يكون هذا منشأ الفكرة في كشوف الكلدنيين الخاصة بنظامنا الشمسي . بيد أن النظرية الحديثة الواسعة النطاق المتصلة بعلم الفلك ، قد جردت هذه النظرية من أساسها الفلكي . ولا يوجد دليل على صحة النظرية ، بل يوجد الكثير ضدها .

الفصل الخامس عشر : فقدان السيطرة على البيئة

إن الحجة الخاصة بهذا الفصل ، هي المناقض لحجة الفقرة الأولى من الفصل العاشر . حيث أبدى أن حدوث زيادة في السيطرة على البيئة المادية – مقياسها التحسن في الأسلوب التكنولوجي – وحدوث زيادة في السيطرة على البيئة البشرية – بقياسها على أساس التوسع الجغرافي أو الغزو العسكري – ليست هي مقاييس الارتقاء أو عوامله .

هنا يظهر المؤلف أن اضمحلال الأسلوب التكنولوجي والتقلص الجغرافي بفعل الغزو العسكري الخارجي ، ليست مقاييس الانهيارات وعواملها .

١ – البيئة المادية :

يورد المؤلف عدة أمثلة لإظهار أن اضمحلال العمل الفنى الفذ ، ما برح نتيجة – لا سبباً – لانهيار الحضارة ، ومصداقاً لذلك ، كان التخلى عن الطرق الرومانية ونظام الرى فى العراق ، نتيجة – لا سبباً – لانهيار كل من الحضارتين اللتين دأبتا على الاحتفاظ بهما من قبل . وأظهر المؤلف أن تفشى الملاريا الذى يقال إنه يحدث انهيارات الحضارات ، يعتبر نتيجة لها ، لا سبباً .

٢ – البيئة البشرية :

يناقش المؤلف هنا نظرية جيبون التى تردّ « انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » إلى البربرية والدين (أى إلى المسيحية) ، ونجده ينقضها . فإن مظاهر البروليتاريتين الخارجية والداخلية للمجتمع الهلينى ، كانت نتائج لانهيار المجتمع الهلينى التى كانت قد اتخذت بدورها مكانها فعلا .

ويعيب المؤلف على جيبون أنه لا يعود لبدء حديثه إلى أزمنة أقدم مما اختار . وأنه ليخطئ إذ يجعل العصر الأنطونى « عصراً ذهبياً » ، بينما هو فى الحقيقة « صيف هندى ».

ويستعرض المؤلف أمثلة مختلفة للعدوان الموفّق ضد الحضارات . ثم يبدى أن العدوان الناجح ، يحدث فى كل حالة بعد الانهيار .

٣ – قضية سلبية :

يستثير عادة العدوان ضد مجتمع ما يزال فى غمار عملية الارتقاء ؛ هذا المجتمع ، ليبذل جهدا أعظم : وحتى إن كان المجتمع قد أصبح فى طور الانحطاط ؛ فإن العدوان عليه ، قد يبث فيه روح النشاط ويمنحه فترة حياة إضافية .

(يضيف الملخص حاشية تفسر المعنى الفنى المستخدم فى هذه الدراسة المقصود بكلمة « الانهيار ») :

تصـــويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	١٥	جبل	جبال
١٤	١٣	وسالها	وسائلها
٥٦	٣	انتقاء	انتفاء
٦٠	٢٢	Orgens	origins
٧١	٢١	Ethbnology	Ethnology
٧١	٢٢	Anthrohotogy	Anthropology
٧٤	٢٢	توكريدبدرس	توكيديدس
٨٢	٤	والأخرى	وبالأخرى
٩٧	٥	تشغل فى هذه	تشغل هذه
١٠٢	١٠	حكة	حبكة
١١٤	٢٠	متحررة	متحجرة
١١٩	٢	الاختبار	الاختيار
١٢٢	٢	الفقر	القفر
١٢٣	١٩	إلا أنها	أنها
١٥٨	١٨	جبر أنه	جيرانه
١٦٠	١٤	نصيب مستعمرى المنافسين الفاشلين نيو إنجلند	نصيب المنافسين الفاشلين لمستعمرى نيو إنجلند
١٦٢	١٢	بدأ	بدا
١٦٥	١٣	حذ	حد
١٦٩	١٥	آبائهم	آبائها
١٧١	١٣	عن	على
١٨١	٣	التخلص	التخلص
١٨٣	١٨	نجارتهم	تجارتهم
١٨٦	٢٣	مرت	دمرت
١٩١	٩	كلها	كلها
١٩٨	٢٢	الذى انتهى	وينتهى
٢٠٠	١٨	كلاهما	كلتاهما
٢٠٢	١١	بيئة	بيئته
٢٠٣	١٩	تواة	نواة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠٧	الأخير	ed	de
٢٠٨	١٠	فى الأصل	أصلا
٢٠٩	٢	نفسه تلك	نفسه فى تلك
٢١٠	١٦	تحوّل	تحول
٢١٨	٢٤	سمها	اسمها
٢٢٦	١٥	تخفى	تختفى
٢٤٣	١٥	بالفل	بالفعل
٢٤٥	١٦	الثروه	الثروة
٢٤٨	٤	فاروق	فارق
٢٥١	١٩	مبناء	مبناها
٢٥٢	٨	الأخرى	الآخر
٢٥٢	١٠	ثم	ثمّ
٢٦٨	١٢	الحافر	الحافز
٢٧٨	١	المزدود	المزوّد
٢٧٨	٤	يثيرا	يثيران
٢٨٦	١٥	ويمنج	ويمنح
٢٨٧	٣	لأمته	لامته
٣٠٠	٦	السياسة	الساسة
٣١٦	١٣	التخويل	التحويل
٣١٩	٩	القرطاجنيين	القرطاجنيين
٣٢١	٦	مرة	مرة أخرى
٣٢٩	١	التكنولوجية	التكنولوجى
٣٣٣	١٥	تتابع	يتابع
٣٣٥	١٣	قطرى	فطرى
٣٣٧	٩	الفعل القوى	لفعل القوى
٣٤٢	١٦	ليثبتو	ليثبتوا
٣٤٢	١٧	فيها	فى
٣٧٢	١	وجليل	والجليل
٤٠٠	٦	العربى	الغربى

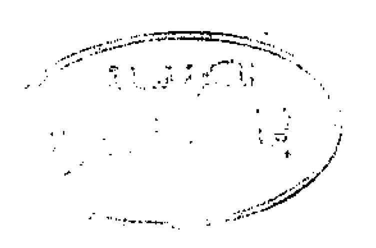
فهـــرس

دراسة للتاريخ

الباب الثانى

الباب الثالث

الباب الرابع



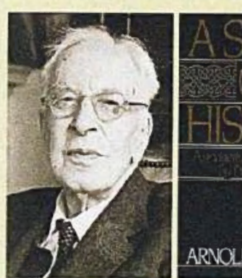
الإشـــراف اللغـــوى : حسام عبد العزيز

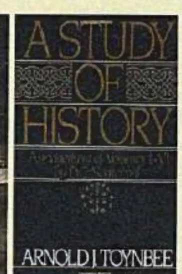
الإشـــراف الفـــنى : حــسـن كـامــل

التصميم الأساسي للغلاف : أســامــة العــبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة







يذهب توينبى فى هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية.

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهيار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبى يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرده بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها- ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبى أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية- على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك